الحياة الجديدة في المسيح

الإفخارستيا

سر الحياة

كيف نحيا الاتحاد بالله في القداس الإلهي

تأليف

الدكتور مارك شنوده

مراجعة وتقديم

الأنبا رافائيل

الأسقف العام لكنائس وسط القاهرة
وسكرتير عام المجمع المقدس

الحياة الجديدة في المسيح

الإفخارستيا سر الحياة

د. مارك شنوده

الإفخارستيا دعوة للاتحاد بالله

"اليوم المسيح يقول للعالم:
تعالوا إليَّ يا جميع قبائل الأرض،
لتنالوا غفران الخطايا،
لأني أنا هو غفرانكم،
أنا هو خروف فصح خلاصكم،
أنا هو الحمل الذي ذبح لأجلكم،
أنا هو فداؤكم، أنا هو حياتكم،
أنا هو قيامتكم، أنا هو قوتكم،
أنا هو خلاصكم، أنا هو نوركم،
أنا هو سلامكم، أنا هو مِلِكُّكم،
أنا أرتفع بكم إلى أعلى السموات."

(مقطع من عظة فصحية من القرن الثاني للقديس ميليتوس أسقف ساردس)
[Méliton de Sardes, *Sur la Pâque et fragments*, *Sources Chrétiennes*, 123.]

PANARION
بانـــاريـــون

الحياة الجديدة في المسيح

الإفخارستيا

سر الحياة

كيف نحيا الاتحاد بالله في القداس الإلهي

التأليف

الدكتور مارك شنوده

مراجعة الكتاب والتقديم

نيافة الأنبا رافائيل

الأسقف العام لكنائس وسط القاهرة وسكرتير عام المجمع المقدس

المراجعات

مراجعة الكتاب وتدقيق النصوص الآبائية والليتورجية

القمص مارك عزيز

الدكتور جوزيف موريس فلتس

المراجعة اللغوية وتدقيق النص العربي

الدكتور وجدي رزق غالي

المراجعة العامة

الدكتور عماد موريس اسكندر

يتقدّم مركز باناريون للتراث الآبائي
بالشكر والامتنان للآباء والإخوة الأحباء
الذين ساهموا في تكلفة طبع هذا الكتاب

الكتاب: الإفخارستيا سر الحياة ـ كيف نحيا الاتحاد بالله في القداس الإلهي.
التأليف: الدكتور مارك شنوده
المراجعة: نيافة الأنبا رافائيل ومجموعة من المراجعين.
الناشر: مركز باناريون للتراث الآبائي ـ ٧ أ ش الصباغ متفرع من ش الأهرام، الكوربة ـ مصر الجديدة
ت: ٠١١١٥٠٥٠١٣٥
الطبعة: الأولى نوفمبر ٢٠١٣م
رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٢٥٢٠
الترقيم الدولي: 978-977-6363-03-8

أيقونة الغلاف[1]

أيقونة الغلاف هي لطائر البجع وهو يطعن جنبه ليطعم صغاره من دمه. ويعد طائر البجع أحد الرموز[2] التي إستخدمت للتعبير عن الإفخارستيا منذ القرون الأولى للمسيحية، لأن من طبيعة هذا الطائر أنه في حالة عدم توفر الغذاء الكافي لفراخه، يقوم بجرح نفسه وإطعام صغاره بدمه! مما ألهم البعض أن يروا في ذلك صورة رمزية للمسيح الذي يطعم المؤمنين من دمه في الإفخارستيا.

كما أن أحد الأشياء التي يتغذى عليها طائر البجع هى الحيَّات والأفاعي (لذلك في العصور القديمة كان يُستخلصُ من دمها مصل فعَّال ضد السم)، وإذا حدث أن لدغت الحية أحد فراخ البجع، تقوم الأم بجرح صدرها[3] بنفسها مسقطة بعضًا من قطرات دمها في فم صغارها لتخلصهم من الموت. الأمر الذي جعل الكنيسة ترى في ذلك صورة رمزية لدم المسيح الذي يسقينا إياه بنفسه في سر الإفخارستيا، ليشفينا من لدغة الحية القديمة (الشيطان)، ويخلصنا من الموت والفساد.

---

[1] أيقونة الغلاف هي من الموزايك لطائر "البجع"، وهي موجودة بدير السيدة العذراء "كيكوس" الأرثوذكسي بقبرص، والذي يرجع تاريخ بنائه إلى أواخر القرن الحادي عشر.

[2] مفهوم الرمز في العبادة المسيحية لا يعني أن هناك فصل بين الرمز والحقيقة، بل على العكس هما وجهان لنفس الشئ. لذلك يشبه آباء الكنيسة الرموز بالظلال؛ حيث أن الظل هو نتيجة لوجود شئ حقيقي، فالرموز في الكتاب المقدس والعبادة المسيحية هى ظلال لأمور حقيقية. ومن هذا المنطلق نرى أنه في كثير من الأحيان في العبادات المسيحية تكمن الحقيقة في الرمز بشكل سري (mystical)!

[3] ربما تفسر قصة البجعة التي كانت معروفة في القرون الأولى للمسيحية ما ورد في السنكسار القبطي في يوم استشهاد البابا بطرس خاتم الشهداء (٢٩ هاتور)، وهى قصة شهيرة في تاريخ الكنيسة عن أم أوشكت على الغرق هى وأطفالها أثناء عاصفة، فقامت بتغطيس أطفالها على اسم الثالوث ثم جرحت صدرها ورشمتهم بدمها، لأنهم لم يكونوا قد نالوا بعد سري المعمودية والإفخارستيا، وقد أقرت الكنيسة صحة هذه المعمودية عند الضرورة القصوى.

وقد جاء ذكر طائر البجع لأول مرة[4] كرمز مسيحي في كتاب ظهر في الإسكندرية في القرن الثاني، وهو كتاب "فسيولوجوس[5]" (Physiologus) أي "الكلام عن الطبيعة" وهو لكاتب مجهول، ويحوي أساطير بعض الحيوانات الحقيقية والخرافية والتي مع بداية المسيحية صار بعضها رموزًا مسيحية كأسطورة طائر "العنقاء" (Phoenix) الذي صار رمزاً للقيامة.

ويسجل كتاب الفسيولوجس أسطورة كانت شهيرة في ذلك الوقت عن طائر البجع، إعتمادًا على الحقائق التي ذكرناها، فتذكر الأسطورة أنه في أحد المرات ترك أحد طيور البجع عشه للبحث عن طعام، وعندما عاد بعد ثلاثة أيام وجد فراخه الصغيرة قد هلكت، فرقد فوق صغاره الميتة، وطعن جنبه بمنقاره وعندما تساقطت قطرات دمه على الفراخ الصغار عادت إليها الحياة! وأتُخِذت هذه الأسطورة "الهلينية" والتي كانت معروفة قبل المسيحية، رمزاً لسر الإفخارستيا الذي فيه يسقينا المسيح من دمه الإلهي المحيي، الذي هو ترياق (مصل) الحياة الأبدية، ودواء عدم الموت كما يقول الآباء.

وقد أشار الكثير من الآباء في كتاباتهم إلي طائر البجع وأسطورته، مثل: القديس البابا أثناسيوس الرسولي، والبابا بطرس خاتم الشهداء، والقديس يوحنا ذهبي الفم، والقديس أمبروسيوس، القديس باسيليوس الكبير، والقديس إبيفانيوس أسقف سلاميس في القرن الرابع، والقديس جيروم وغيرهم من الآباء.

---

[4] جاء ذكر طائر البجع في مواضع عديدة في أسفار العهد القديم، ومنها ما جاء في سفر المزامير؛ (مز ١٠٢) حيث يقول كاتب المزمور: "أشبهت قوق (بجع) البرية" (مز ١٠٢:٦).

[5] *Physiologus*, The very ancient book of beasts, plants and stones, translated from Greek and other languages, san Francisco:, Book club of California,1953.

إهداء

إليكِ يا من بواسطتها أَنعم علينا

بهذا السر العظيم الذي للحياة

الذي هو جسده الإلهي ودمه الكريم

هذا الذي أخذه منكِ يا سيدتنا وملكتنا كلنا

والدة الإله القديسة الطاهرة مريم

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الأسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

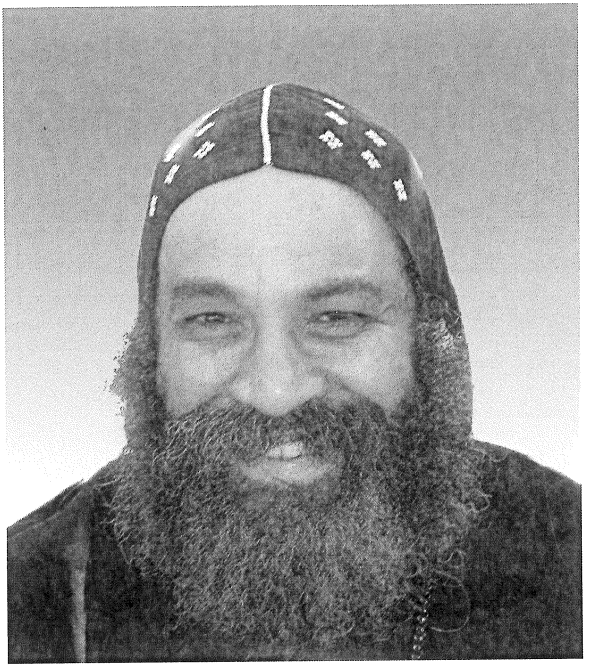

نيافة الحبر الجليل الأنبا رافائيل

الأسقف العام لكنائس وسط القاهرة

وسكرتير عام المجمع المقدس

فهرس المحتويات[1]

تقديم نيافة الحبر الجليل الأنبا رافائيل	م١٩
مقدّمة الناشر	م٢١
الفصل الأول: الإفخارستيا حياة الشكر	١
معنى الإفخارستيا	٥
الشكر كمحور لعلاقة الإنسان مع الله	٥
الإنسان كائن إفخارستي	١٤
معجزة إشباع الجموع والإفخارستيا	١٦
الإفخارستيا تقدمة متبادلة	١٩
المسيح يقود الكنيسة في تقديم الشكر لله	٢٨
ألحان كنسية قديمة	٣١
نصوص إفخارستية	٣٢
الفصل الثاني: الإفخارستيا حياة فصحية	٣٣
البشرية والذبائح	٣٧
إستعلان المسيح كذبيحة	٤١
الإفخارستيا كذبيحة كفارة	٤٤
موسى جديد لعهد جديد	٤٩
فصح جديد من داخل الفصح القديم	٥٢
الإفخارستيا ذبيحة فصحية	٥٨
الإفخارستيا جسر العبور من الموت للحياة	٦٠
ألحان كنسية قديمة	٦٩
نصوص إفخارستية	٧٠

---

١ فصول هذا الكتاب ليست مبنية على بعضها البعض، وإن كانت بالطبع تتكامل معًا، مما يتيح للقارىء التحرك بسهولة بين فصوله بدون الحاجة إلي التقيد بالترتيب الموضوع. كما أن كل فصل يحتوي في بدايته على مُلخص للأفكار الرئيسة التي سيتم تناولها داخله.

الفصل الثالث: الإفخارستيا حياة الكنيسة ٧١
الإفخارستيا اجتماع الكنيسة ٧٥
الإفخارستيا كجزء من التقليد الكنسي ٨١
الإفخارستيا مركز عبادة الكنيسة ٨٥
أسرار الكنيسة والإفخارستيا ٨٧
سر المعمودية والإفخارستيا ٨٧
سر الميرون والإفخارستيا ٩٢
سر التوبة والاعتراف والإفخارستيا ٩٤
سر الزيجة والإفخارستيا ١٠١
سر مسحة المرضى والإفخارستيا ١٠٤
سر الكهنوت والإفخارستيا ١٠٥
ألحان كنسية قديمة ١١١
نصوص إفخارستية ١١٢

الفصل الرابع: الإفخارستيا حياة الإيمان ١١٣
قانون الإيمان هو قانون للحياة ١١٧
الأبدية والإيمان كخبرة معاشة ١٢١
الشكر على عطية الإيمان ١٣٠
اعتراف الإيمان ١٣١
الإفخارستيا طريق الإيمان والمعرفة والحياة ١٣٤
الإفخارستيا رحلة الإيمان ١٤٢
ألحان كنسية قديمة ١٤٤
نصوص إفخارستية ١٤٥

الفصل الخامس: الإفخارستيا حياة الصلاة ١٤٧
الصلاة حياة ١٥٠
الصلاة بكل الكيان ١٥٥
الإفخارستيا ورؤية الأشياء على حقيقتها ١٥٧
الصلاة الإفخارستية كخدمة ١٥٩

الصلاة كعمل كرازي ١٦٥
الصلاة لأجل الراقدين في الإفخارستيا وفائدتها ١٦٨
الوقوف والصمت أمام الله في الإفخارستيا ١٧٢
"أبانا الذي في السموات" كصلاة إفخارستية ١٧٧
ألحان كنسية قديمة ١٩٠
نصوص إفخارستية ١٩١

الفصل السادس: الإفخارستيا حياة النور ١٩٣
الله والنور ١٩٦
النور في العهد القديم ٢٠٣
النور والفصح ٢٠٧
النور الإلهي في كنيسة العهد الجديد ٢١٣
ألحان كنسية قديمة ٢٢٤
نصوص إفخارستية ٢٢٥

الفصل السابع: الإفخارستيا حياة الشركة ٢٢٧
الكنيسة الجامعة ٢٣٠
شركة الآخر ضرورية لإكتمال حياتنا ٢٣٢
الشركة مع الآخر في النور ٢٣٥
شركتنا مع الله كأصدقاء وأحباء ٢٣٦
الاشتراك في العمل مع الله ٢٣٨
السلام والمصالحة أحد مكونات الشركة ٢٤٠
الإفخارستيا طعام الشركة والوحدة ٢٤٥
الشركة مع القديسين في الإفخارستيا ٢٥١
الإفخارستيا سيمفونية شركة بين السماء مع الأرض ٢٥٦
ألحان كنسية قديمة ٢٦٠
نصوص إفخارستية ٢٦١

الفصل الثامن: الإفخارستيا حياة الشفاء ٢٦٣
الخلاص عملية شفاء وتطهير ٢٦٦

الخليقة والمرض والشفاء ٢٧٠
قوة الله الشافية ٢٧٣
الإفخارستيا وقت الخلاص والشفاء ٢٧٦
عملية الشفاء ٢٧٨
الإفخارستيا غذاء للمحبة والشفاء ٢٨٠
أبوة الله الشافية ٢٨٩
الشفاء الكامل ٢٩٣
الكنيسة مجتمع علاجي ٢٩٥
ألحان كنسية قديمة ٣٠٠
نصوص إفخارستية ٣٠١

الفصل التاسع: الإفخارستيا حياة متجددة ٣٠٣
الهيكل الجديد ٣٠٦
الروح القدس روح التجديد ٣٠٨
الروح القدس يجدد الكنيسة باستمرار ٣١١
زقاق جديدة وخمر جديدة ٣١٥
الحياة الجديدة في المسيح ٣١٦
توجه جديد ٣١٨
الإفخارستيا غذاء الحياة الجديدة ٣٢٠
الروح القدس يجدد أذهاننا من خلال قراءات القداس الإلهي ٣٢٤
عمل الروح القدس في الإفخارستيا ٣٣١
ألحان كنسية قديمة ٣٣٤
نصوص إفخارستية ٣٣٥

الفصل العاشر: الإفخارستيا حياة أبدية ٣٣٧
المسيح الحياة ٣٤١
خلق الإنسان ٣٤٤
الإفخارستيا والانتصار على الموت ٣٤٨
التبني للآب هو الطريق إلى الأبدية ٣٥١

الإفخارستيا تذوق سابق للملكوت ٣٥٦
الفصح ومائدة الملكوت ٣٥٨
الأبدية زمن الكنيسة ٣٦١
الإفخارستيا صعيدة البركة ٣٦٦
مفهوم الأبدية يعمق علاقتنا مع العالم ٣٧٠
الألم والأبدية ٣٧٣
ألحان كنسية قديمة ٣٨٣
نصوص إفخارستية ٣٨٤

الفصل الحادي عشر: الإفخارستيا حياة عرسية ٣٨٥
الخلق كتعبير عن الحب الإلهي وشركة المحبة ٣٨٩
الحب وحرية الإرادة ٣٩١
الإفخارستيا تدخلنا في دائرة الحب الإلهي ٣٩٣
محبة الله العرسية ٣٩٨
الإنسان والكنيسة عروس المسيح ٤٠٣
محبة العروس ٤٠٦
محبة خادمة ٤١٣
الإفخارستيا عشاء العريس ٤١٦
الإفخارستيا سكيب الحب ٤٢١
ألحان كنسية قديمة ٤٢٣
نصوص إفخارستية ٤٢٤

المراجع العربية والأجنبية ٤٢٥

الفهرس الموضوعي ٤٣٣

إصدارات مركز باناريون للتراث الآبائي ٤٥٦

تقديم

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين

الإفخارستيا هي أعظم عطية أعطاها الله للبشر. لقد تجسد الله من أجل أن يترك لنا كل يوم جسده ودمه على المذبح بالكنيسة، فجسد السيد المسيح ودمه على المذبح، هما الهدف النهائي من التجسد.

فلو توقفت قصة السيد المسيح معنا عند حد الصليب والقيامة والصعود، لصار البشر متفرجين على عمل الخلاص دون الاستفادة منه. ولكن الله نظر لنا شيئًا أفضل وهو أن يُضمَّن في الخبز والخمر جسده ودمه المتحدين بلاهوته، ومنحنا أن نأكل ونشرب منهما، فنأخذ حياته فينا حسب قوله الطاهر "فمن يأكلني فهو يحيا بي" (يو٦:٥٧)، وأعطانا أن نأكله حقيقة في صورة خبز وخمر: "أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم" (يو٦:٥١).

أشكر الأخ الحبيب مارك شنوده على مجهوده في إعداد هذا الكتاب القيّم جدًّا والمليء بالخبرة الروحية، بالإضافة إلى المعرفة العميقة لشاب اختبر المسيح بكل القلب. لذا جاء الكتاب متضمنًا الإجابة على التساؤل المذكور على الغلاف من خلال الكتابات العقائدية والروحية للآباء الذين صاغوا الإيمان وعبروا عنه في النصوص الليتورجية بكل وضوح.

وإذا كان الاتجاه العام الآن في كنائسنا هو الميل نحو وحدة الكنيسة العامة، فإنني أعرف أننا لن نجتمع إلا في الإفخارستيا التي

هي سر تجميع الكنيسة ووحدتها. فليس بمجهود الناس ولا بالتنازل عن الإيمان، ولا بوسيلة أخرى تتحد الكنيسة إلا بجسد الرب ودمه في سر الإفخارستيا.

أرجو البركة لكل من يقرأ هذا الكتاب ويدرسه ويفهم ما فيه من معاني سامية.

الأنبا رافائيل

الأسقف العام لكنائس وسط القاهرة

وسكرتير عام المجمع المقدس

٢ مايو ٢٠١٣ م

٢٤ برمودة ١٧٢٩ ش

خميس العهد، يوم تأسيس سر الإفخارستيا

مقدّمة الناشر[1]

لقد كانت غاية العمل الخلاصي الذي أتمه الثالوث القدوس بالظهور المحيي للابن الوحيد وكلمة الله، وتجسده من الروح القدس ومن مريم العذراء، لا أن يقضي بقيامته من بين الأموات على "الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس" فقط، بل أن يعيد البشر إلى التمتع "بمحبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد وشركة وموهبة وعطية الروح القدس"، بعدما أظهر إلهنا وربنا ومخلّصنا يسوع المسيح لنا "نور الآب وأعطانا معرفة الروح القدس الحقيقية". وهكذا صارت لنا شركة الحياة الإلهية، أي حياة الثالوث، بل وإمكانية أن نسلك في "جدة الحياة" أي تلك الحياة الجديدة التي وُهبت لنا نحن الذين "دفنا معه بالمعمودية"، وذلك لأنه "أخذ الذي لنا وأعطانا ما له"، مباركًا "طبيعتنا فيه".

وليس هذا فقط بل إنه من محبته لنا أعطانا أن نتغذى كخليقة جديدة بطعام جديد روحاني لنحيا به إلى الأبد عوض الطعام المادي الذي يتعاطاه الإنسان العتيق ويموت. إنه "خبز الحياة" النازل من السماء، وما قد وهبه لتلاميذه القديسين يوم أسس سر الشكر في ليلة آلامه، وما قد تركه لنا "كل يوم على المذبح" أي جسده المقدس ودمه الكريم، غفرانًا للخطايا وحياة أبدية لكل من يتناول منهما، وهكذا تصبح "الإفخارستيا سر الحياة".

فالإفخارستيا هي أولاً[2] حياة الشكر، حيث تعيدنا إلى حياة الشكر التي كان يحياها الإنسان الأول في الفردوس قبل السقوط؛ إذ هو الكائن الوحيد القادر على تقديم الشكر بلسان الخليقة على كل شيء في العالم، وهي تقدمة متبادلة فيها نعيد تقديم

[1] قام الدكتور جوزيف موريس فلتس بإعداد هذه المقدمة لمركز باناريون للتراث الآبائي.
[2] الترتيب المذكور هنا هو بحسب ترتيب فصول الكتاب.

العالم كله وذواتنا بالشكر لله الذي سبق ووهبنا نعمة الخلق، والآن يعطينا ذاته لنحيا بها إلى الأبد.

والإفخارستيا ثانيًا، هي حياة فصحية، حيث إن الفصح هو عبور من الموت للحياة. هي إذن فصح العهد الجديد الذي نعبر به من الموت إلى الحياة الأبدية. وكما كانت الذبائح والأعياد في العهد القديم تشير لذبيحة المسيح، هكذا الإفخارستيا هي امتداد لذبيحة الصليب.

والإفخارستيا ثالثًا، هي حياة الكنيسة حيث نؤمن أن الكنيسة هي جسد المسيح، وفي الإفخارستيا يجتمع أعضاء هذا الجسد، ليكون الكل واحدًا في المسيح يسوع رأس هذا الجسد والواهب حياته لكل عضو يؤمن به. وهكذا فالإفخارستيا تجعل المسيح مركزًا لحياتنا وحوله تجتمع الكنيسة ويكون هو مِلءَها، ومن ثم فإن كانت الكنيسة "تصنع" الإفخارستيا ففي الحقيقة والواقع الإفخارستيا "تصنع" أيضًا الكنيسة، ولهذا نجد أن كل صلوات الكنيسة وإبتهالتها وأعيادها بل وكل أسرارها تتمحور حول سر الإفخارستيا. ومن هنا نجد أن الإفخارستيا هي إحدى ركائز التقليد الكنسي والمعبرة عن وعي الكنيسة ومعايشتها لسر التدبير الإلهي.

والإفخارستيا رابعًا، هي حياة الإيمان، حيث نقر بما نؤمن ونحياه في واقع ممتد يظهر ثماره في جوانب حياتنا وتعاملاتنا، كنتيجة مباشرة لأكلنا من "شجرة الحياة" الجديدة، أي الإفخارستيا، فنؤهل لسبل المعرفة الإلهية وسر الإيمان.

والإفخارستيا خامسًا، هي حياة الصلاة حيث تتحول الخليقة كلها إلى موضوع صلاة، فيها يتقدس البشر وتتبارك العناصر. وفيها نصلي شاكرين الله ومسبحين عن الخليقة كلها لأجل تدبيره للكون ولكل حياتنا، ومتضرعين أن يمتد عمله وخلاصه ليشمل كل المسكونة والساكنين فيها.

والإفخارستيا سادسًا، هي حياة النور، هي دعوة لنسير في النور بعد أن تستنير أذهاننا وحواسنا بالنور الإلهي الذي هو مصدر نور الخليقة كلها، وبعد أن تتجدد استنارتنا نعكس بهاء المجد الإلهي في داخلنا.

والإفخارستيا سابعًا، هي حياة الشركة؛ إذ يكمّل الإنسان فيها تحقيق وجوده وغاية خلقته، أي شركة الحياة الإلهية، كعلامة وبرهان السلام والمصالحة والسير معًا في النور، والتفاف كل الخليقة حول المسيح، الأحياء والمنتقلين، البشر والملائكة، الأرض والسماء.

والإفخارستيا ثامنًا، هي حياة الشفاء، شفاء الجسد والروح معًا، وبتناول الإنسان من دواء الحياة وعدم الفساد، وبعبارة أخرى يمكن أن نقول إن الإفخارستيا هي وقت وزمان الشفاء لكل نفس مريضة بالخطية وعليلة بالشهوة.

والإفخارستيا تاسعًا، هي حياة متجددة حيث تتجدد حياتنا بإستمرار من ينبوع الإفخارستيا المتجدد بالروح القدس، وحيث تصبح الإفخارستيا هي الغذاء الروحي الرئيس الذي يحفظ حياتنا وينميها.

والإفخارستيا عاشرًا، هي حياة أبدية، نعم حياة أبدية تبدأ من الآن، نتذوق فيها طعم الملكوت كعربون، من خلال تذوقنا دواء عدم الموت في الإفخارستيا، ليتحقق في داخلنا هدف الله من خلقتنا ويُكمّل فينا سرُّ تدبيره الخلاصي من أجلنا كورثة للحياة الأبدية وعدم الفساد.

وأخيرًا فالإفخارستيا هي حياة عرسية، حيث نستجيب لدعوة المسيح عريس نفوسنا الحقيقي، ونبادله حبًّا بحب ونقبل منه كأس الارتباط والوحدة، فنعيش في سر الزيجة الروحية وفي حياة عرسية دائمًا كنموذج لعرس الملكوت وسكيب حب.

أيها القارئ الحبيب هذا الكتاب الذي بين يديك هو الكتاب الأول من السلسلة الرابعة التي يقوم مركز باناريون للتراث الآبائي بإصدارها، وهي سلسلة

"الحياة الجديدة في المسيح"

تهتم هذه السلسلة بالجانب الحياتي الاختباري للمسيحية، حيث ينبغي أن تتحول كل معرفة لاهوتية (نقدمها في السلاسل الثلاثة الأولى) إلى خبرة حياتية معاشة في المسيح (هذه السلسلة الرابعة). لذلك فهذه السلسلة تقدم التقليد الآبائي الشرقي الحي المُعاش داخل الكنيسة.

نسأل الله أن يبارك في هذا العمل

وللثالوث القدوس المجد والإكرام والسجود الآن وإلى الأبد آمين.

الناشر

٢٤ نوفمبر ٢٠١٣م

١٥ هاتور ١٧٣٠ ش

عيد استشهاد القديس مارمينا العجائبي

"إن كان البعض لا يزالون تحت سيطرة خطاياهم السابقة، ولكن بإمكانهم أن يُعلموا بكلامهم، فلْيُعلّموا؛ إذ قد يخجلون من كلامهم (تعليمهم)، فيبدأون ممارسة ما يُعلّمون[1] !"

هذا ما كان يدور بخاطري وأنا أسطر صفحات هذا الكتاب.

د. مارك شنوده

[1] القديس يوحنا الدرجي، *السلم إلي الله*، ترجمة مثلث الرحمات الأنبا مكاري، دير السريان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩ في التمييز الروحي "الإفراز"، الدرجة السادسة والعشرون:١٤.

الفصل الأول

الإفخارستيا

حياة الشكر

الإفخارستيا حياة الشكر

الإفخارستيا هي استعادة لحياة الشكر التي كان يحياها الإنسان في الفردوس قبل السقوط. الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تقديم الشكر "الإفخارستيا" عن كل شيء في العالم، وبلسان الخليقة كلها. الإفخارستيا تقدمة متبادلة، فيها نعيد تقديم العالم وذواتنا لله. الإفخارستيا تعطينا نعمة التمتع بشركة "جسدية" مع الرب، وليس فقط شركة روحية.

قصة[1]

في أثناء الحكم الشيوعي لروسيا (الاتحاد السوفييتى قديمًا) في مطلع القرن العشرين، وفي أثناء حكم "ستالين" بالأخص، تم الزج بعشرات الآلاف من الشعب في السجون بتهم مختلفة، وكان أي فرد يعبر أو يعلن عن إيمانه، توجه له تهمة الخيانة والتآمر الذى قد تصل عقوبته أحيانًا إلى الإعدام!

وكان من بين الذين اعتقلوا في ذلك الوقت كاهن شيخ، أُلقي القبض عليه كغيره من مئات الكهنة الذين أُلقي القبض عليهم في تلك الفترة، وسجنوا في أبشع السجون (سيبريا على وجه الخصوص). سجن ذلك الكاهن خمسة عشر عامًا انفراديًّا في زنزانة معتمة، شديدة الرطوبة، سيئة التهوية وعفنة الرائحة، لا يدخلها ضوء الشمس إلا نادرًا. كان ينام طوال تلك السنين على الأرض بدون أي غطاء، وكان الأكل يلقى له على الأرض من فتحة في الباب مثل الكلاب. ولم تكن زنزانته تفتح سوى لسجانيه، عندما يأتون ليقتادوه خارجًا ليضربوه مستهزئين به قائلين: "لقد تعلمت جيدًا أن تكون كاهنًا، أما نحن فقد تعلمنا جيدًا أن نضرب!"

أمضى ذلك الكاهن خمس عشرة سنة في السجن تنيح بعدها

[1] القصص التي ترد في بداية كل فصل هي قصص حقيقية.

بسبب مرض السل الذي أصابه جراء ظروف سجنه القاسية، ليروي بعد ذلك أحد سجانيه، وكان قد أشرف على تعذيبه لسنوات؛ أنه بعدما مات ذلك الكاهن، ألقوا بجثته للكلاب في تل للقمامة قريب من السجن. وبعدها توجه لزنزانته كي يفحصها من الداخل لينظر ما تحتاجه من إصلاحات لكي تستقبل معتقلًا آخر، ليفاجأ بأن جدران الزنزانة مغطاة بالكامل بصلوات للكاهن كتبها عبر سنوات باستخدام حجر طباشيري، سجل فيها شكره الله كل يوم، لأجل كل شيء، حتى الأمور البسيطة!

فكان يشكر الله لأن شمسه تشرق كل يوم ويستدفئ بها كثيرون ويستنيرون بها، ولأجل أصوات زقزقة العصافير، وتغريد الطيور، ولأجل أنه هناك من يستطيعون الاستمتاع بجمال الطبيعة التي خلقها الله للإنسان! كان يرفع الشكر لأجل كنائس الله الموجودة في مناطق مختلفة من العالم، والتي ما زالت تستطيع أن تمارس إيمانها بحرية. ولأجل من لديهم نعمة اقتناء الكتاب المقدس، ويستطيعون قراءته متى أرادوا. كان يصلي لأجل العائلات، والمرضى، والمساجين، والأيتام، والأرامل، والمضطهدين، لم يدع شيئًا لم يشكر الله عليه كل يوم، سواء تمتع هو به لفترة، أو حرم منه!

والأغرب أنه كان يقدم شكرًا خاصًا لله لأجل كل سَجَّان مر عليه طيلة فترة سجنه الخمس عشرة سنة، وبصق في وجهه، ولأجل كل من ضربه أو لطمه في يوم من الأيام، كان يشكر الله لأجلهم، ويصلي أن يفتقدهم الرب بمحبته!

حينما فرغ ذلك السجان من قراءة صلوات شكر الكاهن، بكى وطلب فيما بعد أن يعتمد، وبالفعل اعتمد سرًّا (خارج روسيا)، وطلب نقله لخدمة بعيدة عن عمله السابق في المخابرات الروسية والسجون والتعذيب!

معنى الإفخارستيا

"إفخارستيا[٢]" هي كلمة يونانية وتعني "الشكر" لأن الفعل الأساسي الذي قدمه المسيح للآب في يوم تأسيسه لهذا السر ليلة خميس العهد هو "الشكر"، وأيضًا لأن هذا السر المقدس هو أعظم تعبير عن الشكر تقدمه الكنيسة للمسيح له المجد.

وتعود الأصول الأولى لفعل الشكر في الكنيسة المسيحية إلى التقليد اليهودي في طقس "بركة المائدة[٣]" (Beraka Hamazon) وهي صلاة شكر لله من أجل هبة الخلق، والأرض وثمارها، حيث ينتقل رب العائلة إلى ذكر تاريخ الخلاص، فيذكر العهد مع الآباء والخروج من مصر أرض العبودية. أما الحدث الرئيس الذي من أجله يقدم الكاهن في العهد الجديد الشكر لله فهو تجسد الابن الوحيد وموته وقيامته وصعوده إلى السموات، وجلوسه عن يمين الآب لتكميل خلاصنا[٤] ومجيئه الثاني.

الشكر كمحور لعلاقة الإنسان مع الله

لقد خلق الله الخليقة كلها[٥] من أجل الإنسان. وخلق الإنسان

---

[٢] "إفخارستيا" (Εὐχαριστία) هي كلمة يونانية بمعنى الشكر من الفعل اليوناني "إفخاريستيئو" (Εὐχαριστέω) بمعنى يشكر. وترد الكلمة أحيانًا في المصطلحات الكنسية مصحوبة بكلمة "ثيا" (Θεία) أي "إلهي"، فتصبح "إفخارستيا ثيا" (Εὐχαριστία Θεία) بمعنى "الشكر الإلهي"؛ أي الشكر الذي نعبر عنه بالتسبيح أو بالصلوات أو بالذبيحة الإلهية، انظر: د. جوزيف موريس فلتس، *العقيدة في النصوص الليتورجية*، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الأولى، نوفمبر ٢٠١٠، ص ٨.

[٣] بحسب الطقس اليهودي تناول أي طعام حتى ولو كان بسيطًا هو ذو طابع "إفخارستي" فهو يهدف إلى التعبير عن الشكر لله، لذلك يتوجب على من يشترك فيه أن يقدم الشكر لله على كل نعمه. وكان من طقس الأكل أن تقرأ عليه كلمة الله وإلا صار ما يؤكل مساويًا لذبائح الأوثان.

[٤] الراهب أثناسيوس المقاري، معجم *المصطلحات الكنسية*، دير القديس أنبا مقار، الطبعة ثانية، ٢٠٠٤، ص ١٠٩.

[٥] يرى اليهود بحسب تفسيرهم التقليدي للتوارة، أن الخليقة في مجملها صنعت كهيكل لله! فأيام الخليقة سبعة (ستة أيام، ويوم السبت "اليوم السابع")، وعلى مثال السبعة أيام؛ صنع موسى

ومنحه "هبة الحياة" لأجل نفسه، لكي يحيا معه "لمجدي خلقته وجبلته" (إش٤٣:٧). إن الإنسان هو تحفة الله، إنه "كون صغير" (Micro-cosm) أو (Μικρός Κόσμος) في حد ذاته كما يقول آباء الكنيسة!

لقد خلق الله الإنسان مع أنه لم يكن محتاجًا لذلك. لكنه قام بذلك من فرط محبته للبشر، حتى قبل أن يخلقهم[٦]! خلقه في اليوم السادس بعد كل الخليقة ليكون الإنسان تاجًا للخليقة، وسيدًا عليها. وتصير الخليقة كلها في النهاية لله "الرب صنع الكل لغرضه" (أم١٦:٤). الأمر الذي أصبح موضوعًا لشكر الكنيسة على الدوام في القداس الإلهي حيث تصلي قائلة: "خلقتني إنسانًا كمحب للبشر، ولم تكن أنت محتاجًا إلى عبوديتي، بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك، من أجل تعطفاتك الجزيلة كونتني إذ لم أكن[٧]".

لقد كان الإنسان في الفردوس يحيا في البداية مع الله أخذًا كل شيء من يده، ومتأملًا ومدركًا لعمل الله في خليقته، التي أصبحت أداة لمعرفته، يرى فيها الله ظاهرًا "ثيؤفانيا[٨]" في كل شيء من حوله، كما قال معلمنا بولس الرسول: "إذ معرفة الله ظاهرة

خيمة الاجتماع، وعند انتهاء صنعها حل مجد الرب (الشاكيناه) وملأ الخيمة، وإستقر فيها (خر٤٠:٣٣)، وذلك على مثال يوم السبت (اليوم السابع من أيام الخليقة) الذي استراح فيه الرب. وبنى سليمان الهيكل أيضًا في سبع سنين (١مل٦:٣٨)، ودشنه في الشهر السابع، ليصير الهيكل الذي اكتمل في العام السابع، هو المكان الذي يستريح فيه الرب (سبت الرب). كما يرى اليهود في تقليدهم أن الإنسان خُلق في اليوم السادس، ووضعه الرب في "جنة عدن"، لأنها تمثل قدس أقداس هيكل الخليقة، ليرعى الإنسان الخليقة كلها ككاهن لله، ولكن بعد سقوط الإنسان، طُرد من قدس الأقداس الممثل في "جنة عدن".

٦ كثيرًا ما تلقب الكنيسة الله في صلواتها بأنه "محب البشر"؛ (Philanthropos) (Φιλάνθρωπος) كما في مرد لحن "تين ثينو ⲧⲉⲛ ⲑⲏⲛⲟⲩ" أي "قوموا يا بني النور"، ولحن "بي ماي رومي إن أغاثوس ⲡⲓⲙⲁⲓⲣⲱⲙⲓ ⲛ̀ⲁⲅⲁⲑⲟⲥ" أي "محب البشر الصالح" وغيرها من الألحان.

٧ *الخولاجي المقدس*، دير البراموس، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦، القداس الغريغوري، ص ٣٣٠.

٨ "ثيؤفانيا" (Θεωφάνια) تعني "ظهور إلهي"، وهي تتكون من كلمتين: "ثيؤس" (Θεός) وتعني" إله"، والفعل "فانيرو" (Φανερόω) بمعنى "يظهر".

فيهم، لأن الله أظهرها لهم، لأن أموره غير المنظورة، ترى منذ خلق العالم مدركة بالمصنوعات، قدرته السرمدية ولاهوته" (رو١:١٩،٢٠). حتى إن بعض آباء الكنيسة كانوا يعتبرون التأمل في الطبيعة نوعًا من الصلاة، يستطيع فيها الإنسان أن يرى ويتأمل الله، ودعوها (Θεωρία φυσικός - Theorea physikos) أي رؤيا أو مشاهدة الله في الطبيعة، كما قال سليمان الحكيم: "فإن عظمة المخلوقات وجمالها، يؤديان بالقياس إلى التأمل في خالقها" (الحكمة١٣:٥).

وآخرون دعوا عمل الله الكلمة (اللوغوس) في كل أرجاء الكون والخليقة بأنه "بذرة اللوغوس (الكلمة)[٩]" (Spermatikos logos) (σπερματικός λόγος)؛ (بمعنى أنها منتشرة في كل مكان)، والتي تشهد بأن هناك خالقًا كلي القدرة "الرب صانع كل شيء، ناشر السماوات وحدي، باسط الأرض. من معي؟" (إش٤٤:٢٤). فوجود الخليقة في حد ذاته يعلن مجد الله كما يقول داود النبي: "السموات تحدث بمجد الله، والفلك يخبر بعمل يديه" (مز١٩:١)، ومن بعده يشوع بن سيراخ القائل: "كل أعماله مملوءة من مجده" (يشوع بن سيراخ ٤٢:١٦).

لقد قال الشاعر الإنجيلزي جيرار مانلي هوبكنز (١٨٨٤-١٨٨٩م) في إحدى المرات: "إن العالم مليء بعظمة الله، والخليقة عليقة كبيرة مشتعلة، لكنها غير محترقة، بنار قدرات الله الرائعة، التي تفوق الوصف"! إن إشعياء النبي أيضًا منذ القِدَمْ يخبرنا بأن التأمل في الطبيعة وما فيها من غرائب وعجائب تقود الإنسان إلى معرفة الله: "أفتح على الهضاب أنهارًا، وفي وسط البقاع ينابيع. أجعل القفر أجمة ماء، والأرض اليابسة مفاجر مياه. أجعل في البرية الأرز والسنط والآس وشجرة الزيت. أضع في البادية السرو والسنديان والشربين معًا. لكي

---

[٩] نشأ مفهوم "بذرة اللوغوس" أولًا عند الفلاسفة الإغريق ثم انتقل إلى بعض آباء الكنيسة مع بعض الإختلافات، كما في كتابات الآباء المدافعين أمثال القديس كليمندس السكندري، والفيلسوف الشهيد يوستينوس في القرن الثاني.

ينظروا ويعرفوا ويتنبهوا ويتأملوا معًا أن يد الرب فعلت هذا وقدوس إسرائيل أبدعه." (إش٤١ :١٨-٢٠).

إن الإنسان كمخلوق عاقل مدعو ليقود الخليقة كلها في إعلان مجد الخالق "هذا الشعب جبلته لنفسي، يحدث بتسبيحي." (إش٤٣:٢١). وحينما يَفْعَل الإنسان ذلك يتولد في قلبه سرور تلقائي بالله وبخليقته البديعة "ليفرح إسرائيل بخالقه[١٠]"، وتتبارك الخليقة بسببه.

إلا أن الإنسان بعدما سقط فقد هذه النعمة والعطية، ولُعنت الأرض بسببه. ولم يعد يشكر الله سوى الأبرار فقط، وأخذ الإنسان يبتعد عن الله أكثر فأكثر، حتى انه اعتبر أحيانًا الكون أنه خُلق صدفةً مثل "الأبيقوريون"، وتارة أخرى اعتبر أنه هناك إلهين: واحد يخلق الخير؛ وآخر يخلق الشر مثل "الغنوسيين"!

بل وأحيانًا ظن الإنسان أنه هو سبب وجود تلك الأشياء، فنسبها لنفسه، ومن ثم عبد نفسه بدل الله خالق كل شيء "هو الذي صنعنا وليس نحن" (مز١٠٠:٣ سبعينية)، فإنتشرت عادة عبادة الملوك والأباطرة! بل إن الإنسان انحط في فكره لأكثر من ذلك، حتى صار يعبد المخلوقات كالحيوانات والجمادات كما قال سليمان في سفر الحكمة: "إن جميع الناس الذين لازمهم جهل الله هم مغرورون طبعًا بأنفسهم، فإنهم لم يقدروا أن يعرفوا الكائن من الخيرات المنظورة، ولم يعرفوا الصانع من اعتبار أعماله، لكنهم حسبوا النار أو الريح، أو الهواء اللطيف أو مدار النجوم أو المياه الجارفة، أو نَيّري السماء آلهة تسير العالم، فإن حسبوا تلك آلهة لأنهم خلبوا بجمالها، فليعلموا كم سيدها أعظم منها، لأن الذي خلقها هو أصل الجمال" (الحكمة لسليمان١٣: ١-٤).

---

[١٠] (مز١٤٩:٢) وهذه الآية هي جزء من الهوس الرابع الذي يرتل به في تسبحة نصف الليل وتسبحة عشية.

ولقد أشار بولس الرسول إلى ذلك أيضًا في رسالته إلى روميه، التي تحدث في مستهلها عن الأمم الوثنيين، قائلًا: "لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه، أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم، وأظلم قلبهم الغبي. وبينما هم يزعمون أنهم حكماء، صاروا جهلاء، وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى، والطيور، والدواب، والزحافات... وعبدوا المخلوق دون الخالق" (رو ١:٢١-٢٥).

إن الإنسان يستطيع أن يمجد الله ويشكره من خلال المخلوقات والمصنوعات؛ أي ما يصنعه الإنسان مستخدمًا فيه عناصر الطبيعة، وذلك عندما يعترف أن الله هو "علة" (سبب وأصل) وجودها كما نصلي دائمًا في قانون الإيمان، قائلين: "خالق السماء والأرض، ما يرى وما لا يرى"، وكما نصلي في القداس كتعبير واعتراف بهذا الإيمان قائلين: "الذي خلق السماء، والأرض، والبحر، وكل ما فيها... هذا الذي خلقت الكل به، ما يرى، وما لا يرى[١١]".

إن رعاية الإنسان لسائر الخليقة هي "بركة" من الله منحها للإنسان. وزوده لأجلها بكل ما يحتاجه ليقوم بمسئوليته ومهمته على أكمل وجه، الأمر الذي كان في صلب وصية الإكثار والإثمار التي هي أساسًا بركة من الله "وباركهم الله وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض" (تك ١:٢٨).

لقد كان الهدف من رعاية الإنسان للخليقة كرأس لها وسيد عليها، هو تمجيد الله. فقد كانت إحدى المسئوليات التي أوكلها الله للإنسان أن يأخذ من هذه الخليقة، ويعيد تقديمها لله ثانية بشكر. فيصبح التقديم علامة لشكر الإنسان على النعم والعطايا التي منحها الله له "كل عطية صالحة، وكل موهبة تامة، هي من

---

[١١] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، ص ٢١٩.

فوق نازلة من عند أبي الأنوار" (يع١:١٧)، ومن هنا نجد أن الفردوس كان قبل السقوط **صورة للشكر**، وأيقونة للإفخارستيا (للشكر).

يقول الشاعر الروماني فيرجل (٧٠-١٩ق.م): "مغبوط هو الذي يستطيع معرفة العلة (السبب أو الهدف) وراء الأشياء." إن الإفخارستيا تساعد الإنسان على فهم **الهدف من وجوده** (ontology)، ووجود الأشياء من حوله. من خلال تقديم الشكر لله والاعتراف بأنه "هو يعطي الجميع حياة، ونفسًا، وكل شيء" (أع١٧:٢٥)، وأنه مصدر ونهاية كل الأشياء "منه وبه وله كل الأشياء" (رو١١:٣٦).

فالإنسان ما هو إلا "**وكيل**" (vicar, steward) "كوكلاء صالحين على نعمة الله المتنوعة" (١بط٤:١٠) باركه الله بأن إئتمنه على الخليقة، وكذلك الكنيسة هي أيضًا مؤتمنة على الخليقة لتستثمرها، ثم تعيد تقديمها ثانية إلى الله من خلال الشكر على تلك النعم والبركات "لأن كل خليقة الله جيدة، ولا يرفض شيء إذا أخذ مع الشكر (إفخاريستياس، Εὐχαριστίας)، لأنه يقدس بكلمة الله والصلاة" (١تي٤:٤،٥).

إن سلطان آدم على الخليقة هو في الأساس "**سلطان محبة**"، وليس سلطان قهر وتسلط. إنه سلطان بالمشاركة (διὰ μετοχῆς)، فيه يشترك الإنسان مع الله في إدارة الخليقة من خلال التفويض (delegation)، والتوكيل الذي منحه الله للإنسان ليرعى به الخليقة، وفق معايير الخالق وتحت إشرافه، فالله هو معيار كل الأشياء "قبان الحق وموازينه للرب. كل معايير الكيس عمله" (أم١٦:١١). وبذلك يظل الله دائمًا وليس الإنسان هو المرجعية لأنه خالق الجميع، وليس كما قال السفُسطائي اليوناني بروتاجوراس (٤٩٠-٤٢٠ ق.م): "الإنسان هو معيار ومقياس كل الأشياء"!

إن حقيقة ما نقدمه لله في القداس الإلهي، هو ما قد سبق هو

وقدمه لنا، كما يخبرنا الله في سفر أخبار الأيام، حيث يقول: "لأن منك الجميع، ومن يدك أعطيناك" (١أخ٢٩:١٤)، ويؤكد على ذلك بعدها بقوله: "إنما هي من يدك، ولك الكل" (١أخ٢٩:١٦). ولقد صاغ القديس إيريناؤس (أسقف ليون، القرن الثاني) هذه الحقيقة في عبارة رائعة، قال فيها: "**الذي لك، مما لك، نقدمه لك، من أجل كل حال، وفي كل حال**"، وهذا هو ما يصليه الكاهن في القداس الإلهي قائلًا: "نقرب لك قرابينك، من الذي لك، على كل حال، ومن أجل كل حال، وفي كل حال[١٢]"، وأيضًا حين يقول: "أنت الذي وضعنا أمام مجدك القدوس، قرابينك مما لك، يا أبانا القدوس[١٣]".

لقد كان الكاهن في العهد القديم أثناء تقديمه للذبائح يعبر عن هذا المعنى بحركة طقسية؛ يرفع فيها الذبيحة أو التقدمة بيديه، ويرددها حسب قول الرب لموسى: "وتضع الجميع في يدي هارون وفي أيدي بنيه، وترددها ترديدًا أمام الرب" (خر٢٩:٢٤). وذلك من خلال تحريك التقدمة في حركة أفقية إلى الأمام، ثم إليه، ثم إلى الأمام ثانية، تعبيرًا عن أنه يأخذها من الله، ويعيدها له ثانية.

ونفس المعنى نراه ينتقل للعهد الجديد، ففي القداس الإلهي يعبر الكاهن عن عملية التقديم هذه من خلال حمل الأسرار أو الصينية والكأس بيديه ورفعهما، إشارة إلى ذات المعنى، قبل وبعد تحول الأسرار[١٤].

إن الإفخارستيا هي شكر لله على عطايا الله وبالأخص نعمتي الخلق والخلاص أي الخلق وتكميله، وشكر الله على الخلق لا بد أن يقدم من خلال الإنسان لتفرده بكونه "وكيل" لله و "**كاهن**

---

[١٢] المرجع نفسه، ص ٢٣١.

[١٣] المرجع نفسه، القداس الكيرلسي، ص ٤٦٣.

[١٤] في بدء القداس أثناء دورة القرابين "طقس تقديم الحمل"، وبعد حلول الروح القدس فيما يعرف بصلاة "الاعتراف".

الخليقة". وبذلك تحدد الإفخارستيا وتنظم علاقة الإنسان بالله وبالعالم؛ فعلاقتنا بالعالم هي في الأساس مبنية على أن كل الأشياء هي عطايا من الله، نعيدها إليه "أيضًا كل إنسان أعطاه الله غنى ومالاً وسلطه عليه حتى يأكل منه، ويأخذ نصيبه، ويفرح بتعبه، فهذا هو عطية الله" (جا٩:١٥).

وهذه العطايا كلها هي للإعلان عن محبته وملكوته، الأمر الذي يحفظ الإنسان من التكبر والغرور. لذلك يقول بولس الرسول: "ما الذي لك ولم تأخذه؟ وإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟" (١كو٤:٧). أي أن كل ما لدينا هو من الله، فلا داعي إذًا للافتخار وكأننا نحن مصدر الأشياء، فالله في الحقيقة يقف وراء كل ما ننجح فيه "كل أعمالنا صنعتها لنا" (إش٢٦:١٢).

إن آباء الكنيسة أمثال القديس يوحنا ذهبي الفم[١٥] قد أدركوا

---

[١٥] "القديس يوحنا الذهبي الفم" (٣٤٤-٤٠٧م) ولد في أنطاكيا لأسرة تقية، درس المنطق، والفلسفة والبلاغة، ثم ترهب لعدة سنوات وعاد لأنطاكيا ثانية جراء مرض أصابه نتيجة أعمال نسكية قاسية. رسم شماسًا عام ٣٨١م، ثم رسمه البطريرك فلافيان قسًا في أنطاكية عام ٣٨٥م، وكان صديقًا للقديس باسيليوس الكبير. إزدادت شهرته كواعظ، فإنتخب أسقفًا للقسطنطينية رغمًا عنه، وكان نموذجًا للراعي وإشتهر بجرأته في الحق فوبخ الإكليروس الخامل، ووبخ الإمبراطورة "أفدوكسيا" لتصرفاتها غير اللائقة، مما جعلها تضطهده، وتسعى لحرمانه من شركة الكنيسة. وقد تزامن ذلك مع مشكلة الرهبان الأوريجانيين "الإخوة الطوال" والذين رفضا يوحنا إدانتهم على عكس البطريرك السكندري "ثيؤفيلس" الذي كان ضدهم، فأدى كل ذلك في النهاية إلى إنعقاد مجمع السنديانة عام ٤٠٣م والذي أمر بنفي وعزل ذهبي الفم وقطعه من شركة الكنيسة. وعند خروج ذهبي الفم من المدينة تنفيذًا لحكم النفي حدثت زلزلة هائلة أرعبت الإمبراطورة فأوقفت الأمر، ثم بعد شهرين نفته مرة أخرى. تنيح ذهبي الفم في مدينة "كومانا" في "كوكوزة" (بالقرب من أرمينيا حاليًا) عام ٤٠٧م، وبعد نياحته أعاد رفاته بطريرك القسطنطينية "بروكليس" إلى القسطنطينية في احتفال رهيب بحضور الإمبراطور عام ٤٣٧م وقد أعاد القديس كيرلس الكبير اسم يوحنا ذهبي الفم إلى "الذبتيخا." ومن بين الآباء الشرقيين لم يترك أحد تراثًا أدبيًا واسعًا مثل ذهبي الفم، فتقريبًا قد حفظت كل كتاباته التي بلغت أكثر من ٦٤٠ مؤلف تحوي ما يقرب من ١٨٠٠٠ شاهد من الكتاب المقدس (سبعة الآف من العهد القديم، وأحد عشر ألف من العهد الجديد)! له عظات تفسيرية كثيرة على معظم أسفار الكتاب المقدس بعهديه، وقد إهتم بتفسير كل رسائل بولس الرسول الذي كان يحبه، ومن أشهر مؤلفاته: "في الكهنوت"، "في البتولية"، "في الآلام" ورسائله إلى الشماسة "أوليمبياس"، هذا بجانب وضعه لليتورجيا الإفخارستية المنسوبة إليه وهي حاليًا الليتورجيا الرئيسة في الكنائس التي تتبع الطقس

هذه الحقيقة التي انعكست على حياتهم ووعظهم، فها نحن نرى ذهبي الفم يعظ شعبه قائلًا: "لا تعتبر أن شيئًا ملك لك، بل ليكن كل ما تملكه كقرض مؤقت عندك." وفي موضع آخر يقول: "عندما تكون كريمًا مع شخص آخر، فأنت لا تقدم شيئًا من عندك، بل توفي دينًا! فكل شيء مادي تمتلكه، هو من الله الذي خلق كل الأشياء. وكل فضيلة روحية أنت تمتلكها، هي من خلال نعمة إلهية. لذلك أنت مدين لله بكل شيء."

إننا كثيرًا ما نذهب للكنيسة لأجل طلب أشياء من الله، ولكننا نادرًا ما نعود للكنيسة لأجل تقديم الشكر إذا ما استجيبت صلواتنا، وطلبتنا! إن ما حدث مع المسيح في حياته على الأرض ما زال يتكرر؛ فمن العشرة المصابين بالبرص، الذين شفاهم السيد المسيح، يخبرنا الكتاب أن واحدًا منهم فقط هو الذي رجع ليشكر المسيح، وكان سامريًّا "أ لم يوجد من يرجع ليعطي مجدًا لله، غير هذا الغريب الجنس؟" (لو١٧:١٨)!

إننا نتذكر كثيرًا قول السيد المسيح "اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم" (مت٧:٧)، ولكننا للأسف ننسى ما قاله أيضًا حين صلى: "أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي" (يو١١:٤١)! ليتنا نمتلىء من العرفان بالجميل مثل الشاعر الإنجليزي الأشهر شكسبير، القائل: "يا رب يا من أنعم عليَّ وأقرضني الحياة، أنعم عليَّ أيضًا بقلبٍ ينضح بشكرك!"

إن إدخال المفهوم الإفخارستي في حياتنا اليومية يصحح وضع الإنسان ليس مع الله فقط، بل مع العالم أيضًا، الذي أصبح يسود عليه اليوم علاقة استهلاكية، يغلب عليها الهوس بامتلاك الأشياء،

البيزنطي. انظر: كتاب القمص تادرس يعقوب ملطي، *نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى*، كنيسة مارجرجس سبورتنج، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩، ص ١٤٥، ١٤٦.

مما يضع علينا ككنيسة (إكليروس وشعب)، مسئولية أن نقوم بدورنا الإفخارستي تجاه العالم، معيدين تقديمه لله من خلال الصلاة والمشاركة الإيجابية في الحياة، ورعاية البيئة والحفاظ عليها، عاملين بأول تكليف أعطاه الله للإنسان.

الإنسان كائن إفخارستي

لقد كان اللقاء الأول بين الله وشعبه في البرية كما سجله الكتاب المقدس في العهد القديم، لقاءً مهيبًا عند سفح الجبل في سيناء، حيث اجتمع الشعب كله وتقدس ليقابل الرب، فحل الرب على الجبل بنار، ودخان، وزلزلة، وضباب وصوت رعد!

إن ما سبق وحدث في العهد القديم لأجلنا عند سفح الجبل في سيناء على مستوى الظل والرمز، يتحقق اليوم وكل يوم في كنيسة العهد الجديد، على مستوى الحقيقة والكمال. فنحن مدعوون في العهد الجديد كشعب لله أن نتقدس، ونستعد ونجتمع معًا لمقابلة الله عند المذبح، الذي كان الجبل يرمزًا له قديمًا بنوع ما. إننا نتقدس لا لنسمع صوته فقط من خلال القراءات، بل لنتحد به من خلال التناول.

لقد أنعم الله في العهد الجديد على **الإنسان بأن يكون هو الكائن الوحيد "الإفخارستي"**. فالإنسان من خلال "الكنيسة" هو الوحيد الذي له الحق والإمكانية في تتميم سر الإفخارستيا والتناول منها. فلا يستطيع الملائكة النورانيون رغم سمو طبيعتهم وعمق معرفتهم، وقربهم من الله، تقديم الخبز والخمر وتحويلهما لجسد ودم حقيقيين للسيد المسيح. فقط الإنسان هو الذي منحه الله هذه النعمة بفضل تجسد ابن الله الوحيد.

واعترافًا بذلك يقول الكاهن "أنت الذي أعطيتني هذه الخدمة

المملوءة سرًّا، أعطيتني إصعاد جسدك بخبز وخمر[١٦]." ويؤكد القديس إيريناؤس والملقب بأبي التقليد الكنسي على أن الكنيسة وحدها هي التي أنعم الله عليها بتقديم الشكر لله بلسان العالم كله، فيقول: "الكنيسة هي الوحيدة التي تقدم التقدمة الطاهرة (الإفخارستيا) إلى الله الخالق، تقدمها إليه، مع تقديم الشكر بلسان خليقته[١٧]."

فقبل التجسد كان الإنسان لا يستطيع أن يقترب كثيرًا من الله، أو حتى من المكان الذي يحل فيه الله وإلا يموت! أما بعد التجسد الإلهي فقد صار الوضع معكوسًا حيث الاقتراب من الله، **والاتحاد به أصبح أمرًا ضروريًا للحياة**، فالإنسان في حاجة ماسة للتناول لكي يحيا ولا يموت!

إن الإفخارستيا هي اختبار حقيقي في حياتنا لمعنى كلمة "عمانوئيل" أي الله معنا (إش٧:١٤؛٨:١٠؛ مت١:٢٣). الأمر الذي تحقق، وما زال يتحقق فعليًّا وروحيًّا وجسديًّا منذ ميلاد المسيح. ففي الإفخارستيا نختبر وجود الله معنا في وسطنا "**جسديًّا**" من خلال حضوره الإفخارستي، فنستطيع أن نقول إن المسيح في وسطنا "كائن" (رؤ١:٨؛ ٤:٨). **فبدون حضوره لا يتحقق ولا يكتمل الهدف من وجود الإنسان**. لذلك يشكر الكاهن الله بلسان الشعب من أجل كل نعمه التي أسبغها علينا، والتي على رأسها الخلاص وسر الإفخارستيا، قائلًا: "مستحق ومستوجب... أن نسبحك، ونباركك، ونخدمك، ونسجد لك، ونمجدك[١٨]."

---

[١٦] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٧.

[17] Irenaeus, *Againist the Heresies*, Ancient Christian Writers., 5 Books, Paulist Press, 1991-2012.,Book IV,18.

[١٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٢٥.

معجزة إشباع الجموع والإفخارستيا

لقد جاء المسيح ليعيد العالم للوضع الإفخارستي الأول الذي خلقه عليه. فنرى في معجزتي إشباع الجموع، التي إهتم الإنجيليون الأربعة بذكرها صورة لذلك. فالغلام والرسل قدموا (أعادوا) الخبز والسمك الذي معهم واللذين هما في الأساس نعمة وعطية من الله، للمسيح الخالق. فشكر (إفخاريستيساس، Εὐχαριστήσας)، ثم أعاد المسيح الخبز والسمك للرسل، وهم بدورهم وزعوه على الجموع، فشبع الجميع، وفضل عنهم بسبب الشكر والبركة.

فالمسيح بارك في المعجزتين، حين قدموا له ما سبق هو وأعطاه لهم[١٩]. لذلك نحن عندما نقدم أو نبذل الشيء لا نفقده، لأنه يصل لآخرين، كما يقول الروائي الأمريكي المعاصر "ميتش ألبوم": "إننا حينما نضحي بشيء، لا نفقده في الحقيقة، إنما نحن بذلك نمرر ما ضحينا به لشخص آخر."

إن الكنيسة تهتم بترسيخ البعد الإفخارستي لحياتنا، وذلك بأن ترسم أمام أعيننا وأذهاننا هذه الصورة أو "الأيقونة" من خلال وضع "صلاة الشكر" (فلنشكر صانع الخيرات..إلخ) في بداية كل صلوات الكنيسة وخدماتها. وبذلك تصطبغ كل صلواتنا بصبغة إفخارستيا "شاكرين كل حين، على كل شيء، في اسم ربنا يسوع المسيح الله والآب" (أف٥:٢٠). ومثل مُعلمنا بولس الرسول الذي كان كثيرًا ما يشكر الله عند ذكره أي شخص أو أي كنيسة يكتب إليها "اشكروا في كل شيء، لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من

---

١٩ معجزة إشباع الخمسة آلاف مدونة في إنجيل يوحنا الإصحاح السادس، ومعجزة إشباع الأربعة آلاف مدونة في إنجيل متى الإصحاح الخامس عشر. وتحتل معجزة إشباع الجموع مكانة خاصة في قراءات الكنيسة، فقد رتبت الكنيسة قراءتها في صلوات الساعات اليومية (إنجيل الساعة التاسعة) في الأجبية. وأيضًا رتبت الكنيسة قراءة فصل معجزة إشباع الجموع بالخمس خبزات والسمكتين في الأحد الخامس من الشهر، إذا اتفق أن الشهر القبطي به خمسة آحاد، لرمزية رقم خمسة في التعبير عن الشكر والبركة.

جهتكم" (١تس٥:١٨). إن آخر كلمات نطق بها القديس يوحنا ذهبي الفم قبل نياحته في المنفى، بعد أن كابد آلامًا كثيرة هي "الشكر لله على كل شيء."

لقد صدق الفيلسوف والخطيب والكاتب المسرحي الروماني سينيكا (القرن الأول) حين قال: "لا يوجد شيء أكثر نبُلاً من قلبٍ شاكر." وعن مزج الشكر دائمًا بطلباتنا التي نقدمها لله يكتب بولس الرسول قائلًا: "لا تهتموا بشيء، بل في كل شيء بالصلاة، والدعاء، مع الشكر (Εὐχαριστίας)، لتعلم طلباتكم لدى الله" (في٤:٦). ويعلق القديس يوحنا ذهبي الفم الذي دائمًا ما اهتم بإبراز أهمية تقديم الشكر في العبادة، فيقول: "إنظر إلى النصيحة الأخرى، والتي هي كدواء يزيل الحزن وكل الأمور المؤلمة، إذًا ما هو هذا الدواء؟ إنه الصلاة، مع الشكر لأجل كل شيء. حتى إنه لا يريد أن تكون الصلوات فقط طلبات، وإنما أيضًا تشكرات لأجل الأشياء التي لدينا. لأنه كيف سيطلب أحد ما الأمور المستقبلية دون أن يكون شاكرًا من أجل الأمور السابقة؟ يجب علينا أن نشكر على كل شيء، بل وعلى تلك الأشياء التي يُعتقد أنها تسبب حزنًا. إن هذه في الحقيقة هي سمة الإنسان الشاكر... والنفس التي تشعر بالامتنان وتتمتع بعلاقة قوية مع الله. هذه الصلوات هي التي يعرفها الله، أما الصلوات الأخرى فلا يعرفها. هكذا إذًا فلتصلوا حتى تعرف صلواتكم. لأن كل شيء هو في الإتجاه الذي يؤدي إلى فائدتنا، حتى وإن كنا لا نعرف ذلك[٢٠]."

لقد أفردت الكنيسة القبطية لصلاة "الشكر" مكانًا مركزيًّا في النصف الأول من القداس الإلهي "**قداس الموعوظين**" والذي يختص

[٢٠] القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير رسالة بولس الرسول إلي أهل فيلبي*، ترجمة الباحث جورج ميشيل أندراوس، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٧، العظة الرابعة عشرة.

بتقديم القرابين (الخبز والخمر)، والقراءات. وقد حافظت الكنيسة القبطية عليه (طقس تقديم القرابين) كاملًا مع إشتراك الشعب فيه لأن سر الإفخارستيا هو بالأساس "سر الشكر" معلنة بذلك أن القداس الإلهي بأكمله هو ذبيحة وتقدمة شكر "إفخارستيا"، يشترك فيها الجميع الإكليروس مع الشعب، السماء مع الأرض "الآن ملأتم أيديكم للرب، تقدموا وائتوا بذبائح وقرابين شكرٍ لبيت الرب، فأتت الجماعة بذبائح وقرابين شكر" (٢أخ٢٩:٣١).

إننا نسرد قصة الخلاص بأكملها في النصف الثاني من القداس الإلهي "قداس المؤمنين"، كشكر لله. فنحن نشكره لأنه خلقنا، وأخرجنا من العدم إلى الوجود وباركنا. وبالرغم من سقوطنا عاد فأقامنا، وافتقدنا في ملء الزمان، بمجيء ابنه الوحيد يسوع المسيح، الذي مات، وقُبِرَ، وقام، وصعد إلى السموات لأجلنا ليدخلنا إلى ملكوته السماوي. هذا الذي نحيا لأجله شاكرين، ومنتظرين مجيئه الثاني المملوء مجدًا.

وهذا الشكر يتضح في كتابات القديس يوحنا ذهبي الفم الذي دائمًا ما كان يشكر الله على تدبيره الخلاصي للبشر، فيقول: "بإقرارنا بكل إحسانات الله نحونا، وبكل نعمه التي يعسر التعبير عنها، نقدم له الشكر الإلهي (في الإفخارستيا) ونشترك في المناولة، شاكرين إياه لأنه أنقذ الجنس البشري من الضلال. نشكره لأنه إذ كنا بعد متغربين عنه، أعادنا إلى أحضانه. نشكره لأنه إذ لم يكن لنا رجاء، وكنا نعيش في العالم بغير الله، جعل منا إخوة له وورثة[21]".

إننا نقدم الشكر لله طوال الوقت وبالأخص في نهار يوم "الأحد" الذي هو أول الأسبوع، لتكون باكورة أعمالنا وصلواتنا في الأسبوع هي الشكر. فماذا يمكن للخليقة التي جبلها الله من العدم أن

---

[21] EPE 18A, 82-84.

تقدمه للخالق الذي أوجدها من فيض صلاحه إلا الشكر الدائم؟ فالله لم يخلق الخليقة فقط بل قدسها، وكمَّلها، واتحد بها.

إن أفضل طريقة نشكر بها الله على كل صنيعه معنا هو الاشتراك في الإفخارستيا التي هي سر الشكر: "ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي؟ كأس الخلاص أتناول (آخذ)، وباسم الرب أدعو" (مز١١٦:١٢،١٣)، فالسيد المسيح حينما أراد أن يعلمنا "الشكر" صنع الإفخارستيا (سر الشكر) قائلًا: "خذوا كلوا (Λάβετε φάγετε)" (مت٢٦:٢٦)؛ "اشربوا (Πίετε)" (مت٢٦:٢٧). **أننا نشكر الله حينما نأخذ ونقبل عطاياه (الجسد والدم) بشكر وامتنان**[٢٢].

الإفخارستيا تقدمة متبادلة

إن حضور المؤمنين ومشاركتهم في القداس ينبغي أن تكون إيجابية (active participation)، وذلك ليس مقصورًا على الكهنة والشمامسة، بل هو للجميع من خلال تقديم طلباتنا، ونياتنا، وصلواتنا لأنفسنا وللآخرين. ففي القداس الإلهي لا يوجد متفرجون، بل الجميع مشاركون.

إننا في الإفخارستيا نقدم ونُودعُ ذواتنا وبعضنا بعضًا، وحياتنا كلها وكل شيء لله "لأن كل شيء لك" (الحكمة١١:٢٦)، أو بالحري نُعيد تقديمه له. لأنه هو الذي خلق وأوجد كل شيء: "كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يو١:٣)، ووهبه لنا، لذلك نصلي في القداس الإلهي قائلين: "لأن كل شيء قد أعطيتنا[٢٣]"، لذلك أيضًا **حينما نتكلم عن الإفخارستيا إنما نتكلم عن كل شيء!**

---

[٢٢] كلمة "خذوا" أو"لافيتيه" (Λάβετε) من الفعل اليوناني "لمفانو" (Λαμβάνω) وهو بمعنى "الأخذ." فحينما تكون العطايا (مادية) يعني الفعل "الأخذ" أو "الإمساك بالشيء"؛ أما إذا كانت العطايا (روحية) فهنا الفعل يفيد "أخذ الشيء بترحاب وامتنان" وبذلك فنحن حينما نتناول (نأخذ الجسد والدم بشكر) نشكر الله، وإستخدام الفعل (لمفانو) أيضًا يعبر عن الإيجابية في السر؛ فالله يعطي والإنسان عليه أن يأخذ بحرية.

[٢٣] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية السلام الكبيرة، ص ١٩٧.

إن أحد مسميات القداس الإلهي في صلوات الكنيسة هو "**التقدمة**"، وأحد الكلمات المستخدمة للتعبير عن كلمة "التقدمة" في صلوات الكنيسة[٢٤] هي "ذورون" (δῶρον)، وهي تعني "عطية" أو "هبة" (ذوريئا)، فالإفخارستيا هي **عطية من الله نقدمها له**[٢٥]. وكلمة "ذوريئا" (δωρεά) هي نفسها الكلمة المستخدمة في التعبير عن عطية الروح القدس في البركة الرسولية التي تقال في قداس المؤمنين حينما يقول الكاهن: "محبة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، وشركة وموهبة (هبة، عطية "ذوريئا") الروح القدس، تكون مع جميعكم[٢٦]." ولكن هذه التقدمة ليست تقدمة عادية، إنها صاعدة إلى فوق: "**صعيدة**"!

إن الله منذ العهد القديم يوصي شعبه في أكثر من موضع أن لا يظهروا أمامه فارغين "لا تظهروا أمامي فارغين": (خر٢٣:١٥؛ ٣٤:٢٠؛ تث١٦:١٦). بل يجب أن يأتوا بتقدمات، فصار فعل التقديم مقترن بالعبادة: "قدموا للرب مجدا لاسمه، هاتوا تقدمة وادخلوا دياره" (مز٩٦:٨). ويشرح ذلك القديس إيريناؤس قائلًا: "كذلك السيد المسيح أعطى للإنسان هذا المبدأ الهام الذي هو تقديم القرابين لله، بالرغم من أنه هو ذاته ليس في حاجة إليها، ولكن لكي يتعلم البشر خدمة الله[٢٧]."

إن الإفخارستيا تمنح الإنسان فرصة أن يبارك الله ويمجده، بل ويحمله على يده (كما هو الحال مع الكهنة)، مثل سمعان الشيخ الذي بارك الله حين أخذ المسيح: "أخذه (أخذ المسيح) سمعان على ذراعيه وبارك الله" (لو٢:٢٨).

---

٢٤ في طقس تقديم الحمل، وأوشية القرابين.

٢٥ أحد معاني كلمة (Εὐχαριστία) "إفخارستيا" هي "النعمة الحسنة" فهي أفضل وأسمى نعمة أنعم بها الله على الإنسان.

٢٦ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٢٣.

[27] Irenaeus, op. cit., Book IV. 18.

إن تقديم البركة والمجد في الإفخارستيا يعني أن نتذكر، ونعترف بإحسانات الرب علينا وعمله فينا، شاكرين إياه على ملء الحياة التي وهبها لنا في المسيح. وبذلك يعكس الإنسان مجد الله. فيتحقق بذلك أحد أهداف الله من حياة الإنسان، وهي أن نكون كما قال معلمنا بولس الرسول أكثر من مرة: "لنكون لمدح مجده" (أف١:٦،١٢،١٤)، وكما يقول القديس إيريناؤس: "إن مجد الله هو الإنسان الحي (المُفعم بالحياة)، وحياة الإنسان هي رؤية الله[٢٨]".

إننا في الإفخارستيا نقدم لله كل شيء، من خلال بنوتنا له؛ أي من خلال علاقة البنوة التي نلناها في المعمودية؛ وأول كل شيء نقدم المسيح لله، وفيه نقدم ذواتنا لله كذبيحة حب من خلال خضوعنا الكامل له كأبناء بالتبني. فالإفخارستيا هي تقدمة البنين لأبيهم: "قدموا للرب يا أبناء الله" (مز ٢٩:١). فحين نرفع نحن كأبناء لله قلوبنا إلى "فوق" إستجابة لنداء الكاهن "ارفعوا قلوبكم[٢٩]" (Ⲁⲛⲱ ⲧⲏⲙⲱⲛ ⲧⲁⲥⲕⲁⲣⲇⲓⲁⲥ) واضعين إياها عند الرب قائلين: "هي عند الرب[٣٠]"، فنحن بذلك إنما نحقق طلب الله منذ العهد القديم حين قال: "يا ابني أعطني قلبك" (أم ٢٣:٢٦)، إن تقديم القلب للرب هو أثمن عطية يستطيع الإنسان أن يقدمها لله!

والإفخارستيا أيضًا هي أيضًا "خبز البنين" (مت١٥:٢٦) الحقيقي الذي يقدمه الله لأبنائه، فالأبناء فقط هم من أُعْطِيَ لهم أن يشتركوا

---

[28] Ibid., 20:7.

[٢٩] لعبارة الرفع (صلاة الإرتفاع) صياغات مختلفة؛ أشهرها (Sursum corda) "ارفعوا قلوبكم" التي كانت سائدة في كنيسة أورشليم والغرب من النصف الثاني للقرن الرابع، وهناك أيضًا صياغات أخرى منها ما يرد في بعض القداسات الشرقية القديمة، مثل: "لنرفع عقولنا وقلوبنا إلى فوق" كما في ليتورجيات السريان اليعاقبة، وأيضًا: "أين هي قلوبكم"، أو "لنضع قلوبنا فوق"، وأحياناً "لنرفع عقولنا إلى فوق"، ولكن مع بدء القرن السابع استقرت الصياغة في الشرق على تفضيل كلمة "قلوبكم" على "عقولكم". انظر:
-Hugh Wybrew, *The Orthodox Liturgy*, SPCK, London, 1990.

[٣٠] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، ص ٢١٨،٣٢٤،٤٠٨ .

فيه، ويأكلوا منه، لذلك لا يحق أن يتقدم للتناول من لم يعتمد ويصير ابنًا أولًا.

والهدف من تقديم كل شيء لله، هو أن يعلن الإنسان مجد الله وكرامته في كل شيء، الذي هو أحد أهداف خلق الله للإنسان، لذلك يدعونا داود النبي بالروح قائلًا: "قدموا للرب مجدًا وعزًا" (مز٢٩:١). وأيضًا هذا هو ما تعلنه الكنيسة على لسان الكاهن في بدء القداس الإلهي، بقوله "مجدًا وإكرامًا، إكرامًا ومجدًا، للثالوث القدوس[٣١]." أي أن تقدمة الإفخارستيا هي لإعلان مجد الله، وإكراماً لاسمه القدوس.

لذلك نُقدم الكنيسة كلها لله في صلوات الإفخارستيا لكي يباركها؛ بما فيها من أحياء ومنتقلين. نقدم له أيضًا العالم، والخليقة كلها في الصلاة. نقدم له الطبيعة، لأن الإنسان مسئول عنها. ومن منطلق مسئوليتنا هذه نقدم له مياه الأنهار، والهواء، والزروع والثمار، ونبات الحقل، والبهائم وسائر الحيوانات ليباركها المسيح. وهذا هو ما تصلي الكنيسة لأجله في ما يعرف بصلوات "الأواشي[٣٢]" الكبار والصغار.

إن تقدمة الإفخارستيا هي "**تقدمة متبادلة**" (mutual) مبنية على قاعدة لاهوتية راسخة في إيمان الكنيسة، وهي أنه "هو أخذ الذي لنا، وأعطنا الذي له[٣٣]." وحقيقة التقديم المتبادل كتعبير ومفهوم للشكر، هي أحد الأشياء التي تميز التقدمة في العبادة المسيحية عن غيرها من التقدمات الموجودة في عبادات الشعوب والحضارات الآخرى[٣٤]، فالتقدمة

---

[٣١] القداس الإلهي، طقس تقديم الحمل، دورة الحمل.

[٣٢] كلمة "أوشية" هي كلمة قبطية ذات أصل يوناني "إفشي" (Εὐχή) بمعنى صلاة، وتوجد في صلوات الكنيسة ثلاث أواشي كبار وسبع صغار.

[٣٣] *الإبصلمودية السنوية المقدسة*، دير البراموس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣، مرد ثيؤطوكية يوم الجمعة، ص ٣٧٣.

[٣٤] "التقدمات" (عادة تقديم القرابين) في الديانات الأخرى عادة ما تكون من طرف واحد

المسيحية التي هي "الإفخارستيا" هي **تقدمة من طرفين**؛ يقدم فيها كل منهما للآخر!

إننا نقدم لله الأرضيات فيقدم لنا السمائيات. نقدم له الأشياء القابلة للفساد، فيقدم لنا عوضًا عنها ما لا يفسد. نقدم له الفانيات فيقدم لنا الأبديات: "أعطهم ما لا يفسد عوضًا عن الفاسدات، السمائيات عوض الأرضيات، الأبديات عوض الزمانيات[٣٥]".

ويسجل لنا القديس يوستينوس الشهيد (القرن الثاني) أنه كانت من عادة الكنائس في أيامه أن يأتي الشعب بتقدماتهم المادية المتنوعة وتبرعاتهم، ويقدمونها أثناء القداس الإلهي كتقدمة، وكجزء من الصلاة الإفخارستيا، فيقول: "ثم يصلي الرئيس (الذي يرأس صلاة القداس الإلهي) ويرفع الصلوات والشكر قدر إستطاعته... ويقدم الأغنياء إذا أرادوا ما يودون أن يتبرعوا به، وتجمع التبرعات وتترك في عهدة الرئيس. وبهذه التبرعات يساعد الأرامل، والأيتام والمحتاجين بسبب المرض أو خلافه، وأيضًا المسجونين والمتغربين عندنا، وبإختصار هو يهتم بجميع المحتاجين[٣٦]".

إن أثمن شيء يمكن أن نقدمه لله هو "نحن" أنفسنا "بل أعطوا أنفسهم أولاً للرب" (٢كو٨:٥)؛ إذ نقدم أنفسنا كأبناء لله فننال من خلال الإفخارستيا "محبة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد[٣٧]". نقدم أنفسنا كهياكل للروح القدس، فنأخذ شركة وعطية الروح القدس

هو الإنسان؛ حيث يقدم (الإنسان) لله تقدمات، وذبائح بهدف إرضائه أو تجنب غضبه، وينحصر دور الله بذلك في كونه مستقبل فقط. أما في المسيحية نرى الله هو الذي يقدم ذاته ذبيحة لأجل البشر! وهذا هو جوهر ذبيحة الإفخارستيا، فالله دائماً هو المبادر.

٣٥ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، رفع بخور باكر، أوشية القرابين الكبرى، ص ٥٨، ٥٩.

٣٦ *القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد الدفاعان والحوار مع تريفون*، مركز باناريون للتراث الآبائي، الطبعة أولى، ٢٠١٢، الدفاع الأول:٦٧، وهذا الطقس (جمع التقدمات أثناء القداس) لا يزال يعمل به إلى الآن في معظم الكنائس الأخرى، وقد تبقى من ذلك الطقس في الكنيسة القبطية أوشية القرابين الكبرى والصغرى.

٣٧ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٢٣.

"وشركة وموهبة الروح القدس تكون مع جميعكم[٣٨]" فالإفخارستيا هي **تقدمة متبادلة من الثالوث للإنسان، ومن الإنسان للثالوث!**

إن داود النبي مع بولس الرسول يتحدثان عن تقديم الذات لله كذبيحة بمفهوم روحي حيث يقول: "لأنه من أجلك نمات كل اليوم. قد حسبنا مثل غنم للذبح" (مز٤٤:٢٢؛ رو٨:٣٦). إن القديس أغسطينوس (القرن الخامس) يربط بين تقديم الإفخارستيا وتقديم جماعة المؤمنين لأنفسهم قائلًا: "كل مدينة مفدية، أي كل مجمع المؤمنين وجماعة القديسين، هي ذبيحة جامعة، يقدمها الكاهن الأعظم، الذي قدم نفسه بالآلام من أجلنا لكي نصير جسدًا لرأس عظيم كهذا... هذه هي ذبيحة المسيحيين، حيث **يصير الكل جسدًا واحدًا فريدًا في المسيح يسوع!** هذا هو ما تقدسه الكنيسة خلال سر المذبح؛ إذ وهي ترفع القرابين لله تقدم نفسها قربانًا له. هذه الذبيحة العظيمة القدر، السامية هي نحن أنفسنا[٣٩]"!

إن تقديم أنفسنا لله تعبر عنه الكنيسة في مواضع عديدة من القداس الإلهي؛ فنحن في صلوات الإفخارستيا نقدم حياتنا ونضعها أمام الله بكل ما فيها[٤٠]، وتعبيراً عن ذلك يصلي الكاهن في نهاية القداس الإلهي قائلًا: "أنت الذي وضعنا حياتنا عندك يا رب[٤١]"، فنحن قد سبق وقدمنا له إرادتنا وحريتنا: "أقدم لك يا سيدي مشورات حريتي[٤٢]"، وكل احتياجاتنا ليسددها بحسب غناه في المجد. وبذلك

---

[٣٨] المرجع نفسه.

[٣٩] القديس أغسطينوس، *مدينة الله*، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية،٢٠٠٧، ١٠:٦.

[٤٠] لذلك تتم كل السيامات الكهنوتية بدرجاتها، والرهبانية، والتكريسية (التكريس البتولي) في القداس الإلهي؛ إما في رفع بخور باكر أو أثناء القداس بعد قراءة "الإبراكسيس" أو بعد "صلاة الصلح" بحسب نوع الرسامة.

[٤١] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، صلاة خضوع بعد القربان ليوحنا المثلث الطوبى، ص ٤٩٦.

[٤٢] المرجع نفسه، القداس الغريغوري، ص ٣٣٦.

يتحقق ما يصليه الكاهن حين يقول: "رفع قديسيه إلى العلاء معه، أعطاهم قربان لأبيه[٤٣]".

إن أجسادنا أيضًا تشترك في تقديم الشكر لله في الصلاة مع أنفسنا وأرواحنا ككيان واحد يقدم العبادة الله، فأجسادنا هي التي تتحمل النسك، والآلام، والأمراض لأجل المسيح كذبيحة حية كقول معلمنا بولس الرسول: "فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم، ذبيحة حية، مقدسة، مرضية عند الله" (رو١٢:١)[٤٤]. فيعطينا الله في المقابل شفاء وتعزية حسب مسرة مشيئته، لذلك تطلب الكنيسة وتسأل لأجل خلاص وشفاء وتقديس أجسادنا في مواضع كثيرة مثل أوشية المرضى، لأن أجسادنا صارت مقدسة وممسوحة من خالقها في سري المعمودية والميرون، فأجسادنا ليست شرًّا كما كان "الغنوسيون" يعتقدون بل هي هياكل لله الذي صنعها لذاته ولمجده، مثل سائر الأشياء التي خلقها الله لتعلن مجده، بل إننا نقدم ذواتنا لله كباكورة للخليقة "شاء فولدنا بكلمة الحق، لكي نكون باكورة من خلائقه" (يع١:١٨).

إن القديس أنطونيوس الكبير يحث تلاميذه والمؤمنين جميعًا أن

---

[٤٣] المرجع نفسه، صلاة قسمة للقيامة، ص ٥٢٢.

[٤٤] من الجدير بالملاحظة أنه في طقس بناء الكنائس وخصوصًا القديم منها كانت توضع أجساد الشهداء والقديسين أسفل المذبح، أو تبنى مذابح فوق أجسادهم. كما رأى معلمنا يوحنا الرائي في سفر الرؤيا الذي هو إطلالة على الأبدية: "ولما فتح الختم الخامس: رأيت تحت المذبح نفوس الذين قتلوا، لأجل كلمة الله، ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم" (رؤ٦:٩). وبذلك نرى صورة سماوية آخراوية (إسخاطولوجية) حيث المسيح مذبوحًا فوق المذبح حبًّا في الشهداء والقديسون الموجودين أسفل المذبح، والشهداء والقديسين بدورهم قد ذبحوا وإستشهدوا بالدم أو بالنسك، لأجل السيد المسيح الكائن فوق المذبح. وبذلك يكونون مثالًا حيًا على التقدمة المتبادلة. فهم قدموا حياتهم في مقابل حياته (أي لتكون لهم حياة أبدية في المسيح) ودمهم في مقابل دمه (life for Life and blood for Blood)! لذلك تكرس كل الكنائس التقليدية شرقًا وغربًا الأيام التي تلي ميلاد السيد المسيح (الذي وُلِدَ ليموت كذبيحة لأجلنا) للاحتفال بالشهداء الذين ماتوا هم أيضًا لأجله، مثل الشهيد استفانوس (أول الشهداء)، وشهداء أطفال بيت لحم (باكورة الشهداء)، وتحتفل الكنائس البيزنطية أيضًا بتذكار العشرين ألفًا الذين استشهدوا حرقًا في نيقوميديا (٣٠٣م).

يجعلوا من ذواتهم مذابح لله، لأن المؤمنين قد صاروا هياكل لله، ولا يوجد هيكل بدون مذبح. لذلك صارت أجسادنا هياكل حية ومذابح لله تصعد ذبائح وتقدمات هي الصلوات والأصوام والتسابيح، فيقول: "لا تكلوا ولا تضجروا من محبة بعضكم البعض. يا أبنائي ارفعوا وقدموا جسدكم هذا الذي تلبسونه، وإجعلوا منه مذبحًا، وضعوا عليه كل أفكاركم، واتركوا عليه أمام الرب كل مشورة شريرة، وارفعوا يدي قلوبكم إلى الله متوسلين إليه بالصلاة، أن يرسل من الأعالي وينعم عليكم بناره غير المرئية العظيمة، لكي تنزل من السماء، وتحرق كل ما هو موضوع على المذبح وتطهره[٤٥]".

إن القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (القرن الرابع) يُعلم عن أن شرط الاشتراك في ذبيحة الإفخارستيا؛ هو أن يقدم الإنسان ذاته أولاً ذبيحة لله، فيقول: "لا يستحق أحد هذا الإله العظيم، الذي هو الذبيحة، ورئيس الكهنة في آنٍ واحد، إلا إذا قدم نفسه أولاً ذبيحة إلى الله حية مقدسة[٤٦]".

إن السيد المسيح في الإفخارستيا يقدم لنا في مقابل ذبائحنا الحية التي ذكرناها، ذبيحة نفسه هو، تلك الذبيحة الحية والمُحيية التي هي جسده ودمه الأقدسين، بشكل سري وحقيقي، ليصبح هو **سر حياتنا**. إن الإفخارستيا هي سر الكرمة الحقيقية التي هي المسيح، فمن خلال الإفخارستيا تسري فينا عصارة الحياة وعدم الفساد التي بها نحيا. إن الإفخارستيا تمنحنا شركة واتحادًا جسديًّا مع المسيح. ويوضح القديس كيرلس السكندري (القرن الرابع) حقيقة الإفخارستيا؛ وأن جسد ودم المسيح الذي في الإفخارستيا هو حقيقي وليس مجازًا، بل هو مصدر حياتنا، فيقول: "إن قيل أن ينبغي أن

---

[٤٥] *رسائل القديس أنطونيوس*، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الرابعة، ديسمبر ٢٠٠٦، الرسالة السادسة.

[46] EPE. 1.188.

نكون متعلقين روحيًّا بالمسيح بمشاعر المحبة الكاملة، والإيمان المستقيم غير المتزعزع، وبمحبتنا للفضيلة، وبصدق معتقداتنا، فهذا لا يتعارض مع تعليمنا؛ بل إننا نحن أنفسنا ننادي بأن هذا جميعه حق وواجب. أما إن قيل بجسارة إنه ليس لنا معه أي ارتباط بحسب الجسد، فإننا سنبين أن هذا مخالف تمامًا للكتب المقدسة التي هي أنفاس الله، فمن الواضح بدون أدنى شك، أنه بسبب هذا الاتحاد، الذي بحسب الجسد، قيل إن المسيح هو الكرمة ونحن الأغصان، وإننا منه، وبه نستمد الحياة داخلنا[٤٧]".

وتحقيقًا لذلك يصلي الكاهن في القداس الإلهي قائلًا: "عند تحول الخبز والخمر إلى جسدك ودمك، تتحول نفوسنا إلى مشاركة مجدك... وهبت لنا أن نأكل جسدك علانية، أهلنا للاتحاد بك خفية، وهبت لنا أن نشرب كأس دمك ظاهرًا، أهلنا أن نمتزج بطهارتك سرًّا، وكما أنك واحد مع أبيك وروحك القدوس، نتحد بك وأنت فينا[٤٨]." كما تدعو الكنيسة في القداس الإلهي الإفخارستيا وتلقبها بأنها "**السر العظيم الذي للحياة**[٤٩]"، فالسيد المسيح نفسه قد قال: "فمن يأكلني فهو يحيا بي" (يو٦:٥٧).

ومع هذه الذبيحة التي تحمل لنا الحياة، نقدم لله توبتنا وتسبيحنا، واعترافنا وسجودنا كذبائح لكي تكون مرضية ومقبولة أمام الله بدم المسيح: "ولكن لانسحاق نفوسنا وتواضع أرواحنا اقبلنا، وكمحرقات الكباش والثيران، وربوات الحملان السُّمان، هكذا فلتكن ذبيحتنا أمامك اليوم حتى ترضيك" (تتمة دانيال٣:٣٩،٤٠)، وهذه هي تسبحة الكنيسة التي ترفعها إليه كل يوم "فلتصعد

---

47 PG 74:341,344, Cyril of Alex., *commentary on Jn*15:1.

٤٨ القمص تادرس يعقوب ملطي، *صلوات القسم*، طبعة تحضيرية، ١٩٩٧، قسمة للقديس كيرلس الكبير، ص ٦١.

٤٩ القداس الغريغوري، مرجع سابق، ص٢٢٧.

صلاتنا أمامك يا سيدنا مثل محرقة كباش وعجول سُمان[٥٠]".

إن أبسط الأشياء في الصلاة، كرفع الكاهن ليديه في أثناء صلوات الإفخارستيا، هي ذبيحة في نظر الله: "ليكن رفع يدي كذبيحة مسائية" (مز١٤١:٢)، يقدم لنا الله عوضًا عنها غفرانًا للخطايا، وحياة أبدية "يُعطَى عنا خلاصًا، وغفرانًا، وحياة أبدية، لمن يتناول منه[٥١]"، ومع عربون الحياة الأبدية ننال كل شيء بعد ذلك حسب مشيئته، كقول السيد المسيح "كل ما هو لي فهو لك" (لو١٥:٣١)، وهذا هو ما أكد عليه بولس الرسول بعد ذلك بقوله: "لأن جميع الأشياء هي من أجلكم" (٢كو٤:١٥).

المسيح يقود الكنيسة في تقديم الشكر لله

إن الذي يقود الكنيسة في تقديم الشكر الله هو في الحقيقة السيد المسيح نفسه، لأنه رأس الكنيسة، وشفيعها لدى الآب. هو رئيس كهنتنا، هو آدم الجديد، الذي نجح في قيادة البشرية في تقديم الشكر لله، عكس آدم الأول الذي فشل في هذه المهمة.

إن السيد المسيح في الإفخارستيا، كما كان في يوم خميس العهد (ويوم الجمعة على الصليب)، **هو الكاهن المُقَدِّمُ، والذبيحة في آنٍ واحد**، "أحبنا المسيح وأسلم ذاته من أجلنا، قربانًا وذبيحة لله" (أف٥:٢)، **والقابل والموزع**؛ أي الذي يقبل هذه التقدمة والذبيحة ويوزعها على المؤمنين.

إن التقليد المقدس يشهد على ذلك ممثلاً في تعليم آباء الكنيسة منذ البدء، فنجد القديس "كليمندس السكندري" (القرن الثاني) يتحدث عن حقيقة دور المسيح في الإفخارستيا كرئيس الكهنة

---

٥٠ الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، لحن "تين أويه إنثوك ⲧⲉⲛⲟⲩⲉϩ ⲛ̀ϩⲟⲕ"، "نتبعك بكل قلوبنا"، ص١٣٧.

٥١ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، صلاة الاعتراف، ص ٢٧٨.

الأعظم، وكذبيح أيضًا، فيقول: "ذاك أيها الأحبة هو الطريق الذي نجد فيه خلاصنا بيسوع المسيح، الكاهن الأعظم، مقرب قرابيننا[٥٢]"، ومن بعده يتحدث أيضًا القديس غريغوريوس النيصي (القرن الرابع) ويقول: "الرب وحده هو الذي يعطي بإرادته كل الأشياء... لقد قدم نفسه ككاهن، وقربان، وذبيحة[٥٣]".

وتتضح تلك الحقيقة حينما يرشم الكاهن الجسد والدم بعضهما ببعض، بعد حلول الروح القدس وتحول الأسرار، حيث يصبح المسيح حاضرًا بجسده ودمه على المذبح، وليس بيده مثلما يحدث قبل التحول، وبذلك يكون دور الكاهن أنه يعير صوته ويديه للمسيح. وأيضًا حينما يصلي الكاهن قائلًا: "لكي أكمل هذا القربان الموضوع، الذي هو **سر جميع الأسرار**، بصحبة وشركة مسيحك[٥٤]".

إن سر الإفخارستيا هو امتداد لإفخارستيا خميس العهد، حيث الكاهن هو المسيح، لذلك يصلي الكاهن مخاطبًا المسيح قائلًا: "يا قابل القرابين، الذي بدلاً من الخطاة قدمت ذاتك[٥٥]". ويشرح القديس يوحنا ذهبي الفم الدور الذي يقوم به المسيح في القداس الإلهي، كامتداد لخميس العهد فيقول: "لا تفتكروا أن ما نعمله شيء، وما عمله المسيح شيء آخر، أبدًا. إن ما نعمله في القداس هو نفس ما عمله المسيح يوم خميس العهد. والمسيح موجود في وسطنا هو وتلاميذه الرسل. وهذا الاجتماع هو نفسه اجتماع يوم الخميس الكبير. المسيح بنفسه هو الذي يوزع جسده علينا. لا تظنوا أني أنا

---

٥٢ *رسائل إقليمس الروماني وإغناطيوس الأنطاكي وبوليكاربوس السميرني*، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٨، رسالة القديس كليمندس الروماني إلى كنيسة كورنثوس١:٣٦.

٥٣ القديس غريغوريوس النيصي، المجلد الثالث من مجموعة مؤلفات ق.غريغوريوس النيصي، المقالة الثالثة.

٥٤ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، صلاة الحجاب (للآب) للقديس يوحنا المثلث الطوبى، ص ٣٩٧.

٥٥ القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، مرجع سابق، قسمة للقديس كيرلس الكبير، ص ٥٩.

الكاهن أوزع جسده على المؤمنين، أبدًا. أنا فقط أمد يدي، **والمسيح نفسه هو الذي يُقسم ويوزع**. وهو الذي يدخل جسده في كل واحد منكم. هذا الاجتماع، هو نفسه اجتماع يوم الخميس الكبير[٥٦]".

إن القديس مار إفرام السرياني (القرن الرابع) قيثارة الروح، ينشد في أحد ميامره (قصائده) ملخصاً لإيمان كل الآباء الذين سبقوه، عن الإفخارستيا فيقول: "هو ذاته المسيح الذي كان في علية صهيون، هو ذاته الذي يقسم، ويوزع على الكل، ومع أن الشعب ذبحه، إلا أنه هو الذي ذبح ذاته بيديه قبل ذبحه، ذبح أولاً بيديه (الإفخارستيا) وبعد ذلك صلبه المخالفين على الجلجثة... لقد **صار ربنا في وقت واحد: المذبح الحقيقي، الكاهن، الخبز، كأس الخلاص... جمع وحقق كل هذا معًا**، لا يوجد آخر كان يستطيع أن يفعل هذا... حمل قدم كقربان كامل... ذبيحة، ومقدم، كاهنًا وقربانًا يؤكل[٥٧]"!

---

٥٦ القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير إنجيل متى*، الإصحاح السادس والعشرون، العظة ٥٠.

٥٧ أناشيد القديس مار إفرام السرياني.

ألحان كنسية قديمة

"تسبحة المسيح المخلص[٥٨، ٥٩]"

أيها اللبن الإلهي الحلو،
المنسكب من ثدي الحكمة عروس النعمة،
نحن الأطفال الذين بأفواهنا الصغيرة،
نتغذى على الندى الجديد، المتساقط لنا من حضن الكلمة.
هيا ننشد معًا تسابيح شكر جلية، بألحان مخلصة للمسيح الملك،
كتقدمة ثمينة، عوض ما أعطانا من تعاليم الحياة.

---

[58] Daniel Liderboch (fr.), *Christ In The Early Christian Hymns*, Paulist Press, 1998, p.51,52.

[٥٩] هذه المقاطع هي أجزاء من لحن "تسبحة المسيح المخلص"، وهو يعد أحد اقدم الآلحان الكنسية في العالم على الإطلاق، وينسب للقديس كليمندس السكندري (١٥٠-٢١٥م)، الذي اشتهر بتأليفه للكثير من الترانيم الكنسية للدفاع عن الإيمان ضد الغنوسية. وفي هذا اللحن يشبه القديس كليمندس الكنيسة بالأم التي ترضع أولادها لبن التعاليم السماوية، وهذه الصورة التشبيهية كانت موجودة في العهد القديم وانتقلت إلى كنيسة العهد الجديد. ويرجح بعض العلماء أن هذا اللحن كان يقال للداخلين في الإيمان حديثًا (الذين هم روحيًا بمثابة أطفال) أثناء طقس المعمودية في ذلك الزمان، فيكون اللبن العقلي لهم هو تعاليم الكنيسة، التي هي بمثابة أم تلد المؤمنين في المعمودية، وترضعهم تعاليمها، وتغذيهم بأسرارها : "سقيتكم لبنًا لا طعامًا، لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون" (١كو٣:٢)، وقد وجد هذا اللحن كاملاً في كتاب "Paedagogos" أي "المُربي" للقديس كليمندس السكندري.

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس يوحنا ذهبي الفم[٦٠]

رئيس أساقفة القسطنطينية

واجب وحق أن نسبحك ونباركك، ونحمدك ونشكرك، ونسجد لك في كل مواضع سيادتك. لأنك أنت الإله الذي لا يفي به وصف، ولا يحده عقل، غير المنظور، غير المدرك، الدائم وجوده، والكائن هو هو. أنت وابنك الوحيد وروحك القدوس. أنت أخرجتنا من العدم إلى الوجود، وبعد أن سقطنا، عدت فأقمتنا وما برحت تصنع كل شيء حتى أصعدتنا إلى السماء، ووهبتنا ملكك الآتي.

فمن أجل هذه كلها نشكرك أنت وابنك الوحيد وروحك القدوس. ومن أجل كل الإحسانات الصائرة إلينا، التي نعلمها والتي لا نعلمها، الظاهرة وغير الظاهرة. نشكرك أيضًا من أجل هذه الخدمة التي ارتضيت أن تقبلها من أيدينا مع أنه يقف لديك ألوف من رؤساء الملائكة، وربوات من الملائكة، والشيروبيم والسيرافيم ذوي الأجنحة الستة، والعيون الكثيرة، متعالين ومجنحين، مرنمين بتسبيح الظفر، وصارخين وقائلين: قدوس، قدوس، قدوس، رب الصباؤت، السماء والأرض مملؤتان من مجدك، هوشعنا في الأعالي، مبارك الآتي باسم الرب، هوشعنا في الأعالي.

---

[٦٠] هذه الصلاة هي مقطع من ليتورجيا الإفخارستيا للقديس يوحنا ذهبي الفم رئيس أساقفة القسطنطينية في القرن الرابع. وتنسب أجزاء كثيرة من هذا القداس للقديس يوحنا ذهبي الفم نفسه. وهو القداس الرئيس الذي يصلى به الآن في الكنائس البيزنطية. وتعد أقدم نسخة لهذه الليتورجيا (باللغة اليونانية) هي تلك الموجودة في خولاجي بيزنطي يرجع إلى القرن الثامن، وهو محفوظ الآن في مكتبة الڤاتيكان ضمن مخطوط .(*Codex Barbareni*,Gr.336)

الفصل الثاني

الإفخارستيا

حياة فصحية

الإفخارستيا حياة فصحية

الفصح هو العبور من الموت للحياة. الإفخارستيا هي فصح العهد الجديد الذي نعبر به من الموت للحياة الأبدية. الذبائح والأعياد في العهد القديم تشير لذبيحة المسيح في جوانب كثيرة. ذبيحة الإفخارستيا هي امتداد لذبيحة الصليب. الإنسان حر دومًا ليختار ما بين الحياة والموت في كل ما يقوم به من أعمال كل يوم.

قصة

قرر شاب في الحداثة من عمره أن يعيش الحياة للملء، فترك أسرته وجاب مدن العالم الشهيرة بهدف اكتشاف العالم. وفي أثناء ذلك قرر أن يدرس المحاماة؛ إذ كان ذكيًّا جدًّا. ودرس معها أيضًا فن الخطابة والفلسفة؛ إذ كان يمتلك بجانب ذكائه الحاد، شخصية قوية، وفصاحة وقدرة على الإقناع لا تبارى.

ورغم كل ذلك كانت نظرة ذلك الشاب للعالم أقرب إلى العبثية! مثل شخص ينظر إلى لُعبة يتسلى بها فترة حتى يفرغ منها ثم يلعب بغيرها في أنانية شديدة؛ حتى إنه في إحدى المرات مر على حديقة جميلة يملكها شخص وكانت بها شجرة جميلة ومثمرة، فأخذ يقذفها بالحجارة كي يفسدها فلا يتمكن أحد من الاستمتاع بها بعده! عاش حياته في فسق وفجور تام! وإنغمس في العالم مجربًا كل أنواع المُتع والملذات الجسدية، مطلقًا شهوته للعنان! فارتاد مع رفاق السوء المسارح وسقط في الخطية مرارًا. وأنجب من أحد علاقته (خارج الزواج) ابنًا توفي فيما بعد في سنٍ صغيرة.

كانت نظرته للمسيحية سطحية جدًّا، معتبرًا إياها مجرد فلسفة، كغيرها من فلسفات العالم البالية. ولم يعر لله أي اعتبار، بل كان كثيرًا ما يسخر من المسيحية! وفي إحدى المرات سمع صوت

يقول له "خذ الكتاب وإقرأه"! فقرر أن يقرأ الكتاب المقدس وأعجب جدًّا بفصاحة بولس الرسول وإلمامه بالفلسفة، حتى وصل لمقطع من رسالة رومية لفت انتباهه، والذي فيه يقول بولس الرسول: "هذا وإنكم عارفون الوقت، إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم، فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنا، قد تناهى الليل وتقارب النهار، فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور، لنسلك بلياقة كما في النهار، لا بالبطر والسُّكر، لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد، بل البسوا الرب يسوع المسيح، ولا تصنعوا تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات" (رو١٣:١١-١٤).

هنا تلامس مع الإله الشخصي المختبىء بين السطور، وشعر بأن الكلام يحمل رسالة شخصية له، وأنه ليس أمام حبر وورق مكتوب عليه نظريات فلسفية، بل أمام إله حي قائم من بين الأموات يحبه شخصيًّا ويبحث عن خلاصه! إنفتح ذهنه وقلبه على الله في ذلك اليوم، بل وحواسه كلها ليدرك عمق الخطية التي كان فيها وبشاعتها. وانكشفت أمامه في ذلك اليوم نفسه على حقيقتها، ليدرك أنها كانت ميتة وهي بعيدة عن الله. وأن حياته كانت خاوية ومقفرة، ولم يكن شيء مما كان يفعله استطاع ملء ذلك الفراغ سوى الله!

كان يفتش عن الله بعيدًا، وإذا به يجده في داخله! أدرك عظم محبة الله وضعف حيلته أمام تلك المحبة. عرف أن الله اختاره وأحبه من البدء، وأنه رأى فيه إناء نافعًا للكرامة. طلب أن يعتمد وتعمد بالفعل ليعبر من الموت للحياة، مختبرًا قوة القيامة التي صار هو نفسه شاهدًا لها بحياته. لقد كان نموذجًا لشخص عاش ميتًا وقام بالفعل مع المسيح، وصار نموذجًا لمن كان جالسًا في ظلام وظلال الموت ثم أبصر نورًا!

كان هذا الشخص هو القديس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) ابن

الدموع؛ دموع أمه القديسة مونيكا التي كانت تبكي طالبة خلاصه لسنين عديدة. تبتل ورُسم فيما بعد أسقفًا على "هيبو" (حاليًّا مدينة تقع في الجزائر) ورعى شعبه باستقامة. كانت حياته نموذجًا لعمل نعمة الله مع الإنسان، ونموذجًا لما يستطيع الإنسان أن يصل إليه إذا تجاوب مع تلك النعمة.

فسر الكثير من أسفار الكتاب المقدس، وتصدى للهرطقات في زمانه، حتى صار أحد أشهر معلمي الكنيسة. لخص خبرته وحياته مع الله في عبارة صاغها، ما زالت خالدة عبر العصور: "لقد خلقتنا يا الله لأجلك، لذلك لن يهدأ القلب حتى يستقر فيك[1]"!

البشرية والذبائح

لقد تزامنت الذبائح مع البشرية (بعد السقوط)، وأصبحت تقترن دائمًا بالعبادة. وأول إشارة للذبيحة كانت عندما صنع الله لآدم وحواء أقمصة من جلد ليستر عريهما "وصنع الرب الإله لآدم وإمرأته أقمصة من جلد وألبسهما" (تك٣:٢١)، وكان في ذلك إشارة إلى المسيح الذبيحة الحقيقية، وثوب البر الحقيقي الذي نلبسه ونتحد به في سري المعمودية والإفخارستيا، حيث يقول معلمنا بولس الرسول "لأن كلكم الذين إعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح" (غل٣:٢٧)، وفي موضع آخر يقول أيضًا "إلبسوا الرب يسوع ولا تصنعوا تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات" (رو١٣:١٤). ويتكلم القديس غريغوريوس النيصي عن عمل الله في العهد الجديد قائلًا: "لقد أخرجنا الله من الجنة (جنة عدن) وهو يدعونا إليها ثانية، لقد جردنا من أوراق التين، تلك الثياب الوضيعة، وألبسنا ثانية ثياب الكرامة. لذا من الآن فصاعدًا، عندما ينادي آدم لن يكون خجلًا، أو واقعًا تحت تبكيت ضميره، مُخفيًا

[1] Augustine, *Confessions*, Penguin Books, England, 1961, Book VII, VIII.

نفسه وسط شجر الجنة، متغطيًا بورق التين، بل بعد أن لبس يقين البنوة وجرأتها (Παρρησία) يخرج في ضوء النهار الكامل[٢]".

ثم بعد ذلك نجد إشارة أخرى لذبيحة المسيح في حادثة تقديم إبني آدم قرابين للرب؛ حيث قَبِلَ الرب قربان هابيل البار والذي كان راعيًا للغنم "وكان هابيل راعيًا للغنم" (تك٤:٢) وفي ذلك إشارة للمسيح "الراعي الصالح"، والذي هو وحده بلا خطية، ولقد قدم هابيل من أبكار غنمه إشارة إلى المسيح "حمل الله" الذي بلا عيب والرافع خطايا العالم "وقدم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها" (تك٤:٤)، والذي هو "بكر كل خليقة" الذي هو صورة الله غير المنظور، بكر كل خليقة" (كو١:١٥)، وقَبِلَ الرب قربان هابيل، "فنظر الرب إلى هابيل وقربانه" (تك٤:٤)، إشارة إلى ذبيحة المسيح الذي صلب لأجل حياة العالم "بدون سفك دم لا تحصل مغفرة" (عب٩:٢٢)، ولم يقبل قربان قايين الذي حسد أخوه وقتله لأنه بار "ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر فإغتاظ قايين جدًّا وسقط وجهه" (تك٤:٥)، كما فعل اليهود مع السيد المسيح (الذي هو أخ لليهود بحسب الجسد لأنه من نسل إبراهيم جسديًا) حين قتلوه حسدًا وظلمًا وهو لم يفعل خطية.

وكانت **المرة الأولى** التي طلب الله (بنفسه) من الإنسان تقديم ذبيحة[٣] كانت حين طلب الرب من إبراهيم أب الآباء تقديم إبنه الحبيب إسحق كمحرقة[٤]: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق،

---

[2] Gregory of Nyssa, XLVI,600A.

[٣] من الجدير بالملاحظة أنه في كثير من اللغات ذات الأصل اللاتيني كالإنجليزية مثلًا؛ نجد أن كلمة "يضحي"، (sacrify) التي جاءت منها كلمة "ذبيحة" (sacrifice)، لها أصل مشترك مع كلمتي: "يقدس" (sanctify)، و "سر" (sacrament)، فالأشياء تتقدس من خلال تقديمها لله، أو بالتضحية بها لأجل الله.

[٤] لم يتكرر بعد ذلك أن طلب الرب مثل هذا الأمر، بل حرم تقديم أي ذبائح بشرية، وكان عقاب من يقدم ابنه كذبيحة أو محرقة القتل بحسب الناموس. إن الأمر بذبح إسحق ثم فدائه كان في خطة الله لإبراهيم التي كان يعلنها له تدريجيًا، فالله لم يطلب من إبراهيم في قسوة تقديم ابنه ثم رجع في قراره كما يسيء البعض الفهم.

واذهب إلى أرض المريا، وأصعده هناك محرقة، على أحد الجبال الذي أقوله لك" (تك٢:٢٢).

إن إنقاذ الله لإسحق من الموت كان رمزًا لإنقاذ الله للبشرية[٥] وتخليصها من الموت. فموقف الله في قصة إسحق هو نفسه الموقف العام لله من خليقته، وهو أنه إله منقذ، ومحب، ورحيم، وصالح. فعندما أوشك إبراهيم على ذبح ابنه ليكتمل الرمز، أرسل الله كبشًا موثقًا بقرنيه إلى شجرة ليذبح عوضًا عن إسحق، وكما عاد إسحق حيًا من جبل المُريا، هكذا قام المسيح حيًّا من الموت، وأقامنا كلنا فيه.

لقد صارت حادثة ذبح إسحق[٦] (قبل الناموس) رمزًا حقيقيًّا، ونموذجًا (Τύπος - Type) للذبيحة الحقيقية التي يريدها الله. وهي ذبيحة "الابن" الحبيب (المسيح) الذي قدمه الآب فداء لأجلنا: "الحمل الحقيقي الذي لله الآب[٧]"، وقدمها الابن بنفسه لأجل الجميع مرة واحدة وللأبد (once and for all): "لأنه هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له حياة أبدية" (يو٣:١٦). وهذه التقدمة هي بالروح القدس، كما يقول معلمنا بولس الرسول: "فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدم نفسه لله بلا عيب" (عب٩:١٤).

لقد صار ذبح إسحق رمزًا لذبيحة الإفخارستيا، التي هي نفسها ذبيحة الصليب، كما يوضح القديس "غريغوريوس النزينزي" بقوله: "إبراهيم أبو الآباء العظيم، قدم ذبيحة عجيبة! كانت رمزًا للذبيحة العظيمة غير الدموية (الإفخارستيا)[٨]."

---

[٥] يعد إسحق أبًا لشعب إسرائيل جسديًّا، وأبًا لكل مؤمني العهدين.

[٦] من أهم رموز ذبيحة الإفخارستيا في الكتاب المقدس: ذبيحة إسحق، تقدمة ملكي صادق، خروف الفصح.

[٧] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، إبصالية يوم الإثنين، الربع السادس عشر، ص ٢٧٦.

[8] Gregory Of Naziansus, *On God and Christ, The Five Theological Orations* , St. Vladimir's Seminary Press, Crestwood, New York, 2002.

إن تقديم إبراهيم للخروف في النهاية، يكشف حقيقة ما نقدمه لله؛ فنحن نقدم ما سبق وقدمه هو لنا. فالله قدم لإبراهيم الخروف، ليقوم إبراهيم بتقديمه لله ثانية! وهذا هو ما تقوم به الكنيسة في الإفخارستيا.

ولقد رتبت الكنيسة بإرشاد الروح القدس وضع قسمة[٩] ذبح إسحق في يوم خميس العهد الذي فيه تحتفل الكنيسة بتأسيس المسيح لسر الإفخارستيا لكي ينطبق في أذهاننا أن الذبيحة التي قدمها المسيح بإرادته على الصليب، والتي قد سبق وقدمها "سريًّا" في يوم خميس العهد، رمز إليها سريًّا بنوع مختلف قبل الناموس بحادثة ذبح إسحق.

إن قصة ذبح إسحق توضح كيف أن التضحيات التي يقدمها الفرد في حياته اليومية سواء كانت كبيرة أو صغيرة إذا قُدِّمَت لله بإيمان، كفعل إيمان، تحسب له برًّا.

إن ذبيحة المسيح حتى الآن هي حجر عثرة لليهود، فهم يرفضون كل الإشارات والنبوات عنها، معللين ذلك بأن كل الذبائح التي فرضها الله في الناموس (بعد إبراهيم بحوالى٤٠٠ سنة) كانت حيوانية، بينما ذبيحة المسيح بشرية. وغاب عن ذهنهم أن من أوضح الرموز عن ذبيحة الصليب والإفخارستيا كانت في أيام إبراهيم (قبل الناموس) حين قدم إسحق ابنه، وأيضًا تقدمة "ملكي صادق" غير الدموية "ملك ساليم"، التي كانت عبارة عن "خبز وخمر" والتي فسرها رمزيًّا كثير من الآباء معلمي الكنيسة مثل القديس كليمندس

---

[٩] صلاة "القسمة" هي صلاة تقال أثناء تقسيم الكاهن للجسد (بعد حلول الروح القدس عليه وتحوله) وهي تتغير بحسب المواسم كالأصوام، والمناسبات الكنسية كالأعياد السيدية وأعياد العذراء..إلخ. وتعتبر من الصلوات العميقة في الكنيسة لأنها غنية بإيمان الكنيسة وتعاليمها اللاهوتية، وكثيرًا ما تحتوي صلوات القِسَم على آيات وأحداث من الكتاب المقدس تحمل رموزًا، وإشارات خاصة بالخلاص والإفخارستيا من العهدين، أو آيات وأحداث ذات دلالة للمناسبة أو العيد.

السكندري على أنها رمز واضح وصريح عن الإفخارستيا حيث يقول: "ملكي صادق ملك ساليم كاهن الله العلي، الذي قدم خبزًا وخمرًا، قد هيأ بذلك طعامًا مقدسًا كمثال للإفخارستيا[١٠،١١]".

إستعلان المسيح كذبيحة

لقد تنبأ ملاخي النبي الذي هو آخر أنبياء العهد القديم (قبل يوحنا المعمدان) بوضوح عن ذبيحة العهد الجديد، معلنًا قرب مجيء ذبيحة جديدة لعهد جديد. الأمر الذي علق عليه القديس إيريناؤس، بقوله: " لقد علمنا (السيد المسيح) ذبيحة جديدة للعهد الجديد، والتي تسلمتها الكنيسة من الرسل وتقدمها لله في كل أنحاء العالم... بحسب نبوة ملاخي "لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم بين الأمم، وفي كل مكان يقرب لاسمي بخور وتقدمة طاهرة، لأن اسمي عظيم بين الأمم، قال رب الجنود" (ملا ١:١١)[١٢]".

لقد استُعلن المسيح الذي هو ابن الله منذ الأزل "مولود من الآب قبل كل الدهور[١٣]"، منذ يوم ولادته في هذا العالم **كقربان وذبيحة**. الأمر الذي يُظهر المغزى وراء مولده في مذود للبقر، في مدينة بيت لحم[١٤]

---

10 *Paed.*4,25.

١١ من الجدير بالملاحظة أنه في الطقس القبطي، يقوم الكاهن بعد اختيار القربانة التي ستتحول لجسد المسيح (طقس تقديم الحمل) برشم كل القرابين بالأباركة (عصير الكرم) قائلًا:

(ⲟⲩⲥⲟⲓ̀ Ⲁ̀ⲃⲣⲁⲁⲙ, ⲟⲩⲥⲟⲓ̀ Ⲓⲥⲁⲁⲕ, ⲟⲩⲥⲟⲓ̀ Ⲓⲁⲕⲱⲃ, ⲟⲩⲥⲟⲓ̀ ⲙ̀ⲫ̀ⲗⲉⲗⲭⲓⲥⲉⲇⲉⲕ.)

" ثيثيا أبرآم، ثيثيا إسَنَاك، ثيثيا ياكوب، ثيثيا ملشي صاداك" أي "ذبيحة إبراهيم، ذبيحة إسحق، ذبيحة يعقوب، ذبيحة ملكي صادق"، والكاهن بفعله ذلك يشير إلى أن ذبيحة المسيح (الإفخارستيا) هي ما سبق ورُمِزَ لها قديمًا بذبائح: إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وملكي صادق.

12 Ireneaus, op. cit., Book IV: 17.

١٣ قانون الإيمان.

١٤ "بيت لحم" تعني بالعبرية "بيت الخبز"، لقد اختار الله في تدبيره الخلاصي أن يولد السيد المسيح في مدينة بيت لحم بالذات، لدلالات كثيرة إحداها هي أن يستعلن السيد المسيح من أول يوم لميلاده أنه "الخبز الحي النازل من السماء" (يو٦:٥١)، وهذا الخبز الحي النازل من السماء هو الذي نتناوله في الإفخارستيا.

والتي هى كحبة خردل بين مدن يهوذا، كما تنبأ ميخا النبي قائلًا: "أما أنتِ يا بيت لحم أفراتة، وأنتِ صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا، فمنكِ يخرج لي الذي يكون متسلطًا على إسرائيل، ومخارجه منذ القديم، منذ أيام الأزل" (مي٥:٢).

ولقد كانت تُعرف مدينة بيت لحم في زمن المسيح على أنها "حظيرة الهيكل"! لأن رعاة قطعان الماشية التي تُؤخذ منها ذبائح الهيكل، كانوا يبنون حظائرهم فيها، لقرب موقعها من الهيكل ووفرة المراعي فيها. وبالأخص منطقة "برج القطيع"[١٥] التي كانت تحفظ الخراف في حظائرها ثلاثين يومًا قبل أن تقدم في الهيكل[١٦].

هذه المنطقة التي تنبأ عنها ميخا النبي بالتدقيق أنه منها يأتي المسيح (المسيا)، أي من هذه المنطقة بالذات في بيت لحم التي هي أساسًا قرية صغيرة قائلًا: "وأنتَ يا برج القطيع (مجدال عيدار)، أكمة بنت صهيون إليك يأتي (المسيا)" (مي٤:٨). ولقد جاء في التقليد اليهودي "التلمود" أنه من بيت لحم ومن منطقة "برج القطيع" بالذات ستعلن البشارة بالمسيا "من فوق مجدال عيدار (برج القطيع) ستعلن بشارة المسيا"[١٧]. ولقد تحقق ذلك حين ظهر جمهور من الجند السماوي مبشرين رعاة المنطقة قائلين: "وكان في تلك الكورة (برج القطيع) رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم، وإذا ملاك الرب وقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم، فخافوا خوفًا عظيمًا، فقال لهم الملاك: لا تخافوا؛ فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب: أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب" (لو٢:٨-١١).

---

[١٥] تُعرف باسم "مجدال عيدار" بالعبرية ولها نفس المعنى، أي "برج القطيع"، وهي المنطقة التي تقع فيها كنيسة المهد حاليًا.

[16] Edersheim, A., *The Temple its ministry and services*, Kregel Classics, 1997, p.187.

[17] *Mishnah*,shek.VII,4.

كما نرى أيضًا بعد ميلاد المسيح أن القديسة مريم العذراء، دخلت بالمسيح للهيكل في اليوم الأربعين لمولده، ليستعلن من جديد كقربان. فقد حملته مريم وقدمته للكاهن سمعان الشيخ، ليحمله على يديه كما يحمل الذبائح وخبز الوجوه، مشيرًا بذلك إلى حقيقة المسيح كقربان وذبيحة إلهية مقبولة، تُقدم لأجل خلاص العالم! وبما أن العذراء هي أم الكنيسة بل ومثال ورمز فائق لها، نجد أنه كما أن العذراء أعطت المسيح لنا من خلال تجسده منها، هكذا الكنيسة العذراء أمنا تعطينا المسيح الذي هو قربان العالم في الإفخارستيا.

إن يوحنا المعمدان الذي هو أعظم مواليد النساء، ابن زكريا الكاهن[١٨] لم يقدم ذبائح حيوانية مثل أبيه حسب الكهنوت الهاروني، بل في الحقيقة قدم علانية المسيح كحمل الله[١٩،٢٠] الحقيقي للعالم. وذلك مباشرة قبل بدء المسيح خدمته العلنية، فشهد له قائلًا: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم" (يو١:٢٩) لتصير معموديته للمسيح (في أحد أوجهها) تشبه غسل الكاهن في العهد القديم للذبائح، كجزء من طقس إعدادها وتهيئتها وتقديسها قبل تقديمها للذبح!

---

[١٨] أحد ألقاب يوحنا المعمدان في صلوات الكنيسة القبطية هو "الكاهن إبن الكاهن".

[١٩] من الجدير بالملاحظة أنه في الكنيسة الأثوذكسية يسمى القربان الذي سيتحول لجسد الرب "حملاً"، كما يسمى في الطقس القبطي، الجزء الأول من قداس الموعظين، "طقس تقديم الحمل" لأن المسيح هو الحمل الحقيقي والفصح الحقيقي الذي أبطل عز الموت وعبر بنا من الموت إلى الحياة.

[٢٠] كلمة "حمل" بالعبرية التي قالها يوحنا المعمدان للسيد المسيح (يو١: ٢٩) هي "Talia" وهي تعني "خادم" أو "فتى" أو "حمل" ومن هنا نرى أنه عند عماد السيد المسيح في نهر الأردن استعلن كابن "فتى الله" (نش ٥:١٥؛ أع٤:٣٠)، حيث صوت الآب شهد له بأنه هو "الابن الحبيب" (مت٣:١٧؛ مر١:١١؛ لو٣:٢٢). وهذا "الابن" هو نفسه "خادم" الخلاص (إش:٥٣) الذي سيقدم نفسه "كحمل" يُذبح رافعًا خطايا العالم، صانعًا بنفسه فصحًا أبديًا. انظر:

- Joachim Jeremias."Amnos" In: *Theological Dictionary of the New Testament*. Edermans, Grand Rapdis, Mich., 1964, Vol.I, pp. 338-340.

الإفخارستيا كذبيحة كفارة

لقد كان لبعض ذبائح العهد القديم بُعد كفّاري[٢١] للخطايا. ففي نظر اليهود كانت الخطايا تغطى بالدم إلى أن يأتي المسيح المخلص "المسيا" الذي هو الذبيحة الكفارية الحقيقية التي تمحو الخطايا وتغفرها "وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم" (مت١:٢١) ويتضح هذا المعنى بوضوح في العهد القديم في عيد الكفارة.

فعيد الكفارة أو يوم الكفارة كما يدعى في العبرية (Yom Kibbor)، وتذكره كتب التقليد اليهودي (المشناه) بأنه "اليوم"[٢٢] لتميزه عن أي عيد آخر؛ فهو اليوم الوحيد في السنة الذي ينطق فيه اسم "يهوه"[٢٣]، وهو أيضًا اليوم الوحيد الذي يدخل فيه

---

٢١ كلمة "كفارة" العربية مأخوذة من كلمة العبرية "كَفَرَ" تعني "غطاء"، (cover) ومنها جاء الفعل في اللغة العربية "يكفر" و "كفارة"، وقد كان اليهود يؤمنون بحسب تقليدهم أن الدور الذي تقوم به كل الذبائح يقتصر فقط على تغطية الخطايا والآثام والتعديات، إلى أن يأتي المسيا الذي سيرفع خطايا العالم. ولقد وردت كلمة "كفارة" ٤ مرات في العهد الجديد على النحو التالي:

١- (رو٣:٢٤-٢٥) حيث يظهر أن الآب هو مقدم الكفارة.

٢- (عب٩:٥) كإسم لغطاء تابوت العهد "كرسي الرحمة".

٣- (١يو ٢:٢) السيد المسيح هو الكفارة؛ فالابن هو الغطاء والتكفير والتحرير من الخطايا.

٤- (١يو ٤:١٠) الابن هو الكفارة التي نحيا بها، فالآب قد أرسله تحريرًا لنا.

٢٢ يحظى يوم "الكفارة" بمكانة كبيرة لدى اليهود، إذ يرون أنه اليوم الذي أخطأ فيه آدم، واليوم الذي تاب فيه، واليوم الذي إختتن فيه إبراهيم، واليوم الذي نزل فيه موسى من الجبل ورأى شعبه يعبدون العجل الذهبي، فقدم في ذلك اليوم كفّارة عن خطية الشعب، للمزيد حول هذا الموضوع، انظر:

- Edersheim, A., The Temple its ministry and services, op. cit., 1997.

٢٣ يعامل اليهود اسم "يهوه" بقداسة شديدة جدًّا فلا يسمح لأحد مهما كان أن ينطق باسمه أبدًا، لذلك كانوا عند قراءة الأسفار المقدسة يستبدلون اسم "يهوه" بألقاب أخرى للرب مثل "أدوناي" أي "السيد" أو لقب "المُبَارَك"، وعند الرغبة في الإشارة إلى اسم "يهوه" بالذات يقولون لفظة "الاسم" ("ها شِمْ" Ha Schem) عوض عن نطق "يهوه"، فقط في يوم الكفارة كان يسمح لرئيس الكهنة أن ينطق اسم "يهوه" عشر مرات (رقم عشرة أحد الأرقام التي ترمز إلى الكمال وإلى وصايا الرب الكاملة الممثلة في "الوصايا العشر") على رأس التيسين الذين يقدما في هذا اليوم، على نحو التالي: ثلاث مرات على رأس الثور حين يعترف رئيس الكهنة بخطاياه هو خاصة، وثلاث مرات أخرى على رأس نفس الثور عندما

رئيس الكهنة وحده بدم الذبيحة لقدس الأقداس، لينضح (يرش) الدم على "غطاء" تابوت العهد الذي يسمى أيضًا "كرسي الرحمة" (Mercy Seat)[٢٤] سبع مرات، كعلامة على إكتمال الغفران والرحمة من خلال دم الذبيحة. الأمر الذي يرمز بوضوح لذبيحة المسيح، وكما يتضح في رسالة العبرانيين وصلوات الكنيسة "من قبل رشاش دمه المقدس طهر المؤمنين شعبًا مبررًا"[٢٥]، وهذا الدم[٢٦] الذي يجلب المغفرة والرحمة العظمى، هو نفسه الذي يوجد داخل الكأس في كل إفخارستيا!

إن دخول الكاهن لقدس الأقداس في عيد الكفارة أحد أعياد

يعترف رئيس الكهنة لأجل سائر الكهنة، ومرة سابعة عندما يلقي القرعة على التيسين لتحديد التيس الذي ليهوه، وثلاث مرات على رأس التيس الذي وقعت عليه القرعة، وفي كل مرة يذكر رئيس الكهنة اسم "يهوه" يخر كل الواقفين بجواره بوجوههم إلى الأرض، ويرد الجميع قائلين: "فليكن اسم الرب مباركًا، المجد لمملكته إلى أبد الأبد"، وهذا الأمر له دلالة هامة في العهد الجديد كما يتضح في رسالة العبرانيين (الإصحاح التاسع) حيث ذكر الاسم يعني الشخص ذاته، ومخاطبة الشخص باسمه يدل على العلاقة الشخصية معه، ففي ذبيحة الكفارة يستعلن الله لشعبه أنه "يهوه" الغافر، فدخول رئيس الكهنة في العهد القديم مرة واحدة لقدس الأقداس بدم الذبيحة ونطقه لاسم "يهوه"، يشير إلى المسيح رئيس الكهنة الأعظم الذي بدم نفسه دخل مرة واحدة إلى الأقداس العليا صانعًا فداءً للشعب كله، ومن ثم صار لنا نحن فيه الدخول والتقدم بجرأة بدمه (دم المسيح) إلى أمام عرش النعمة في السماء، ونحن في الإفخارستيا نتناول هذا الدم الذي به نتقدم أمام الله، وتصير لنا جرأة وثقة للدخول في علاقة شخصية معه، فنجسر أن نخاطبه في القداس الإلهي بدالة البنين قائلين "أبانا الذي في السموات"!

[٢٤] يسمى "كرسي الرحمة" الذي كان غطاءً لتابوت العهد باليونانية والقبطية "الإستيريون" (ἱλαστήριον) وتعني " كفارة أو غطاء أو ستر"، مرادفة لكلمة "كفارة" في العبرية، أو (cover) بالإنجليزية.

[٢٥] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ثيؤطوكية يوم الأحد، القطعة الأولى، الربع السادس، ص٢١٠.

[٢٦] في العهد القديم كان "الدم" يمثل الحياة، وهناك فرق بين سفك الدم للقتل وسفك الدم كتقدمة حياة كما في ذبائح العهد القديم وذبيحة المسيح، فالسيد المسيح بموته قدم حياته، ليصير بذلك دم المسيح دم العهد والحياة، والعهد القديم يوضح ما يمثله الدم:

١- الدم هبة حياة تقدس الكاهن والمذبح (لا١٤: ٦-٢٠).

٢- الدم يقدس الشعب وعلامة على العهد "علامة حياة" فالعهد مع الله لا يقدم بعلامة موت، بل هو عهد للحياة.

٣- الدم يطهر الشعب (لا١٦:٣٠).

٤- الدم حماية ووقاية من الموت كما في الفصح الذي صنعه موسى عند خروجه من مصر.

العهد القديم، كان رمزًا لصعود المسيح جسديًا بذبيحة نفسه، إلى السموات (الأقداس العليا) "وليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه، دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد (فأوجد) فدائًا أبديًا" (عب٩:١٢).

ولقد صنع أيضًا هارون نوعًا آخر من التكفير عن الشعب (بدون ذبائح)، حين تذمر الشعب على موسى وهارون بسبب الفتنة التي صنعها قورح، وداثان، وأبيرام؛ فضرب الرب الشعب بوباء أهلك الآلاف، فأمر الرب بأن ينزل هارون ويرفع بخورًا تكفيرًا (بمعنى التطهير والتخصيص لله) عن الشعب، ويقف بين الموتى والأحياء.

وصار هذا الأمر رمزًا لذبيحة المسيح الكفارية، فهارون رئيس الكهنة كان رمزًا لمخلصنا، وذبيحة المسيح نفسها كان يرمز لها أيضًا بالبخور الذي هو رائحة سرور للرب، "أسلم نفسه لأجلنا، قربانًا وذبيحة لله، رائحة طيبة" (أف٥:٢). وهذا المعنى تمارسه الكنيسة في الإفخارستيا حين تصلي في وقت دورات البخور. فالكاهن يكون مثل هارون الممسك بالمجمرة ليقف بين الموتى والأحياء، الذين هم رمز للخطاة التائبين وبقية المؤمنين "لأنه هناك يرفع الله خطايا الشعب من قبل المحرقات ورائحة البخور[٢٧]".

إن أحد الأمور التي تميز ذبيحة المسيح الكفارية[٢٨] عن أي ذبيحة أخرى سواء قبل الناموس أو بعده، أن المسيح فيها هو الكاهن والذبيحة في آنٍ واحد على نحو عجيب! حتى صارت هذه الأعجوبة

---

٢٧ لحن "شاري إفنوتي ϯⲥⲁⲣⲉ ⲫⲛⲏⲩ"، مرد الإبراكسيس في الصوم الكبير.

٢٨ الكفارة التي صنعها السيد المسيح تعني "التطهير من الخطايا والتقديس" أي التخصيص لله. وقد رُمزَ لذلك في العهد القديم بذبائح وأعمال التكفير المختلفة، مثل تطهير المذبح الذي أمر به الرب في الناموس حيث يقول: "وتطهر المذبح بتكفيرك عليه، ومسحه لتقديسه" (خر٢٩:٣٦)، وفي موضع آخر يقول أيضًا "والمذبح يُكَفَّر" (لاو١٦:٣٣). وفي العهد الجديد الاشتراك في الإفخارستيا؛ التي هي نفسها ذبيحة المسيح الكفارية يمنح الشخص التطهير ويعاد تخصيصه لله "لأنه في هذا اليوم يُكَفَّر عنكم لتطهيركم من جميع خطايكم أمام الرب تُطهَّرون"(لاو١٦:٣٠) لذلك يصلي الكاهن بعد تحول القرابين قائلاً: "لكي نتناول من قدساتك طهارة لأنفسنا..إلخ."

تسبحة الكنيسة حيث تقول: "شبهوا رئيس الكهنة بمخلصنا (الذي هو أيضًا) الذبيحة الحقيقية لمغفرة الخطايا[٢٩]"، وأيضًا تسبح الكنيسة مخلصها قائلة: "هذا الذي أصعد ذاته (ككاهن)، ذبيحة مقبولة على الصليب، عن خلاص جنسنا، فإشتمه أبوه الصالح، وقت المساء على الجلجثة[٣٠]".

إن نفس الأمر يحدث في الإفخارستيا التي هي امتداد لذبيحة الصليب، فالمسيح هو الكاهن والذبيحة في آنٍ واحد. فنحن لا نعيد صلبه، وقيامته في كل قداس وفي كل كنيسة، وعلى كل مذبح. ولا المسيح يصلب نفسه ويقوم من جديد في كل قداس، لأنه صلب وقام مرة واحدة لأجل الجميع، كما تؤمن الكنيسة ويشهد التاريخ أن ذلك تم فعلاً مرة واحدة في عهد بيلاطس البنطي، وطيباريوس قيصر.

إن المقصود من ما تقوم به الكنيسة من "ذِكْرَى" "أنامنسيس" (Ἀνάμνησις) في الإفخارستيا؛ هو أننا **نستحضر هذه الذبيحة الأبدية بكل مفاعيلها في الزمان الحاضر**، فالكنيسة إذا جاز التعبير "تُأون" أو "تُأينّ" ذبيحة المسيح المقامة أي تجعلها "هنا والآن" (Here and Now) أي هنا على المذبح الذي تقدم عليه الإفخارستيا، والآن في كل وقت يصلى فيه القداس الإلهي.

ويشرح القديس يوحنا ذهبي الفم حقيقة ما يحدث في كل إفخارستيا بقوله: "إن تقديم الذبيحة في أماكن كثيرة لا يعني أن هناك مسحاء كثيرون. بل إن المسيح واحد في كل مكان، فهو هنا

---

٢٩ الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ثيؤطوكية الأحد، القطعة الخامسة عشر، الربع الثالث عشر، ص ٢٥٢.

٣٠ يعرف بلحن "فاي إيطاف إنف ⲫⲁⲓ ⲉⲧⲁϥⲉⲛϥ" ويحتل هذا اللحن مكانة هامة في صلوات الكنيسة، فهو يعتبر اللحن الرئيس للصليب، لذلك يقال في عيدي الصليب ويوم الجمعة العظيمة (في الساعة السادسة والتاسعة)، كما يقال في تسبحة نصف الليل كجزء من ثيؤطوكية يوم الأحد "القطعة الخامسة عشر، الربع الخامس عشر والسادس عشر"، ويصليه أيضًا الكاهن سرًّا أثناء دورات البخور فيما يعرف بالأرباع الخشوعية.

بكامله، وهناك بكامله أيضًا. هو جسد واحد؛ إذ بالرغم من أنه يُقَدم في أماكن عديدة، إلا أنه جسد واحد وليس أجسادًا كثيرة. هكذا فالذبيحة هي واحدة أيضًا ورئيس كهنتنا هو ذاك الذي قدم هذه الذبيحة. وهو الذي يطهرنا من الخطايا. هذه الذبيحة التي نقدمها الآن هي التي قدمت آنذاك. فهي الذبيحة غير المتغيرة. وهذا يمثل تذكرة لما حدث (حين قدم المسيح نفسه ذبيحة) لأنه يقول: "اصنعوا هذا لذكري"، وهذا لا يمثل تقديم ذبيحة أخرى، كما كان يصنع رئيس الكهنة في العهد القديم، بل إننا نقدم نفس الذبيحة، وهذا هو معنى الذِّكْرَى (Ἀνάμνησις)[٣١]".

إن الكنيسة تعبر عن هذا المعنى في قداس الموعوظين قائلة: "المذبوح نظروه، المذبوح كائن معكم، المذبوح معلق على الصليب[٣٢]"، وتعود لتعبر عنه وتؤكد عليه في قداس المؤمنين قبل تحول القرابين مباشرة فتقول: "ففيما أيضًا نحن نصنع ذِكْرَ آلامه المقدسة، وقيامته من الأموات وصعوده إلى السموات وجلوسه عن يمينك أيها الآب، وظهوره الثاني الآتي من السموات، المخوف والمملؤة مجدًا، نقرب لك قرابينك[٣٣]".

---

[٣١] القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير رسالة بولس الرسول إلي العبرانين*، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، العظة السابعة عشر.

[٣٢] لحن "آبيت جيك إيفول ⲁ ⲡⲉⲧϫⲏⲕ ⲉ̀ⲃⲟⲗ" أي "الكامل بركة أبيه"، لحن مقدمة رسائل الكاثوليكون "قبطي".

[٣٣] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، ص ٢٣٠، ٣٤١. يلاحظ أيضًا أننا في الإفخارستيا لسنا فقط نصنع ذكر (Ἀνάμνησις) الصلب والقيامة والصعود، بل أيضًا نصنع ذكر المجيء الثاني المنتظر(حدث مستقبلي)، مما يؤكد أن المقصود بالذكر هنا ليس التذكر العادي لأمور ماضية (remember, recall)، والذي يعبر عنه في أسفار العهد الجديد بكلمة (Μνάομαι) التي تعنى "أذكر"، "أتذكر" وقد وردت ٢١ مرة في العهد الجديد، بينما (Ἀνάμνησις) تعنى أننا ونحن في الحاضر نستطيع أن نستحضر شئ من الماضي بكل مفاعيله، كما وأيضًا نستطيع أن نستحضر شئ سيحدث في المستقبل كالمجيء الثاني والملكوت، كجزء من السر.

موسى جديد لعهد جديد

لقد وعد الله شعبه في العهد القديم بأنه سيقيم لهم نبيًا مثل موسى من وسط إسرائيل: "أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك (مثل موسى)، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي، الذي يتكلم به باسمي، أنا أطالبه" (تث١٨:١٥،١٨،١٩؛ أع٣:٢٣؛ ٧:٣٧)، ولقد ظل اليهود منتظرين تحقيق ذلك الوعد حتى زمن مجيء السيد المسيح. فقد كانوا يؤمنون بحسب التلمود الذي كان يعلم به "الرابيون" الروحيون[٣٤]، أنه من علامات المسيا المنتظر أنه سيأتي "**موسى جديد**، يصنع عبورًا جديدًا، وفصحًا جديدًا، وعهدًا جديدًا، ويدخل شعبًا جديدًا، أرضًا جديدة"! لذلك سأل الفريسيون يوحنا المعمدان إن كان هو النبي قائلين "ألنبي أنت؟" (يو١:٢١).

يذكر الكتاب أنه بعد قيام السيد المسيح بمعجزة إشباع الجموع تنبه الشعب إلى أن تلك المعجزة شابهت إطعام موسى لشعب إسرائيل في البرية. الأمر الذي جعل البعض يفكر في إمكانية أن يكون المسيح هو "النبي" الذي تنبأ عنه موسى: "فلما رأي الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم" (يو٦:١٤). حينئذٍ رفع المسيح أعينهم لا للطعام البائد (الذي يزول)، بل لخبز الحياة الذي هو المن الحقيقي مشيرًا إلى جسده.

لقد تحقق مجيء موسى الجديد بتجسد المسيح، الذي كان موسى يرمز له في أمورٍ كثيرة. فموسى كلم الله وجهًا لوجه

[٣٤] "الرباه" ومفردها "ربوني" أو "رابي" باللغة العبرية هم معلمو الشريعة مثل "مُعلم" في اللغة العربية، وكان في أيام السيد المسيح بجانب معلمي الشريعة الروحيين، معلّمون "رباه" للشريعة آخرون يخلطون الدين بالسياسة، ففسروا المسيا بأنه سيكون قائدًا عسكريًا وروحيًا مثل يهوذا المكابي (كان قائدًا عسكريًا بجانب كونه أحد رؤساء الكهنة). يقوم بثورة يطرد فيها الرومان. ويرد لشعب إسرائيل مجد المملكة المتحدة التي كانت أيام داود النبي وسليمان من بعده.

(خـر٣٣:١١)، بينما السيد المسيح هو الابـن الوحيد "أنـا والآب واحـد" (يو١٠:٣٠) قائلًا عن نفسه أن من رأه قد رأى الآب. موسى كان وسيطًا للعهد القديم؛ بينما المسيح صار هو وسيط العهد الجديد، موسى أعطى الشعب الناموس (كلمة الله المكتوبة)؛ والسيد المسيح (الكلمة المتجسد) كان هو نفسه واضع ومتمم الناموس والشرائع الإلهية.

لقد أعطى موسى الشعب "المـن" من السماء؛ أما المسيح فأعطانا "جسده الإلهـي" الـذي هو المن الحقيقي وخبز الحياة: "هـذا هو الخبز الـذي نـزل من السماء، ليس كما أكـل آبـاؤكـم المـن ومـاتـوا، من يأكل هذا الخبز فإنه يحيا إلى الأبد" (يو٦:٥٨). لذلك تسبح الكنيسة المسيح الذي صار خبز حياة لنا أثناء التناول قائلة: "خبز الحياة الذي نزل من السماء، ووهب الحياة للعالم[٣٥]".

لقد أنبع موسي مـاء من الصخرة الـتي كانت رمـزًا للمسيح[٣٦]، "وجميعهم شربوا شرابًا واحدًا روحيًّا، لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم، والصخرة كانت المسيح" (١كو١٠:٤). وتذكارًا لذلك كان رئيس الكهنة في "عيد المظال" يكسر جرة من الفخار، مملؤة مـاءً من بركة سلوام على المذبح، ويسكب في نفس الوقت خمرًا على المذبح وهو يقول: "اليوم تستقون مياهًا بفرح من ينابيع الخلاص" (إش١٢:٣)؛ وفي القداس الإلهي نرى الكاهن أثناء طقس تقديم الحمل يصب هو أيضًا الخمر والمـاء في الكأس على المذبح مصليًا صلاة الشكر.

إن السيد المسيح قد أعطانا دمه الكريم لنشرب، فهو الذي خرج من جنبه دم وماء، وصار ينبوعًا للخلاص، "لكن واحدًا من العسكر طعن جنبه بحربة، وللوقت خرج دم وماء" (يو١٩:٣٤).

---

[٣٥] لحن "بي أويك אוזוזוז

لقد أعطى الله كل ذلك لموسى لكي يطعم ويسقي شعبه في البرية. وبالرغم من ذلك (بسبب عصيانهم وتذمرهم المستمر) هلكوا في البرية! أما من يثبت في المسيح فله حياة أبدية: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه" (يو٦:٥٦).

إن القديس أمبروسيوس (أسقف ميلان، القرن الرابع) يرى في الصخرة التي سقت شعب الله في البرية صورة لكأس الإفخارستيا التي تسقي شعب الله الجديد (الكنيسة) مانحة إياه الخلاص والحياة الأبدية، فيكتب قائلًا: "هم شربوا من الصخرة التي كانت ترافقهم، وهذه الصخرة كانت المسيح، إنها لم تكن مجرد صخرة ثابتة، تلك التي تبعت الشعب. وأنتم أيضًا يجب أن تشربوا حتى يرافقكم المسيح. انظر السر: موسى كان هو النبي. وبعصاه التي كانت هي كلمة الله، ضرب الصخرة فتفجر الماء وشعب الله ارتوى، هكذا الكاهن يلمس الكأس فيتفجر ماء داخلها (الماء يرمز أيضًا إلى دم السيد المسيح)، يُعطى لحياة أبدية[٣٧]".

لقد أعطى الله موسى رئيس الأنبياء "الفصح" لِيُخَلِّص به كل من يأكله من الموت، ويعبر بهم إلى أرض الموعد؛ **أما السيد المسيح فقد صنع فصحًا جديدًا حقيقيًّا (الإفخارستيا) يُخَلِّص من يتناوله من الموت، مانحًا إياه حياة أبدية** بحسب تعليم القديس أثناسيوس الرسولي "لأنه بذبيحة جسده الذاتي وضع نهاية لناموس الموت الذي كان قائمًا ضدنا، وصنع لنا بداية جديدة للحياة، برجاء القيامة الذي أعطاه لنا[٣٨]"، وعهدًا جديدًا بدم صليبه، وعَبَر بشعبٍ جديد (اليهود والأمم) إلى أرض كنعان جديدة (أورشليم السماوية)!

---

٣٧ القديس أمبروسيوس، *الأسرار*، ترجمة بيت التكريس لخدمة الكرازة، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، الكتاب الرابع.

٣٨ البابا أثناسيوس الرسولي، *تجسد الكلمة*، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة السادسة، ٢٠٠٩، ٥:١٠.

فصح جديد من داخل الفصح القديم

لقد كان في العهد القديم بحسب الناموس ثلاث أعياد رئيسة يجب على كل ذكر في إسرائيل أن يأتي ويحتفل بها أمام الرب وهي: عيد الفصح[٣٩]، وعيد الأسابيع[٤٠]، وعيد المظال، "ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب، في المكان الذي يختاره في عيد الفطير (الفصح)، وعيد الأسابيع، وعيد المظال" (تث١٦:١٦).

وكان "عيد الفصح" (والفطير) هو أهم عيد في الثلاثة أعياد، فبه كانت تبدأ السنة الدينية. لذلك يعتبره اليهود عيد الأعياد، ومحورًا لبقية أعياد السنة[٤١]، وكانت تعتبر ذبائح عيدي الفصح والكفارة محورًا لذبائح الناموس كله!

كما ارتبط الفصح بحياة شعب الله في العهدين (وخصوصًا عند عبورهم من مرحلة إلى مرحلة)، فنرى مثلًا أن شعب الله صنع الفصح لأول مرة حسب وصية الرب عند خروجهم من أرض مصر (خر١٢:)؛ أرض العبودية[٤٢]. ويسجل لنا الكتاب أن شعب إسرائيل صنع الفصح مباشرة فور دخوله أرض الموعد في أيام يشوع بن نون (يش٥:١٠)، كما صنعه الشعب عند عودتهم من السبي البابلي أيام عزرا (عز٦:١٩-٢٢)، وأخيرًا أسس المسيح الإفخارستيا مع تلاميذه، وصنع فصحه الخلاصي في زمن الفصح اليهودي، لينطبق بذلك الرمز على الحقيقة.

---

٣٩ كلمة "فصح" كلمة عبرية من "بيصاخ" وتعني عبور "Pass over"، ومنها اشتقت أيضًا الكلمة اليونانية والقبطية "بصخة" بنفس المعنى، انظر: معجم *اللاهوت الكتابي*، دار المشرق، بيروت، الطبعة السادسة، ٢٠٠٨، ص ٦٠٦.

٤٠ يسمى أيضًا بعيد الخمسين لأنه يأتي بعد خمسين يومًا من الفصح.

٤١ السنة الليتورجيا اليهودية تبدأ من شهر "نيسان"، "إبريل"، وبها ما يقرب من تسعة أعياد، سبعة أوصى بهم الرب في سفر اللاويين وهم: الفصح، الفطير، الباكورة، الأسابيع، الأبواق، الكفارة، المظال، وإثنين أضافهم الشعب وهما عيد "الفوريم" تذكار لخلاص اليهود أيام أستير من مكيدة هامان، وعيد "التجديد" الذي هو تذكار لتطهير الهيكل وإعادة تدشينه أيام يهوذا المكابي.

٤٢ عاش شعب إسرائيل في مصر أربعمائة سنة قضوا أغلبها في عبودية مُرة للمصريين.

بل إن **المرة الوحيدة التي ذكر فيها السيد المسيح "العهد الجديد" وأعلن عنه كانت في الفصح**[٤٣]، **عند تأسيسه للإفخارستيا** مع التلاميذ يوم خميس العهد، فكما أن العهد القديم صُنع بواسطة دم الذبائح مع إبراهيم أولاً ثم إسحق ويعقوب، ثم مع موسى من خلال ذبائح الناموس، كذلك العهد الجديد الأبدي أسسه المسيح بنفسه، وصنعه بذبيحته الفصحية، ذبيحة جسده: "هذه الكأس هي العهد الجديد، بدمي الذي يسفك عنكم" (لو٢٢:٢٠).

إن كل ذلك يشير إلى أهمية الفصح في الحياة الروحية للمؤمنين، فبه نعبر ونتحرر من العبودية، ويصير لنا دخول لأرض كنعان الحقيقية التي هي ملكوت السموات. هذا الفصح يحياه المؤمنون ويجددوه الآن من خلال سر الإفخارستيا! فالإفخارستيا بحق تحمل بداخلها **سر فصح العالم كله**، الذي صار بالمسيح!

لقد كان اليهود في زمن المسيح يحتفلون بالفصح بطقس طويل. يبدأ من اليوم الذي يسبق الفصح ويستمر لثمانية أيام[٤٤]. واحتفالات الفصح هذه كانت تحوي رموزًا وإشارات كثيرة عن السيد المسيح (المسيا) وتدبيره الخلاصي. ففي إطار الاحتفالات الطقسية بالفصح كانت تقام عدة موائد. في إحداها كان يقتدي الطقس بحسب التلمود[٤٥] أن يجلس أهل البيت ويتكئون (كما فعل المسيح مع

---

[٤٣] يؤمن اليهود بحسب تقليدهم أن المسيا سيعلن نفسه في زمن الفصح.

[٤٤] رقم ثمانية يرمز في الكتاب المقدس للقيامة والأبدية، فالمسيح قام يوم الأحد الذي يعتبر اليوم الثامن.

[٤٥] "التلمود" كلمة عبرية تعني"دراسة أو تعليم" ويقصد به التقليد اليهودي، فاليهود منذ القِدَم وإلى الآن، يؤمنون أن موسى النبي بعد تسلم الشريعة، مكث أربعين يومًا على الجبل يتسلم تفسير هذه الشريعة، وهي ما تسمى بالشريعة الشفوية (Oral Law). ثم قام موسى بتسليم هذه التفاسير لتلميذه يشوع بن نون، ويشوع بدوره سلمها للقضاة. وظلت تُسَلم من جيل إلى جيل حتى تم تدوينها كتابةً في القرن الثاني الميلادي على يد الرابيين "موسى بن ميمون" و "يهوذا هناسي." وللتلمود ستة أقسام وهي: الزراعة والأعياد والنساء والقانون المدني والجنائي والذبائح والتطهيرات. وللتلمود مصدران؛ أحدهما بابلي: "التلمود البابلي"، والآخر "التلمود الأورشليمي." والكتب التي تسجل التقليد اليهودي عديدة منها: "المشناه"

تلاميذه) "ولما كانت الساعة إتكأ والإثنى عشر رسولاً معه" (لو٢٢:١٤)، ويضعون على المائدة ثلاث خبزات (Mitzah). ويغطون الخبزة الثانية بعد كسرها بلفافة خاصة. ويقوم كبير العائلة بدفنه في مكان ما بالبيت. ثم يذهب الصغار ويفتشون عنها ويطلبونها من كبير العائلة الذي يخرجها لهم، ليقوم بمباركتها وتوزيع كِسَرِها على الحاضرين[٤٦]!

وكان الطقس يقتضي أيضًا وضع أربع كؤوس من الخمر على المائدة. والكأس الثالثة كانت تسمى "كأس الخلاص" أو "**كأس البركة**"[٤٧]. وهي على الأرجح الكأس التي تكلم عنها بولس الرسول مشيرًا إلى أنه منها صنع المسيح الإفخارستيا: "كأس البركة التي نباركها أ ليست هي شركة دم المسيح؟" (١كو١٠:١٦) وبذلك نرى

بمعني "يكرر أو يعلِّم أو يتعلِّم" وتتكون من ٦٣ فصلا، و"الجمارة" بمعنى "أنجز أو أكمل"، وهي التفسير الملحق بالمشناه بالآرامية، و "الترجوم" وهو الترجمة الآرامية للنصوص المقدسة العبرية مع شيء من التصرف، و "المدراش" وهو شروح للكتاب المقدس بأسلوب وعظي. وقداسة التلمود وأهميته لدى اليهود تماثل التوراة نفسها! معتبرين إياها توراة ثانية موحى بها من الله، تشرح التوراة الأولى! انظر كتاب:

- راهب من دير البراموس، *التلمود نشأته وتاريخه*، يناير ٢٠٠١، ص ١٧.
- القمص روفائيل البراموسي، *الحياة اليهودية بحسب التلمود*، طبعة أولى، ٢٠٠٣، ص ٧-١٩.
- معجم المصطلحات الكنسية، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ٢٦١.

٤٦ ما زال هذا الطقس يقوم به اليهود إلى الآن! وهو مدون في أحد الكتب الطقسية الخاصة بطقس احتفالات أعياد الفصح والفطير، ويسمى"الهاجَّادة" (Haggada) أي "الأخبار أو الحكي". إن طقوس الاحتفال بالمائدة الفصحية التي يحتفل بها اليهود ليلة عيد الفصح تحوي في الحقيقة رموز كثيرة عن موت وقيامة الرب (الفصح): حيث الثلاث خبزات ترمز للثالوث، والخبزة الثانية ترمز للأقنوم الثاني"الابن المتجسد"، وكسرها يرمز لموت المسيح، ولفها بكتان ودفنها في مكان يشير إلى تكفين المسيح ودفنه، وعملية البحث عنها ترمز لذهاب المريمات والتلاميذ للقبر، وإخراجها في النهاية يشير إلى قيامة المسيح المجيدة، ومباركتها وتوزيع كِسَرِهَا على الحاضرين يشير إلى الإفخارستيا حيث يبارك الخبز ويوزع على الحاضرين لينالوا بواسطة الإفخارستيا مفاعيل الصليب والقيامة، لغفران الخطايا وللحياة الأبدية. للمزيد انظر:

- lawerance A. Hoffman., Haggada of Pesah, *The Oxford Dictionary of Jewish Religion*, Oxford University Press,1997,p. 287-288.

47 *Mishnah*. Pesah. 10, Ber.VI.6.

كيف انطبق الرمز على الحقيقة؛ فالمسيح هو تحقيق وكمال الرموز والنبوات. فقد صار المسيح هو نفسه فصحنا وذلك بصلبه، ودفنه الثلاثي الأيام، وقيامته من بين الأموات: "لأن فصحنا أيضًا المسيح قد ذبح لأجلنا" (١كو٥:٧).

وبذلك نرى كيف أن السيد المسيح أسس الإفخارستيا التي هي فصح العهد الجديد من داخل الفصح اليهودي (ليلة الفصح)، "فقال اذهبوا إلى المدينة، إلى فلان وقولوا له المعلم يقول إن وقتي قريب، عندك أصنع الفصح مع تلاميذي" (مت٢٦:١٨)، فهو لم يهدم أو يلغي الأعياد القديمة، بل وَظَّفَ العيد القديم، وصنع منه عيدًا جديدًا من داخل العيد القديم، الذي يرجع لزمن موسى. فجدد بذلك عيد الفصح اليهودي، وجعله فصحًا إلهيًّا للخلاص، فصحًا جديدًا لعهد جديد، فصحًا أبديًّا.

لقد كان الشعب في العهد القديم يستعد للأكل من خروف الفصح بأن يكونوا لابسين وأحذيتهم في أرجلهم وكأنهم على وشك الخروج، مثلما حدث في الفصح الأول عند خروجهم من مصر. الأمر الذي يجعلنا نحن بالأولى كثيرًا أن نستعد قبل الاشتراك في فصح العهد الجديد الذي هو الإفخارستيا كما يقول ذهبي الفم في أحد عظاته: "إننا نحن أيضًا نأكل الفصح الذي هو المسيح... فينبغي علينا لأجل ذلك أن نأكله ونحن محتذين ومتمنطقين (أي مستعدين) ولماذا؟ لكي نكون نحن أيضًا مستعدين للخروج ولرحيلنا، فلا ينبغي لأحد ممن يأكل الفصح أن ينظر نحو مصر (رمز العبودية) بل نحو السماء، نحو أورشليم التي هي فوق[٤٨]".

إن الإفخارستيا تترك أثرًا في النفس لا يُمحى إذا حافظ الشخص عليه، كقول هيبوليتس (القرن الثالث) في عظة له عن الفصح: "إن دم خروف الفصح عندما مُسحت به أبواب البيوت كعلامة صار هو

---

[48] John Chrisistome, *Homilies on Ephesian*, Hom.XXIII.

السر القائم في ختم دم المسيح، نعم إن هذه العلامة لم تكن هي ذات الحقيقة بعد، لكنها فقط "مثال" (Τύπος) للحقيقة الآتية. فكل الذين يتناولون من هذا الدم (أي الإفخارستيا) فهو ينطبع على نفوسهم، كما حدث وانطبع على بيوت اليهود، عندما مسحوا به كأمر الناموس، فكل الذين مسحوا به (أي بالإفخارستيا) يعبر عنهم الهلاك. وبالإضافة إلى ذلك فالدم هو أيضًا علامة للخلاص، كما كان على البيوت كذلك على النفوس، لأن النفوس بالإيمان وبالروح القدس ما هي إلا بيوت (هياكل) مقدسة، هذا هو **سر البصخة العامة للعالم كله**."

لقد كان اليهود في زمن السيد المسيح يؤمنون أن اشتراكهم في عيد الفصح، هو إشتراك وحضور حقيقي للفصح الأول الذي صنعه موسى وشعب إسرائيل. وليس مجرد إعادة وتذكار لحدث تم وانتهى في الماضي. فهم يؤمنون أن الفصح الذي يصنعونه كل سنة هو **امتداد للفصح الأول "فصح موسى"!**

ومن هنا يمكن أن نفهم معنى وصية الرب: "إصنعوا هذا لذكري (أنامنسيس، Ἀνάμνησις)" (لو٢٢:١٩)، وكيف أن التلاميذ قد فهموا كلام المسيح من خلفية عيد الفصح القديم، فكل مرة سيصنعون فيها (الإفخارستيا) ستكون **امتدادًا وشركة** في الفصح (الإفخارستيا) الذي أسسه المسيح له المجد معهم، فهو ليس إعادة أو تكرارًا، بل **ذكرى حية مستمرة وحضور حقيقي!**

إن فصح العهد الجديد الذي صنعه المسيح لم يكن مجرد تذكار بسيط ساذج. ولا رمزًا أو تعبيرًا مجازيًا، ولا وسيلة إيضاح. بل هو حقيقة تامة "**أليثيا**"[٤٩] تتم على مستوى سري، عاينها التلاميذ والرسل وشهدوا لها وسجلتها لنا الأناجيل "جسدي مأكل حق (ἀληθής)،

[٤٩] "أليثيا" (Ἀλήθεια) كلمة يونانية جاءت ٢١مرة في العهد الجديد، وهي تستخدم للتعبير عن أقصى درجات الحق، الحق المطلق.

ودمي مشرب حق (ἀληθής)" (يو٦:٥٥). بل إنها صارت خبرة الكنيسة التي عاشتها وحفظتها عشرين قرنًا من الزمان وستظل شاهدة كما يقول بولس الرسول: "يسوع المسيح، هو هو، أمسًا واليوم وإلى الأبد" (عب١٣:٨). وهذا هو ما تؤكد عليه الكنيسة في تسبحتها حين تقول: "تغيب الشمس والقمر في زمانهما، وأنت هو أنت وسنوك لن تفنى[٥٠]".

وها هو القديس إغناطيوس الأنطاكي[٥١] يشهد على ذلك في أحد رسائله: "إنهم يمتنعون عن الإفخارستيا والصلاة، لأنهم لا يقرون بأن الإفخارستيا هي جسد مخلصنا يسوع المسيح، الذي تألم عن خطايانا، وبجوده أقامه الآب، فالذين يرفضون عطية الله يُزهقون (يفنون) في مجادلتهم[٥٢]." **وهكذا صار عدم الإيمان بحقيقة جسد الرب ودمه سمة لعدم استقامة الإيمان منذ القرن الأول الميلادي!** فآباء الكنيسة عبر العصور كثيرًا ما أكدوا على حقيقة جسد الرب الذي نتناوله في الإفخارستيا. فلولا تجسد الابن تجسدًا حقيقيًا وكاملًا من والدة الإله لما استطاعت الكنيسة أن تقيم الإفخارستيا، واصفين الجسد المقدس الذي نتناوله بأنه "**جسد الله**" حيث يقول القديس كيرلس الكبير: "نحن ندعو جسد المسيح جسدًا إلهيًا من حيث أنه جسد الله (ἐπειδὴ καὶ Θεοῦ σῶμα ἐστι)."[٥٣،٥٤]

---

٥٠ الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، إبصالية يوم الإثنين، الربع السادس والعشرون، ص ٢٧٨.

٥١ القديس"إغناطيوس الأنطاكي" كان أسقفًا لأنطاكية سنة ١٠٧م، كتب سبع رسائل وهو في طريقه للاستشهاد، ست منها موجهة لكنائس أفسس، ومغنيسيا، وترال، وروما، وفيلادلفيا، وسميرنا (أزمير)، بالإضافة إلى رسالة كتبها للقديس بوليكاربوس أسقف سميرنا. اشتهر بغيرة رسولية حارة، وتميزت كتاباته بالتركيز على الإفخارستيا، ووحدة الكنيسة، وأهمية الكهنوت في الكنيسة. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى ، مرجع سابق،٢٠٠٩، ص ١٤،١٥.

٥٢ القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أزمير ١:٧.

53 Cyril of Alex., *Letter I to Succensus*, ACO1,1,6.156.16.

٥٤ أخذ القديس كيرلس الكبير (المعروف بأنه الناسخ الجيد لكتابات القديس لأثناسيوس الرسولي) تعبير "جسد الله" من القديس أثناسيوس الرسولي (On Luke 4:38, PG 72,)

الإفخارستيا ذبيحة فصحية

لقد اصطبغت الإفخارستيا في حياة الكنيسة بصبغة فصحية منذ البداية؛ فكان اليوم الرئيس الذي تقام فيه الإفخارستيا في العصر الرسولي يوم الأحد[٥٥]، الذي هو تذكار للقيامة (الفصح) الذي هو ليس عيدًا كباقي الأعياد، بل هو "**عيد الأعياد**" كما تلقبه الكنيسة، وأصبح يوم "الأحد" يسمى باليونانية "الكيرياكي" (Κυριακή ἡμέρα) وتعني "يوم الرب"، ولقد كان القديس أغسطينوس (في الغرب) يرى أن يوم "**الأحد يحوي "سر الفصح** (Pashcal mysetry)"[٥٦]!

بينما القديس باسليوس الكبير (في الشرق) يعتبر يوم "الأحد" أنه باكورة أيام الأسبوع، بقوله: "لقد تقدس الأحد وتشرف بقيامة الرب ليصير هو باكورة كل الأيام الأخرى[٥٧]"، ويعتبره أيضًا بمثابة قيامة حقيقية للمؤمن، فهو يوم لا غروب له، حيث يقول: "الأحد هو اليوم الذي لا غروب له... هو الإعلان الدائم عن الحياة التي لا نهاية لها، الذي ينعش رجاء المسيحيين، ويشجعهم في مسيرتهم[٥٨]".

وتعبيرًا عن ذلك كان يرى القديس باسيليوس الكبير أن الصلاة أثناء يوم "الأحد" يلزم أن تكون بدون جلوس، وبدون سجود قط. معتبرًا أن كلمة "أناسطاسيس" (Ἀνάστασις) تعني القيامة؛ أو القيام إلى

552.19)، وقد ورد هذا التعبير في كتابات الآباء من بعدهم مثل القديس أمبروسيوس (في الأسرار: ٥٨).

٥٥ يوم "الأحد" (Dies Domini)،(Κυριακή ἡμέρα) هو اليوم الأول في الأسبوع، وهو (الأحد) مشتق من اسم اليوم بالعبرية "آحاد" أي واحد، حيث كان اليهود يستخدمون الأرقام في تسمية معظم أيام الأسبوع. ويوم الأحد له مُسَمَيات مختلفة عند اليهود منها: "أول الأسبوع"، "اليوم الأول من الأسبوع"، وأيضًا يعرف بأنه "اليوم الثامن" الذي لا ينتهي، مثل الأبدية لأنه يأتي بعد اليوم السابع الذي هو "السبت."

٥٦ القديس أغسطينوس، *في إنجيل يوحنا* ٢٠:٢٢.

٥٧ القديس باسيليوس الكبير، *عظات على أيام الخليقة الستة (الهيكساميرون)*، ترجمة القمص تادرس يعقوب ملطي، ٢:٨.

٥٨ القديس باسيليوس الكبير، في الروح القدس٢٧:٦٦.

فوق (عدم الجلوس)، وبذلك يتذكر الإنسان القيامة مع المسيح، والقيامة العامة التي ستسبق المجيء الثاني. وقد أكد على ذلك الآباء في مجمع نيقية[٥٩].

إن المعنى الكائن وراء نداء الشماس للشعب أثناء القداس الإلهي بالوقوف في أكثر من موضع قائلًا "أيها الجلوس قفوا[٦٠]" (إيكاثيميني أناسثيتا) (Ⲓⲕⲁⲑⲏⲙⲉⲛⲓ ⲁⲛⲁⲥⲑⲏⲧⲉ)، ليس هو الجلوس أو الوقوف العادي "جسديًّا" كحركة ميكانيكية بلا هدف روحي، فالأصل في الصلاة كما شرح القديس باسيليوس الكبير هو الوقوف.

فما يقصده الشماس في ندائه هو أن يقوم الإنسان مع المسيح ويكون وقوفه جسديًا، علامة على قيامته الشخصية الداخلية مع المسيح. هذه القيامة التي تكلم عنها القديس أثناسيوس الرسولي في احدى رسائله الفصحية قائلًا: "أقامنا نحن جميعًا من الموت وأباد الموت وحررنا من النوح والبكاء وأتى بنا إلى عزاء وفرح هذا العيد (عيد الفصح)[٦١]".

لذلك فالجلوس أيضًا يعبر عن حالة "الاستقرار" والمكوث في الخطية والظلام الروحي: "الشعب السالك في الظلمة أبصر نورًا عظيمًا، الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور" (إش٩:٢)، وينعكس ذلك المعنى ذلك في صلوات الكنيسة حيث يصلي الكاهن قائلًا: "وفي آخر الأيام ظهرت نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت[٦٢]".

---

[٥٩] قوانين مجمع نيقية (٣٢٥م)، القانون العشرون.

[٦٠] من الجدير بالملاحظة أنه في بعض الخولاجيات القديمة ترد ملاحظة مكتوبة عن نداء الشماس "أيها الجلوس قفوا" حيث تقول: في أيام الخماسين يقال "يا رب ارحم" بدلاً من "أيها الجلوس قفوا"، مما يؤكد على أن الكنيسة إعتادت في طقسها أن يصلي الجميع وقوفًا في أيام الخماسين المقدسة.

[٦١] القديس أثناسيوس الرسولي، *الرسائل الفصحية*، ٩:٧.

[٦٢] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة (إكؤاب) "قدوس، قدوس، قدوس"، ص ٢٢٣.

وبذلك أصبح نداء الشماس دعوة إلهية لننهض فيها ونقوم مع المسيح من رقاد الكسل والتعود، والمكوث في الخطية كما يقول كاتب المزمور: "انهضوا من بعد جلوسكم" (مز١٢٦ من الأجبية). أو في أي شيء في الحقيقة يعطل نمونا في المسيح أو يفصلنا عن محبته، فنحن مدعوون دائمًا لنقوم مع المسيح ونمثل واقفين أمام عرش ملك الملوك ورب الأرباب، في محفل السمائيين والقديسين: "لأنكم لم تأتوا إلى جبل ملموس... بل قد أتيتم إلى جبل صهيون، وإلى مدينة الله الحي، أورشليم السماوية، وإلى ربوات هم محفل ملائكة، وكنيسة أبكار مكتوبين في السموات، وإلى ديان الجميع" (عب١٢ : ١٨-٢٣).

الإفخارستيا جسر العبور من الموت للحياة

كما كان الفصح الذي صنعه شعب إسرائيل في مصر ضروريًا لحمايتهم من الموت الذي أنزله الرب بواسطة الملاك المهلك على كل الأبكار الذين لم يحتموا بدم خروف الفصح، كذلك فصح العهد الجديد "الإفخارستيا" هو ضروري للنجاة من الموت (الروحي). ويفسر ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم قائلًا: "لقد حكم اليهود بأن السيد المسيح لا يقدر أن يعطيهم جسده ليأكلوه، وأكدوا أن هذا مستحيل، ولكنه أبان لهم أنه ممكن، وليس ممكنًا فقط، بل ضروريًا وشرطًا لازمًا للحياة الأبدية، وإن لم يبين كيف يصير ذلك؟ فكما أنه في الفصح اليهودي كان لحم الخروف ودمه ضروريين لنجاة الإسرائليين من الهلاك الذي نزل بالمصريين، كذلك لا ينجو المؤمن من هلاك الخطية، **ولا تكون له حياة فيه، ما لم يأكل جسد ابن الإنسان ويشرب دمه.**"

وقد تناول هذا الموضوع القديس أثناسيوس الرسولي في إحدى رسائله الفصحية، قائلًا: "وحتى فسادنا نحن أُبيد بعدم فساد جسد الرب، لذلك علينا أن نتغذى به بكل ورعٍ ويقظة، فنشترك فيما

يقيمنا لأنه أعطي للكل دون تردد، وبواسطة تلك العطية نشرب من ينبوع الماء الذي يفيض إلى الحياة الأبدية[٦٣]".

إن **الفصح هو عبور من الموت إلى الحياة**. هو تلخيص لحياة شعب الله في العهدين القديم والجديد؛ فحياة المؤمنين هي **حياة فصحية**، أو رحلة فصحية، رحلة عبور من أول يوم مع الله (في المعمودية)، حتى نرجع إليه ثانية في الأبدية، مرورًا بالموت والقيامة (العامة) كمحطات هامة في رحلتنا مع الله. فرحلة الإنسان هي رحلة من الله، إلى الله، في الله.

ويصف القديس كيرلس الكبير (القرن الرابع) عمليتي الموت والحياة المستمرتين في حياة المؤمن بأنها رحلة عبور (فصح)، حيث "الإفخارستيا" هي زاد المؤمن في هذه الرحلة، فيقول: "يجب أن نشرح إذن ما هو الذي نعبر منه، وما هي البلد التى تتجه إليها رحلتنا؟ وما هي الطريقة التى نحقق بها هذه الرحلة؟ فكما أن إسرائيل أُنقذ من طغيان المصريين، ولما انفك من نير العبودية، صار حرًّا؛ وبهروبه من عنف الطاغية عبر دون أن تبتل قدماه بطريقة عجيبة، لا يمكن وصفها بالكلام، وعبر في وسط البحر، وصار نحو أرض الموعد. هكذا ينبغى أيضًا، أننا نحن الذين قد قبلنا الخلاص الذى في المسيح، لا نكون راغبين بعد أن نبقى في خطايانا السابقة، ولا أن نستمر في طرقنا الشريرة؛ بل نعبر بشجاعة بحر اضطرابات هذا العالم الباطلة، وعواصف الاهتمامات التي فيه. نحن نعبر من محبة الجسد إلى الاعتدال، ومن جهلنا السابق إلى معرفة الله الحقيقية، نعبر من الضعف إلى الفضيلة، ونعبر بالرجاء من عار الخطية إلى أمجاد التبرير، ومن الموت إلى الخلود. لذلك فاسم العبور الذي فيه حمل عمانوئيل صليب الخلاص لأجلنا هو "العبور" (الفصح). الإفخارستيا إذن، هي طعام المسيحى ومؤونته طوال رحلة الحياة.

---

[٦٣] القديس أثناسيوس الرسولي، الرسائل الفصحية، ١٤:١١.

إنها الغذاء الروحي الذي يقوي النفس وينيرها لمجابهة الأرواح الشريرة ومواجهة التعاليم المُضِلَّة. وبعكس المنّ الذى كان الإسرائيليون يتغذون به أثناء رحلتهم في البرية، فإن الابن هو الخبز الحقيقى الذي يهب الحياة الأبدية؛ والذين اشتركوا فيه... من خلال الإفخارستيا قد صاروا أقوى من رباطات الموت[٦٤]".

إن كل مؤمن يريد أن يصبح من شعب الله لا بد له أن يجتاز خبرة العبور من الموت إلى الحياة في المعمودية أولًا، حيث يدفن ويقوم مع المسيح. فالموت هو عربون للحياة، فكل موت يتبعه قيامة وحياة، فحياتنا هي عبارة عن سلسلة من الميتات، أو إماتات وقيامات. لذلك سِمَة شعب الله في العهدين هو أنه "**شعب فصحي**" حيث الفصح هو نقطة إرتكاز الشعب اليهودي فبه خَلُصْ من الهلاك وعبر إلى أرض الموعد. وهذه السمة ممتدة في العهد الجديد، حيث يختبر المؤمنون العبور في سر المعمودية، ويجددون تلك الخبرة في كل إفخارستيا عابرين من الأرض إلى السماء، ومن الموت إلى الحياة ويتضح ذلك المعنى السرائري بقوة عند الآباء، فنرى القديس أمبروسيوس في شرحه لأسرار الكنيسة يقول: "ما الشيء المهم في عبور الشعب اليهودي البحر الأحمر؟ ذاك الذي عبر هذا البحر، عبر من الأشياء الأرضية إلى السماوية... إنه عبور حقيقي من الموت إلى الحياة، الذي عبر لا يموت بل يظل قائمًا[٦٥]"!

إن الإفخارستيا هي عبور الإنسان من الموت إلى الحياة في القيامة العامة؛ ففي نهاية حياة المؤمنين على الأرض يموتون جسديًّا بحكم الطبيعة، لتعبر نفوسهم إلى الحياة في الفردوس، في حين تقوم أجسادهم من الموت إلى الحياة (حرفيًّا) عند القيامة العامة لتتحد ثانية

---

٦٤ الأستاذ القس عزرا جبرميدهين، *التعليم الإفخارستي للقديس كيرلس الإسكندري*، ترجمة الدكتور نصحي عبد الشهيد.

65 *De Myster*. 1.2.Bott.57-58.

بالنفس كاستمرار للنصرة على الموت التي بدأها الشخص من أول يوم في علاقته مع الله في المعمودية، ثم في كل إفخارستيا.

إن جسد ودم المسيح هما "**بذرة للخلود** (ἀθανασίαν)" وقوة قيامة وعدم فساد (ἀφθαρσία) تزرع فينا بالتناول كما يقول آباء الكنيسة، ومن هنا تأتي أهمية مناولة المرضى أو من أوشكوا على الاحتضار. فبعد أن تدفن الأجساد في القبر **ستقوم بفعل تلك البذرة إلى قيامة الحياة!** ويصبح للشخص جسم آخر نوراني ممجد غير ذلك الذي دفن في الأرض، كما شرح بولس الرسول القيامة في الإصحاح الخامس عشر من رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس[٦٦]، مشبهًا قيامة الأجساد ببذرة تدفن في الأرض ثم تنمو لتصبح نباتًا. له شكل وجسم آخر، غير البذرة الأصلية التي دفنت في الأرض.

وبذلك تكون قيامتنا على مثال قيامة المسيح "بكر الراقدين" كما دعاه بولس الرسول "الآن قد قام المسيح من الأموات وصار باكورة الراقدين" (١كو١٥:٢٠). أي أول الخليقة الجديدة التي تقوم من الأموات، فقيامة المسيح هي عربون لقيامتنا نحن "لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيحضرهم الله أيضًا معه" (١تس٤:١٤). ويشرح القديس كيرلس علاقة القيامة بالإفخارستيا التي أطلق عليها لقب "بذرة الخلود"، فيقول: "منذ صار المسيح فينا من خلال جسده الخاص (أي من خلال التناول من جسده) فإننا سنقوم يقينًا. لأنه كان من غير المعقول، بل ومن المستحيل بالأحرى أن الحياة لا يُحيي أولئك الذين يكون فيهم، لأنه كما لو كان شخص ما قد أخذ جذوة (قطعة خشب متقدة بالنار) ودفنها

---

[٦٦] لقد رتبت الكنيسة قرآة هذا الإصحاح على يومين متتاليين؛ حيث يقرأ نصفه الأول في فصل البولس لقداس يوم سبت النور. والنصف الآخر يقرأ في فصل البولس الخاص بقداس عيد القيامة "الفصح." وذلك للتأكيد على حقيقة قيامة الأموات، وشرح معنى الفصح الذي هو عبور الإنسان من الموت للحياة.

وسط كثير من حصيد الزرع، حتى تظل الجذوة النارية محفوظة فيه، هكذا أيضًا يخفي ربنا يسوع المسيح الحياة فينا بواسطة جسده الخاص، ويغرسها كبذرة خلود، ويبيد كل الفساد الذي فينا[٦٧]".

إننا كمؤمنين لا نكرز بموت وقيامة المسيح كأحداث تاريخية جافة، بل بقوة موته الخلاصي وقيامته المُغَيرة، التي تعمل في المؤمنين منذ أول يوم للكنيسة أيام الرسل (في العنصرة) وحتى الآن. وهذا هو جوهر رسالة الإنجيل. فالكتاب المقدس هو "**كتاب فصحي**" يحكي ببساطة قصة شعب الله في أرض الله، يحكي خبرة عبور (فصح) مؤمني العهدين من الموت للحياة، وكل من يقرأه بالروح هو مدعو ليعيش هذه الخبرة الفصحية، الموجودة في جميع أسفار الكتاب المقدس بعهديه بلا استثناء!

إن المؤمنين "مدعوون" ليعبروا معًا كشعب لله (كنيسة) من الموت للحياة، فنحن مدعوون أن نأخذ الحياة التي هي المسيح، ونخرج بها للعالم المائت فننشر في العالم رائحة الحياة، كل حسب دعوته على اختلاف طريقة ممارستها، فالبعض قد دعي للاستشهاد، والبعض للرهبنة والبتولية، وآخرين للزيجة والانخراط في المجتمع.

وأيضًا كل فرد مدعو ليحقق هذه الدعوة (vocation) في حياته، أي أن يُحَوِّل الفصح ويترجمه إلى **خبرة (شخصية) معاشة** في حياته اليومية، كما فعل الحكيم يشوع بن سيراخ الذي سجل في سفره خبرته الفصحية التي كانت وما زلت وستبقى للأبد شاهدة على عمل الله مع النفس البشرية: "دنت نفسي من الموت وبلغت حياتي حافة الجحيم، وكان خصومي يحاصروني من كل جهة، ولا من نصير، ونظرت حولي باحثًا عمن يعينني فما وجدت، فتذكرت

---

٦٧ القديس كيرلس الأسكندري، شرح *إنجيل يوحنا*، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٩، الكتاب الرابع، الفصل الثاني، يو٦:٥٤.

رحمتك يا رب وأعمالك الجليلة في سالف الأيام، كيف أنقذت الذين رجوك وخلصتهم من يدي الأعداء، فرفعت إليك صلاتي من الأرض راجيًا أن تنقذني من الموت، وصرخت إليك قائلًا: يا رب أنت أبي، أنت القدير، وتقدر أن تخلصني، لا تتركني في أيام الضيق وفي ضعفي أمام المتعجرفين، أحمد اسمك على الدوام وأرتل لك آيات الشكر، فاستجبت لي، وأنقذتني من الموت، وأنهيت تعاستي، لذلك أحمدك وأسبحك، وأبارك اسمك أيها الرب" (يشوع بن سيراخ ٥١:٦-١٢).

إن كل من يقبل كلمة الله ورسالة الإنجيل التي هي عبور من الموت إلى الحياة مع الله ويتجاوب معها، ويحافظ عليها كل يوم كأمانة في حياته، يحيا ويصير هو نفسه "برهانًا" للقيامة لا يُضحد (أي لا ينقض ولا يقاوم)، و"شاهدًا" لها بحياته كما يقول الآباء. بل ويأتي بثمر كثير كما قال المسيح: "الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير" (يو١٢:٢٤).

أما من يرفض أن يموت بإرادته فإنه يبقى في موته ويظل عقيمًا بلا ثمر! **فالله يحترم اختيار الإنسان وإرادته الحرة** التي أنعم بها عليه، ولا يمكن أن يسلبها منه لأنه صالح: "هبات الله ودعوته هي بلا ندامة" (رو١١:٢٩). فهي جزء نفيس من "**صورته**" التي خلقنا عليها. ويتحدث القديس يوحنا ذهبي الفم عن عمل الموت والقيامة بالنسبة لكل مؤمن قائلًا: "أ تؤمن أن المسيح مات وقام، آمن بهذا من جهة نفسك، **فالقيامة كالصلب والدفن تخصك أنت شخصيًا**، إن كنت تشترك في الموت والدفن، فبالأولى أن تشترك في القيامة والحياة... إن تغيير وتجديد عادتنا هو القيامة العاملة فينا، فعندما يصير الزاني عفيفًا، والطماع رحيمًا، والعنيف مطيعًا، بهذا تكون القيامة عاملة فينا، وتكون عربون للقيامة الأخرى، كيف تحسب

هذه قيامة؟ إنها كذلك لأن الخطية تموت والبر يقوم، الإنسان القديم ينتهي، والجديد الملائكي يعيش."

لذلك تصرخ الكنيسة في القداس الإلهي مسبحة مخلصها القائم من بين الأموات قائلة: "آمين، آمين، آمين، بموتك يارب نبشر، وبقيامتك المقدسة، وصعودك إلى السموات نعترف..إلخ[٦٨]"، لذلك ينبغي بالأولى أن لا نصرخ بالكلام داخل الكنيسة حيث الجميع مؤمنين، بل بالأولى نصرخ جدًّا للذين يجهلون المسيح، نصرخ بحياتنا، وسلوكنا، وتعاملاتنا ومحبتنا لهم. فنكون بحق كارزين بالمسيح "قائمًا فينا" شاهدين بأننا قد متنا وقمنا معه، كما قال معلمنا بولس الرسول: "لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله" (كو٣:٣).

عندما خلق الله الإنسان قَدَّمَ له الحياة، لكن الإنسان اختار الموت: "أنا اختطفت لي قضية الموت[٦٩]"، قَدَّمَ له الحرية ففضل الإنسان العبودية. قَدَّمَ له إمكانية الحياة الأبدية فاختار الإنسان أن يخرج منها. قَدَّمَ له الوصية لتحميه، فاختار مشورته الذاتية فهلك. قَدَّمَ له الخليقة ليسود عليها: "أخضعت كل شيء تحت قدمي[٧٠]" فجعلها هي التي تتسلط عليه!

وما زال الله إلى اليوم يُقَدِّم والإنسان يختار. إن الإنسان منذ أول ساعة يستيقظ فيها إلى ساعة نومه، توضع أمامه اختيارات عديدة للحياة والموت: "قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك" (تث٣٠:١٩). بل حتى استيقاظ الإنسان من النوم هو أيضًا صورة مصغرة للقيامة يكثر استخدامها في الكتاب المقدس لتشبيه العبور من الموت "النوم" إلى الحياة والقيامة "النهوض والإستيقاظ" (رو١٣:١١-١٤).

---

٦٨ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، ص ٢٣٠.

٦٩ المرجع نفسه، القداس الغريغوري، ص ٣٣٢.

٧٠ المرجع نفسه، القداس الغريغوري، ص ٣٣١.

لذلك ينبغي علينا أن نضع كل يوم أمام أعيننا وفي صلواتنا كل ما نفعله أو نفكر فيه، هل هو للحياة أم للموت؟ "هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت" (إر٢١:٨). ينبغي أن نلاحظ تعاملاتنا اليومية مع الآخرين في الدراسة أو العمل، هل تساعدهم على الحياة أم على الموت؟ وهل نهتم بإختيار رفاق لنا يساعدونا على الحياة مع الله أم العكس؟ "ما للتبن مع الحنطة يقول الرب ؟!" (إر٢٣:٢٨). وهل نهتم ونعبأ بالحياة الأبدية لأسرنا ومن حولنا أم لا؟ هل الكلام الذي يخرج منا هو حياة "فم الصديق ينبوع حياة" (أم١٠:١١)؟ أم موت "الموت والحياة في يد اللسان" (أم١٨:٢١)؟ فالكتاب يقول "إن لغتك تظهرك" (مت٢٦:٧٣). إن الإنسان ليس أمامه سوى خيارين لا ثالث لهما؛ فهو إما أن يكون "رائحة حياة لحياة" (٢كو٢:١٦)، أو أن يكون "رائحة موت لموت" (٢كو٢:١٦). لذلك نطلب من الرب دومًا أن يحفظ أفكارنا فيه، كما يقول الكاهن في الصلاة: "اجعلني فوق كل فكر ميت[٧١]".

إن قبولنا الاشتراك في الإفخارستيا يعني أننا نختار الحياة ونرفض كل ما هو موت، وذلك ليس قاصراً على الوقت المحدود الذي نقضيه في القداس الإلهي، بل هو ممتد إلى ما بعد القداس نفسه؛ حيث تصبح حياتنا تطبيقًا عمليًّا لكل ما صليناه في القداس الإلهي، فبعد أن تنتهي الليتورجيا في الكنيسة تبدأ ليتورجيا أخرى في حياتنا الخاصة، إنها "**ليتورجيا ما بعد الليتورجيا**" إذا جاز التعبير!

ولقد بين ذلك القديس أثناسيوس الرسولي في إحدى رسائله حين تكلم عن المائدة الإلهية وما يتبعها من حياة تقوى في المؤمنين موضحًا امتداد عمل هذه الوليمة الإلهية في حياة من يشتركون فيها، فيقول: "وليمة الرب هي ممارسة الحق، ومزاولة التعفف..، السهر على الصلاة بحرص ويقظة، دراسة الأسفار الإلهية، التوزيع على الفقراء، تدعيم

---

[٧١] المرجع نفسه، القداس الكيرلسي، صلاة الحجاب للقديس يوحنا المثلث الطوبى، ص ٣٩٧.

السلام مع أعدائنا، ضم شتات المتفرقين عنا في الخارج، إخضاع روح الكبرياء والعودة إلى اتضاع الفكر، السلام مع جميع الناس، محرِّضينَ الإخوة على المحبة[٧٢]".

[72] N.P.N.F., 2nd series, Vol. IV, Letter XIV, Easter 4,5.

ألحان كنسية قديمة

"في وليمة الحمل الملكية[٧٣،٧٤]"

في وليمة الحمل الملكية، نرتل الحمد لملكنا المنتصر، الذي غسَّلنا بالماء المتدفق من جنبه المطعون، لنسبح الذي بمحبته الإلهية منحنا دمه الأقدس كخمر، وأعطانا جسده كوليمة...

فحين يُسفك الدم الفصحي يَغمد ملاك الموت المهلك سيفه، ويعبر إسرائيل منتصرًا... لنسبح المسيح الذي سفك دمه كذبيحة فصح... حتى نأكل نحن المنَّ الذي من فوق. لقد جلبت لنا الحياة والنور وفتحت لنا الفردوس، وفيك يقوم قديسوك.

لقد عبرنا بحر عبوديتنا الأحمر، فليرتفع الإنشاد للمسيح قائدنا... انتصار فصحي، فرح فصحي، لقد حررتنا من موت الخطية وأعتقتنا... ونفوسنا وُلدت من جديد فيك... ألحان المجد والتسبيح تليق بك أيها الآب، ويا أيها الرب القائم كل التسبيح يليق بك مع الروح القدس، إلى الأبد.

---

73 Daniel Liderboch (fr.), op.cit., p.76.

٧٤ هذه بعض مقاطع من لحن "في وليمة الحمل الملكية" (Ad regias agni dapes) الذي يرتل في الكنائس الغربية، ويرجع زمن كتابته إلى القرن الخامس (في فترة ما قبل مجمع خلقدونية)، وهو ضمن مجموعة الألحان والصلوات التي ألفها القديس أمبروسيوس (أسقف ميلان)، الذي اشتهر بوضعه للألحان، بجانب كتاباته الروحية العديدة، فيما يعرف بالطقوس الأمبروسية (Ambrosian rite) أو "الطقوس الميلانية". ويحوي هذا اللحن إشارة إلى الطقس الذي كان سائدًا في الشرق والغرب قديمًا (وما زال إلى الآن يعمل به في الكنائس الشرقية) من جهة منح سر الإفخارستيا مع سر المعمودية، وكان يرتل هذا اللحن للمعمدين الجدد في ليلة الفصح حينما يتقدمون للتناول لأول مرة. وللمزيد حول تاريخ هذا اللحن انظر كتاب: نيافة الأنبا مكاريوس، *مدخل إلي الموسيقى القبطية*، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ٦٨.

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس باسيليوس[٧٥]

رئيس أساقفة قيصرية الكبادوك

وإذ طهرنا بالماء، وقدسنا بالروح القدس، بذل نفسه فدية للموت، الذي كنا فيه مضبوطين، أرقاء للخطية. ولما انحدر بالصليب إلى الجحيم، ليُتِمَّ في ذاته كل شيء، حل أوجاع الموت. وإذ قام في اليوم الثالث، وفتح طريق القيامة من بين الأموات لكل جسد، إذ لم يكن ممكنًا أن يضبط مُبدِئُ الحياة في البلى (الفناء)، صار باكورة للراقدين، وبكرًا من بين الأموات. ليكون هو نفسه الكل، والأول في كل شيء، وإذ صعد إلى السماوات، جلس عن يمين عظمتك في الأعالي، وهو سيأتي أيضًا ليجازي كل واحد بحسب أعماله. وقد ترك لنا تذكارات آلامه الخلاصية هذه التي وضعناها بحسب وصاياه.

---

[٧٥] هذه بعض المقاطع من ليتورجيا القديس باسيليوس الكبير بحسب الطقس البيزنطي، حيث وصل إلينا القداس الذي وضعه القديس باسيليوس باللغة اليونانية في نصين؛ النص الأقدم والأقصر؛ هو النص الذي تحتفظ به الكنيسة القبطية وتصلي به. وقد تطور هذا النص وتم إضافة بعض الصلوات عليه، بعضها بيد القديس باسيليوس نفسه، لنحصل على النص الأطول لقداس القديس باسيليوس، وهو النص الذي تحتفظ به كنيسة القسطنطينية. وتصلي به في بعض الأوقات والمناسبات خلال السنة الليتورجيا منها: عيد القديس باسيليوس، برامون عيدى الميلاد والظهور الإلهي (الغطاس)، آحاد الصوم الأربعيني، وخميس العهد، وسبت النور. وتعد أقدم نسخة لهذه الليتورجيا (باللغة اليونانية) هي تلك الموجودة في أقدم خولاجي معروف، وهو خولاجي بيزنطي يرجع إلى القرن الثامن، وهو محفوظ الآن في مكتبة الڤاتيكان ضمن مخطوط (*Codex Barbareni*,Gr.336).انظر كتاب: نيافة الأنبا إبيفانيوس، *القداس الباسيلي النص اليوناني مع الترجمة العربية* دار مجلة مرقس، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص ٦، ٧.

الفصل الثالث

الإفخارستيا
حياة الكنيسة

الإفخارستيا حياة الكنيسة

الكنيسة هي جسد المسيح الواحد المجتمع حول الإفخارستيا. الإفخارستيا تجعل المسيح مركزًا لحياتنا. الإفخارستيا هي اجتماع لمدعوين، وهي الاجتماع الرئيس للكنيسة، إنها اجتماع ملء الكنيسة! الكنيسة تصنع الإفخارستيا، والإفخارستيا تصنع الكنيسة. الإفخارستيا هي أحد ركائز التقليد الكنسي. كل صلوات الكنيسة وأعيادها تتمحور حول الإفخارستيا. أسرار الكنيسة مرتبطة ببعض وتعمل معًا، وتتمحور حول الإفخارستيا.

قصة

تحكي إحدي الروايات[1] المتعلقة بتحول روسيا إلى المسيحية (الأرثوذكسية) في القرن العاشر، أن روسيا في ذلك الوقت كانت مفككة إلى إمارات متعددة، وكانت العبادات الوثنية هي السائدة فيها في ذلك الوقت. وكانت المسيحية محدودة جدًّا فيها، وتنحصر في بعض الأسر في مدينة "كييف" (عاصمة أوكرانيا حاليًّا)، ومن أشهرها أسرة الأميرة "أولجا" أميرة كييف، التي تحولت إلى المسيحية في الفترة ما بين عامي ٩٤٥-٩٥٧م.

وكان للأميرة أولجا أحفاد كثيرون أحدهم هو الأمير "فلاديمير" الذي صار يعرف فيما بعد باسم "فلاديمير الأول" أو "فلاديمير الكبير" (حكم في الفترة ما بين ٩٧٢-١٠١٥م) الذي قام بتوحيد مناطق كثيرة من روسيا تحت حكمه، وفي عهده بدأت تظهر الإمبراطورية الروسية وأصبحت ذات شأن.

أراد الأمير فلاديمير أن يختار ديانة رسمية لإمبراطوريته الجديدة ليتوحد الجميع تحتها، فقام بإرسال رسل إلى الإمبراطوريات

[1] *تاريخ الكنيسة المفصل*، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، انظر أيضًا كتاب: الأب رينيه مارشال، *المسيحيون الأولون في روسيا* ، باريس، ١٩٦٦.

والممالك المجاورة، بهدف استكشاف دياناتهم لاختيار واحدة منها. وبالفعل زار مبعوثو الأمير الجديد الإمبراطوريات المجاورة، ولم يسترع انتباههم شيء من عبادتهم، إلى أن وصلوا إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، ولما علم الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين السابع) بذلك فرح جدًّا وأرسل إلى البطريرك قائلًا: "لقد حضر بعض الروس ليتَبيّنوا إيماننا، فأعد الكنيسة والإكليروس، وإلبسوا الحُلل الحبرية.. ليروا مجد إلهنا"!

وبالفعل وصل الوفد الروسي إلى القسطنطينية وأُحْسِنَ استقبالهم، ثم دخلوا كاتدرائيتها الشهيرة "آيا صوفيا" (أجيا صوفيا)، التي كانت في ذلك الوقت أعظم صرح ديني في العالم لمدة ألف عام! وحضر رسل الأمير القداس الإلهي في كاتدرائية "آيا صوفيا" وانبهروا بعظم العبادة المسيحية ذات الطابع الملوكي، التي تمجد الله ملك الملوك كخالق للسماء والأرض، وسط جو من التقوى والمهابة والقداسة، ليس له مثيل! في خلال القداس الإلهي استمعوا لكلمة الله، وشاهدوا كيف يمكن تقديم قرابين طاهرة غير دموية لله، وكيف أن الكنيسة تشفع في العالم أجمع، وتحمله في صلواتها التي ترفعها لله!

لقد كان لحضورهم القداس الإلهي أثر كبير في تعرفهم ليس فقط على شكل العبادة المسيحية، بل وعلى جوهرها أيضًا، لأن **الإيمان المسيحي كله يتركز، والحياة المسيحية كلها تتجلى في صلوات "الإفخارستيا" (القداس الإلهي)**. ولما عاد موفدو الأمير فلاديمير قالوا له: "لم نعرف هل كنا في السماء أم على الأرض؟! لأنه لا يوجد مثل هذا الجمال على الأرض! لذلك لا نعرف ما يجب أن نقول، ولكننا نعرف تمامًا أمرًا واحدًا: وهو أن الله يقيم هناك مع البشر"!!

تَعَمَّد الأمير فلاديمير بعد ذلك، وكان الإمبراطور البيزنطي إشبينه، معلنًا أن المسيحية هي الديانة الرسمية لكل الإمبراطورية

الروسية بدءً من عام ٩٨٨م وأصبح له دور كبير في نشر المسيحية في أرجاء إمبراطوريته بدون أي عنف. ويسجل التاريخ أن كنيسة القسطنطينية ظلت ترعى ثلاثمائة عام الكنيسة الروسية بإرسال أساقفة وكهنة لرعاية الشعب الروسي وتعليمهم الإيمان المسيحي.

الإفخارستيا اجتماع الكنيسة

لقد دُعي اجتماع المسيحيين منذ العصر الرسولي بإسم "كنيسة[٢]"، وكان يستخدم هذا اللفظ قبل المسيحية، في العصر "اليوناني الروماني" للتعبير عن "**اجتماع المواطنين الأحرار**"، مَنْ هم ليسوا عبيدًا، وهؤلاء المواطنون "الأحرار" كانوا مدعوين للاجتماع معًا، لمناقشة أمور مدينتهم[٣].

إن لفظة "كنيسة" تحمل في طياتها وصفًا دقيقًا للمؤمنين في العهد الجديد؛ فالمسيح قد أتى ليُحَرِّرنا من العبودية للخطية، مُخَلِّصًا إيانا من الموت والفساد الذي تَمَلَّكَ علينا، كما قال معلمنا بولس الرسول: "ويعتق أولئك الذين، خوفًا من الموت، كانوا جميعا، كل حياتهم، تحت العبودية" (عب٢:١٥)، فقطع كل رباطات خطايانا وجعلنا أحرارًا فيه: "فإن حرركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحرارًا" (يو٨:٣٦). وليس فقط حررنا الابن، بل رفعنا لرتبة "البنوة" فصرنا أبناء لله بالتبني، مُحققًا بذلك الهدف الأسمى لتدبير الخلاص!

في سر الإفخارستيا "**يدعو**" الله، شعبه "الحر" ليجتمعوا معًا ككنيسة للاحتفال "معًا" بالذبيحة الإلهية. وهؤلاء المحتفلين بالذبيحة الإلهية هم كلهم مدعون، كما في مثل "عرس ابن الملك" الذي قاله السيد المسيح (مت:٢٢). ففي سر الإفخارستيا **الجميع مدعوون**

---

[٢] "إكليسيا" (Ἐκκλησία) أي "كنيسة" كلمة يونانية من الفعل "كالائو" (Καλέω) بمعني "يدعو".

[٣] *قاموس الكتاب المقدس*، دار مكتبة العائلة، ٢٠٠١، ص ٧٨٩،٧٨٨.

"اجتمعوا وتعالوا واحتشدوا من كل جهة إلى ذبيحتي التي أنا ذابحها لكم، ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل، لتأكلوا لحمًا وتشربوا دمًا... كباش وحملان وأعتدة وثيران كلها من مسمنات باشان. وتأكلون الشحم إلى الشبع، وتشربون الدم إلى السكر، من ذبيحتي التي ذبحتها لكم، فتشبعون على مائدتي" (حز٣٩:١٧-٢٠)[٤].

إننا في الإفخارستيا نختبر حضور الرب بشكل خاص، فنحن حينما نتقدم للتناول، نختبر ما قاله الكتاب: "المعلِّم قد حضر (حاضر) وهو يدعوك" (يو١١:٢٨)، إنها دعوة للقداسة، والمحبة، والثبات في الرب، إنها دعوة شخصية لكل فرد في الكنيسة.

إن القديس يوحنا الإنجيلي يخبرنا عن أن المؤمنين في الكنيسة هم "مدعوون، ومختارون، ومؤمنون" (رؤ١٧:١٤)، وأيضًا بولس الرسول يتكلم عن المؤمنين، واصفًا إياهم بأنهم "مدعوون" فيقول: "الذين بينهم أنتم أيضًا، مدعوو يسوع المسيح" (رو١:٦)، ويؤكد بعدها على نفس المعني قائلًا: "الذين سبق فعينهم، فهؤلاء دعاهم أيضًا" (رو٨:٣٠). بل حتى الكهنة أنفسهم هم مدعوون لخدمة هذا السر: "لا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه، بل المدعو من الله، كما هارون أيضًا" (عب٥:٤). لذلك يصلي الكاهن ويقول: "أنت دعوتنا نحن الأذلاء غير المستحقين عبيدك، لنكون خدامًا لمذبحك المقدس[٥]." وأيضًا يصلي قائلًا: "ونحن أيضًا المدعوين بنعمتك إلى خدمتك، ونحن غير مستحقين إقبلنا إليك[٦]."

---

[٤] لم يكن في العهد القديم يُسْمَح أبدًا بشرب الدم، وعند تقديم الذبائح لم يكن مسموحًا قط بأكل الشحم، لأنهما (الدم والشحم) قدسٌ للرب بالكامل "كل الشحم للرب، فريضة دهرية في أجيالكم، في جميع مساكنكم: لا تأكلوا شيئًا من الشحم ولا من الدم" (لاو٣:١٦،١٧)؛ مما يشير إلى أن الذبيحة التي تنبأ عنها هنا حزقيال النبي بالمفرد (ذبيحتي) والتي كما سبق واتضح أنها لا تنطبق صفاتها على ذبائح الناموس، هي تشير في الحقيقة إلى ذبيحة العهد الجديد، ذبيحة المسيح، الذبيحة الواحدة التي قدمها السيد المسيح عن الجميع، وأعطانا أن نأكل ونشرب منها (جسد ودم المسيح) في الإفخارستيا التي تقدم على المذبح (المائدة).

[٥] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة الاستعداد (تقال "سرًّا" بعد فرش المذبح)، ص ١٣٨.

[٦] المرجع نفسه، القداس الغريغوري، الطلبة، ص ٣٥٧.

إن الإفخارستيا تتزامن مع بدء الكنيسة منذ اللحظة الأولى لولادتها كما يخبرنا سفر أعمال الرسل: "وكانوا يواظبون على تعليم الرسل، والشركة، وكسر الخبز" (أع٢:٤٢). ويخبرنا التاريخ هو أيضًا كيف أن الإفخارستيا بدأت مع بدء العبادة المسيحية، كما جاء في خطاب الوالي الروماني "بليني" للإمبراطور "تراجان" (القرن الأول)[٧]، حيث كتب واصفًا المسيحيين وعبادتهم قائلًا: "إنهم يشتركون في يوم محدد (الأحد) في اجتماع قبل طلوع الشمس، لكي ينشدوا ترنيمًا (الصلوات والتسابيح الإفخارستية) للمسيح على أنه إله! ويتعاهدون لا على إرتكاب جريمة، بل على الابتعاد عن كل ما هو سرقة وسلب وزنى، وإخلال بالإيمان... وينصرفون بعدها، ليعودوا فيجتمعون لتناول الطعام، على مائدة طاهرة لا إثم فيها (ولائم الأغابي)[٨]".

إن أحد المسميات القديمة أيضًا للإفخارستيا هي "**سيناكسيس**"؛ (Σύναξις - Synaxis) وهي كلمة يونانية تعني "اجتماع"، لكنه ليس كأي اجتماع عادي، إنه اجتماع فصحي، اجتماع جامع (أي يشمل الجميع)، اجتماع إفخارستي. **فالاجتماع الرئيس للكنيسة هو الإفخارستيا**، الذي صار **علامة لشعب الله** في العهد الجديد، كما يصلي الكاهن في القداس الإلهي قائلًا: "وجعلنا له شعبًا مجتمعًا[٩]".

إن الإفخارستيا هي اجتماع ملء الكنيسة المنظورة، وغير المنظورة، إننا نجتمع كلنا معًا، مع الله، لا لكي نسمع صوته فقط من بعيد، كما كان الحال في العهد القديم، حيث لا يستطيع أحد الإقتراب من الله سوى أشخاص قليلين في أوقات معينة (مثل رئيس الكهنة

---

[٧] "بليني الأصغر" (٦١-١١٤م) كان محاميًا وخطيبًا شهيرًا في عصره، عُين قنصلًا سنة ١٠٠م، ثم نائبًا للإمبراطور في مقاطعة "بيثينيا" على البحر الأسود، وكانت إحدى مهام وظيفته الإشراف على اضطهاد المسيحيين هناك.

[٨] خطاب "بليني" إلى الإمبراطور "تراجان" ١٠،٩٦،٧.

[٩] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، ص ٢٢٤.

والكهنة عند تقديمهم للذبائح) فمن كان يتجاسر ويقترب وهو غير مدعو يموت موتًا، كما جرى في أكثر من حادثة في العهد القديم! بل إننا نجتمع اليوم في الجبل المقدس الذي هو الكنيسة لنخاطبه كأب قائلين له "أبانا"، ثم نتقدم لنتحد بابنه جسديًّا في سرٍّ لا يعبر عنه! فكما حل الله على الجبل في العهد القديم يحل الروح القدس في العهد الجديد، في كل إفخارستيا على المذبح محولًا القرابين الموضوعة عليه، لجسد ودم حقيقي لربنا يسوع المسيح، في سر لا يُنْطَقُ به!

لذلك يكتب لنا معلمنا بولس الرسول عن كنيسة العهد الجديد مقارنًا إياها بكنيسة العهد القديم، مبرزًا **عنصر الشكر الذي صار جوهر عبادة كنيسة العهد الجديد المتمركزة حول المسيح**، فيقول: "لأنكم لم تأتوا إلى جبل ملموسٍ مضطرم بالنار، وإلى ضباب وظلام وزوبعة، وهتاف بوق وصوت كلمات، استعفى الذين سمعوه من أن تزاد لهم كلمة، لأنهم لم يحتملوا ما أُمِرَ به: "وإن مست الجبل بهيمة ترجم أو ترمى بسهم". وكان المنظر هكذا مخيفًا حتى قال موسى: "أنا مرتعب ومرتعد"، بل قد أتيتم إلى جبل صهيون، وإلى مدينة الله الحي، أورشليم السماوية، وإلى ربوات هم محفل ملائكة، وكنيسة أبكار مكتوبين في السماوات، وإلى الله ديان الجميع، وإلى أرواح أبرار مُكمَّلين، وإلى وسيط العهد الجديد، يسوع، وإلى دم رش يتكلم أفضل من هابيل... لذلك ونحن قابلون ملكوتًا لا يتزعزع، ليكن عندنا شكر به نخدم الله خدمة مرضية، بخشوع وتقوى، لأن إلهنا نار آكلة" (عب١٢: ١٨-٢٩).

إن الاجتماع الإفخارستي هو صورة الكنيسة وحالها منذ بدايتها، و"**الحضور الإفخارستي**" للسيد المسيح هو الشكل السري (Μυστικός) لحقيقة حضور المسيح رأس الكنيسة منذ البدء. ومن داخل الإفخارستيا تصلي الكنيسة لبقية الاجتماعات، والخدمات،

والاحتياجات المختلفة: "اذكر يا رب اجتماعتنا باركها... أعطها أن تكون لنا، بلا مانع ولا عائق... نصنعها كمشيئتك الطوباوية[١٠]".

فقد عاشت الكنيسة في كل أنحاء العالم عشرين قرنًا من الزمان، ولا تزال إلى الآن بالإفخارستيا التي هي بحق كما تدعوها الكنيسة في صلوات القداس الإلهي: "**السر العظيم الذي للخلاص**[١١]"، و"**سر جميع الأسرار**[١٢]" بالرغم من كل الاضطهادات، والصعوبات والتحديات التي تواجهها. لذلك أوصى آباؤنا الرسل في تعاليمهم المسجلة في "الديداخي"[١٣] بالمواظبة على الإفخارستيا "وفي كل أحد (يوم الرب) من الأسبوع، اجتمعوا مع بعض واكسروا الخبز، مقدمين شكرًا، بعد أن تكونوا قد اعترفتم بخطاياكم، لكي تكون ذبيحتكم طاهرة، ولا تسمحوا لأحدٍ بينه وبين أخيه خصومة، أن يجتمع معكم حتى يتصالحا، لكي لا تتدنس ذبيحتكم، لأن هذا هو ما تكلم عنه الرب قائلًا في كل مكان، وزمان، قدموا لي ذبيحة طاهرة، لأني ملك عظيم يقول الرب، واسمي عجيب بين الأمم (مل١:١١)[١٤]".

لذلك من المهم أن يكون الأساس الرئيس، والهدف النهائي الأسمى (ultimate goal) لاجتماعات الكنيسة وأنشطتها على تنوعها هو الإفخارستيا. فتكون **الإفخارستيا هي المنبع والهدف لكل ما تفعله الكنيسة.**

إن مُعلمنا بولس الرسول قد حذر بعض المؤمنين في كنيسة كورنثوس من الاجتماع لغرض آخر لا يرتبط بالإفخارستيا؛ أي يعمل

---

[١٠] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية الاجتماعات، ص ٤٢.

[١١] المرجع نفسه، صلاة الإستعداد، ص ١٣٨.

[١٢] المرجع نفسه، القداس الكيرلسي، صلاة الحجاب للقديس يوحنا المثلث الطوبى، ص ٣٩٧

[١٣] الديداخي كلمة يونانية بمعنى "تعليم"، وهو كتاب مسجل فيه تعليم الرسل الاثني عشر، ويرجع إلى القرن الثاني الميلادي.

[١٤] *الديداخي تعليم الرسل الإثني عشر*، تعريب الأبوين جورج منصور ويوحنا ثابت، المطبعة البوليسية، ١٩٩٥.،الفصل الرابع عشر.

بمعزل وانفصال عن الإفخارستيا، حيث كان البعض يأتون فقط لتناول الطعام الذي يقدم في ولائم الأغابي التي تقترن بالإفخارستيا، غير عابئين بالإفخارستيا نفسها، فنراه يخاطبهم قائلًا: "ولكنني إذ أوصي بهذا، لست أمدح كونكم تجتمعون ليس للأفضل بل للأردأ!... فحين تجتمعون معًا، ليس هو لأكل عشاء الرب؟" (١كو١١: ١٧-٢٠).

ومن هنا أصبحت الإفخارستيا منذ البدء هي التي تحدد وتُعَّرف الكنيسة. وأصبحت الكنيسة يمكن أن تعرف بأنها "**جسد المسيح الواحد المجتمع حول الإفخارستيا**"، فهي كنيسة ذات صفة "جامعية" و"إفخارستيا" في آنٍ واحد، وكلاهما يعززان بعضهما البعض.

فمن خلال الشركة الإفخارستيا يتحقق ملء الكنيسة (الماضية والحاضرة والمستقبلية)، فتصير الكنيسة "جامعة" (καθόλικῆ)[١٥] أي تجمع في داخلها الأشخاص المشتركين في الإيمان الواحد، من كل الأمم في كل زمان ومكان: "وبعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يَعُدَّه من كُلِّ الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش، وأمام الخروف" (رؤ٧:٩).

وتعبيرًا عن ذلك نصلي في قانون الإيمان، في الجزء الذي نعبر فيه عن إيماننا بالكنيسة قائلين: "كنيسة واحدة، مقدسة، جامعة، رسولية." فالكنيسة لا يمكن أن تكتمل ولا يتحقق مِلؤُها بدون الإفخارستيا: "وإياه جعل رأسًا فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده، ملء الذي يملأ الكل في الكل" (أف١: ٢٢،٢٣).

إن الإفخارستيا هي الوسيلة التي توحد المؤمنين كيانيًّا بالمسيح الرأس، ولأن المسيح واحد ولا يتجزأ؛ لذلك فهي أيضًا وسيلة وحدة المؤمنين بعضهم ببعض من خلال وحدتهم في المسيح الواحد، فالجميع

---

[١٥] أول من رسخ فكر جامعية الكنيسة بعد الآباء الرسل كان القديس والشهيد "إغناطيوس الأنطاكي" (٣٠-١٠٧م).

يجتمعون حول خبزٍ واحدٍ رغم اختلافهم: "الخبز الذي نكسره، أ ليس هو شركة جسد المسيح؟ فإننا نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد، لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد" (١كو١٠:١٦،١٧).

ويشرح القديس يوحنا ذهبي الفم سر وحدة الكنيسة الكائنة في الإفخارستيا بقوله: "ما هو إذًا هذا الخبز؟ إنه جسد المسيح. ماذا يصبح الذين يتناولونه؟ جسد المسيح، لا عدة أجساد، بل جسدٌ واحد. فبالرغم من أن هذا الخبز هو واحد (خبزة واحدة) إلا أنها مكونة من حبات كثيرة كائنة فيها، ونحن لا نراها، لأن الفوارق التي بينها اختفت تمامًا بسبب اندماجها الكامل بعضها ببعض. كذلك نحن، بنفس الطريقة، متحدون بعضنا ببعض، وكلنا متحدون معًا بالمسيح[١٦]."

الإفخارستيا كجزء من التقليد الكنسي

لقد تسلمت الكنيسة تعاليم المسيح عبر الآباء الرسل وخلفائهم من بعدهم فيما يسمى "التعاقب الرسولي" (Apostolic succession). ومن خلال هذا التسلسل حافظت الكنيسة على "وديعة الإيمان" (١تي٦:٢٠؛ ٢تي١:١٤) من خلال حياتها. وهذه التعاليم هي "التقليد المقدس" فالكنيسة حافظت على الإيمان المُسَلم لها من البدء، وعاشته في حياتها، وشرحته في صلواتها وكتاباتها.

وبذلك يكون "**التقليد**" **هو الحياة الجديدة المُسَلَّمة لنا في المسيح يسوع**، وهذه الحياة تشمل: الكتاب المقدس بعهديه مع تعليم الرسل، **مُمارسًا منذ البدء، بواسطة كل الكنائس، في كل العالم**. وقد أرست الكنيسة "التقليد" كمنبع دائم لها منذ البداية، وكنموذج للتعليم (Τύπος διδαχῆς) (رو٦:١٧)؛ فنرى على سبيل المثال القديس

---

[١٦] القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس*، ٢:٢٤.

كليمندس الروماني (أسقف روما، ٩٠-١٠١م) القائل: "لندع عنا كل اهتمام عبثي باطل، ولنعد إلى أساس التقليد المجيد المقدس[١٧]".

وقد صار على نفس النهج كل الأساقفة والبطاركة القديسين في الشرق والغرب عبر العصور أمثال القديس "إيريناؤس" في الغرب[١٨] القائل: "إن الكنيسة مبعثرة في كل أرجاء المسكونة، لكن لها إيمان واحد، سُلم من الرسل ثم إلى تلاميذ الرسل، وعلى الرغم من أن لغات البشر تختلف، إلا أن جوهر التقليد واحد في كل مكان[١٩]".

أما في الشرق فنرى القديس "أثناسيوس الرسولي" يؤكد أن التقليد هو القاعدة التي تأسست عليها الكنيسة التي هي "عمود الحق وقاعدته" (١تي٣:١٥)، فيقول: "دعونا ننظر إلى تقليد الكنيسة وتعليمها وإيمانها، الذي هو منذ البداية، والذي أعطاه الرب، وكرز به الرسل، وحفظه الآباء، وعلى هذا الأساس تأسست الكنيسة، ومن يسقط منه فلن يكون مسيحيًّا، ولا ينبغي أن يدعى كذلك فيما بعد[٢٠]".

ونجد أيضًا (في الشرق) القديس "يوحنا ذهبي الفم" الذي أكد هو الآخر على أهمية التقليد، فيقول: "إنه التقليد ولا يُطلب شيء بعده[٢١]"!

---

[١٧] رسالة القديس كليمندس الروماني إلى كنيسة كورنثوس٧:٢.

[١٨] يعرف القديس "إيريناؤس" (١٤٠-٢٠٢م) بأنه "أب التقليد الكنسي" لكثرة كتاباته وشروحه في تقليد الكنيسة، وقد ولد في مدينة "سميرنا" بآسيا الصغرى (مدينة "أزمير" في تركيا حاليًّا) وتتلمذ على يد الشهيد "بوليكاربوس" أسقفها (تلميذ يوحنا الحبيب). وينسب للقديس إيريناؤس الفضل في نقل التقليد الموجود في الشرق إلى الغرب، حين صار أسقفًا على "ليون" بفرنسا. وله كتابات كثيرة أشهرها "ضد الهرطقات" شرح فيها الإيمان، مقاومًا التعاليم الغنوسية. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ٥٩، ٦٠.

[19] Ireneaus, op. cit., Book I. 10

[٢٠] القديس أثناسيوس الرسولي، *الرسائل عن الروح القدس للأسقف سيرابيون*، ترجمة د. موريس تاوضروس، ود. نصحي عبد الشهيد، المركز الأرثوذكسي لدراسات الآبائية، ١٩٩٤، الرسالة الأولى:٢٨.

[٢١] القديس يوحنا الفم، العظة الرابعة في تفسير رسالة بولس الرسول الثانية لكنيسة تسالونيكي على الآية٢:١٥.

إن التقليد له أهمية كبيرة لأنه يربط الكنيسة الحاضرة، ويجعلها في شركة مع الكنيسة في الماضي ومع الكنيسة المستقبلية، فهو يُعد بمثابة الذاكرة الحية للكنيسة.

إن تقليد الكنيسة يمكن أن نرى فيه "الطريق المقدسة" الذي جاء في سفر إشعياء النبي الذي قيل فيه: "وتكون هناك سكة وطريق يقال لها؛ الطريق المقدسة، لا يعبر فيها نجس، بل هي لهم، من سلك في الطريق حتى الجهال لا يضل.. بل يسلك المفديون فيها" (إش٣٥: ٨،٩).

وتعد **الإفخارستيا أحد أهم وأقدم ركائز التقليد الكنسي** مع الكتاب المقدس، وقوانين الآباء الرسل..إلخ[٢٢]. **فكل إيمان الكنيسة وتقليدها، قد صاغته الكنيسة في خبرتها الليتورجيا**[٢٣] (بالأخص في ليتورجيات الإفخارستيا)، لكي تقدمه للمؤمنين كخبرة حية معاشة، يتحدون بها ويمارسونها في كل قداس إلهي، الأمر الذي يرسخ الإفخارستيا ويجعلها جزءً أصيلًا وقديمًا جدًّا في تقليد الكنيسة منذ البدء. **فكل صلوات الكنيسة وأسرارها وأعيادها تتمحور حول الإفخارستيا**. فكهنوتنا كهنوت إفخارستي، ولاهوتنا لاهوت إفخارستي، وكل شروحتنا تتسم بالطابع الإفخارستي. لذلك تتسم كنيستنا بأنها كنيسة تقليدية (أي تؤمن بالتقليد)، وإفخارستية بامتياز (par exellence).

---

[٢٢] مصادر "التقليد الكنسي" هي: ١- الكتاب المقدس ٢- قوانين الآباء الرسل ٣- المجامع المسكونية ٤- كتابات الآباء ٥- صلوات الكنيسة "الليتورجيات" ٦- الأيقونات. وكل عنصر من هؤلاء يفهم ويطبق في سياق العناصر الآخرى، وبذلك يشكل التقليد وحدة واحدة.

[٢٣] "ليتورجيا" (Λειτουργία) كلمة يونانية تتكون من مقطعين "ليؤس" (Λέως) أي "شعب" أو "عامي"، و"إرغون" (Ἔργον) أي "عمل"، فيكون معنى الكلمة "عمل شعبي" أي العمل الذي يقوم به الشعب. وإستخدمت كلمة "ليتورجيا" قبل المسيحية لوصف العمل العام الذي يقوم به الشعب كله، كما وصفت به العبادة الجماعية. وفي الترجمة السبعينية للعهد القديم كانت الكلمة تصف العبادة التي يقوم بها شعب الله. وفي المسيحية تدل على ما يقوم به المسيحيون من عبادات، وخصوصًا الإفخارستيا أو "سر الشكر." انظر كتاب: د. جوزيف موريس فلتس، العقيدة في النصوص الليتوجية، ص ١٨.

والتقليد أيضًا يحفظ وينقل حياة المسيح لكل الكنيسة في كل العصور، من خلال عمل الروح القدس المستمر والدائم في الكنيسة وأسرارها. لذلك التقليد يمكن أن يقال عنه ببساطة أنه "حياة الكنيسة" كلها. وهو أيضًا عمل الروح القدس في الكنيسة، فالروح القدس المحيِي هو الذي يجعل أيضًا تقليد الكنيسة حي باستمرار.

فالكنيسة أضحت مستودعًا للروح القدس، كما يقول القديس إيريناؤس "حيث تكون الكنيسة، فهناك يكون الروح القدس وهناك ملء النعمة[٢٤]"، لذلك لا توجد كنيسة بدون الروح القدس. فالروح القدس له دور أساسي في الكنيسة، فهو مصدر الإعلان والوحي فيها، وهو أيضًا الذي يعطي الكنيسة الحياة ويطهرها ويقدسها: "وصيرنا أطهارًا بروحك القدوس[٢٥]"، ويصيرها سماوية، ويدخلها في الأبدية. وكل ذلك يتم من خلال الأسرار وبالأخص الإفخارستيا التي هي عربون (pledge) الأبدية والدهر الآتي "لأن ليس ملكوت الله أكلا وشربًا، بل هو بر وسلام وفرح، في الروح القدس" (رو١٤:١٧).

لقد كانت الإفخارستيا أقدم من كثير من أسفار العهد الجديد[٢٦]؛ وكان للإفخارستيا دور هام في الحفاظ على رسالة الإنجيل، حتى إن بعض علماء الليتورجيا يرون بأن بعض المقاطع من أسفار العهد الجديد والموحى بها من الروح القدس للإنجيليين وللآباء الرسل؛ كانت تستعمل من البدء كصلوات وتسابيح في سري الإفخارستيا والمعمودية،

---

[24] Ireneaus, op. cit., 34.1.3

[٢٥] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، ص ٢٢٤.

[٢٦] يسجل التاريخ ويشهد التقليد الكنسي على أن بداية كتابة أول أسفار العهد الجديد كان بعد حوالي ثلاثين سنة من صعود السيد المسيح، على حين أن الإفخارستيا كانت تقام في الكنيسة مباشرة بعد يوم العنصرة، كما يتضح في بداية سفر أعمال الرسل في الإصحاح الثاني، إلا أن كثيرًا من أحداث العهد الجديد، وبالأخص حياة السيد المسيح وتعاليمه كانت معروفة جيدًا للمؤمنين ومحفورة في قلوبهم، ومعاشة في حياتهم قبل كتابة الأناجيل، منذ أول يوم لكرازة الآباء الرسل.

جنبًا إلى جنب مع أسفار الكتاب المقدس[٢٧]. وبذلك يكون **الإنجيل قد ولد وخرج من رحم الكنيسة** بدون انفصال عنها، حيث عملت صلوات الكنيسة كخزانة حية مقدسة للأسفار الإلهية.

الإفخارستيا مركز عبادة الكنيسة

لقد سجل لنا الإنجيليون أنه في كثير من الأحداث الخلاصية، كان المسيح في "الوسط"، أي في المركز، بالأخص في حدثي الصليب والقيامة، فيكتب القديس يوحنا قائلًا عن صلب المسيح: "حيث صلبوه وصلبوا اثنين آخرين معه من هنا ومن هنا، ويسوع في الوسط" (يو١٩:١٨).

وأيضًا بعد القيامة في ظهوره للتلاميذ يكتب لنا أيضًا: "ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الأسبوع، وكانت الأبواب مغلقة، حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود، جاء يسوع ووقف في الوسط" (يو٢٠:١٩). وأيضًا في موضع آخر يقول عن ظهوره لتوما مع بقية الرسل "وبعد ثمانية أيام كان التلاميذ أيضًا داخلًا وتوما معهم، فجاء يسوع والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط وقال سلام لكم" (يو٢٠:٢٦). الأمر الذي يدل على مركزية شخص السيد المسيح كنقطة ارتكاز وحجر زاوية لخلاصنا، فهو دائمًا في الوسط.

لقد أعلن الله عن نفسه في العهد القديم لشعبه من خلال موسى النبي أنه هو "يهوه" أي الكائن" (Ὁ ὢν)؛ (خر٣:١٥؛ ٣:٦)، وفي العهد الجديد نرى المسيح يعلن وجوده وكينونته مجددًا فيصرح عن نفسه قائلًا: "أنا كائن" (يو٨:٥٨؛ رؤ٤:٨؛ ٥:١٦ ..إلخ). **والإفخارستيا هي التحقيق الفعلي والسري لحضور المسيح الدائم في الكنيسة،**

---

[٢٧] مثل: (يو١:١- ١٤، أف١: ٣-١٤؛٥:١٤، في٢: ٥-١١، كو١: ١٥-٢٠، ١تي٣:١٦، عب ١:٣، ١بط٢ :٢٢-٢٥..إلخ)، انظر كتاب: نيافة الأنبا مكاريوس، مرجع سابق، الفصل الأول، ص ١٧-٢٧.

لأنه استجابة لاشتياق شعب الله قديمًا حين قال: "وأنت يارب في وسطنا، وقد دعينا باسمك، لا تتركنا" (إر١٤:٩). فالسيد المسيح في الإفخارستيا يستعلن أنه "كائن وسيكون[٢٨]"، لذلك تستهل الكنيسة في صلواتها التي تخاطب فيها المسيح قائلة: "أيها الكائن، الذي كان، والدائم إلى الأبد[٢٩]"، فهو حاضر وكائن معنا بالحقيقة "جسديًّا"، لذلك يصلي الكاهن قائلًا: "هوذا كائن معنا على المذبح؛ عمانوئيل إلهنا..إلخ[٣٠]"

والكنيسة يكتمل اجتماعها، وتكتمل هي في نفسها، حين يكون المسيح حاضرًا في الوسط (على المذبح) **وهذا "الحضور الإفخارستي" هو ما يميز المسيحية عن أي ديانة أخرى**، فالله لم يترك شعبه، بل هو "حاضر" معنا كما وعد: "ها أنا معكم كل الأيام، وإلى انقضاء الدهر" (مت٢٨:٢٠)، بشكل حقيقي من خلال الإفخارستيا. لهذا السبب يكتب القديس إغناطيوس الأنطاكي (القرن الأول) قائلًا: "حيث يكون يسوع المسيح هناك تكون الكنيسة الجامعة[٣١]"، فمن خلال سر الإفخارستيا يكون المسيح حاضرًا معنا في الوسط: "عمانوئيل إلهنا في وسطنا الآن[٣٢]"، إنه حاضر في الوسط ليعمل فينا، فاتحًا عيون أذهاننا وقلوبنا.

وكل أسرار الكنيسة ترتبط بالإفخارستيا وتُمنح بواسطتها، لذلك صلواتنا، وخصوصًا الليتورجيات (الصلوات الجماعية) لها بُعد إفخارستي. بل في الحقيقة تتمركز حول الإفخارستيا

---

[٢٨] إن عبارة "كائن وسيكون" هي إحدى العبارات المستخدمة في النصوص الإفخارستيا في القرون الأولى (كما في ليتورجيا القديس يوحنا ذهبي الفم)، حيث يعلن الكاهن للشعب (في وقت القبلة المقدسة) قائلًا: "المسيح فيما بيننا"، ليجاوبه الشعب قائلين: "كائن وسيكون"، وبذلك يستعلن حضور المسيح وسط شعبه في الإفخارستيا.

[٢٩] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، صلاة صلح للابن، ص ٣١٦.

[٣٠] المرجع نفسه، قسمة لأعياد العذراء، والملائكة والسمائين، ص ٥٣٣.

[٣١] رسائل القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى كنيسة "سميرنا" ٨:١.

[٣٢] لحن "إبؤرو **ⲡⲟⲩⲣⲟ**" أي "يا ملك السلام".

(eucharisto-centric)، مما يجعل **المسيح محورًا لعبادة الكنيسة** كلها (Christo-centric)، وبالتالي يكون المسيح مركزًا لحياتنا مع الله، وليس شيئًا إضافيًّا أو جانبيًّا (auxiliary).

وأيضًا كل أعياد الكنيسة هي مرتبطة كذلك بالإفخارستيا، فلا يوجد عيد إلا ويرتبط معناه بالإفخارستيا، ويحتفل به من خلال القداس الإلهي. فالإفخارستيا منذ بدء الكنيسة وإلى الآن هي محور حياتها كلها، بل وعملها الرئيس؛ **فالكنيسة تصنع الإفخارستيا، والإفخارستيا تصنع الكنيسة!**

أسرار الكنيسة والإفخارستيا

أولًا: سر المعمودية والإفخارستيا

إن المعمودية هي "سر الاستنارة"، وباب الأسرار، وينبوع النعم: "ومن بيت الرب يخرج ينبوع" (يؤ٣:١٨). فمن خلالها نموت وندفن مع المسيح، لنقوم معه ثانية: "مدفونين معه في المعمودية، التي فيها أقمتم أيضًا معه" (كو٢:١٢)، آخذين طبيعة جديدة عوض الطبيعة الأولى التي فسدت، وننال نعمة البنوة، لنصير أبناءً للآب بالتبني.

ويلخص القديس كيرلس الأورشليمي[٣٣] في إحدى عظاته للموعوظين عمل المعمودية قائلًا: "عظيم هو العماد الذي يوهب لكم فإنه: عتق الأسرى، غفران المعاصي، موت الخطية، ميلاد جديد للنفس، ثوب النور، ختم مقدس لا ينفك، مركبة للسماوات، بهجة الفردوس، ترحيب في الملكوت، عطية التبني"!

ففي المعمودية نلبس المسيح كما قال معلمنا بولس الرسول: "لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح، قد لبستم المسيح" (غل٣:٢٧). ويتضح ذلك أيضًا في صلوات طقس المعمودية حين يصلي الكاهن

[٣٣] أحد أشهر الآباء الذين كتبوا تعاليم خاصة للموعوظين في القرن الرابع.

قائلًا: "ويمتلئوا من قوتك الإلهية، ويكونوا متشبهين بإبنك الوحيد ربنا يسوع المسيح، وصائرين واحدًا معه... فليتصور المسيح في الذين ينالون صبغة الميلاد الجديد مني (من الكاهن)."

يكتب القديس كبريانوس (أسقف قرطاج، القرن الثالث) قائلًا: "إن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله، اهتموا بما فوق لا بما على الأرض، لأنكم قد مُتم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضًا معه في المجد" (كو٣:١-٤)، دعونا إذًا نحن الذين متنا في المعمودية، ودُفنا من جهة الخطايا الجسدية التي للإنسان العتيق، والذين قمنا مع المسيح في الميلاد السماوي الجديد، أن نعتبر ونفعل بالمثل أيضًا الأمور التي للمسيح... فنحن لا نستطيع أن نحمل صورة السماوي، إلا إن كنا على صورة المسيح ومثاله، وهي الحالة التي بدأنا نكون عليها الآن[٣٤]."

وخبرة المعمودية هذه يحياها المؤمن بعد ذلك كل يوم، فالمعمودية وأثرها لا يقتصران على الحدث فقط، ولا تنحصر هذه الخبرة في الزمن (حتى وإن لم يتذكرها الشخص لصغر سنه وقت العماد)، أي إنها ليست حدثًا تم في حياتنا في الماضي وإنتهى، بل هي مسيرة حياتنا كلها، كل يوم!

إن المعمودية أيضًا تجعلنا أعضاءً في الكنيسة، التي هي جسد المسيح، فنغرس في الكرمة الحقيقية، ونُطعم في شجرة الزيتون الجديدة، فعند دهن المُعمَّد بزيت "الغالاليون[٣٥]" (قبل تغطيسه في الماء) يصلي الكاهن قائلًا: "أدهنك يا (فلان) بدهن الفرح... لتغرس في شجرة الزيتون... في كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية."

---

[٣٤] *مقالات القديس كبريانوس أسقف قرطاج الشهيد*، ترجمة القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، الغيرة والحسد:١٤.

[٣٥] "الغالاليون" هو أحد الزيوت المستخدمة في طقس المعمودية، ويعني الفرح أو البهجة.

فالكنيسة تلدنا وتصبح أمًّا لنا في المعمودية، وتجعلنا أبناء لله كما يقول القديس كبريانوس: "من لا تكون الكنيسة له أمًّا، لا يكون الله له أبًا[٣٦]"! هذه الكنيسة "الأم" يتكلم عنها القديس كليمندس السكندري، قائلًا: "كما يوجد آب واحد، وكلمة واحد، وروح واحد، وهم (الثلاثة) واحد معًا، هكذا توجد أم عذراء واحدة، وأنا أسميها الكنيسة... وهي تدعو أولادها إليها وتغذيهم باللبن المقدس، الذي هو الكلمة[٣٧]"، ويعود ويشبها أيضًا في موضع آخر بأنها: "العروس، والمَدرَسة التي فيها يقوم عريسها يسوع بالتعليم[٣٨]".

لقد أقامنا المسيح من موتنا ودفعنا لأمنا التي هي الكنيسة، كما فعل مع ابن أرملة نايين حين أقامه ودفعه لأمه: "فدفعه لأمه" (لو٧:١٥). وبعد أن أقامنا؛ نجده مباشرة في الإصحاح الذي يليه يأمر أول شيء ليعمل هو أن نُطعَم! وذلك لنحيا ونتقوى مثلما فعل مع إبنة يايرس، التي أقامها من الموت وأمر بإطعامها: "فأمر أن تعطى لتأكل" (لو٨:٥٥). إن هذه الأحداث تصور لنا سرًّا جميلًا، فبعد أن أقامنا المسيح من موت الخطية (بالمعمودية) يطعمنا فورًا خبز الحياة، الخبز الإلهي: "خبز الله" (يو٦:٣٣) الذي هو طعام الملكوت، فنحيا إلى الأبد!

إن القديس يوحنا ذهبي الفم يرى أن المعمدين قد صاروا جنودًا للمسيح، وهم مدعوون للأكل من المائدة الملوكية (الإفخارستيا)، فيقول: "أنتم جنود المسيح الجدد، الذين تسجلت أسماؤكم اليوم كمواطنين سمائيين، وقد دعيتم إلى هذه المائدة الروحانية (الإفخارستيا)، لتتمتعوا بأطايب المائدة الملوكية، فأظهروا غيرتكم التي تستحق هداياه وعطاياه، حتى تربحوا نعمة أكثر من فوق[٣٩]".

---

[٣٦] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، وحدة الكنيسة: ٦.

[37] *Paed.*1.6.42.1.

[38] Ibid.1.5.

[٣٩] القديس يوحنا ذهبي الفم، *عظات في المعمودية*، العظة الرابعة.

لذلك فإن سري المعمودية والإفخارستيا يحويان سر المسيح، وسر الكنيسة التي خرجت من جنب المسيح، كما يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم في أحد عظاته قائلًا: "وعند سماعك قول الإنجيل "وخرج من جنبه ماء ودم" (يو١٩:٣٤)، لا تعبر ببساطة أيها الحبيب على هذه الآية لأن بها سر؛ فهذا الماء والدم يرمزان إلى المعمودية و"الأسرار" (الإفخارستيا)، ومن كليهما نشأت الكنيسة "بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس" (تي٣:٥)، **لأن من جنبه خرج رمزا المعمودية و"الأسرار"**، وقد جبل المسيح الكنيسة من جنبه، كما جُبلت حواء من جنب آدم، لذلك يقول موسى في معرض حديثه عن الإنسان الأول: "هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي" (تك٢:٢٣)، موجهًا أنظارنا كما في لغزٍ إلى جنب السيد، فكما أخذ الله ضلعًا وجبله إمرأة، هكذا أعطانا من جنبه دمًا وماء، وجبل الكنيسة. وكما أنه أخذ الضلع حينذاك أثناء سُبات آدم؛ إذ كان نائمًا، هكذا الآن من بعد موت المسيح (نوم آدم يرمز لموت المسيح)، أعطى الدم والماء، الماء أولًا ثم الدم. أعلمتم كيف اقترن المسيح بعروسه؟ أ علمتم بأي طعام يقيتنا نحن جميعًا؟ بنفس الطعام نحن تكوَّنا ونقتات[٤٠]"!

إن كل إفخارستيا يشترك فيها الإنسان المعمد، تمنحه تطهيرًا وغفرانًا للخطايا التي يقترفها أثناء مسيرة حياته، بعد توبته واعترافه، فالمؤمن بتوبته واعترافه وتناوله يُبيِّض ثوب المعمودية (ثياب البر والنور) غاسلًا إياها بدم الخروف "قد غسلوا ثيابهم، وبيضوا ثيابهم في دم الخروف" (رؤ٧:١٤).

كما أن الكنيسة من جهة أخرى تطلب وتتضرع بالصوم[٤١]

---

[٤٠] القديس يوحنا ذهبي الفم، *عظات إلى المعمدين الجدد* ٣ :١٧-١٩.

[٤١] كان الموعوظين يتم عمادهم في يوم "سبت النور" بعد "الصوم الكبير" الذي كان يعد من جهة فترة إعداد وتعليم للموعوظين قبل العماد، وفي نفس الوقت هو فترة توازر الكنيسة كلها الموعوظين من خلال الصوم والصلاة، طالبة إلى الرب أن ينتصروا على الظلمة

والصلاة (بالأخص في القداس الإلهي) لأجل عماد الموعوظين (من آمنوا بالمسيح وينتظرون العماد) لكي يثبتهم في الإيمان، وينعم عليهم بالميلاد الفوقاني، من الماء والروح: "اذكر يا رب موعوظي شعبك ارحمهم... ثبتهم في الإيمان بك، كل بقية عبادة الأوثان انزعها من قلوبهم... وفي الزمن المحدد فليستحقوا حميم الميلاد الجديد، لغفران خطاياهم، إذ تعدهم هيكلًا لروحك القدوس[٤٢]".

ويرسم لنا سفر الرؤيا صورة جميلة للكنيسة التي تحيا الأبدية، فيصور السفر المسيح بأنه خروف قائم كأنه مذبوح، ويصور أيضًا مذبحًا سماويًّا أمام عرش الخروف يجري منه نهر ماء حياة. فالمعمودية التي يُرمز لها بالنهر في سفر الرؤيا تمنحنا الاشتراك في موت وقيامة المسيح، هي أيضًا الطريق إلى شجرة الحياة "الإفخارستيا" التي فيها شفاء الأمم: "أراني نهرًا صافيًا من ماء حياة لامعًا كبلور، خارجًا من عرش الله والخروف، في وسط سوقها وعلى النهر من هنا ومن هناك، شجرة حياة تصنع اثنتي عشرة ثمرة، وتعطي كل شهر ثمرها، وورق الشجرة لشفاء الأمم" (رؤ٢٢:١،٢).

وهكذا **فإننا بالمعمودية نأخذ الطبيعة الجديدة كبذرة حياة داخلنا**، والإفخارستيا تعطينا المقدرة والإمكانية لنمو تلك الطبيعة، فينمو الإنسان الجديد المخلوق بحسب خالقه. وعملية التشكيل هذه تبدأ على الأرض وتكتمل في الأبدية. فنحن في الإفخارستيا نتحد بالمسيح "صورة الآب[٤٣]" ونتغير إلى صورته شيئًا فشيئًا.

وقواتها، ويعبروا إلي النور، صائرين أبناء للنور بالمعمودية التي سيحصلوا عليها في عيد الفصح.

[٤٢] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية الموعوظين، ص ٧٩.

[٤٣] تعبير أن "الابن" هو "صورة الله" (Εἰκὼν τοῦ Θεοῦ) "الذي إذ كان في صورة الله" (فل٢:٦) يعني أننا نرى الآب برؤيتنا للابن المتجسد الذي هو صورة الله الآب غير المنظور؛ "الذي هو صورة الله غير المنظور" (كو١:١٥)؛ فالله "لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر" (يو١:١٨)، في حين أن الابن المتجسد في ملء الزمان هو الله الظاهر في الجسد لأجلنا، وهو صورة الله الآب. لذلك قال السيد المسيح عن

ثانيًا: سر الميرون والإفخارستيا

إننا في سر الميرون[٤٤] **نُدَشَّن، ونتَقَدَّس ونُكَّرس** (أي نخصص) لنصير أوعية مقدسة وهياكل لله، هياكل للروح القدس الذي يصفه القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات بأنه "**صانع الهياكل لذاته**[٤٥]." وننضم بذلك لشعب الله الذي هو أمة مقدسة، ذات كهنوت ملوكي، لننال إمكانية تقديم ذبائح شكر وتسبيح لله، بحسب تعليم آباء الكنيسة كالقديس أمبروسيوس، القائل: "المسحة المقدسة (سر الميرون) بعد المعمودية، تكرسك لتشارك في الكهنوت الروحي، لكل المؤمنين (الكهنوت العام)، لقد مُسِح كل جسد الكنيسة، ليمارس وظيفة كهنوتية، ليقدم ذبيحة روحية من التسبيح "أما أنتم فجنس مختار وكهنوت ملوكي، أمة مقدسة، شعب اقتناء، لكي تخبروا بفضائل الله الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب" (١بط٢:٩)، فكل واحد منكم قد مُسح بالروح القدس، ليشارك في ملكوت الله كما في الكهنوت الروحي للمؤمنين."

والإفخارستيا تجدد دومًا ما أخذناه في سري المعمودية والميرون اللذين لا يعادان. فالإفخارستيا تثبتنا في المسيح باستمرار كقوله الصادق: "من يأكل جسدي، ويشرب دمي، يثبت في وأنا

نفسه "الذي رآني فقد رأى الآب" (يو١٤:٩). وهذا هو ما تعبر عنه الكنيسة في القداس الإلهي بقولها: "وفي آخر الأيام ظهرت لنا (أي "الآب" الذي توجه له الصلاة كلها) نحن الجلوس في الظلمة وظلال الموت بإبنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح". وأيضًا كون الابن هو صورة الآب؛ تعني أن لهما طبيعة واحدة: "واحد مع الآب في الجوهر" (قانون الإيمان)، ولهما كل ما يختص بالإلوهة، مع تمايز كل أقنوم على حدة؛ فأقنوم الآب، غير أقنوم الابن، غير أقنوم الروح القدس، إلا أن الثلاثة لهم جوهر واحد، وهم إله واحد، مثلث الأقانيم. للمزيد عن هذا الموضوع انظر: القديس كيرلس الإسكندري، شرح *إنجيل يوحنا*، الجزء الأول، الإصحاح السادس، الفصل الخامس، ص٣٤٧-٣٥٤.

[٤٤] "ميرون" (Μύρον) كلمة يونانية تعني "زيت"، ويسمى أيضًا هذا السر "سر التثبيت".

[٤٥] القديس غريغوريوس النزينزي، العظة ٤١، عن عيد حلول الروح القدس.

فيه" (يو٦:٥٦). إننا بواسطة الإفخارستيا نثبت في الكرمة التي هي الكنيسة، التي غرسنا فيها بالمعمودية والميرون وننمو فيها، ونجدد جحدنا للشيطان وكل أعماله (كما في تعهد المعمودية).

ونحن نتناول نضرم الروح الناري الذي أخذناه سابقًا في الميرون، وننقي الهيكل الذي سبق وتقدس لسكنى الله. فالإفخارستيا تقوم بتجديد وتفعيل (activation) العطايا والمواهب، التي سبق ونلناها في سري المعمودية والميرون.

والإفخارستيا أيضا تغذي "**إنساننا الجديد**"، الذي خُلق فينا (الإنسان الداخلي) من قبل بواسطة سري المعمودية والميرون. فالقديس أمبروسيوس يوضح أن كل إنسان ولد في المسيح، قد خُلق ثانية على صورة الله قائلًا: "لقد صارت لكم اليوم (يوم المعمودية) علامة؛ إنها علامة صليبه وعلامة آلامه، لقد قبلتم ختم صورته، لكي تقدروا أن تقوموا ثانية على صورته، لكي تقدروا أن تعيشوا على مثال صورته." وفي سر الميرون ندشن كأواني نافعة للخدمة، تمامًا مثل الأواني الموضوعة على المذبح، والتي نعاملها بكل حرص وقداسة، لأنها قد دشنت هي الآخرى بالميرون المقدس، لكي تُكرس وتخصص وتصير مقدسة لأجل وظيفة حمل الأسرار. ونحن أيضًا قد صرنا أواني وهياكل عاقلة وناطقة، بحسب تعليم بولس الرسول. فنحن قد مُسحنا بالميرون ستة وثلاثين مرة وهو عدد يفوق بكثير تكريس أي آنية في الكنيسة. وبذلك صرنا منذ يوم معموديتنا، أعضاء في الكنيسة التي هي "جسد المسيح"!

هناك أمر آخر يشترك فيه كلا السرين (الميرون والإفخارستيا) وهو "**الختم**"، ففي سر الميرون ننال ختم الروح القدس "سفراجيس[٤٦]" كما يتضح من صلاة الكاهن عند دهن المعمد بالميرون قائلًا:

---

[٤٦] سفراجيس "Σφραγίς" كلمة يونانية تعني "ختم".

"مسحة مقدسة وختم لا ينحل"، حيث يختم الروح القدس الإنسان: "نختم عبيد إلهنا على جباههم" (رؤ٧:٣). ونحن نرى في سر الإفخارستيا ختمًا آخر أيضًا، حيث إن المسيح هو صورة الآب، وقد أكد السيد المسيح هذه الحقيقة بقوله: "لأن هذا (الخبز) الله الآب قد ختمه" (يو٦:٢٧). أي أن الخبز الإفخارستيا سيتحول إلى جسد المسيح الذي هو صورة الآب غير المنظور[٤٧].

كما أن سري الميرون والإفخارستيا (وباقي الأسرار) يتمان بالروح القدس (أي بواسطة عمله وحلوله)، وهما دائمان في الكنيسة كوعد الرب: "أما الزيت، والخمر فلا تضرهما" (رؤ٦:٦). إنهما نبعان يتدفق منهما الروح القدس، الذي يقدس الإنسان ويجعل منه "إنسان الله" (١تي٦:١١؛ ٢تي٣:١٧)!

من الجدير بالملاحظة أيضًا أن سري الميرون والإفخارستيا يتشابهان أيضًا في عدد الرشومات؛ حيث عدد الرشومات أثناء القداس الإلهي، يساوي عدد الرشومات في سر الميرون (ستة وثلاثين رشمًا). فالكاهن في القداس الإلهي يقوم برشم الشعب بعلامة الصليب، ثماني عشرة مرة، والأسرار بنفس العدد، ليصير الجملة ستة وثلاثين رشمًا (هناك ستة رشومات أخرى، من الجسد ودم وإليه). ويدهن (يرشم) الكاهن جسم المعمد بالميرون أيضًا ستة وثلاثين رشمًا، التي هي حاصل ضرب ستة في ستة، حيث رقم ستة في الكتاب المقدس يرمز للإنسان، لأنه خُلق في اليوم السادس وتم فداؤه في اليوم السادس، مما يشير إلى أن "الإنسان" يخلق من جديد، ويتقدس بواسطة الأسرار.

ثالثًا: سر التوبة والاعتراف والإفخارستيا

إن سر التوبة والاعتراف هو "**سر المصالحة**" (reconciliation)،

---

[٤٧] قديمًا كان يحفر على ختم الملك صورته وكذلك العملات أيضًا. وفي الطقس القبطي عند إعداد القربان يتم ختمه بعلامة الصليب.

لأننا نتصالح فيه مع الله ومع الكنيسة، التي هي جسد المسيح بعد أن فصلتنا الخطية عنه، فنعود لنتحد بالمسيح، وبسائر الجسد في "الإفخارستيا"، لذلك فإن السرين يقترنان ببعض. فسر الاعتراف يعيد علاقة الشركة بيننا، ويجعلها في النور، بعد أن فصلتنا وأبعدتنا الخطية عن بعضنا البعض.

وسر الإفخارستيا هو سر مغفرة الخطايا والحياة الأبدية، فقد صرح السيد المسيح يوم خميس العهد قائلًا: "هذا هو دمي للذي للعهد الجديد، الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" (مت٢٦:٢٨). ويصلي الكاهن قائلًا أيضًا: "يعطى عنا خلاصًا وغفرانًا للخطايا، وحياة أبدية لكل من يتناول منه[٤٨]" ففي الإفخارستيا تغفر خطايانا التي تفصلنا عن الحياة الأبدية: "إن معاصينا وخطايانا علينا، وبها نحن فانون، فكيف نحيا؟" (حز٣٣:١٠)، ونمنح حياة أبدية طاهرة في البر.

لذلك فالإفخارستيا هي "ذبيحة صُلّح"، فيها نتصالح مع الله، ومع السماء والأرض (وهذا هو ما تشير إليه صلاة الصلح في القداس الإلهي). فلا أحد يستطيع أن يتقدم للتناول، وهو غير تائب ومتصالح مع أخيه: "فإن قدمت قربانك للمذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئًا عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح، واذهب أولًا اصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك" (مت٥:٢٣،٢٤). لذلك يحث القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات كل نفسٍ قائلًا: "امتحن نفسك أكثر من قريبك، حساب الأعمال أهم من حساب المال، لأن المال يفسد، بينما الأعمال تبقى"، إن خطية هذا العصر تكمن في أن الإنسان نسى أنه يخطئ!

إن ممارسة الاعتراف يعمق إنسانيتنا، ويجعلنا نحتمل

---

[٤٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة الاعتراف (قبل التناول مباشرة)، ص ٢٧٨.

ضعفات أنفسنا والآخرين، كقول الكاتب والفيلسوف الفرنسي "فولتير" (القرن الثامن عشر): "ما هو الإحتمال؟ إنه نتاج الإنسانية، كلنا تشكلنا بالأخطاء والضعف، لذلك دعونا نتبادل الاعتذار عن أخطائنا المتبادلة، لأن هذا هو قانون الطبيعة الأول." وهذا هو ما سبق وأكده الحكيم يشوع بن.سيراخ في سفره قائلًا: "لا تستحي أن تعترف بأخطائك، ولا تغالب مجرى النهر" (يشوع بن سيراخ٤:٣١)، أي ينبغي أن نعترف بخطايانا، ولا نقاوم الروح القدس الذي يرمز له بالنهر.

وهذا هو ما تعبر عنه "**القبلة المقدسة**" في القداس الإلهي، إنها قبلة السلام والمصالحة، التي نصنعها قبل الشروع في قداس المؤمنين، إنها علامة على تصالحنا مع كل الناس، سواء كانوا مشتركين وحاضرين معنا في القداس أم لا، فلكي ننال "محبة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد، وشركة وموهبة وعطية الروح القدس[٤٩]" وننال جسد المسيح، يجب علينا أن نتصالح أولًا مع أنفسنا، ثم مع الآخرين فتتحقق بذلك وحدة الجسد الواحد.

لذلك يكتب معلمنا بولس الرسول: "فإذا كنتم تأكلون وتنهشون بعضكم بعضًا، فانظروا لئلا تفنوا بعضكم بعضًا" (غل٥:١٥)، ومن بعده القديس كليمندس الروماني (أسقف روما، القرن الأول) يكتب إلى كنيسة كورنثوس قائلًا: "أي معنى للنزاعات والغضب والخلافات، والإنقسامات فيما بينكم؟ أليس إلهنا واحدًا، وروح محبة واحد (الروح القدس) يغمرنا، ودعوة واحدة في المسيح يسوع؟ فلما نمزق أعضاء المسيح ونبعثرها، ولما تتمردون على جسدكم؟ ولما بلوغ هذه الدرجة من الجنون؟ فتنسون أننا أعضاء بعضنا لبعض[٥٠]"!

إن سر التوبة والاعتراف يحافظ على نقاوة وطهارة ثياب

---

[٤٩] المرجع نفسه، القداس الغريغوري، ص ٣٢٣.

[٥٠] القديس كليمندس الروماني، الرسالة إلى الكورنثيين، مرجع سابق، الفصل٤٦.

المعمودية والتي هي ثياب البر والخلاص: "لتكن ثيابك في كل حين بيضاء" (جا٩:٨). فالروح القدس يرشدنا، مسلطًا الضوء على ما ينبغي تركه، أو تغيره أو التوبة عنه (يبكتنا)، فنخرجه خارجًا: "إنك توبخ شيئًا فشيئًا الذين يزلون وتنذرهم، مذكرًا إياهم بما يخطأون فيه، لكي يقلعوا عن الشر ويؤمنوا بك أيها الرب" (الحكمة١٢:٢).

ونحن في سر الاعتراف نخرج كل ما هو ظلمة لينكشف ويصير في محضر الرب نورًا: "لأن الأمور الحادثة منهم سرًّا، ذكرها أيضًا قبيح، ولكن الكل إذ توبخ يظهر بالنور، لأن كل ما أُظهر فهو نـــور" (أف٥:١٢، ١٣). وإن فعلنا ذلك نحيا معًا كجسد واحد في شركة وشفافية "ولكن إن سلكنا في النور، كما هو في النور، فلنا شركة بعضنا مع بعض، ودم يسوع المسيح إبنه، يطهرنا من كل خطية" (١يو١:٧). أي إننا في سر التوبة نترك الخطايا التي تفصلنا عن الكنيسة جسد المسيح، ونتصالح مع هذا الجسد ونتأهل للاشتراك والاتحاد مع الكنيسة مجددًا.

وكما أن الإفخارستيا هي ذبيحة مصالحة، هي أيضًا "**ذبيحة سلام**" فيها نتناول جسد المسيح "ملك السلام" ويتضح هذا في طقس الكنيسة حين ندخل بالقرابين إلى الهيكل[٥١] (طقس دخول الحمل)، والتي ستتحول إلى جسد المسيح الذي هو ملك السلام، بل والسلام ذاته "لأنه هو سلامنا" (أف٢:١٤)، فنحن حينما ننشد السلام ونطلبه، إنما نطلب بذلك الله! لذلك تصلي الكنيسة مع إشعياء النبي القائل: "يا رب تجعل لنا سلامًا" (إش٢٦:١٢)، فتقول هي أيضًا: "يا ملك السلام، أعطنا سلامك، وقرر لنا سلامك[٥٢]". كما أن الكنيسة تعلن في القداس الإلهي أن الإفخارستيا هي "رحمة السلام، ذبيحة

---

[٥١] في الأعياد السيدية الثلاث "الميلاد والغطاس والقيامة".

[٥٢] لحن "إبؤرو ⲡⲟⲩⲣⲟ" أو "يا ملك السلام" يقال في وقت "دخول الحمل" في الأعياد السيدية الكبرى، وفي استقبال الأب الأسقف أو البطريرك، لأنه يمثل المسيح ملك السلام.

التسبيح[٥٣]" أي إنها ذبيحة تمنحنا الرحمة والسلام، وهي ذبيحة مقترنة بالتسبيح.

إننا في الإفخارستيا نصنع سلامًا مع بعضنا البعض، ونصلي لأجل سلام العالم وكل البشر، ونستقبل عطية سلام المسيح الذي ينطقه الكاهن قائلًا للشعب "إيرني باسي" (Ⲓⲣⲏⲛⲏ ⲡⲁⲥⲓ) أي السلام لجميعكم، إن كل ذلك يساعدنا لكي نكون كقول المرنم "أنا سلام" (مز١٢٠:٧)، إننا نطلب السلام حتى نستطيع أن نصلي بحق بدون تشويش، كما يقول القديس "مار أوغريس" : "صلِّ في سلام ونقاء، رتل بفهم ولذة، وبذلك تكون كنسر صغير يحلق في أعلى السماء"!

والاشتراك في الذبيحة الإلهية، يتطلب الإستعداد من خلال تقديم التوبة والاعتراف، التوبة الحقيقية أولًا: "ليترك الشرير طريقه، ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه، وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران" (إش٥٥:٧)، ثم الاعتراف للتصالح والاتحاد مجددًا بالجسد الواحد، ثم يتقدم للتناول لنوال الغفران: "وأما النفس التي تأكل لحمًا من ذبيحة السلامة التي للرب ونجاستها عليها، فتقطع تلك النفس من شعبها" (لا٧:٢١ سبعينية). فنحن بسر التوبة والاعتراف "نتقدس"، و"نستعد" للاشتراك في الذبيحة الإلهية "تقدسوا وتعالوا معي إلى الذبيحة" (١صم١٦:٥).

كما إن **سر الاعتراف له بعد علاجي (شفائي)**، لأننا بواسطته ننال الشفاء، ونتطهر من الأمراض الروحية التي هي الخطايا والتي من شأنها أن تؤثر أيضًا على الجسد والنفس كقول الخطيب الروماني "شيشيرون" (القرن الأول قبل الميلاد): "إن أمراض الروح هي أخطر وأكثر من أمراض الجسد"، لذلك لا يجب الاستخفاف بأمراضنا

---

[٥٣] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٢٣.

الروحية (الخطايا) التي تلوث الإنسان كله، إن لم يسارع بعلاجها.

وكان داود النبي من أعظم نماذج التوبة في الكتاب المقدس[٥٤]، لذلك وضعت الكنيسة في مقدمة معظم صلواتها (المزمور الخمسين "ارحمني يا الله") لكي تكون توبته نموذجًا لتوبتنا نحن أيضًا التي بها نتقدم لله. لقد تاب داود واعترف بإثمه أمام "ناثان" النبي (بالرغم من أن داود نفسه كان من أعظم الملوك والأنبياء)، بل وسجل توبته وأعلنها أمام الجميع في مزموره الشهير (المزمور الخمسين) الذي يقول فيه "ومن خطيتي تطهرني" (مز٥١:٢ ، المزمور الخمسين في الأجبية).

إن كتمان الخطية كان يؤرق داود النبي ويفقده سلامه الداخلي، فنراه يأن قائلًا: "لما سكت بليت عظامي، من زفيري اليوم كله" (مز٣٢:٣)، لكنه يخبرنا بعدها مباشرة بالحل الذي توصل إليه، فيقول "أعترف لك بخطيتي، ولا أكتم إثمي، قلت أعترف للرب بذنبي" (مز٣٢:٥)، وفي موضع آخر يقول أيضًا: "أنا قلت يا رب ارحمني، اشف نفسي، لأني قد أخطأت إليك" (مز٤١:٤). وحين اعترف داود بخطاياه، واختبر محبة الله الغافرة، شهد قائلًا في نفس المزمور: "طوبى للذي غفر إثمه، وسترت خطيئته، طوبى لرجلٍ لا يحسب له الرب خطية" (مز٣٢:١،٢).

هذه الخبرة ورثها أيضًا سليمان الحكيم وبقية الأنبياء، فنرى سليمان يقول: "من يكتم خطاياه لا ينجح، ومن يقر بها ويتركها يرحم" (أم٢٨:١٣)، ويؤيل النبي يوصي الشعب قائلًا: "ارجع يا إسرائيل إلى الرب إلهك، لأنك قد تعثرت بإثمك، خذوا معكم كلامًا وارجعوا إلى الرب" (هو١٤:١،٢).

---

[٥٤] نرى أيضًا في تاريخ الكنيسة نماذج كثيرة للتوبة؛ لعل من أبرزها القديس أغسطينوس الذي سار على نهج داود النبي فسجل توبته في مؤلفه الأشهر "الاعترافات" الذي هو مثابة مزمور طويل للتوبة، وقد أثر ذلك المؤلف في حياة الكثيرين عبر العصور، ليصير بذلك أشهر كتاب يقرأ بعد الكتاب المقدس لعدة قرون خصوصًا في الغرب.

إن كتمان الخطية داخلنا (حتى وإن كنا قد تُبنَا عنها) قد يترك أثرًا سيئًا داخل النفس، كالشعور بالذنب، أو الشعور بالدونية، وغيرها من المشاعر السلبية، التي من شأنها إعاقة الشخص عن الدخول إلى عمق الاتحاد بالله والفرح به. لذلك تسمى الصلاة التي يصليها الكاهن للشخص المعترف "الحِل" (التحليل) لأنها تحل الشخص، تفكه، تحرره من قيود الخطية، فلا يصبح لها بعد سلطان أو تأثير عليه، ولا تثقل كاهله بمشاعر سلبية. إن الاعتراف له شق "**تأكيدي**" على محبة الله لنا. ومن الجدير بالذكر أن الروح القدس ينقل إلى التائب غلبة المسيح على الشيطان والخطية، فكما غلب المسيح نستطيع نحن أن نغلب به وفيه، وهذا هو ما ينقله لنا الروح القدس.

أما عن دور الكاهن في سر الاعتراف، فهو ينبثق من كون المسيح هو الكاهن الحقيقي لكل الأسرار. **فالكاهن يطلب الحل للخاطئ كخاطئ مثله** (لاحظ صيغة الجمع للمتكلمين، وذكر الكاهن لنفسه كخاطيء وضعيف مع المعترف، في صلوات التحليل) فيقول: "عبيدك آبائي، وإخوتي وضعفي، هؤلاء المنحنين برؤوسهم أمام مجدك الأقدس، إرزقنا رحمتك واقطع كل رباطات خطايانا، وإن كنا قد أخطأنا إليك بشيء بعلم أو بغير علم، فأنت كصالح ومحب للبشر.. إلخ."

إن الكاهن لا يحالل المعترف من ذاته، إنما هو **ينطق "بغفران المسيح" للتائب**، ويقف **كشاهد** لذلك وممثل للكنيسة كلها، ويوضح ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم بقوله: "**الكاهن يعير صوته ويقدم يديه، ولكن كل شيء يتم بواسطة الله**، وهذا يعني أن ذلك هو عمل المسيح بنفسه، فهو لا يزال يعمل كرئيس كهنة في كنيسته، والسر هو هو، والكاهن هو المسيح نفسه، لذلك لا تقل إني أعترف عند (فلان)، ولكنه المسيح هو الذي يتقبل اعترافي، ويعطيني الحل والغفران."

سر التوبة والاعتراف هو سر فيه "تجديد للخليقة"؛ إذ ينفخ الكاهن بعد أن يصلي الحل للمعترف، مجددًا إياه بنوع ما، حيث يرجع الإنسان إلى وضعه الأول، بل وأفضل "خليقة جديدة في المسيح" كما في باقي الأسرار، **فكل الأسرار تعمل معًا لتجديد الإنسان!** ويتضح ذلك من خلال نصوص الصلوات ونفخة الأسقف أو الكاهن، تلك النفخة التي تحاكي نفخة الله لآدم عندما خلقه في أول مرة: "فجبل الرب الإله آدم ترابًا ومن الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حية" (تك٢:٧). كما يحاكي ذلك أيضًا ما صنعه المسيح بعد القيامة حين نفخ في وجه تلاميذه القديسين ورسله الأطهار ليقبلوا الروح القدس كخليقة جديدة (يو٢٠:٢٢) ومتجددة، عوض الأولى التي فسدت[٥٥].

فكما أن المعمودية هي السر الذي يسبق الإفخارستيا حيث يتأهل الأعضاء الجدد للدخول إلى عرس الحمل، فهكذا أيضًا بسر التوبة يتجدد المؤمنون ويتطهرون، ويلبسون ثياب العرس، ويصيرون مؤهلين ثانية للدخول إلى عرس الحمل.

رابعًا: سر الزيجة والإفخارستيا

إن **سر الزيجة هو "صورة (أيقونة) إفخارستية"** من الدرجة الأولى، فالزواج هو أسمى وأرقى، وأقوى علاقة يمكن أن تكون بين فردين. لذلك شبه الرب التصاقه واتحاده بنا (خصوصًا في الإفخارستيا) بسر الزيجة. وبذلك يكون الزواج نموذجًا مصغرًا لسر اتحاد الله بشعبه.

وإستخدام الله للزواج كنموذج لعلاقته بنا، يدل أيضًا على أن الاتحاد الحاصل في الزيجة هو مقدسٌ، كما يقول القديس

---

[٥٥] تمارس الكنيسة هذا المعنى عندما ينفخ الأسقف أو الكاهن في أغلب أسرار الكنيسة لمنح الروح القدس (أو مواهبه) كما في سر المعمودية، سر الميرون، وسر الإفخارستيا، وسر الكهنوت..إلخ، لأن الأسرار تجدد الإنسان، وتجدد عمل النعمة فيه.

إن كتمان الخطية داخلنا (حتى وإن كنا قد تُبنَا عنها) قد يترك أثرًا سيئًا داخل النفس، كالشعور بالذنب، أو الشعور بالدونية، وغيرها من المشاعر السلبية، التي من شأنها إعاقة الشخص عن الدخول إلى عمق الاتحاد بالله والفرح به. لذلك تسمى الصلاة التي يصليها الكاهن للشخص المعترف "الحِل" (التحليل) لأنها تحل الشخص، تفكه، تحرره من قيود الخطية، فلا يصبح لها بعد سلطان أو تأثير عليه، ولا تثقل كاهله بمشاعر سلبية. إن الاعتراف له شق "**تأكيدي**" على محبة الله لنا. ومن الجدير بالذكر أن الروح القدس ينقل إلى التائب غلبة المسيح على الشيطان والخطية، فكما غلب المسيح نستطيع نحن أن نغلب به وفيه، وهذا هو ما ينقله لنا الروح القدس.

أما عن دور الكاهن في سر الاعتراف، فهو ينبثق من كون المسيح هو الكاهن الحقيقي لكل الأسرار. **فالكاهن يطلب الحل للخاطئ كخاطئ مثله** (لاحظ صيغة الجمع للمتكلمين، وذكر الكاهن لنفسه كخاطيء وضعيف مع المعترف، في صلوات التحليل) فيقول: "عبيدك آبائي، وإخوتي وضعفي، هؤلاء المنحنين برؤوسهم أمام مجدك الأقدس، إرزقنا رحمتك واقطع كل رباطات خطايانا، وإن كنا قد أخطأنا إليك بشيء بعلم أو بغير علم، فأنت كصالح ومحب للبشر.. إلخ."

إن الكاهن لا يحالل المعترف من ذاته، إنما هو **ينطق "بغفران المسيح" للتائب**، ويقف **كشاهد** لذلك وممثل للكنيسة كلها، ويوضح ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم بقوله: "**الكاهن يعير صوته ويقدم يديه، ولكن كل شيء يتم بواسطة الله**، وهذا يعني أن ذلك هو عمل المسيح بنفسه، فهو لا يزال يعمل كرئيس كهنة في كنيسته، والسر هو هو، والكاهن هو المسيح نفسه، لذلك لا تقل إني أعترف عند (فلان)، ولكنه المسيح هو الذي يتقبل اعترافي، ويعطيني الحل والغفران."

سر التوبة والاعتراف هو سر فيه "تجديد للخليقة"؛ إذ ينفخ الكاهن بعد أن يصلي الحل للمعترف، مجددًا إياه بنوع ما، حيث يرجع الإنسان إلى وضعه الأول، بل وأفضل "خليقة جديدة في المسيح" كما في باقي الأسرار، **فكل الأسرار تعمل معًا لتجديد الإنسان!** ويتضح ذلك من خلال نصوص الصلوات ونفخة الأسقف أو الكاهن، تلك النفخة التي تحاكي نفخة الله لآدم عندما خلقه في أول مرة: "فجبل الرب الإله آدم ترابًا ومن الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حية" (تك٢:٧). كما يحاكي ذلك أيضًا ما صنعه المسيح بعد القيامة حين نفخ في وجه تلاميذه القديسين ورسله الأطهار ليقبلوا الروح القدس كخليقة جديدة (يو٢٠:٢٢) ومتجددة، عوض الأولى التي فسدت[٥٥].

فكما أن المعمودية هي السر الذي يسبق الإفخارستيا حيث يتأهل الأعضاء الجدد للدخول إلى عرس الحمل، فهكذا أيضًا بسر التوبة يتجدد المؤمنون ويتطهرون، ويلبسون ثياب العرس، ويصيرون مؤهلين ثانية للدخول إلى عرس الحمل.

رابعًا: سر الزيجة والإفخارستيا

إن **سر الزيجة هو "صورة (أيقونة) إفخارستية"** من الدرجة الأولى، فالزواج هو أسمى وأرقى، وأقوى علاقة يمكن أن تكون بين فردين. لذلك شبه الرب التصاقه واتحاده بنا (خصوصًا في الإفخارستيا) بسر الزيجة. وبذلك يكون الزواج نموذجًا مصغرًا لسر اتحاد الله بشعبه.

وإستخدام الله للزواج كنموذج لعلاقته بنا، يدل أيضًا على أن الاتحاد الحاصل في الزيجة هو مقدسٌ، كما يقول القديس

---

[٥٥] تمارس الكنيسة هذا المعنى عندما ينفخ الأسقف أو الكاهن في أغلب أسرار الكنيسة لمنح الروح القدس (أو مواهبه) كما في سر المعمودية، سر الميرون، وسر الإفخارستيا، وسر الكهنوت..إلخ، لأن الأسرار تجدد الإنسان، وتجدد عمل النعمة فيه.

كليمندس السكندري "مقدسة هي حالة الزيجة[٥٦]"، وإلا ما كان الله ليستخدمه كثيرًا في العهدين للتعبير عن علاقته وارتباطه بشعبه. ففي الزواج يرتبط الزوجان ببعضهما البعض ويصيران جسدًا واحدًا.

إن الله قبل أن يبارك الإنسان، خلق حواء لتكون معينًا نظيرًا (مساويًا) لآدم. فالحب المتبادل، والمساندة والعون، والعيش المشترك هو أساس العلاقة الزوجية. ثم بعد ذلك يأتي الإنجاب ليس كشيء أدنى كما يظن البعض[٥٧]، ولا هو الهدف الأول والوحيد للزواج، كما يسيء البعض الآخر الفهم؛ بل إن الإنجاب هو أحد بركات الزواج العديدة وثمارها. إنه بركة تتوج هذه العلاقة وهذا الاتحاد. **فالله بارك الإنسان بأن جعله يشترك معه في عملية الخلق:** "أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض" (تك١:٢٨؛ ٩:١،٧)، جاعلًا له دورًا إيجابيًّا وفعّالاً في ذلك، بمحض إرادته من خلال رغبة الطرفين واتفاقهما على الإنجاب. فالإنسان من خلال الزواج يستطيع أن يكون عائلة، **والعائلة هي نواة الكنيسة**. إن العائلات هي بمثابة الخلايا الحية المكونة للكنيسة، لذلك إذا كانت لدينا عائلات صحيحة، وقوية، ومترابطة، وناجحة، ومقدسة وثابتة في الرب، أصبحت لدينا كنسية قوية أيضًا، والعكس صحيح.

لقد تنبأ حسنًا سليمان الحكيم، حين رسم لنا بالروح صورة لكنيسة العهد الجديد، حيث يجتمع الكل حول الإفخارستيا فيقول: "امرأتك تصير مثل كرمة مثمرة في جوانب بيتك (الكنيسة)، بنوك مثل غروس الزيتون الجدد، حول مائدتك (المذبح)" (مز١٢٨:٣). إن الكنيسة (ككل) هي "امرأة

---

[56] *Strom.*,3.10.12.

[٥٧] كان "الغنوسيون" و"المانيون" يحقرون من شأن الزواج عامة، ويعتبرونه أمرًا جسدانيًّا ومادِّيًّا صَرفًا، وكل ما هو مادي وجسدي لديهم فهو يتبع إله الشر، أما كل ما هو روحي فهو يتبع إله الخير.

الخـروف" (رؤ٢١:٩)، كما وصفها يوحنا الرسول في سفر الرؤيا. فهي إمرأة المسيح، العريس الحقيقي، وهي أيضًا الكرمة، ونحن أبناء هذه الكرمة، والمائدة هي مائدة الإفخارستيا[٥٨]، التي يجتمع ويلتف حولها أبناء الملكوت المثمرين، ليشربوا من عصارة ونتاج الكرمة، التي هي دم المسيح الكريم، المانح الحياة الأبدية.

إن سر الزيجة يشرح لنا كيف يتحد بنا الرب أيضًا جسديًّا وروحيًّا (بشكل مختلف) في سر الإفخارستيا. لقد رسم الله سر اتحاده بالمؤمنين (الاتحاد بين المسيح والكنيسة) قائلًا: "**هذا السر عظيم**، ولكنني أقول من نحو المسيح والكنيسة" (أف٥:٣٢)، فالكنيسة هي عروس المسيح، والزوج يمثل المسيح الذي هو رأس الكنيسة، والمرأة تخضع لزوجها، كما تخضع الكنيسة للمسيح: "أيها النساء إخضعن لرجالكن، كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة، كما أن المسيح أيضا هو رأس الكنيسة، وهو مخلص الجسد" (أف٥:٢٢،٢٣).

فالمرأة عمومًا (وفي سر الزيجة خصوصًا) ليست أقل أبدًا من الرجل، فالرجل يحب زوجته مثل جسده الذي يحيا به: "كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم" (أف٥:٢٨)، ويعلق على ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم بقوله: "لأنه بعد أن قال "أيها الرجال أحبوا نساءكم" (أف٥:٢٥)، لا يكتفي بأن يوحي بمحبتهن، بل يعين مقياس ومدى هذه المحبة فيضيف (أحبوهن كما أحب المسيح الكنيسة). وقل لنا يا بولس كيف أحب المسيح الكنيسة إلى حد أن يحتمل الموت لأجلها؟[٥٩]." الأمر الذي يظهر بوضوح في ذبيحة الإفخارستيا، فالله يعطى ذاته بالكامل لنا في الإفخارستيا كفعل محبة، لكيما نحن أيضًا نقدم ذواتنا بالكامل للآخر في المحبة.

---

[٥٨] يصلي الكاهن في صلاة الشكر أثناء طقس تقديم الحمل قائلًا: "كل حسد، وكل تجربة، وكل فعل الشيطان... انزعها عنا، وعن سائر شعبك، وعن هذه المائدة".

[٥٩] القديس يوحنا ذهبي الفم، *في الكهنوت وأحاديث عن الزواج ورسائل المنفى*، منشورات النور، ١٩٩٥،١٩٩٥، أحاديث عن الزواج: ٣.

لقد وضح لنا بولس الرسول كيف يعتني المسيح بكنيسته فقال إن ذلك يشبه الإنسان الذي يقوت (يغذي) جسده ويعتني به: "فإنه لم يبغض أحد جسده قط، بل يقوته ويربيه، كما الرب أيضًا للكنيسة" (أف٥:٢٩)، فأي طعام يقيت به المسيح (العريس) كنيسته (العروس) سوى الإفخارستيا التي هي "الطعام الملوكي"، و"وليمة العرس"، فالإفخارستيا هي تذوق سابق (foretaste) لعشاء الدهر الآتي "عشاء عرس الخروف" (رؤ١٩:٩).

إن إشارة بولس الرسول بالذات للطعام كوسيلة للاعتناء، يوضح أهمية "الإفخارستيا" كطعام روحي، يغذي وينمي البعد الروحي للعلاقة الزوجية، بل ويمنح الزيجة أيضًا بعدًا أبديًّا. ويجدد تقديس هذا الرباط المقدس بإستمرار، من خلال اتحاد الزوجين بعريسهما الأول، والمشترك الذي هو المسيح.

خامسًا: سر مسحة المرضى والإفخارستيا

لقد وضعت الكنيسة سر مسحة المرضى للشفاء، ولنوال نعمة التعزية ولإحتمال المرض، من خلاله **دمج إيماننا مع آلامنا**، فيصبح إحتمال الألم أحد أعمال الإيمان التي نقوم بها. كما أن سر مسحة المرضى هو أيضًا لغفران الخطايا، كما يتضح من نص صلوات ذلك السر: "امنح الشفاء لعبدك (فلان)... أرسل له الشفاء سريعًا، واغفر له كل أثامه، وامنح الصحة لسائر جسده وجميع أعضائه[٦٠]".

إن سر مسحة المرضى لا يعمل بمعزل عن سري الاعتراف والتناول، فكل هذه الأسرار تعمل معًا من أجل الشفاء المقدم لنا من الآب بالمسيح في الروح القدس، وهي تتكامل معًا لنمو أعضاء الجسد الواحد، وتعميق شركتها بالثالوث. فالغربة التي تسببها الخطية تحتاج إلى مصالحة (سر الاعتراف)، وشفاء الجسد والروح

[٦٠] صلاة سر مسحة المرضى.

(سر مسحة المرضى) لنتهيأ لعرس الحمل والاتحاد السري بالمسيح، فنحن في التناول نتحد بالطبيب الحقيقي الشافي "لأنك أنت هو... شفائنا كلنا[٦١]"، فهو يشفي **أمراض أنفسنا وأجسادنا وأرواحنا** (أوشية المرضى). لذلك رتبت الكنيسة أن تقام صلاة مسحة المرضى في جمعة ختام الصوم قبل القداس مباشرة.

وعن سر مسحة المرضى يكتب ذهبي الفم قائلًا: "أولائك (الآباء الجسديين) لا يقدرون أن ينقذونا من الموت الجسدي، ولا أن يزيلوا مرضًا تسلط علينا زمانًا، أما هؤلاء (الآباء الكهنة) فكثيرًا ما خلصوا نفوسًا مريضة وقريبة من الهلاك... وذلك ليس بالتعليم والإرشاد فقط بل بمساعدتهم بالصلوات أيضا. لأن سلطانهم في غفران الخطايا لا ينحصر في البرهة التي يلدوننا فيها بالمعمودية، بل يمتد إلى ما بعدها أيضا، لأنه يقول "أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة، فيصلوا عليه ويدهنوه بزيت باسم الرب، وصلاة الإيمان تشفي المريض والرب يقيمه، وإن كان قد فعل خطية تغفر له" (يع ١٥:٥)[٦٢]".

سادسًا: سر الكهنوت والإفخارستيا

إن الإفخارستيا هي "**سر المحبة**" بامتياز، حيث يعطي المسيح ويقدم؛ لا عطايا أو مواهب بل يهبنا جسده هو ودمه! مما يجعل بالتبعية من الكهنوت صورة تعكس هذا الحب الباذل، ويجعله بحسب تعبير القديس أغسطينوس "**وظيفة حب**" (amoris officium)[٦٣] في المقام الأول، يعبر عنه الكاهن من خلال الخدمة والرعاية.

---

[٦١] الخولاجي المقدس، أوشية الإنجيل، مرجع سابق، ص ٨١.

[٦٢] القديس يوحنا ذهبي الفم، في الكهنوت وأحاديث عن الزواج ورسائل المنفى، مرجع سابق، في الكهنوت: ٣.

[٦٣] القديس أغسطينوس، *في يوحنا*، ٥،١٢٣؛ مجموعة الآباء اللاتين ١٩٦٧،٥.

إن القديس إيريناؤس يصف الكهنوت بأنه "**موهبة الحق**[٦٤]" (charisma viritatis). وبذلك يعكس الكهنوت في الكنيسة "المحبة التي في الحق"، التي كثيرًا ما تكلم عنها يوحنا الرسول في أسفار العهد الجديد.

فالكنيسة منذ القرن الأول، كانت تعلم أن الكهنوت يمثل الله الثالوث المحب "الله المحبة" (١يو٤:٨)، فنرى ذلك واضحًا في كتابات الكنيسة الأولى أمثال "كليمندس الروماني"، و"إغناطيوس الأنطاكي" (٣٠م-١٠٧م) الذي كتب في إحدى رسائله قائلًا: "على الجميع أن يحترموا الشمامسة كالمسيح يسوع، والأسقف كصورة الآب، والكهنة كمجلس الله، ومصاف الرسل، بدون هؤلاء لا توجد كنيسة[٦٥]".

إن **سر الكهنوت هو سر إشراك البشر في رعاية الخليقة**، فبالرغم من أن الله قادر على رعاية كل شيء وحده؛ إذ هو خالق ومدبر لكل شيء، والمعتني بكل أحد، ارتأى في تدبيره ومحبته للبشر، أن يُشرك الإنسان أيضًا معه في رعاية الخليقة بأسرها، فيكون راعيًا صالحًا للخليقة من داخل الخليقة. ومن هنا تأتي مسئولية الكاهن كممثل للبشرية، وأب وراعٍ لها كما يقول ذهبي الفم: "**أيها الكاهن أنت أب للبشرية كلها**"، وفي نفس الوقت قائد لها؛ في تقديم العبادة والشكر لله، مثل آدم (قبل السقوط) الذي كان نموذجًا أصليًّا، وأوليًّا (prototype) للكاهن.

وهذا الكهنوت لا يعمل في انفصال عن كهنوت المسيح، بل هو ذاته كهنوت المسيح، جاعلًا من الكهنة كما قال بولس الرسول "وكلاء سرائر الله" (١كو٤:١). أي إن الكهنوت في الكنيسة

---

[64] Ireneaus, op. cit., 26.2.

[٦٥] رسائل القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى"ترال" (ترالليان)٣:١.

هو امتداد لكهنوت المسيح الذي هو "رئيس الكهنة الأعظم[٦٦]"، والذي كهنوته كهنوت أبدي: "أنت كاهن إلى الأبد، على طقس ملكي صادق" (عب٥:٦). ومن خلال كهنوت المسيح (العامل في شخص الكاهن) نقدم كل شيء لله في الصلاة، لأن المسيح هو رأس الكنيسة والخليقة كلها: "وإياه جعل رأسًا فوق كل شيء" (أف١:٢٢)، فبه نقدم كل شيء لله كتقدمة وقربان له.

إن الكاهن لا يعمل أو يتمم شيئًا من ذاته، بل المسيح هو الذي يعمل من خلال الكاهن بشكل خاص (In persona Christi)[٦٧]، بعد منحه نعمة الكهنوت. لذلك قال كثير من الآباء وبالأخص القديس يوحنا ذهبي الفم إن: "**الآب والابن والروح القدس (الثالوث) هو الذي يفعل كل شيء، أما الكاهن فهو يهب لسانه، ويقدم يديه**[٦٨]" فالسيد المسيح هو الذي يتمم كل الأسرار في كنيسته من خلاله، من خلال الكاهن.

ومثالًا لذلك يكتب القديس أمبروسيوس عن عمل المسيح في الإفخارستيا، قائلًا: "**المسيح هو بعينه الذي يعلن خلال الكاهن "هذا هو جسدي**[٦٩]". وأيضًا يوضح القديس يوحنا ذهبي الفم في إحدى عظاته، عمل المسيح من خلال الكاهن قائلًا: "إن الأسرار الموضوعة أمامنا ليست من عمل قوة بشرية، ولكن الذي أقامها في ذلك الزمان، في ذلك العشاء، هو بنفسه يقيمها الآن، وأما نحن (الإكليروس) فإننا نأخذ دور الخدام، ولكنه هو بنفسه الذي يقدس

---

[٦٦] استخدم بولس الرسول لقب "رئيس الكهنة" والكنيسة من بعده في صلواتها، مثل لحن "ميغالو ⲙⲉⲅⲁⲗⲟⲩ" أو "رئيس الكهنة الأعظم" الذي يقال في آحاد الصوم الكبير وجمعة ختام الصوم.

[٦٧] للمزيد حول عمل الكاهن في المسيح، انظر العظة رقم ٥٠ للقديس يوحنا ذهبي الفم في تفسير إنجيل متى الإصحاح ٢٦

[68] P.G. 91. 624B ؛ John Chrisistom EPEF 14.716.

[٦٩] القديس أمبروسيوس، *الأسرار*: ٩.

القرابين وينقلها... هذه المائدة الحالية هي بعينها تلك المائدة، ولا تنقص عنها شيئًا، ليس أن المسيح أقام تلك، والإنسان (الكاهن) يقيم هذه، ولكنه هو (المسيح) بنفسه يقيم هذه أيضًا، وهذا الموضع هو نفسه العلية التي كانوا فيها في ذلك الزمان[٧٠]".

لقد جاء المسيح الذي هو رئيس الكهنة الأعظم، لكي يقدم الخلاص للإنسان، ويوحد الجميع فيه: "لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا، قدوس بلا شر ولا دنس، قد انفصل عن الخطاة، وصار أعلى من السماوات، الذي ليس له اضطرار كل يوم، مثل رؤساء الكهنة أن يقدم ذبائح أولًا عن خطايا نفسه، ثم عن خطايا الشعب لأنه فعل هذا مرة واحدة؛ إذ قدم نفسه" (عب٧: ٢٦،٢٧) .

وحيث إن المسيح قد جاء ليدخلنا في شركة الثالوث وفي وحدانية جسده المقدس (الكنيسة)، لذلك فغاية خدمة الكهنوت هو تحقيق الهدف النهائي للخلاص، وهو وحدة المؤمنين معًا في الله، ليجمع الكل في النهاية في المسيح يسوع: "كي يكون الله الكل في الكل" (١كو١٥:٢٨)، كما نرى في تعاليم الرسل المدونة في كتاب "الديداخي": "كما أن هذا الخبز المكسور كان متناثرًا فوق الجبال وقد جمع معًا فصار واحدًا، هكذا اجعل كنيستك تجتمع معًا من أطراف الأرض كلها إلى ملكوتك (في الإفخارستيا)[٧١]".

إن الإفخارستيا هي **قمة عمل الكهنوت**، لذلك نجد أن كل رسامات درجات الكهنوت الثلاث (الشماس، والكاهن، والأسقف) تتم داخل القداس الإلهي، أي إنها تنبع من الإفخارستيا، **وخدمة الكهنوت تهدف لجمع كل شيء مرة أخرى في الإفخارستيا.**

إن الإفخارستيا هي العمل الرئيس للكاهن، فهي "**قلب حياة**

---

[٧٠] القديس يوحنا ذهبي الفم، *عظات على إنجيل متى*، عظة ٨٢:٥.

[٧١] الديداخي، مرجع سابق، ٩:٤.

الكنيسة وقمة عملها." والإفخارستيا هي تنفيذ للتكليف الذي أعطاه السيد المسيح لتلاميذه الرسل حين قال: "أعطوهم أنتم ليأكلوا" (مت١٤:١٦؛ مر٦:٣٧؛ لو٩:١٣). فكما أن التلاميذ قدموا للجموع الطعام الذي باركه الرب؛ إذ أنهم ليسوا هم من باركوا الخبزات والسمك، بل فقط هم قدموا القليل الذي عندهم للرب، فباركه، ثم قدموه هم للجمع ليأكلوا.

والكاهن ليس مجرد خادم للوعظ والكرازة، وإن كان هو "خادم للكلمة" بامتياز؛ إلا أنه وقبل كل شيء هو "أب"؛ يلد الآخرين في المسيح للحياة الأبدية، ويغرسهم ويربيهم في الكرمة التي هي الكنيسة، ويشرح ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم فيقول: "أجل هم الكهنة الذين يلدوننا لحياة النعمة، ويلدوننا روحيًّا بالمعمودية، هم الكهنة الذين يلبسوننا المسيح، ويدفنوننا معه في القبر، ويقيموننا بجسده، هم الذين يجعلون من المسيح لنا رأسًا، ويجعلون منا لجسده أعضاء، فيجب أن نكرمهم أكثر من الأمراء والملوك، وأن نحبهم ونقدرهم، أكثر من محبتنا لآبائنا في اللحم والدم، فآباؤنا قد أعطونا الحياة الطبيعية، من دمهم ومن شهوة أجسادهم، أما الكهنة فإنهم يعطوننا الحياة الروحية، التي هي من الله، ونحن مدينون لهم بولادتنا الجديدة السعيدة، وبحريتنا الحقيقية، وبلقب أبناء الله[٧٢]".

إن المهمة والرسالة التي يقوم بها الكاهن تجاه شعبه وتجاه الخليقة كلها تتطلب منه الكثير من التقوى والطهارة، التي لا يمكن أن يمنحها أحد سوى الله، لذلك يكتب القديس غريغوريوس النيصي، قائلًا: "قوة الكلمة عينها تجعل الكاهن وقورًا، ومكرمًا بالبركة الجديدة. إذ ينفصل عن الشعب لأنه أمس وأول أمس كان

---

[٧٢] القديس يوحنا ذهبي الفم، في الكهنوت وأحاديث عن الزواج ورسائل المنفى، مرجع سابق، في الكهنوت: ٣.

واحدًا من الكثيرين من الشعب، فصار حالًا رئيسًا، ومعلمًا للإيمان، وكاتماً لأسراره الخفية. هذا كله يصنعه من دون أن يتغير شيء من جسده، أو هيئته، بل وهو لم يزل في الظاهر كما كان، تتغير نفسه غير المنظورة فيما هو أفضل، بقوة ونعمة غير منظورتين"!

وخدمة الرب "الحقيقة" تجعل الشخص أكثر تواضعًا وطهارة، لذلك يكتب القديس إغناطيوس الأنطاكي قائلًا: "لا يفتخرن أحد برتبته[٧٣]." ويكتب القديس يوحنا ذهبي الفم أيضًا قائلًا: "عندما يستدعي الكاهن الروح القدس، ويتمم تلك الذبيحة الرهيبة، وهو على الدوام وثيق الصلة بسيد الكل، فقل لي أين لي أن أصنفه؟ وكم من الطهارة والتقوى علينا أن نطالب إنسانًا كهذا بهما[٧٤]"؟

---

٧٣ القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى سميرنا "أزمير" ٦:١.

74 EPE 28,268; EPE 8A,410-412.

ألحان كنسية قديمة

"الملك السماوي الأبدي[٧٥، ٧٦]"

"أيها الملك السماوي الأبدي،
أيها الخالق، لك نقدم التسبيح،
أيها الواحد أبدًا مع الله الآب، الابن المساوي والشريك الأبدي.
إن يدك عند بداية العالم، خلقت الإنسان كصورتك،
وقرنت شكلًا جسديًّا من الأرض، بشكل حي، ذي أصل سماوي،
وعندما شوه حسد العدو، عمل يديك النبيل،
فقد لبست جسدنا واستعدت الصورة التي عملتها من قبل،
مرة ولدت من العذراء، والآن ولدت من جديد من القبر،
أيها المسيح، قد دعوتنا أن نقوم معك، من الموت إلى الخلود.

---

[75] Daniel Liderboch (fr.),op. cit., p.76,77.

[٧٦] يرتل هذا اللحن (Rex sempiterne caelitum) أو"الملك السماوي الأبدي" في الكنائس الغربية في عشيات الآحاد والخماسين المقدسة، ويرجع زمن كتابته إلى القرن الرابع ضمن مجموعة الألحان والصلوات التي ألفها القديس أمبروسيوس أسقف ميلان (في فترة ما قبل مجمع خلقدونية)، فيما يعرف بالطقوس الأمبروسية (Ambrosian rite)، انظر كتاب: نيافة الأنبا مكاريوس، مرجع سابق، ص ٦٩.

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس يوحنا إبن الرعد[٧٧]

من أجل كل أنبيائك القديسين الذين صرخوا كأبواق، وكرزوا للأمم الذين كانوا في الظلمة، من أجل كل رسلك الذين حرثوا أرض الأمم الوثنية بمحراث صليبك، وغرسوا كنز كلمتك في كل أطراف العالم. من أجل كل المنتصرين والمؤمنين والشهداء الأطهار الذين افترستهم الذئاب كخراف.

من أجل جميع الأساقفة الذين أكملوا خدمتهم بطهارة، الذين قبلت خدمتهم... من أجل كل القسوس الذين حفظوا بالحق كلامك، لكي يقبلوا ميراثهم بسرور. من أجل كل الشمامسة الذين جعلوا أجنحة أرواحهم خفيفة، لكي يتشبهوا بالذين هم في الروح القدس. من أجل كل الأغنسطسيين الذين خدموا حسنًا، وعلموا شعبك وكرزوا لهم.

من أجل كل الملوك الظافرين الذين تنيحوا في الإيمان. من أجل كل الشبان والعذارى الذين صاروا أعداء هذا العالم الفاسد، وأحبوا وليمة العرس التي في السماء. ومن أجل كل القديسين الذين سلموا أنفسهم لك، وأكملوا جهادهم... من أجل كل آبائنا وإخوتنا الذين ارتحلوا من هذا العالم، لكي تضع ذكراهم أمامك. من أجل كل الذين ولدوا بمعمودية كنيستك العظيمة.

---

[٧٧] هذه الصلوات هي مقاطع من ليتورجيا تنسب للقديس يوحنا الرسول (إبن الرعد)، وهي إحدى الليتورجيات العديدة التي يصلي بها في الكنيسة الحبشية، وقد جمع هذه الليتورجيات القمص مرقص داود، والترجمة العربية المأخوذة هنا هي للقمص عبد المسيح الأقصري. للمزيد انظر:
- *The Liturgy of The Ethiopian Church*, translated by Rev. Marcos Daoud, 1991, p.133-164.

الفصل الرابع

الإفخارستيا

حياة الإيمان

الإفخارستيا حياة الإيمان

الإفخارستيا تثبتنا في الإيمان. الإيمان المسيحي هو إيمان حي وعامل، يظهر في حياتنا. في الإفخارستيا نمارس اعترافنا بالإيمان. الإفخارستيا هي شجرة الحياة التي في الكنيسة. الإفخارستيا هي سر الإيمان، والسبيل إلى المعرفة الإلهية.

قصة

في منتصف القرن الماضي كانت هناك، في إحدى القرى الروسية الصغيرة، ربة منزل ريفية تدعى "ألكسيا" في أواسط العمر، وكانت مسيحية (أرثوذكسية) تحيا إيمانها في سرية وكتمان، كغيرها ممن ظلوا على إيمانهم أثناء الحقبة الشيوعية. إلى أن جاء يوم وتم إلقاء القبض عليها، واعتقالها خوفًا من أن يكون لها نشاط سياسي ضد الحزب الحاكم!

تم إرسال "ألكسيا" بدون توجيه تهمة محددة إلى أحد سجون سيبيريا، لتعمل هناك في مناجم الفحم في ظروفٍ بيئية وصحية قاسية، مع مئات السجينات الآخريات اللواتي كُن يسخرن منها لتمسكها بإيمانها رغم كل ما يحدث حولها!

كانت "ألكسيا" تعمل في صمت بأمانة شديدة، وتعطي من طعامها رغم قلته للسجينات المريضات، وتساعد الآخريات في القيام بعملهن. وكانت تنتهي من حصتها في العمل مبكرًا لتذهب بفرح لتساعد الآخريات في نقل أجولة الغلال من الكنيسة (كانت معظم الكنائس في الحقبة الشيوعية تهدم، أو تنسف، أو تستخدم كمخازن للغلال وما شابه، وكانت أخشاب الكنائس وأيقوناتها تستخدم كوقود للتدفئة).

كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لها للذهاب إلى الكنيسة، لأنها

كانت تؤمن أن الله ما زال موجودًا في الكنيسة رغم خرابها. فكانت تدخل لتصلي سريعًا بفرح دون أن يدري أحد، وتذهب لتكمل عملها بنشاطٍ أكثر من الأول! مما دفع بعض زميلاتها مع الوقت لسؤالها عن سر قوتها وفرحها، فأخبرتهم أن السر يكمن في مخزن الغلال! فتعجب الجميع منها، وبدأت تخبرهم كيف أنه هناك إله حي وموجود (كان الملحدون في ذلك الوقت يعتبرون الله غير موجود أساسًا، أو يسخرون منه قائلين أنه قد مات)، في تلك الكنيسة المهجورة، وقبل ذلك هو موجود في داخلها، في كاتدرائية قلبها!

ثم أخذت تخبرهم كيف أنها تشعر بالفخر في كل مرة تخرج من الكنيسة حاملة أجولة (أشولة) القمح الثقيلة على كتفها. حيث كانت ترى أن المسيح في كل مرة، لا يضع جوالًا (شوالًا) على كتفها؛ بل يضع صليبه على كتفها مثل سمعان القيرواني، الذي سخره الجنود فاشترك بذلك في حمل الصليب. فكانت تعتبر ذلك العمل الشاق، عطية من الله وبركة تشكره عليها. واستمرت "ألكسيا" على ذلك لسنين عديدة، إلى أن ماتت في النهاية من جراء إصابتها بمرض السل.

وفي أحد الأيام إجتمعت بعض السجينات (بعد وفاة ألكسيا) واندهشن كيف أنهن في البداية كُن لا يحبن بعضهن البعض، ولا يثقن في أحد، ولكن منذ أن جاءت "ألكسيا" تغيرت الأمور كثيرًا.

فإحدى السجينات الصغيرات أخذت تحكي وهي باكية، كيف أنها ولدت في أسرة ملحدة تمامًا أخبرتها أنه لا يوجد شيء اسمه الله، إنما هو فقط خرافة من صنع البشر! ولكنها الآن مستعدة بعد تفكير طويل أن تقبل الإيمان، لأنها شعرت من كلام "ألكسيا" أنها لا تتكلم عن تاريخ أو عن أساطير، بل تتكلم عن "شخص" حي ومُحب!

وأخذت رفيقات "ألكسيا" في الزنزانة يحكين هن أيضًا، كيف أنهن كن يشاهدنها تصلي كل يوم حتى يوم وفاتها، لأجل جميع من في السجن حتى السجَّانات القاسيات!

وسجينة أخرى أخذت تحكي للجميع قصة رجوعها للإيمان، لأنها أرادت أن تكون لها نفس القوة التي رأتها في "ألكسيا" رغم ضعف جسدها. حيث سألتها في أحد الأيام عن سر هذه القوة التي لديها لتخبرها أنها "قوة القيامة" التي في داخلها! وأنها تفعل كل شيء لأجل إلهها، الذي كان في نظرها هو "الخير الأسمى" (Summum bonum - The Supreme Good). لقد أجمع الجميع على أن "ألكسيا" في سجنها لم تكن تتكلم كثيرًا، لكنها كانت تحب كثيرًا، فكانت حياتها تجسيدًا عمليًّا يشرح الإيمان!

قانون الإيمان هو قانون للحياة

إن التاريخ يشهد مع تقليد الكنيسة بأن **"الإفخارستيا" كانت أقدم من قانون الإيمان بصيغته الحالية** التي صاغها الآباء بإرشاد الروح القدس، وقُننت في مجمعي نيقية والقسطنطينية خلال القرن الرابع[1].

ولقد رتبت الكنيسة وضع قانون الإيمان (Regula fidei) دائمًا في صلواتها، وعلى رأسها في "الإفخارستيا." فقانون الإيمان ليس حكرًا على الإكليروس أو اللاهوتيين دونًا عن غيرهم، بل هو لنا جميعًا. فكل المؤمنين في الحقيقة هم لاهوتيون (بالمعنى العام للكلمة)، فالصلاة لها قوة تجعل الإنسان العامي "لاهوتي" أي على دراية بالأمور اللاهوتية حيث يحيا ويتحد بالإلهيات، وكقول القديس مقاريوس

[1] تم الاتفاق على صياغة واحدة لقانون الإيمان لكل الكنائس في كل مكان في مجمعي نيقية ٣٢٥م، والقسطنطينية ٣٨١ م، لذلك يلقب أحيانًا بقانون الإيمان "النيقي القسطنطيني"، إلا أنه كانت هناك قوانين مختصرة عديدة للإيمان في كنائس العالم المختلفة، منذ القرن الأول تستخدم بالأخص في المعموديات.

الكبير: "يمكن لإنسان أُمي أن يذهب إلى الصلاة، ويحني ركبتيه، فيدخل عقله إلى الراحة، وعلى قدر ما يحفر ويتعمق (في الصلاة)، فإن سور الخطية ينهدم أمامه، ويدخل إلى الرؤيا، والاستعلان، والحكمة، حيث لا يقدر العظماء، والحكماء والفصحاء، أن يدخلوا إلى هناك ليفهموا، ويعرفوا حالة عقله السامية؛ إذ إنه مستغرق ومشغول بالأسرار الإلهية[٢]." إننا مدعوون لنحيا قانون الإيمان عمليًّا، ونترجمه في سلوكنا، كقول أحد اللاهوتيين: "**إن قانون الإيمان لا يخصك، ما لم تطبقه في حياتك.**"

وقانون الإيمان هو "**أمانة**[٣]"، أودعها المسيح للكنيسة، والتي بدورها حفظته في حياتها، وصلواتها، وتقليدها عبر الأجيال خلال التسلسل الرسولي. ويقول القديس "إيريناؤس" عن ذلك: "إن الكنيسة مبعثرة في كل آرجاء المسكونة، لكن لها إيمان واحد سُلم من الرسل ثم إلى تلاميذ الرسل، وعلى الرغم من أن لغات البشر تختلف، إلا أن جوهر التقليد واحد، في كل مكان[٤،٥]." ونحن كمؤمنين لنا

---

[٢] *عظات القديس مكاريوس الكبير*، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الخامسة، ٢٠١٠، العظة ١٥:١٥.

[٣] أحد مسميات قانون الإيمان في الكنيسة القبطية "الأمانة." ومن الجدير بالملاحظة أن كلمة "إيمان" و"أمانة" في اللغة العبرية لهما أصل وجذر لغوي واحد ومشترك "أَمَان"، وفي اللغة اليونانية الفعل (Πιστεύω) يعني "يؤمن"، أو "يكون أمينًا"، وكذلك في اللغة اللاتينية مع كلمة (fidelis). مما يعبر عن حقيقة أن إيماننا في أحد أوجهه إنما يشهد لأمانة الله. وهذا هو ما عبر عنه كثير من الآباء كالقديس أغسطينوس، القائل: "يُدعى الإنسان مؤمنًا (faithful) إذا آمن بالله وبوعوده، ويُدعى الله أمينًا (faithful) حينما يحقق ما وعد به الإنسان." انظر:

- Augustine, *In Psal.* 32, II, s. I, 9: PL 36, 284.

[4] Ireneaus, op., cit., I. 10

[٥] المثال على ذلك؛ هو أنه بالرغم من إختلاف المذاهب (مذاهب الكنائس التقليدية)، والطوائف في الشرق والغرب، إلا أننا نجد حتى الآن؛ أن هيكل القداس الإلهي (أجزاءه) هي تقريبًا واحدة: مثل وجود جزء من القداس يسمى "قداس الموعوظين" وهو في البداية دائمًا ويتخلله قراءات مختلفة، والإنجيل هو القرآة الرئيسة للقداس. بينما الجزء الثاني من القداس يسمى عند الجميع (قداس المؤمنين). يتخلل كل ذلك تقديم القرابين. كما أن قانون الإيمان دائمًا يصلى قبل قداس المؤمنين، ونجد أيضًا القبلة المقدسة، وصلاة الارتفاع (ارفعوا قلوبكم..إلخ)، وسرد قصة الخلاص، ثم الرشومات، واستدعاء الروح القدس، وأيضًا

دور في حمل هذه الأمانة، وتقديمها للعالم مترجمة ترجمة حية، من خلال حياتنا: "إذ معرفة الله ظاهرة فيهم" (رو١:١٩)، مقدمين للعالم معرفة حقيقية عن الله.

ولطالما اهتم آباء الكنيسة بشرح قانون الإيمان، فعلى سبيل المثال نجد القديس "أغسطينوس" قد أفرد مقالة خاصة بعنوان "قانون الإيمان" في عظاته لطالبي العماد يقول فيها: "استلموا يا أولادي، دستور الإيمان، الذي يدعى قانون الإيمان؛ وإذ تتقبلونه، اكتبوه في قلوبكم، ورددوه يوميًّا قبل النوم، وقبل الخروج. سلحوا أنفسكم بقانون إيمانكم، قانون لا يكتبه الإنسان كي يقرأه، بل كي يردده، حتى لا ينسى ما تسلمه بعناية. سجلوه في ذاكرتكم".

إن قانون الإيمان هو دستور لحياة المؤمنين، وهو أيضًا راية النصر والظفر، والغلبة على الموت والخطية، "وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا" (١يو٥:٤)، التي نرفعها في كل صلاة. إننا في كل مرة نردد قانون الإيمان بوعي وإيمان داخلي نعلن نصرتنا في المسيح، الذي تجسد ومات، وقام منتصرًا على الموت لأجلنا: "خرج غالبًا، ولكي يغلب" (رؤ٦:٢). وبذلك نستطيع أن نشهد مثل موسى النبي الذي انتصر على شعب "عماليق" بالإيمان والصلاة فشهد للرب قائلًا: "يهوه نِسِّي" (خر١٧:١٥) أي "الرب رايتي".

وقد رتبت الكنيسة وضع قانون الإيمان في القداس الإلهي قبل بدء قداس المؤمنين؛ لإعلان أن المؤمنين الحاضرين؛ هم في "شركة واتحاد في الإيمان." ليصير الإيمان بذلك شرطًا للاشتراك في الإفخارستيا، "وبدون إيمان لا يمكن إرضاءه" (عب١١:٦). وأيضًا لكي **يتحول قانون الإيمان من خلال الصلاة إلى حياة**، كما يقول الشهيد "يوستينوس" (القرن الثاني): "ونحن ندعو هذا الطعام إفخارستيا (أي شُكر)،

الصلوات والطلبات العامة (صلوات المؤمنين)، وذكر الآباء والقديسين، وذكر الراقدين، كل ذلك هو واحد عند الجميع في الشرق والغرب.

ولا يستطيع أحد أن يشترك فيه، إلَّا مَن آمن أن تعاليمنا هي حق، وقد تَطَهَّرَ بالمعمودية لمغفرة الخطايا والولادة الثانية، ويعيش بحسب المبادئ التي وضعها لنا المسيح. ونحن لا نشترك فيهما كخبز وشراب عاديين، بل كما أنه بتجسد كلمة الله مخلصنا يسوع المسيح متخذًا لنفسه جسدًا ودمًا لأجل خلاصنا. فإن هذا الطعام الذي تقدس بواسطة كلمات الصلاة التي قالها المسيح. يغذي جسدنا ودمنا إذ هو جسد ودم يسوع المتجسد كما تعلمنا[٦]".

كما تَعَمَّدَت الكنيسة أن ترنم آخر جزء من قانون الإيمان (وهو الجزء الخاص بالأبدية والملكوت)، والذي نقول فيه: "وننتظر قيامة الأموات، وحياة الدهر الآتي، آمين" لكي ينتبه الشخص لهذه الحقيقة، أن الإفخارستيا هي بدء، وعربون حياة الدهر الآتي، وشركة في الملكوت، وتأكيدًا على هذه الحقيقة، تؤمن الكنيسة على ذلك بقولها "آمين" أي نعم ليكن.

وكذلك فإن قانون الإيمان هو دعوة لنا جميعًا أن نعلن في حياتنا أن لنا "**شركة مع الثالوث**"، لذلك تخاطب الكنيسة في صلواتها الأقانيم الثلاثة، كل أقنوم على حدة أحيانًا[٧]، وأحيانًا أخرى تخاطب الثلاثة معًا كإله واحد.

ولذلك فإن أسلوب حياتنا، ووحدتنا، وشركتنا معًا يجب أن تعكس مفهوم "الوحدة والمحبة"، الكائنة في الثالوث غير المنقسم؛ فالله إله ثالوث في وحدة، أي إنه واحد وثالوث في آنٍ واحد، لذلك نقول في القداس الإلهي: "واحد هو الآب القدوس، واحد هو الابن القدوس، واحد هو الروح القدس."

---

[٦] القديس يوستينوس، مرجع سابق، الدفاع الأول، فصل٦٦.

[٧] من الجدير بالملاحظة أنه كثيرًا في القداس الإلهي ما نخاطب أقنومًا عن أقنوم: فمثلًا في القداس الباسيلي (الموجه للآب) نخاطب الآب عن الابن، وفي القداس الغريغوري (الموجه للإبن) نخاطب الابن عن الآب، وكل ذلك في الروح القدس. وبذلك تكون صلواتنا دومًا ثالوثية.

وقانون الإيمان أيضًا هو دعوة لتحقيق مفهوم "الكنيسة" (في الجزء الخاص بإيماننا عن الكنيسة في قانون الإيمان)، وإتمام دورها، وهو نشر ملكوت الله على الأرض. كما أنه دعوة للحفاظ على وحدة الجسد الواحد "جسد المسيح." ومن منطلق هذه الوحدة التي في الثالوث، نستطيع أن نفهم وحدة الكنيسة، وتنوعها في آنٍ واحد. فنقول في قانون الإيمان "كنيسة واحدة، مقدسة، جامعة، رسولية." فالكنيسة جامعة، وواحدة في نفس الوقت. وعن هذه الوحدة التي ينعم بها المؤمنون داخل الكنيسة، وارتباطها بوحدة الثالوث، يكتب القديس "كيرلس الكبير"، قائلًا: "وهكذا نحن جميعًا واحد في الآب والابن والروح القدس، فنحن واحد بأسلوب حياتنا الواحد، ونمط تقوانا الموحد، بشركة جسد المسيح المقدس، وبشركة الروح القدس الوحيد[٨]."

وأخيرًا يعلن قانون الإيمان أن لنا رجاء في "قيامة الأموات"، لذلك تذكر الكنيسة المنتقلين لأنهم في شركة معنا. ويعلن أيضًا أنه هناك "حياة أبدية" في الدهر الآتي، أي الملكوت. لذلك فإن قانون الإيمان يذكر المؤمن بأن توجهه يجب أن يكون نحو الأبدية. والقداس الإلهي بأكمله هو تذوق لعربون الحياة في الدهر الآتي، ونقطة إنطلاق نحو الأبدية.

الأبدية والإيمان كخبرة معاشة

إن الإيمان المستقيم يقتضي أن يكون إيماننا مطابقًا لصلواتنا وسلوكنا، فالصلاة هي اساس الإيمان كما يقول القديس أغسطينوس. لذلك ما نؤمن به، هو ما نصليه، وهو ما نحياه. (lex orandi, lex credendi, lex vivendi) فلا يوجد شيء في عقيدتنا، ليس موجودًا في صلواتنا، ولا يوجد شيء في عقيدتنا أو صلواتنا (وبالأخص الإفخارستيا) لا يمكن أن يعاش، فإيماننا إيمان عملي (practical).

[٨] القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل يوحنا، مرجع سابق، يو:١٧.

والذين يحيون لأجل ما يؤمنون به عمومًا، يثمرون حتى ولو بعد وقت طويل، حتى ولو ماتوا لأجل ما يؤمنون به، مثل المناضلة الفرنسية "جان دارك" (١٤١٢-١٤٣١م) التي كان لها دور هام في تحرير بلدها (فرنسا)، وصارت حياتها وسيرتها مصدراً لإلهام الكثيرين، وهي صاحبة القول المأثور "كل إنسان يبذل حياته لأجل ما يؤمن به، إنها حياة واحدة التي لنا، ونحن نحياها بحسب ما نؤمن به."

وقد كان رجال الإيمان من أنبياء وأبرار العهد القديم يحيون ما يؤمنون به، فتطابقت نبوءاتهم مع حياتهم وسلوكهم، حيث يقول القديس "إيريناؤس": "لم يتنبأ الأنبياء فقط بلسانهم، بل أيضًا برؤاهم، بتصرفاتهم، بالأعمال التي كانوا يقومون بها، بوحي من الروح[9]."

وكذلك الحال في العهد الجديد حيث نجد حياة الرسل مطابقة لتعليمهم وكرازتهم، وشاهدة عليها. كما نجد أن عبادتنا في العهد الجديد (وبالأخص الإفخارستيا) تؤكد على إيماننا، حيث يقول القديس "إيريناؤس" أيضًا: "**عقيدتنا مطابقة للإفخارستيا، والإفخارستيا تثبت عقيدتنا**[10]." فالليتورجيات (وبالأخص الإفخارستيا) تحوى إيمان الكنيسة ومعتقدتها، فهي بمثابة خلاصة الفكر اللاهوتي للكنيسة إذ جاز التعبير.

ولا يوجد لدينا فصل بين العقيدة والعبادة؛ أو بين الدين والروحانية؛ أو بين الإيمان والحياة. وغيرها من التصنيفات والمسميات الدخيلة على الكنيسة، والتي تسربت لنا من العالم كثعالب صغيرة مفسدة للكروم!

إن الهدف من أن نصلي ما نؤمن به (خصوصًا في القداس الإلهي)، ليس هو فقط الحفاظ أو التعبير عن إيماننا، بل هو لأجل أن يتحول

---

[9] Ireneaus, op., cit., 8. 20.4.
[10] Ibid.4.18.5.

إيماننا من خلال الصلاة إلى حياة؛ أي إلى خبرة حياتية، وبالتالي يثبت "لأنكم بالإيمان تثبتون" (٢كو١:٢٤) ويترسخ ذلك الإيمان فينا ويتأصل "إن ثبتم على الإيمان، متأسسين وراسخين وغير منتقلين عن رجاء الإنجيل" (كو١:٢٣).

والإفخارستيا (سر الشكر) تزيد وتنمي الإيمان كما يقول معلمنا بولس الرسول "متأصلين ومبنيين فيه، وموطدين في الإيمان كما عُلِّمْتُم، متفاضلين فيه بالشكر" (كو٢:٧)، وعن أثر الإفخارستيا في تثبيت الإيمان يكتب القديس "كليمندس السكندري"، قائلًا: "الخمر الممتزج بالماء يغذي الإيمان... ومزيج الاثنين معًا يُسمى الإفخارستيا، النعمة الشهيرة والمجيدة، ومن يشترك فيها بالإيمان فإنه يتقدس جسدًا ونفسًا[11،12]." فحينما نصلى ما نؤمن به، فإن العبادة (وبالأخص الإفخارستيا) تغذي الإيمان وتحول الإيمان إلى حياة معاشة.

وهذا الإيمان لا يكتمل إلا بالأعمال: "بالأعمال أُكمل الإيمان" (يع٢:٢٢) برهانًا على تحوله إلى حياة وبر: "البار بالإيمان يحيا" (غل٣:١١؛ رو١:١٧). حينئذ يكون لنا بحق إيمان حي وليس ميت.

---

11 Paed.2.2.19.

١٢ القديس "كليمندس السكندري" (١٥٠-٢١٥م) ولد من أبوين وثنيين، كان دائم البحث عن الإله الذي يشبعه فكريًا وأخلاقيًا وروحيًا، وقد وجد في المسيحية ضالته المنشودة، فاعتمد وصار مسيحيًا، وعاش في مصر ما يقرب من عشرين عامًا، سيم قسًا، ثم عميدًا لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية عام٢٠٢م خلفًا لسابقه "بنتينوس." اضطر لمغادرة مصر تحت وطأة الاضطهاد الذي أثاره الإمبراطور الروماني "سبتيموس ساويروس" ليتوفى في فلسطين أو سوريا بعد ذلك. إتسم فكره بمزج الإيمان بالدراسة والعمل الرعوي، وحب المعرفة. كما دعى المسيحية "الغنوسية الحقيقية" أي "المعرفة الحقيقية" التي تخلص؛ وليس تلك التي تقتصر على فئة مختارة كالبدعة الغنوسية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت. كما كان "كليمندس السكندري" أحد الآباء الذين يرون أنه لا يوجد عداء بين المسيحية والفلسفة. وكتب مؤلفات عديدة من أبرزها: كتاب نصح لليونانيين (Protrepticus)، وكتاب المُربي (Paedagogus)، وكتاب المتفرقات (Stromata) وغيرها من المؤلفات. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ٦٩-٧١.

وعن ضرورة أن تكون لدى المؤمن "شهادة حياة" تُدَعِّم وتُكَمِّل إيمانه، يكتب القديس كيرلس الكبير في واحدة من أطول وأشهر رسائله؛ والتي فيها يشرح قانون الإيمان، والتي جاء في مقدمتها توضيح للعلاقة الوثيقة بين الإيمان والأعمال، فيقول: "إن كان بهاء أعمالنا يبدو أنه لا يرتبط بالتعاليم الصحيحة، والإيمان الذي بلا لوم، فإن هذه الأعمال لن تنفع نفس الإنسان بحسب رأيي. فكما أن "الإيمان بدون أعمال ميت" (يع٢:٢٠)، وهكذا أيضًا نحن نقول إن العكس صحيح. لذلك فليقترن الإيمان الذي بلا عيب ويشرق مع أمجاد الحياة المستقيمة. بذلك نصير كاملين بحسب ناموس موسى الحكيم جدًّا الذي يقول: "وتكون كاملًا أمام الرب" (تث١٨:١٣)[١٣]".

كما أن الكنيسة رأت في الإيمان العامل بالمحبة مفتاح للمعرفة الحقيقة كما يتضح في "الرسالة إلى ديوجنيتوس" حيث جاء فيها: "إن الذي يظن أنه يعرف أي شيء، معرفة حقيقية بدون أن تشهد حياته لكلامه، فهو لا يعرف شيئًا، بل هو مخدوع من الحية، وليس محبًّا للحياة[١٤]".

ولطالما أكد آباء الكنيسة على أهمية ممارسة الإيمان كحياة، فلا بد أن يكون المؤمنون: "**مستقيمي الإيمان**" (ορθόδοξοι - orthodoxy)[١٥]؛ "مستقيمي العبادة"؛ و"**مستقيمي الأعمال**" (ορθόπρᾶξία - orthopraxia). فالإيمان، والعبادة والأعمال يعملون كلهم معًا، جنبًا إلى جنب، بدون انفصال. فالإيمان الحي

---

١٣. القديس كيرلس الإسكندري، *الرسالة ٥٥ "شرح قانون الإيمان"*، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد ود. موريس تاوضروس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، مؤسسة القديس أنطونيوس، مايو ١٩٩٧.

١٤ *الرسالة إلي ديوجنيتوس*، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٤، الفصل الثاني عشر.

١٥ يمكن أن تترجم كلمة "أرثوذكسية" (ορθόδοξος) إلى "العبادة المستقيمة"، لأن كلمة (δόξα) تشير إلى العبادة، فهي تعني حرفيًا "تمجيد"، وجاءت منها كلمة "ذوكصولوجية".

والعامل (active) والمعبر عنه في العبادة، هو الطريق إلى الملكوت.

ولقد أوضح كثير من الآباء ذلك، أمثال القديس كبريانوس، القائل: "المكافأة لن ينالها المؤمن؛ إلا إذا كان يحيا ما يؤمن به[١٦]". وأيضًا يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "لكي تكونوا مخلصين، وبلا عثرة إلى يوم المسيح" (في١:١٠)، أي أمام الله، وبلا لوم من نحو الناس... بمعنى أن يكون لكم بالإضافة إلى العقائد الصحيحة، أيضًا حياة مستقيمة، وليست مستقيمة فقط، وإنما أيضًا تكون مملوءة من ثمر البر[١٧]".

كما حذر الآباء من خطورة أن لا تكون حياة المسيحي معبرة عن إيمانه، أو أن يستحي المسيحي من ممارسة إيمانه خَشْيَةَ ان يفقد بعض الإمتيازات! كما كان الحال أثناء الاضطهاد الوثني أيام القديس والشهيد كبريانوس (أسقف قرطاج، القرن الثالث)؛ حيث أنكر البعض الإيمان خوفًا من الاستشهاد، والبعض الآخر جحدوا إيمانهم رغبة في الاحتفاظ ببعض الامتيازات التي حصلوا عليها من الإمبراطورية الرومانية، فكتب القديس كبريانوس محذرًا إياهم، قائلًا: "هل يظن ذلك الذي يستحي أو يخاف من كونه مسيحيًّا أنه مسيحيّ؟ كيف يكون مع المسيح ذاك الذي يخجل منه، أو يخشى من انتمائه له؟ نعم إنه لم يخطئ بنفس القدر الذي أخطاء به الذين دنسوا أيديهم بذبائح ميتة وبطعام نجس (الوثنيون). لكن الضمير هنا ليس بلا جُرم، نعم يستطيع أن ينال بسهولة أكثر غفران خطيته، لكنه ليس بلا خطية، ليت الذي فعل هذا لا يتوقف عن تقديم التوبة، وطلب الرحمة لئلا تزداد خطيته[١٨]".

---

[١٦] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، ثياب العذارى:٧.

[١٧] القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، مرجع سابق، العظة الثالثة.

[١٨] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، الجاحدون:٢٨.

نحن أحيانا ما نعترف بإيماننا شفهيًّا، لكننا في حياتنا اليومية ننكر موت المسيح وقيامته؛ وذلك عندما نرفض ولا نصدق ولا نتجاوب مع عمل الله معنا، إن ذلك يعد أيضًا جحودًا. إننا بذلك نجحد المسيح بدل الشيطان! ننكر قوة المسيح، ونجدف على الروح القدس رافضين عمله فينا الذي يقتادنا إلى التوبة، صائرين فقط مسيحيين بالاسم، مثل هؤلاء الذين تكلم عنهم القديس أغسطينوس قائلًا: "انظروا أيَّة محبة منحنا الآب؛ حتى ندعى ونكون أبناء الله! لأن من يدعون لله أبناء، وليسوا على شيء من ذلك (لا يحييون كأبناء الله) لن يستفيدوا شيئًا من لقب فارغ (مجرد لقب واسم بلا فعل). كثيرون هم أطباء بالاسم، ولا يعرفون أن يعالجوا مريضًا، كثيرون هم الحراس، ومع ذلك ينامون طوال الليل (يهملون حراستهم). وكذلك كثيرون هم الذين يدعون مسيحيين وهم ليسوا فعلاً مسيحيين! إنهم واقعيًّا؛ في حياتهم وأخلاقهم، وإيمانهم ورجائهم، ومحبتهم غير مسيحيين[١٩]"!

والقديس "كليمندس الروماني" (القرن الثاني) يحذر كنيسة "كورنثوس" من مغبة عدم توافق حياة الفرد مع إيمانه، فيقول: "وداعًا للعدل والوئام، بعد أن تخلى كل واحد عن تقوى الله، وسود وجه الإيمان، فلم يعد أحد يسلك في وصايا الله، ولا يعيش حياة تليق بالمسيح، بل بحسب أهواء قلبه المنحرفة، مغذيًا في نفسه الحسد، عدو كل بر وتقوى، الذي دخل به الموت إلى العالم[٢٠]".

وحياة الإيمان التي تدعونا الكنيسة لنحيا فيها هي حياة تليق بفصح المسيح (موت وقيامة المسيح)، إنها "**حياة تليق بيوم الأحد**" يوم الفصح، الذي هو يوم قيامة المسيح، فنجد القديس "إغناطيوس

---

[١٩] القديس أغسطينوس، *شرح رسالة القديس يوحنا الأولى*، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠١، المقالة الرابعة:٤.

[٢٠] رسالة القديس كليمندس الروماني إلى كنيسة كورنثوس، مرجع سابق،٣:٤.

الأنطاكي" (القرن الثاني) يصف المؤمنين الذين ينضمون للإيمان، قائلًا: "هم الذين جاءوا نحو الرجاء الجديد... يعيشون حياة تليق بيوم الأحد[٢١]." لتصير بذلك حياتنا يوم "أحد" كبير لا ينتهي "يوم لا غروب له"، ننتصر فيه على الموت وننتقل للحياة "نحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة" (١يو٣:١٤). وهي حياة مثمرة تليق بقيامة الرب، وبقيامة المسيح فينا "أنتم أيضًا قد متم للناموس بجسد المسيح، لكي تصيروا للآخر، الذي قد أقيم من الأموات، لنثمر لله" (رو٧:٤). إنها حياة إيمان تليق بموت الرب وقيامته وبالحياة الأبدية التي دعينا إليها كقول بولس الرسول: "مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا في، فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني، وأسلم نفسه لأجلي" (غل٢:٢٠). وعن ذلك يكتب القديس "أغسطينوس" في إحدى رسائله عن يوم الأحد الذي يذكرنا بقيامة المسيح وبالحياة الأبدية، قائلًا: "هكذا يصبح اليوم الأول (الأحد)، هو اليوم الثامن (يوم الأحد أيضًا ويرمز للأبدية)، لكي تصبح حياتنا الأولى هي الحياة الأبدية[٢٢]."

ويشرح القديس "يوحنا ذهبي الفم" تأثير الحياة الأبدية التي نحن مدعوون لنحياها من الآن، قائلًا: "دعونا نظهر نوعًا جديدًا من الحياة... دعونا نجعل الأرض سماءً... دعونا نجعل الآخرين عندما يروننا دمثين (ذو خلق حسن)، طاهرين من الغضب والحسد، والشهوة، يقولون إن صار هؤلاء ملائكة هنا، فما الذي سيصيرون عليه بعد رحيلهم من هذا العالم"؟!

والإنسان البسيط قد لا يستطيع التعبير عن إيمانه لفظيًّا، لكنه قادر على تجسيده عمليًّا، من خلال حس إيماني (Sensus fidelium) يتشكل لدى الفرد من خلال الممارسة المتواترة للعبادة، فيجعل

---

[٢١] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى مغنسيا ٩:١.
[٢٢] *رسائل القديس أغسطينوس*، الرسالة ١٧:٥٥.

صاحبه يميز بين الخطأ والصواب، وتكون أعماله بمثابة مرآه لإيمانه، محققًا ما قاله معلمنا يعقوب الرسول: "أريك بأعمالي إيماني" (يع٢:١٨)، فكل شيء في إيماننا له تطبيق عملي في الحياة: "عمل إيمانكم" (١تس١:٣). إن إيماننا هو إيمان عامل: "الإيمان العامل بمحبة" (غل٥:٦)، وليس إيمانًا نظريًّا أو فلسفيًّا.

والقديس مقاريوس الكبير يقارن بين أولئك الذين لهم إيمان مُعاش، ومختبر في السرائر المختلفة وعلى رأسها في الإفخارستيا، وبين آخرين إيمانهم فقط إيمان نظري أجوف، فيقول: "يوجد فرق عظيم بين أولئك الذين لهم فكر نظري وقدرة على الكلام، ولكنهم غير مُملحين بالملح السمائي، الذين يتحدثون عن المائدة الملكية، دون أن يكونوا قد ذاقوا منها شيئًا، أو تمتعوا بها؛ وبين إنسان يرى الملك نفسه، وقد كشفت له الكنوز السماوية، وقد دخل إليها، وصار وارثًا لها، وهو يأكل ويشرب من المأكولات السماوية الثمينة[٢٣]".

والإيمان الحق هو الذي تَتَحَوَّل فيه تعاملات الله اليومية معنا إلى تسبحة أو "ذوكصولوجية"، نمجد بها الله كل يوم في حياتنا، كقول كاتب المزمور: "أسبح الرب في حياتي" (مز١٤٦:٢) أي إن حياته كلها تمجد الله. إن خبرات الحياة تدعم الإيمان، كداود النبي الذي شهد قائلًا: "كنت فتى وقد شخت، ولم أر صديقًا تخلى عنه ولا ذرية له تلتمس خبزًا" (مز٣٧:٢٥). فمن المهم للمسيحي أن يكون له رصيد خاص من تعاملات الله الشخصية معه، بالإضافة لخبرة إخوته في الكنيسة سواء في الحاضر أو عبر العصور (خبرة الكنيسة)، فكلاهما يدعم الآخر ولا غنى عن أحدهما.

والحقيقة أن سلوكنا هو كرازة (κήρυγμα - keyrgma) صامتة بالمسيح، فيها يرى الآخرون حياة المسيح وعمله في حياتنا.

---

[٢٣] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، العظة ١٦:١٠.

فالأعمال عادة ما توصل جوهر الإيمان، أفضل من أي كلام أو شروح، لذلك نجد كاتب "الرسالة إلى ديوجنيتوس" يصف حال المسيحيين في المجتمع (في القرون الأولى) قائلًا: "إن المسيحيين لا يختلفون عن سواهم من أبناء البشر، في الوطن أو اللغة والعادات، والواقع أنهم لا يقطنون مدنًا خاصة بهم وحدهم، ولا يتكلمون لغة خاصة بهم، ولا يعيشون عيشة غريبة شاذة... ومع أنهم يسكنون مدنًا يونانية وغير يونانية... فإنهم يسلكون بموجب عادات البلد الذي يحلون فيه، من جهة الزي والطعام وأساليب المعيشة الأخرى، إلا أن أسلوب معيشتهم يستوجب الإعجاب والإقرار بأنه غير متوقع! تراهم يسكنون البلد ولكنهم غرباء، هم يشتركون في كل شيء كمواطنين، ولكنهم يحتملون كل ما يحتمله الغرباء، يتزاوجون كغيرهم ويتوالدون، ولكنهم لا يهملون أولادهم ولا يعرضونهم للموت، يفرشون طعامهم للجميع، ولكنهم لا يفرشون فراشهم (أي لا يشتركون في نجاسات العبادات الوثنية)... يطيعون القوانين المرعية، لكنهم يتقيدون بأكثر منها في حياتهم الخاصة، يحبون جميع الناس ولكن جميع الناس يضطهدونهم... يُماتون ولكنهم يُعادون للحياة، فقراء لكنهم يغنون كثيرين، معتازون لكل شيء، لكنهم ينعمون بكل شيء، يُفترى عليهم لكنهم يُبررون، يشتمون لكنهم يباركون، يهانون ولكنهم يكرمون الآخرين، يعملون الخير فيجازون كأشرار، حينما يعاقبون بالموت يفرحون كأنهم يُقامون إلى الحياة، يحاربهم اليهود كأنهم أجانب، ويضطهدهم اليونانيون، ومع ذلك فالذين يكرهونهم يعجزون عن ذكر سبب كراهيتهم لهم"[٢٤]!

---

[٢٤] الرسالة إلى ديوجنيتوس، مرجع سابق، الفصل الخامس.

الشكر على عطية الإيمان

إن إيماننا وخلاصنا هو عطية من الله "لأنكم بالنعمة مخلصون، بالإيمان، وذلك ليس منكم، **هو عطية الله**" (أف٢:٨)، فالله هو الذي صنع تدبيره الخلاصي وأكمله وأشرك الإنسان فيه "لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح، لا أن تؤمنوا به فقط" (في١:٢٩)، وهذه العطية الثمينة، التي هي إيماننا تستوجب التقبل وتقديم الشكر لأجلها "فشكرًا لله على عطيته التي لا يعبر عنها" (٢ كو٩:١٥).

والشكر على نعمة الإيمان يقتضي منا أن نحول هذا الإيمان إلى حياة تمجد الله وتشهد على صنيعه معنا، وإلا أصبح إيماننا إيمانًا ناقصًا وعبادتنا عبادة ناقصة. فالشياطين مثلاً لها إيمان، لكن بدون أعمال، كما يقول الكتاب "الشياطين يؤمنون ويقشعرون" (يع٢:١٩). ونحن مدعوون لنظهر إيماننا بالسيد المسيح من خلال محاكاة حياتنا لحياته "لكي تظهر حياة يسوع أيضًا، في جسدنا المائت" (٢ كو٤:١٠).

لذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "فليكن لدينا إذًا إيمان نستطيع أن نعلن به مجد الله، ولنحيا لإعلان هذا المجد، فلا توجد أي منفعة من واحدة دون الأخرى. هكذا حينما نمجده، دون أن نحيا في تقوى ونقاوة، فهذا يعني أننا نزدري به إلى أقصى حد، فحينما ندعوه السيد والمعلم (دون أن نحول هذا الإيمان إلى سلوك) فنحن نزدري به ولا نخشى دينونته المخوفة. بالطبع ليس غريبًا أن يعيش الوثنيون بدون نقاوة، فهذا الأمر لا يدعوا للاستغراب. أما المسيحيون الذين يشتركون في كل هذه الأسرار، ويتمتعون بهذا المجد العظيم، حينما لا يعيشون بدون نقاوة، فهذا يعد شرًّا كبيرًا"[٢٥]!

والإفخارستيا نفسها التي ننال بها الخلاص: "يُعْطَى عنا خلاصًا،

---

[٢٥] القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، مرجع سابق، العظة الثامنة.

وغفرانًا للخطايا، وحياة أبدية لكل من يتناول منه[٢٦]"، هي أيضًا في حد ذاتها نعمة، وعطية من الله، تستوجب منا الشكر. فما الذي فعلناه أو تعبنا فيه حتى نستحق أن نشترك في جسد ودم ابن الله؟ لذلك يصلي الكاهن قائلًا: "أنت الذي أعطيتني هذه الخدمة المملؤة سرًّا، أعطيتني إصعاد جسدك بخبز وخمر[٢٧]." ولذلك فإن الشكر على نعمة الإفخارستيا التي هي أثمن شيء في الوجود، يكون من خلال اشتراكنا وتناولنا بشكر وامتنان من الإفخارستيا نفسها، التي هي سر الشكر و"كأس الخلاص"، كقول كاتب المزمور: "ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لي؟ كأس الخلاص أتناول، وباسم الرب أدعوا" (مز١١٦:١٢،١٣). لذلك يقول القديس أغسطينوس: "أي شيء يمكن أن نقدمه مملوءً حبًّا هكذا، ويمكن قبوله بعرفان للجميل، مثل جسد ذبيحتنا الذي صار جسد كاهننا[٢٨]"؟! فنحن نشكر الله على نعمه (وبالأخص الإفخارستيا) حين نقدم ذواتنا في المسيح لله في الإفخارستيا.

اعتراف الإيمان

هناك نوعان من الاعتراف في الكنيسة؛ الأول هو "**الاعتراف بالخطايا**" (confession of sins) والذي يمارسه المؤمن في سر التوبة والاعتراف. والنوع الآخر من الاعتراف هو "**اعتراف الإيمان**" (confession of faith) ويشمل الاعتراف بإحسانات الرب علينا ونعمه. وعن هذين الشقين يقول القديس أغسطينوس "الاعتراف له شقان يعملان معًا؛ الاعتراف بخطايانا، والاعتراف بإحسانات الرب علينا."

الإفخارستيا هي "سر الإيمان" (١تي٣:٩)؛ (Μυστήριον τῆς πίστεως) لأننا نتناول الله الظاهر في

---

[٢٦] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة الاعتراف، ص ٢٧٨.

[٢٧] المرجع نفسه، القداس الغريغوري، قبل الرشومات، ص ٣٣٧.

[28] Augustine, *On The Holy Trinity*, Book IV.

الجسد (في هيئة خبز وخمر) فالإفخارستيا من جهة تحوي كل إيمان الكنيسة. ومن جهة أخرى (الإفخارستيا ذاتها) لا يمكن فهمها أو استيعابها (قدر الإمكان)، وممارستها بدون إيمان، ولذلك كله تستعلن الإفخارستيا للمؤمنين أنها "**سر الإيمان**" (Mysterium fidei). إنها أيضًا "**سر التقوى** (το τῆς μυστήριον εὐσεβείας)" (١تي٣:١٦) "السر العظيم الذي للتقوى[٢٩]"، لقد هتف القديس أغسطينوس أمام تلك الحقيقة قائلًا: "يا لسر التقوى، يا لعلامة الوحدة، يا لرباط المحبة[٣٠]"!

لذلك فإن "اعتراف الإيمان" وما يتضمنه من اعتراف بعمل الله ونعمه، هو ما نقوم به في صلوات الكنيسة المختلفة، وعلى رأسها في الإفخارستيا، لذلك يكتب البابا "أثناسيوس الرسولي" قائلًا: "إننا حينما نأكل من (جسد) كلمة الآب (المسيح)، وندهن قلوبنا بدم العهد الجديد، إننا بذلك نعترف بنعمة مخلصنا علينا[٣١]".

إننا في القداس الإلهي لسنا فقط نعترف بنعم الله التي صنعها لنا، بل نعترف أيضًا أمامه بعجزنا، وفي نفس الوقت نعترف بأمانته هو، وبأنه قادر على أن يكمل فينا ما بدأه: "ليكملكم في كل عمل صالح لتصنعوا مشيئته، عاملاً فيكم ما يرضي أمامه، بيسوع المسيح" (عب١٣:٢١). فنحن لا نجاهد بمفردنا، إنما نجاهد أولاً مع الله، وثانيًا مع بقية الجسد (إخوتنا في الإيمان)، وهذان الأمران لا يتحققان بدون الاشتراك في الإفخارستيا. لذلك ينبغي ألا نضع العربة أمام الحصان بأن ننتظر أن تكتمل قداستنا ثم نذهب للتناول، لأن ذلك لن يحدث أبدًا. فنحن في الواقع نتناول لكي نتقدس، ولا يمكن أن نتقدس بمعزل عن الله. إننا في القداس الإلهي نعترف من جهة

---

[٢٩] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، ص ٢٢٦.

[٣٠] القديس أغسطينوس، في إنجيل يوحنا ١٣:٢٦.

[٣١] القديس أثناسيوس الرسولي، الرسائل الفصحية ٣:٤.

بضعفنا، وفي نفس الوقت نعترف من جهة أخرى بقوة الله. تلك القوة القادرة على التطهير، والتقديس، والشفاء. كما نعترف باحتياجنا لله لكي يطهرنا ويقدسنا. وبذلك تكون مناولتنا بها بإيمان ومحبة ومخافة، وورع غير زائف. فالتناول هو ممارسة عملية للاعتراف كحياة (في مفهومه الشامل)، بينما الاستعفاف عن التناول أو العزوف عنه، هو العكس تمامًا!

كما أن الاعتراف بالإيمان له بعدان: "**فردي**"، و"**جماعي**." فإيماننا كأفراد "**أؤمن**"، يكمل ويشكل إيماننا ككنيسة وشعب لله "**نؤمن**"، كما يتضح من تعليم بولس الرسول القائل: "إيمانكم وإيماني" (رو١:١٢)، فالاثنان ضروريان ومكملان لبعضهما. لذلك نجد في بعض المواضع من القداس الإلهي، أن الكاهن يصلي بصيغة "المفرد" (أؤمن) كما في اعتراف الإيمان الذي يصليه الكاهن قبل التناول مباشرة حين يقول: "أؤمن، أؤمن، أؤمن، وأعترف إلى النفس الأخير؛ أن هذا هو الجسد المحيي، الذي لإبنك الوحيد، ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، أخذه من سيدتنا وملكتنا كلنا، والدة الإله القديسة الطاهرة مريم... بالحقيقة أؤمن أن لاهوته لم يفارق ناسوته، لحظة واحدة، ولا طرفة عين... أؤمن، أؤمن، أؤمن أن هذا هو بالحقيقة آمين[٣٢]"، ليجاوبه الشماس بعدها مباشرة معترفًا بإيمانه هو أيضًا قائلًا: "أؤمن، أؤمن، أؤمن أن هذا هو بالحقيقة، آمين."

ونجد أيضًا في مواضع أخرى من القداس الإلهي، تصلي الكنيسة بصيغة "الجمع" (نؤمن) مثل قانون الإيمان الذي نقول في بدايته: "نؤمن بإله واحد..إلخ"، وكذلك في بعض مردات الشعب مثل: "نؤمن ونعترف ونمجد.".إلخ، وأيضًا حين يصلي الشعب قائلا "بموتك يا رب نبشر، وبقيامتك المقدسة، وصعودك إلى السموات، نعترف."

---

[٣٢] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة الاعتراف، ص ٢٧٨.

الإفخارستيا طريق الإيمان والمعرفة والحياة

إن الإيمان له دور أساسي في حياتنا الروحية، لأنه يشكل **استجابة القلب لإعلان الله** عن ذاته كما في قول القديس أغسطينوس: "أن تؤمن يعني أن تلمس الله بقلبك[٣٣]." فهو الطريق إلى الحياة الأبدية، وإلى معرفة الله. فعلى سبيل المثال؛ إيماننا بأن الله واحد، مثلث الأقانيم، وأن المسيح تجسد لأجل خلاصنا، وأنه توجد كنيسة، وأن هناك حياة أبدية بعد الموت..إلخ. كل هذه العقائد تشكل جوهر الإيمان المسيحي، الذي هو بوابة عبورنا إلى الملكوت.

إن معرفة الله، والحياة الأبدية يرتبطان ببعض ارتباطًا وثيقًا، فلقد خُلق آدم لكي ينمو في معرفة الله خلال الأبدية. وكان شرط الاستمرار في الأبدية هو البقاء في معرفة الله، من خلال علاقة حية معه. لذلك وضع الله في الفردوس؛ شجرتين متجاورتين: شجرة معرفة الخير والشر، وشجرة الحياة، كما يتضح في صلوات القداس الإلهي حين نقول: "أعطيتني علم معرفتك، أظهرت لي شجرة الحياة[٣٤]."

لقد خدع الشيطان آدم، ونجح في فصله عن الله، مصدر المعرفة الحقيقية "المعرفة الإلهية"، وقدم له معرفة زائفة ليست من الله "معرفة شيطانية"، فسقط الإنسان في النهاية من المعرفة الحقيقية، وفقد الحياة الأبدية!

ولقد شرح كاتب "الرسالة إلى ديوجنيتوس" هذه العلاقة بين المعرفة والحياة الأبدية، قائلًا: "عندما تقرأ وتسمع هذه الأمور، سوف تعرف ما أغدق الله به على الذين يحبونه بحق؛ إذ جعلهم فردوسًا للفرح... وفي هذا الفردوس وضع شجرة المعرفة، وشجرة الحياة، ولكن ليست شجرة المعرفة التي تُهلك، والكلمات المكتوبة ليست عديمة الأهمية.

---

[33] Sermon 229/ L (Guelt.14), 2 (*Miscellanea Augustiniana*) 1,487/488.

[٣٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣١.

كيف أن الله منذ البداية، وضع شجرة الحياة في وسط الفردوس، كاشفًا لنا من خلال المعرفة، الطريق إلى الحياة، وحينما لم يستخدم أبوانا الأولان (آدم وحواء)، هذه المعرفة بطريقة سليمة، فإنهما بغواية الحية تعريا، لأن الحياة لا يمكن أن توجد بدون معرفة، وكذلك المعرفة لا تكون في آمان بدون حياة. ولذلك غرس الاثنان (الشجرتان) بجوار بعضهما. وقد أدرك الرسول (بولس) قوة هذا الارتباط بين المعرفة والحياة، ووجه اللوم على المعرفة التي بدون تعليم صحيح، وكيف أنها تؤثر على الحياة... اجعل قلبك يحكّمك، واجعل حياتك تكون معرفة حقيقية، تمتلئ بها في داخلك؛ فإذ تحمل هذه الشجرة وتظهر ثمارها، فإنك سوف تحصل على الأشياء التي يحبها الله، والتي لا تستطيع الحية أن تصل إليها، ولا الخداع أن يقترب منها[٣٥]".

ولم يخطئ الفيلسوف اليوناني "أرسطو"، حين قال: "إن كل إنسان بطبيعته يسعى للمعرفة"، فلقد **أراد آدم المعرفة، ولكن بعيدًا عن الله، فسقط ومات**. وعاش في جهلٍ هو ونسله إلى أن جاء المسيح؛ الذي هو حكمة الله: "المسيح قوة الله، وحكمة الله" (١كو١:٢٤). لكي بتجسده وفدائه يمنحنا في ذاته، طريق المعرفة الحقيقية، التي بها يستطيع الإنسان أن يَخلُص ويدخل إلى معرفة الله تلك المعرفة التي نقول عنها في القداس الإلهي: "أعطيتني علم معرفتك[٣٦]".

إن الإيمان والمعرفة[٣٧] في الحقيقة لا يتعارضان (على عكس ما يسيء الكثيرون الفهم) لكن يبقى **الإيمان أسمى في حد ذاته من المعرفة**، كما يقول القديس كليمندس السكندري: "الإيمان أسمى

---

[٣٥] الرسالة إلى ديوجنيتوس، مرجع سابق، الفصل الثاني عشر.

[٣٦] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة (إكؤاب) "قدوس، قدوس، قدوس"، ص ٣٣١.

[٣٧] كانت الدراسة في مدرسة الإسكندرية اللاهوتية (في القرون الأولى للمسيحية) تقتضي بأن يدرس الطالب علوم مدنية كالطبيعة، والفلك، والخطابة، والفلسفة..إلخ بجانب العلوم اللاهوتية، الأمر الذي كان له أثر جيد على كتابات آباء تلك الفترة.

من المعرفة، وهو المعيار الذي تقاس به المعرفة[٣٨]".

وفي الحياة الروحية تأتي المعرفة كثمرة للإيمان. إنها (المعرفة) نعمة تمنح كعطية وإعلان "الرب عرَّفني فعرفت" (إر١١:١٨)، شرط الإيمان أولاً: "إن لم تؤمنوا فلن تفهموا" (إش٧:٩سبعينية)[٣٩]. وبذلك يكون الإيمان هو الطريق والمدخل إلى المعرفة، كقول بولس الرسول: "بالإيمان نفهم" (عب١١:٣)، وكقول القديس "أغسطينوس: "لا تطلب أن تفهم لكي تؤمن، بل آمن حتى يمكنك أن تفهم[٤٠]." فالإيمان هو بمثابة عين داخلية، عين مستنيرة "لينير إلهنا أعيننا" (عز٩:٨) إنها "عين الإيمان" (oculata fides) يمنحها الله لنا، نستطيع أن نرى بها ما لا يرى، نرى بها الأشياء المستقبلية، ونعاين بها الآخرويات.

والحقيقة إن الله يريد أن يرد إلينا المعرفة، لكن بشرط أن يكون هو في هذه المرة مصدرها، كما أراد في البدء، بعد أن رد إلينا الحياة الأبدية التي سقطنا منها. والمعرفة التي دعينا إليها هذه المرة، ليست معرفة ذهنية، أو فلسفية. ولا هي معرفة علمية، تخضع لمناهج التجريب الحسي. إنما هي معرفة اختبارية؛ معرفة حية، داخلية، معاشة كما يقول يوحنا الرسول: "فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب، وأُظهرت لنا. الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، لكي يكون لكم أيضًا شركة معنا" (١يو١:٢،٣).

إنها معرفة "الحق" الذي طالما بحث عنه الفلاسفة أمثال "أفلاطون" القائل: "من هم الفلاسفة الحقيقيون؟ إلا أولائك الذين يحبون رؤية

---

[38] *Strom*.2.4.15.

[٣٩] هذه الآية هي بحسب الترجمة اليونانية (السبعينية) للعهد القديم، أما في النص العبري فقد جاءت على النحو التالي: "إن لم تؤمنوا فلن تأمنوا" (إش٧:٩)؛ ففي العهد القديم كان دائمًا الشعور بالأمان هو ثمرة لإيمان الشعب وفهمه لذلك الإيمان، ومن واقع اختبار علاقة الله مع شعبه: "آمنوا بالرب إلهكم فتأمنوا" (٢أخ٢٠:٢٠).

[٤٠] القديس أغسطينوس، *عظات على إنجيل يوحنا*.

الحق." إن هذه المعرفة التي نحن مدعوون إليها، هي معرفة إختبارية فيها يقول لنا الرب: "تعال وانظر" (يو١:٤٦)؛ "ذوقوا وأنظروا" (مز٣٤:٨). إنها معرفة فصحية؛ تعبر بالإنسان من الموت للحياة، بقوة قيامة المسيح الذي هو "**الحق ذاته**" (αὐτοαλήθια)، كما قال بولس الرسول: "لأعرفه، وقوة قيامته، وشركة آلامه" (في٣:١٠).

هذه المعرفة هي دعوة لاختبار "**الحياة الحقيقية**" (zωή ἀληθινή)، وتذوق عربون الملكوت، مثل بولس الرسول الذي صعد إلى السماء الثالثة، ووقف عاجزًا أمام صياغة ما رآه في لغة بشرية، فسجل لنا عن خبرته تلك التي عاشها قائلًا: "ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على بال إنسان: ما أعده الله، للذين يحبونه!" (١كو٢:٩). لقد أوضح لنا السيد المسيح في صلاته الشفاعية **ارتباط الحياة الأبدية بمعرفة الله** (معرفة الثالوث)، قائلًا: "وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت (الآب) الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح (الابن) الذي أرسلته" (يو١٧:٣).

وهذه المعرفة الحقيقة التي يريدها الله لنا، تتحقق بواسطة الروح القدس الذي حل على الكنيسة، ولا يزال منذ يوم الخمسين. فبحلول الروح القدس منذ زمن "العنصرة" تحيا الكنيسة ما تكلم عنه يؤيل النبي؛ الذي تنبأ بأن الروح القدس سيحل على المؤمنين شيوخًا وشبانًا في "آخر الأيام".

والعهد الجديد هو "زمن الكنيسة" حيث الروح القدس العامل فيها هو الذي يجعلنا نفهم ونتذكر كلام الرب كما تنبأ إرميا النبي "في آخر الأيام ستفهمون فهمًا" (إر٢٣:٢٠)، وفي موضع آخر يقول: "حتى يقيم مقاصد قلبه، في آخر الأيام تفهمونها" (إر٣٠:٢٤). ولكن ذلك يتطلب علاقة حية مع الله الثالوث كل يوم، وطوال اليوم. وهذه العلاقة تبدأ هنا على الأرض، وتكتمل في الأبدية.

ولكن بالرغم من ذلك كله يبقى ما نعرفه عن الله، أقل بكثير مما لا نعرفه عنه! فإشعياء النبي قد رأى الله على عرشه وشاهد السيرافيم وسمع تسبيحهم (إش:٦)، إلا أنه يُصرّ ويؤكد بالرغم من كل ما رآه وسمعه، أن ما لا يعرفه عن الله ما زال أكثر بكثير "حقًّا أنت إله محتجب يا إله إسرائيل المخلص" (إش٤٥:١٥)! ولكي نعرف الله فعلا يجب أن ندرك هذه الحقيقة داخلنا: "**حقيقة جهلنا**"، حينئذ فقط، ومن هنا تبدأ رحلة معرفتنا لله التي تقودها النعمة الإلهية. وهذا النوع من الجهل هو في الحقيقة جهل مستنير "**جهل عارف**"! لذلك يمدحه بعض الآباء مثل القديس "إفغاريوس البنطي" أحد آباء الرهبنة المصرية (تنيح سنة٣٩٩م): "طوبى لمن وصل إلى الجهل اللّا متناهي[٤١]"!

فبولس الرسول يقول: "الآن أعرف بعض المعرفة، لكن حينئذ سأعرف كما عرفت" (١كو١٣:١٢). ويقول القديس "كليمندس السكندري" عن معرفة الله: "إننا نعرف غير المعروف بواسطة النعمة الإلهية، وبالكلمة وحده[٤٢]".

ونحن في القداس الإلهي نتدرج في معرفتنا لله؛ حيث نبدأ بمخاطبة الله ونصفه بما هو ليس عليه (تنزيه، أو الوصف السلبي)[٤٣]، لأن الذي لا نعرفه عن الله، هو أكثر جدًّا مما نعرفه. لذلك نجد الكثير من الآباء يؤكدون على أن نقطة الإنطلاق نحو معرفة الله، هي أن ندرك

---

[٤١] القديس إفغاريوس البنطي، *الفصول المئة عن الغنوسية (الدفاع ضد الغنوسيين)*، ٣:٨٨.

[42] *Strom.* 5.12.82.

[٤٣] تستخدم الكنيسة أسلوبين في التعبير عن الله: الأول هو ما يسمى بالأسلوب "السلبي" (apophatic) أو النافي، والأسلوب الثاني هو الأسلوب "الإيجابي" (cataphatic) أو التأكيدي. ويقصد بالأسلوب "السلبي" في التعبير، وصف الله بما هو ليس عليه (بدون أي إساءة أو إنقاص لله، حاشا) مثل وصف الله بأنه: غير المحدود، غير المدرك، غير المرئي.. إلخ. بينما الأسلوب "الإيجابي" في التعبير هو وصف الله، والتعبير عنه بما هو عليه، وفق ما أعلنه لنا. ككونه أبديًّا، كلي القدرة، كلي الوجود، صالحًا، ومحبًّا..إلخ. والكنيسة تستخدم كلا الأسلوبين السلبي والإيجابي (النافي أو التأكيدي) معًا لوصف الله، بهدف إيجابي (جيد) في النهاية، وهو وصف الله والتعبير عنه، قدر المستطاع.

أولاً أن الله لا يمكن إدراكه (ἀκατάληπτος)، وهو يفوق أي معرفة: "وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة" (أف٣:١٩).

لذلك يكتب القديس غريغوريوس النيصي، قائلًا: "معرفة الله الحق، ورؤية الله هي في أن نرى أنه لا يرى، ذاك لأن ما نسعى إليه إنما يتعدى حدود معرفتنا، ومحجوب عنا وراء الظلام غير المدرك[٤٤]." ولقد أكد القديس أغسطينوس أيضًا على حقيقة أنه **من سمات الله أنه لا يمكن إدراكه** في جوهره، أو فهمه بالكامل، لكون الله غير محدود، في حين أن الإنسان مخلوق محدود، فقال: "الإله الذي تستطيع أن تدركه وتفهمه (بالكامل)، ليس هو إلهًا[٤٥]"!

لذلك تبدأ الكنيسة الصلاة في قداس المؤمنين بقولها: "الذي لا ينطق به، غير المرئي، غير المحوى، غير المبتدئ... غير الزمني، الذي لا يحد، غير المفحوص، غير المستحيل[٤٦]." ثم نرتقي في المعرفة من "ما هو غير معروف" (الذي هو في حد ذاته نوع من المعرفة) إلى "ما هو معروف" (تأكيد). أي ما أعلنه لنا المسيح بفضل تجسده، حين فتح لنا طريق المعرفة الحقيقية للآب وللروح القدس "الذي أظهر لنا نور الآب، الذي أنعم لنا بمعرفة الروح القدس الحقيقية[٤٧]."

ثم نواصل الارتفاع في المعرفة، من خلال سرد ما قام به الله لأجل خلاصنا منذ بدء الخليقة، ثم السقوط، وإعطاء الناموس، ثم التجسد، والصلب، والقيامة، والصعود، وانتظار المجيء الثاني، فتصلي الكنيسة قائلة: "خلقتني إنسانًا كمحب للبشر... أنت الذي حولت لى العقوبة خلاصًا... أعطيتني الناموس عونًا... أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك... وضعت ذاتك وأخذت شكل العبد...

---

[٤٤] القديس غريغوريوس النيصي، حياة موسى، ٢:١٦٣.
[٤٥] القديس أغسطينوس، عظة ١٦:٥٢، مجموعة الآباء اللاتين ٣٨:٣٦٠.
[٤٦] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٢٥.
[٤٧] المرجع نفسه، ص٣٢٦.

أزلت لعنة الناموس، أبطلت الخطية بالجسد... أتيت إلى الذبح مثل خروفٍ حتى إلى الصليب... أصعدت باكورتي إلى السماء، أظهرت لي إعلان مجيئك، هذا الذي تأتي فيه لتدين الأحياء والأموات، وتعطي كل واحد كأعماله[٤٨]".

أما ذروة المعرفة الإلهية والاستنارة، فهي عندما نتحد بالمسيح ذاته **(معرفة بالاتحاد من خلال التناول)**[٤٩] "هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية" (١يو٥:٢٠)، حين يعطينا جسده ودمه كعربون للحياة الأبدية: "الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه" (١يو٥:١١)، ومع ذلك لا نستطيع إستيعاب كل شيء، لأن الله غير محدود بطبيعته، في حين أن الإنسان يظل مهما استنار محدودًا، لأنه مخلوق! والله في كل قداس إلهي يدعونا لنختبر هذه المعرفة والشركة من خلال الاتحاد به: "ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب" (مز٣٤:٨). فنحن في كل مرة نشترك في الإفخارستيا، نعرف أكثر عن الإله الذي أحبنا وننموا في معرفته ومحبته.

لذلك نجد أن بولس الرسول يفتخر بأنه صار لنا مذبح في العهد الجديد أفضل من العهد القديم، حيث يقول: "لنا مذبح" (عب١٣:١٠)[٥٠]. إن "المذبح" هو الطريق الحقيقي لمعرفة الله؛ فتلميذا عمواس رغم أنهما كانا تلميذين (أحد السبعين رسولاً)، إلا أنهما لم يعرفا الرب، أو يتعرفا عليه عندما رأوه في الطريق لعمواس! لكن فقط عرفاه عندما كسر المسيح الخبز (إفخارستيا)، حينئذ فقط انفتحت أعينهما،

---

[٤٨] المرجع نفسه، صلاة (إكؤاب Χοραß) "قدوس، قدوس، قدوس"، ص٣٣٠.

[٤٩] من الجدير بالملاحظة أن الكتاب المقدس كثيرًا ما يستخدم كلمة "عرف" عندما يتزوج شخصان ويتحدان، للدلالة على أن الاتحاد هو نوع من المعرفة "وعرف آدم حواء إمرأته، فحبلت وولدت قايين" (تك٤:١)، بينما لا تستخدم كلمة"عرف" في الكتاب المقدس في العلاقات خارج نطاق الزواج. كما أنه كثيرًا ما يستخدم الكتاب علاقة الاتحاد الزيجي للتعبير عن اتحاد الله بالإنسان.

[٥٠] رتبت الكنيسة القبطية بإرشاد الروح القدس وضع هذا الفصل (عب:١٣) في طقس تدشين المذابح.

واستنار ذهنهما لمعرفة الرب. ويعلق على ذلك القديس أغسطينوس، قائلًا: "متى أعلن الرب عن نفسه؟ عند كسر الخبز، لذلك عندما نكسر الخبز نتعرف على الرب، **فهو لم يعلن عن نفسه إلا هنا على المائدة**، لنا نحن الذين لم نستطع أن نراه في الجسد، ولكنه أعطانا جسده لنأكله. فإذا كنت تؤمن بهذا فتعال مهما كنت، وإذا كنت تثق فاطمئن عند كسر الخبز."

وأيضًا سليمان الحكيم يرسم لنا صورة رمزية (رمزًا للإفخارستيا)، فيها يرمز للمسيح بالحكمة. وهذه الذبيحة تعلم الجهلاء، وتعطيهم استنارة ذهنية وفهمًا، وحياة أيضًا، فيقول: "الحكمة... ذبحت ذبحها. مزجت خمرها (ذبيحة الإفخارستيا). أيضًا رتبت مائدتها (مائدة الإفخارستيا). أرسلت جواريها تنادي على ظهور أعالي المدينة: "من هو جاهل فليمل إلى هنا." والناقص الفهم قالت له: "هلموا كلوا من طعامي، واشربوا من الخمر التي مزجتها (الإفخارستيا). اتركوا الجهالات فتحيوا، وسيروا في طريق الفهم" (أم٩: ٢-٦).

إن اتحادنا الإفخارستي بالمسيح المتجسد، هو اقتناء للملكوت في داخلنا: "ها ملكوت الله داخلكم" (لو١٧:٢١)، الحقيقة التي شرحها القديس كيرلس الكبير في تعليمه عن الإفخارستيا بقوله: "منذ الأزمنة الأولى، أي منذ بداية العالم الحاضر، ساد الموت على الذين كانوا يعيشون على الأرض، إلى أن جاءت وقت المائدة (مائدة الإفخارستيا). ولكن حينما ظهرت المائدة المقدسة لأجلنا، تلك المائدة التي في المسيح، وهي مائدة سرية (mystical). التى منها نأكل الخبز الذى من السماء، الخبز المعطي الحياة، حينئذ تحطم الموت، الذي كان منذ القديم مخيفًا وقويًّا جدًّا. ولذلك يُقال إن المسيح طرد الموت، الذى سكن في جسد الإنسان وأزاحه. المسيح يخبئ الحياة

في المؤمنين، من خلال جسده الخاص. المسيح يُدخِل الحياة داخل المؤمنين، كبذرة خلود[٥١]".

فنحن حينما نتقدم للتناول؛ نتناول المسيح المتجسد، والمصلوب، والقائم من بين الأموات،..إلخ. **إننا نأخذ الحياة ونخرج بها لنواجه العالم المائت**، فتتقابل الحياة مع الموت (الغضب، الكذب، الشهوة.. إلخ) وتدوس الحياة الموت. وبذلك يتحول الإيمان داخلنا إلى أسلوب حياة (life style) ينعكس على كلامنا وأفعالنا، وعملنا، وبيوتنا، ومجتمعنا..إلخ. وتتحول حياتنا الخاصة والعامة من خلال الإيمان إلى **ليتورجيا حياة**. إن القديس يوحنا ذهبي الفم ينبه شعبه على أهمية أن تكون حياتنا بعد القداس لائقة، وشاهدة على ما جرى في القداس الإلهي الذي نشترك فيه فيقول: "دعوا الناس يَعْلَمون من خلال سلوككم أنكم كنتم مع الشاروبيم"! أي **إن ليتورجيا الإيمان، تتحول إلى ليتورجيا عبادة، وإلى ليتورجيا حياة.**

ولكن لكي يتحقق كل ذلك فعليًّا، على الشخص أن يختار ويقبل بملء إرادته، عمل الله في حياته، وأن يعيد اختبار ما قد سبق وسلمته له الكنيسة، من وديعة إيمان وأسرار، فالإنسان خُلق ليختار، وعلى أساس اختياراته تكون حياته، وكما يقول الفيلسوف الروماني "سينيكا" (٦٠-٥ ق.م) "الحياة طويلة، إذا عرفت فقط كيف تحياها"!

الإفخارستيا رحلة الإيمان

وأخيرًا إن القداس الإلهي ككل هو رحلة إلى الملكوت، رحلة لقاء الله بشعبه، رحلة تبدأ بخروج وتنتهي بدخول. إنها رحلة يحركها الإيمان، مثل رحلة إبراهيم إلى أرض كنعان، حينما طلب منه الرب

---

[٥١] الأستاذ القس عزرا جبرميدهين، مرجع سابق.

أن يذهب من أرضه وأهله وعشيرته إلى الأرض التي يريها إياه لينال هناك الموعد: "وقال الرب لأبرام إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك" (تك١٢:١). لقد كانت إحدى الأهداف من وراء خروج إبراهيم ورحلته الطويلة ودخوله لأرض الموعد هي مقابلته الشخصية مع الله. فبعدما خرج وأطاع، ظهر له الرب في أرض الموعد وباركه هناك وأعطاه المواعيد. الأمر الذي تكرر مع يعقوب أب الآباء، ونراه يتكرر مع كثير من أبرار العهد القديم.

إننا مدعوون مثل إبراهيم في كل قداس أن نترك جانبًا كل اهتمام يتعلق ببيوتنا وأُسرنا وعملنا (أو على الأقل نلقي بهذه الاهتمامات عند الرب لكي يعتني هو بها) لأجل أن نتقابل مع السيد المسيح فيباركنا ويعطينا المواعيد، مُذيقًا إيانا عربون ملكوت السموات، تلك التي كان يرمز لها قديمًا بأرض كنعان.

ألحان كنسية قديمة

"لائق وحق أن نسبحك[٥٢]"

إنه لائق وحق، أن نحمدك ونسبحك ونمجدك،
أيها الآب غير المخلوق، مع الابن الوحيد يسوع المسيح،
نسبحك يا الله، أنت غير المخلوق، وغير المفحوص،
الفائق عن التعبير بالكلام،
والذي لا يحيط بمعرفتك أي مخلوقٍ قط،
نسبحك أنت المعروف لابنك وحده الوحيد،
الذي بواسطته يمكن أن يُنطقُ بك ويُعَبرُ عنكَ،
نسبحك يا من تُعرف وحدك للابن، وتعلن كل مجده للقديسين،
نسبحك أيها الآب غير المنظور، يا من له وحده عدم الموت،
أنت ينبوع الحياة، ينبوع النور، ينبوع النعمة والحق،
يا محب الإنسان، يا محب الفقراء،
يا من صالحت نفسك للجميع،
وجذبت الكل لنفسك بمجيء ابنك الحبيب.

---

[٥٢] كاتب هذا اللحن هو القديس الأنبا سيرابيون (القرن الرابع)، الذي كان تلميذًا للأنبا أنطونيوس مؤسس الرهبنة، وصديقًا للبابا أثناسيوس الرسولي. انظر كتاب: نيافة الأنبا مكاريوس، مرجع سابق، ص ٤٥،٤٦.

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس باسيليوس[٥٣]

رئيس أساقفة قيصرية الكبادوك

أيها الكائن السيد الرب الإله، الآب الضابط الكل، المسجود له. إنه واجب حقًا وعدل، ولائق بعظمة جلال قداستك؛ أن نسبحك، ونمدحك، ونباركك، ونسجد لك، ونشكرك، ونمجدك أنت الإله الحقيقي وحدك. وأن نقرب لك عبادتنا هذه الناطقة، بقلب منسحق وروح متضع. لأنك أنت وهبتنا معرفة حقك. فمن تراه كُفءً أن يحدث بجبروتك؟! ويُسْمِعُ تسابيحك كلها، أو يذيع جميع معجزاتك في كل حين!

يا سيد الكل رب السماء والأرض، وكل خليقة منظورة وغير منظورة، الجالس على عرش المجد، والناظر إلى اللُجَجْ. الأزلي، الذي لا يرى، ولا يوصف، ولا يدرك، ولا يعتريه تحول، أبا ربنا يسوع المسيح الإله العظيم، مخلصنا ورجاؤنا. الذي هو صورة صلاحك وختم مساوٍ لك في الرسم، مظهرًا إياك في ذاته أيها الآب. هو الكلمة الحي، الإله الحقيقي، الحكمة التي قبل الدهور، الحياة، التقديس، النور الحقيقي، الذي منه ظهر الروح القدس، روح الحق، موهبة التبني، عربون الميراث الآتي، باكورة الخيرات الأبدية، القوة المحيية، ينبوع التقديس. الذي بتأييده تعبدك كل الخلائق الناطقة والعقلية، وتمجدك على الدوام، لأن البرايا كلها هي عبيد لك.

---

[٥٣] انظر حاشية ص ٧٠.

الفصل الخامس

الإفخارستيا

حياة الصلاة

الإفخارستيا حياة الصلاة

كل شيء في الإفخارستيا يتحول إلى موضوع للصلاة. الكنيسة لا ترفض العالم أو المادة بل تقدس كليهما بالإفخارستيا. الإنسان في الإفخارستيا يشكر ويسبح بالنيابة عن الخليقة كلها. الإفخارستيا عمل للرب. الصلاة كخدمة، الإفخارستيا تدعم الخدمة والكرازة في الكنيسة. أهمية الصمت في الصلاة. "أبانا الذي في السموات" نموذج للصلاة الإفخارستية.

قصة

تحكي إحدى القصص في التلمود اليهودي (التقليد الشفهي لليهود)، عن زيارة "صموئيل" النبي لقرية بيت لحم، حيث أمر الله صموئيل أن يذهب ليمسح ملكًا جديدًا على إسرائيل، فأطاع صموئيل الرب، وقرر الذهاب لتلك القرية الصغيرة "بيت لحم"!

ولما علم أهل بيت لحم بأن صموئيل ذاك النبي العظيم، الذي تربى منذ صغره في خيمة الرب، وقاد شعب الله لسنين عديدة ككاهن، وقاضٍ آت؛ وأن الذي مسح أول ملك على إسرائيل قادم، ارتجت المدينة استعدادًا لاستقباله، تاركين كل شيء خلفهم!

الجميع تركوا أعمالهم ليشاهدوا النبي العظيم، والبعض فرشوا بيوتهم لعل صموئيل ينزل عندهم فتكون لهم بركة عظيمة، لأجل إستضافتهم لرجل الله، في حين استعد آخرون هم وأولادهم بكامل زينتهم، ليستقبلوا صموئيل النبي لعله يمسح أحدهم نبيًّا!

اختلف الجميع في طريقة استعداده، لكن الجميع للأسف تركوا عبادة الرب وتسبيحه في ذلك اليوم، وانشغلوا بالتحضير لزيارة صموئيل النبي! إلا فتى صغير أرسله أبوه بعيدًا ليرعى الغنم (ربما للتخلص منه في ذلك اليوم). هذا الصبي لما رأى أن الجميع تركوا

الصلاة والتسبيح، وانشغلوا بكل شيء آخر عدا الله؛ قرر أن يسبح الله بمفرده، حتى ولو كان هو الوحيد الذي سيفعل ذلك!

كان ذلك الفتى هو "داود بن يسى"، وفي ذلك اليوم ألف "داود" بوحي من الروح القدس المزامير المائة والثماني والأربعين، والمائة والتسعة والأربعين، والمائة والخمسين[1]. وفيها يدعو داود السموات والأرض، وكل ما فيها من طبيعة، وكائنات لتسبح الله. محولًا كل شيء حوله، إلى مادة للصلاة والتسبيح. موضحًا (في تلك المزامير) أن التسبيح، هو سر نصرة شعبه، داعيًا الجميع لتسبيح الرب بفرح، بكل آلة موسيقية ممكنة! لقد ساق الروح القدس داود النبي (حتى قبل أن يمسحه صموئيل للمُلك) ليكتب تلك المزامير الرائعة التي ما زلت إلى الآن تسبحها الكنيسة في كل تسبحة يومية، وفي كل قداس إلهي[2].

لقد أرشد الله صموئيل النبي ليمسح ذلك الفتى الذي لم ينشغل أبدًا عن تسبيح إلهه وعبادته، ليكون بحقٍ الملك الوحيد الذي كان قلبه كاملًا مع الرب. لقد أتى صموئيل واختار داود بن يسى (كما يقول اليهود) لأنه كان رجل صلاة وتسبيح، أكثر من كونه رجل حرب وجبار بأس!

الصلاة حياة

إن الصلاة عمل "سري" (mystical) وليس سحري، لا ندرك كيفية عملها ولكن يمكن أن نلمس اثارها وثمارها، بها ندعو الأشياء غير الموجودة وكأنها موجودة، فهي تجمع الماضي والحاضر والمستقبل معًا: "لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة" (١تي٤:٨). ويقول

---

[1] تكون هذه المزامير الثلاثة (الهوس الرابع)، الذي يصلى يوميًا في تسبحة نصف الليل، وفي تسبحة عشية.

[2] المزمور ١٥٠، هو مزمور التوزيع (يرتل أثناء التناول).

عنها القديس "يوحنا كاسيان" (القرن الرابع): "الصلاة تعم من حولنا، وتشمل الآتين بعدنا." إنها لغة تواصل بين المؤمنين على مستوى سري، بها ندخل لمحضر الملك ولحجال (مسكن) العريس!"

لقد استطاع داود النبي أن يجعل من كل شيء حوله موضوعًا للصلاة، بل استطاع أن يحول كل شيء لتسبحة عذبة شجية، يناجي بها إلهه على الدوام. فكان يُشرك الخليقة كلها معه في تسبيح الله: "سبحي الرب من الأرض... النار والبرد، الثلج والضباب، الريح العاصفة الصانعة كلمته، الجبال وكل الآكام... والوحوش وكل البهائم، ملوك الأرض وكل الشعوب... ليسبحوا اسم الرب" (مز١٤٨).

والكنيسة في تسبحتها تدعونا لنسبح نحن أيضًا مع داود النبي، الذي كان يسبح الله مع كل الخليقة، فنقول: "فالنشكر المسيح إلهنا، مع المرتل داود النبي[٣]." ونحن نرى داود النبي في سفر المزامير يُعبر عن كل ما يغمر قلبه من مشاعر مختلفة؛ فرح وحزن ودهشة..إلخ، بل أفكاره وتساؤلاته التي تدور في خاطره، استطاع أن يصيغها في مزامير جميلة.

لقد استطاع داود ذلك لأنه كان يشرك الله معه في كل ما يمر به: "باركي يا نفسي الرب، وكل ما في باطني (داخلي)، ليبارك اسمه القدوس" (مز١٠٣:١). كان يضع كل شيء أمامه، لأنه كان يرى أنه مِلكٌ لله، وأن الله معه، وأمامه في كل حين، فاستطاع أن يحول ألمه إلى تقدمة، ورفع يديه إلى ذبيحة! وكذلك نحن أيضًا مدعووين في العهد الجديد أن نقدم لله مع ذبيحة الإفخارستيا كل ما نمر به في حياتنا "كل شيء"، وهذا هو عنصر التسليم في الصلاة.

وقد رتبت لنا الكنيسة استخدام المزامير بكثرة في العبادة

---

[٣] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، لحن "مارين أونه ⲙⲁⲣⲉⲛ ⲟⲩⲱⲛϩ"، لُبش الهوس الثاني، ص ١١٢.

عمومًا، وفي الإفخارستيا خصوصًا[٤]، لكي ترسم أمامنا صورة حية عن حياة المسيح، الذي تجسد وصار إنسانًا مثلنا تمامًا فيما عدا الخطية لأجلنا، واختبر كل مشاعر الإنسان ما عدا تلك التي لها علاقة بالخطية، وكان يقدمها للآب: "يا أبتاه إن شئت تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك" (لو٢٢:٤٢). إن ذلك يعلمنا أنه حينما نكون في ضيقة نُزَمر لله أي نسبحه ونصلي أكثر كداود النبي كاتب المزامير وغيره من أبرار العهد القديم، ورسل العهد الجديد: "أنا أزمر للرب إله إسرائيل" (قض٥:٣). ففي وقت الضيقة هناك نوعان من الناس؛ أحدهما ينتهزها فرصة ليُزمر إذا جاز التعبير، والآخر ليتذمر! النوع الأول يصلي لأجل كل شيء، ويشرك الله معه؛ فيما يمر به من مشاعر وأفكار وأعمال، بل حتى التجارب التي يمر بها والصعوبات يحولها إلى صلاة. أما النوع الثاني فهو لا يرى ما عنده، إنه يرى فقط ما ينقصه، وما أخفق الآخرون فيه، مهملًا دوره هو، ومتذمرًا من كل شيء، وموقفه من الله في النهاية، للأسف موقف الخصم وليس الصديق!

والصلاة تشمل كل شيء؛ فكل كلمة نقولها، وكل حركة نفعلها في الصلاة، تعتبر "ذبيحة حب" تمجد الله، لذلك يرفع الكاهن

---

[٤] لقد رتبت الكنيسة القبطية بإرشاد الروح القدس، استخدام سفر المزامير بأكمله في عبادتها عمومًا، وفي الإفخارستيا خصوصًا وبغزارة حيث تصلي الكنيسة عشرات المزامير في صلوات السواعي في نهاية رفع بخور باكر، وقبل تقديم الحمل، كما تقرأ آية أو آيتان أو ثلاث على الأكثر، من أحد المزامير قبل قراءة الأناجيل: في رفع بخور عشية، ورفع بخور باكر، والقداس الإلهي. ليصلى جملة المزامير المستخدمة (التي يستعار بعض آياتها) في ليتورجيا القداس وحدها، والموزعة على مدار العام ١٤٩ مزمورًا، أما المزمور ١٥٠ فهو المزمور الوحيد الذي لا تستعير منه الكنيسة شيئًا؛ لأنه يُسَبح كاملًا في توزيع كل قداس على مدار السنة. بينما المزمور ١٥١ يصلى كاملًا في بداية صلوات سبت النور. كما تستخدم الكنيسة آيات كثيرة من سفر المزامير في صلوات إسبوع الآلام. هذا وبالإضافة إلى أن السفر بأكامله يصلى في نهاية يوم الجمعة العظيمة. كما وأن سفر المزامير يستخدم بكثرة أيضًا في بقية الأسرار كالمعمودية والزيجة وغيرها، وأيضًا في صلوات الخدمات المختلفة كصلوات اللقان، والجنازات، وتدشين المذابح..إلخ.

يديه في الصلاة مع الشعب، كوصية معلمنا بولس الرسول: "فأريد أن يُصلي الرجال في كل مكان، رافعين أيادي طاهرة" (١تي٢:٨). ولقد أكد آباء الكنيسة على ذلك منذ البدء، فالقديس كليمندس الروماني (القرن الثاني) يقول: "فلنقترب إليه بروح قدسية، ولنرفع نحوه أيادٍ طاهرة ناصعة، ولنمتلىء حبًا لذلك الآب الرحوم، والعطوف، الذي جعلنا نصيب ميراثه[٥]."

لذلك تصلي الكنيسة في القداس الإلهي قائلة: "فلنشكر الله؛ الذي جعلنا أهلًا أن نقف في هذا الموضع المقدس، ونرفع أيدينا إلى فوق، ونخدم اسمه القدوس[٦]"، ويشبه القديس جيروم (القرن الخامس) الإنسان وهو يصلي بالقيثارة، قائلًا: "عندما نرفع أيادينا الطاهرة في الصلاة، دون نزاع أو جدال، نلعب على أداة ذات عشرة أوتار للرب. نلعب كما قال المرتل بآلة ذات عشرة أوتار، وقيثارة. أجسادنا ونفوسنا هي قيثارتنا، تعمل في تناغم معًا، بكل أوتارها في اللحن."

والصلاة قد تبدأ كجزء من حياتنا، لكننا مدعوون لأن تصبح هي حياتنا، لذلك يدعو القديس باسيليوس الكبير، المؤمنين لأن تشهد حياتهم لإيمانهم وصلاتهم، فتصبح حياتهم وأعمالهم صلاة. إن "**الصلاة والعمل" يعملان معًا** (synergy)، بل ويمكن أن يدعمان بعضهما البعض، أكثر من ممارسة أي منهما بمفرده. ومن هنا نفهم علاقة العمل بالصلاة، كما قال أحد القديسين: "**العمل هو صلاة**" (laborari est orari). ويشرح القديس باسيليوس الكبير كيف أن كل ما نفعله لأجل الله هو صلاة، فيقول: "الصلاة هي سؤال (طلب) ما هو صالح، ويقدمها الأتقياء لله. ولكننا لا نحصر هذه "الصلاة" فقط في حدود ما نذكره بالكلمات، فلا ينبغي أن نعبر عن صلاتنا

---

[٥] رسالة القديس كليمندس الروماني إلى كنيسة كورنثوس، مرجع سابق، ١:٢٩.
[٦] صلاة الشكر، تقال كمقدمة لكل صلوات الكنيسة بدون استثناء.

بواسطة مقاطع الكلام فقط، بل ينبغي أن يعبر عنها بالموقف الأخلاقي والروحي لذاتنا، وبالأعمال الفاضلة، التي تمتد خلال حياتنا كلها... هذه هي الطريقة التي تصلي بها بلا انقطاع... ليست فقط الصلاة بالكلام، بل بأن توحد (تتحد) نفسك بالله، خلال كل مسيرتك في الحياة، حتى تصير حياتك صلاة واحدة متواصلة وبلا توقف[٧]."

نحن مدعوون لنكون مثل داود القائل "أما أنا فصلاة" (مز١٠٩:٤)، ومثل القديس والشهيد "بوليكاربوس" الذي قيل عنه إنه: "لم يكن له من عملٍ؛ سوى الصلاة، ليلًا ونهارًا؛ من أجل جميع الناس، ومن أجل الكنائس في العالم كله[٨]."

ونحن نستطيع أن نجعل من الصلاة "أسلوب حياة" (life style)، وذلك من خلال تحويل ما نمر به مهما كان، إلى "تقدمة." يمكننا فعل ذلك فقط من خلال الشكر والصبر، وإعادة كل شيء لله وتقديمه له. إن هذه المشاركة هي في حد ذاتها صلاة، بحسب قول القديس باسيليوس الكبير، القائل: "الصلاة هي الالتصاق بالله، في جميع لحظات الحياة ومواقفها، فتصبح الحياة صلاة واحدة بلا انقطاع، ولا اضطراب." وهذا هو ما أشار إليه البعض بأن الحياة بعد القداس الإلهي يجب أن تكون امتدادًا للقداس الإلهي نفسه "ليتورجيا ما بعد الليتورجيا" إذا جاز التعبير، فحياتنا بعد انتهاء الليتورجيا ينبغي أن تكون صدى للإفخارستيا التي اشتركنا فيها. حينئذ تصبح حياتنا ترنيمة في أفواهنا وقلوبنا، وتتحول حياة كل واحد منا، إلى مزمور خاص به. يبارك من خلاله الله ويسبحه، كما يقول العلامة "ترتليان"، ويصير الإنسان كله من رأسه لقدميه "هلليلويا" كما يقول القديس أغسطينوس.

---

[7] Basil the Great, *Homily on the Martyr "Julitta"*, 3-4, P.G. 31: 244A,244D.

[٨] رسالة كنيسة "فيلوميليوم" إلى كنيسة "سميرنا"، مرجع سابق، الفقرة الخامسة.

الصلاة بكل الكيان

إن الله يريدنا أن نعبده بكل كياننا؛ أي بأذهاننا، وأنفسنا، وأرواحنا، وأجسادنا. هذه هي العبادة الحقيقية الكاملة التي تتسم بالحياة، نقدم بذلك ذبيحة مرضية لله: "فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية، مقدسة مرضية عند الله، عبادتكم العقلية" (رو١٢:١). لذلك ترفع الكنيسة تسبيحها لله قائلة: "فمن ثم نقدم الذبيحة والعبادة العقلية[٩]، ونرسل لك في هذا اليوم، التسابيح لدى مجدك يا مخلصنا[١٠]." فالإنسان يشكر الله بكل ما أعطاه له الله من إمكانيات وحواس: "تجمعي فيّ يا كل حواسي، لأسبح وأمجد ربي يسوع[١١]"، رافعين كل شيء لله في الإفخارستيا بما في ذلك ذواتنا. وأول كل شيء "الذهن أو القلب[١٢]"، فرفع القلب أو العقل لله، حتى ولو للحظات قليلة في القداس الإلهي هو صلاة، وذلك بحسب قول أحد الآباء النساك: "الصلاة هي ارتفاع العقل لله." لذلك ينبغي أن ينسجم ما نصليه بشفاهنا مع ما يدور في ذهننا (Mens nostra concordet voci nostrae).

لكن ذلك يستلزم من الشخص تطهير وتوبة داخلية من الشهوات ومن التشبث بالملاذ الأرضية. وقبل كل شيء يلزم مؤازرة من الروح القدس الذي يستطيع أن يرفع عقل الإنسان إلى خالقه كما يقول القديس غريغوريوس النّيصي: "كيف يمكننا أن نطير إلى السماء بدون الأجنحة الإلهية... في الواقع لا يتأهل أحد لكي يصعد بفكره

---

٩ كلمة "عقلية" باليونانية (Λογικήν - Logikin)، هي كلمة مشتقة من (Λογικός - Logikos) أي "عقلي" أو"منطقي"، ومنها بالإنجليزية جاءت كلمة "Logic"، و"العبادة العقلية" هي (Λογικήν λατρείαν - Logikin Latrian).

١٠ الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، لحن "تنين ⲧⲉⲛⲉⲛ" أو الفتية الثلاثة، ص ١٣٤.

١١ المرجع نفسه، إبصالية يوم الإثنين، الربع الثامن، ص ٢٧٤.

١٢ كثيرًا ما تستخدم كلمتا "العقل" و"القلب" بشكل تبادلي (interchangeably) في اللاهوت الشرقي للتعبير عن نفس المعنى.

إلى السماء إلا إذا نال معونة الروح القدس، الذي يرمز له بالحمامة كقول داود النبي: "فقلت ليت لي جناحًا كالحمامة فأطير وأستريح" (مز٥٥:٦). إن الحمامة تطير بسهولة إلى فوق وتهرب من كل رائحة العفونة والفساد. هكذا حينما يتجنب الإنسان كل شهوات الجسد يرتفع إلى فوق بأجنحة حمامة التي هي معونة الروح القدس، فيسلك مجاهدًا ضد هذا العالم. ويكتشف أنه لا يوجد ما يستحق أن يهتم ويتعلق به، ويصير جميلاً؛ إذ يقترب من الجمال الحقيقي الذي هو الله، ويضيء مثل النور؛ إذ تصير له شركة مع النور الحقيقي[١٣]".

والكتاب المقدس يمدنا بأمثلة لرفع القلب إلى الله؛ فنجد "نحميا" ساقي الملك وقد اختبر قوة هذه الصلاة القصيرة حين رفع قلبه سريعًا لله، ثم تكلم مع الملك الفارسي "أرتحشستا" مقدمًا له مطالبه، وبعدها شهد أنه نال ما سأل وأكثر، حسب يد إلهه، الذي رفع إليه قلبه (نح٢: ٤-٨).

وعن التسبيح بكل الحواس يخبرنا القديس "مار يعقوب السروجي" (القرن الخامس) في أحد ميامره عن سيمفونية الصلاة والتسبيح التي يقودها كلها عضو اللسان كنائب عن سائر أعضاء الجسم وحواسه في تقديم الشكر والتسبيح لله؛ فيقول: "ليسبحك العقل لأجل عجائبك الخفية، التي هي أسمى من أن يعرفها العقل. ليسبحك القلب (يقصد به الإنسان الباطن أي الإنسان الداخلي) بالدقات السريعة، والأفكار النقية والقائمة مثل الملائكة للخدمة. ربي يعطيك التسبيح الضمير النقي أيضا، لأنه ينظر ويرى كم أنك مُسبَّح بأعمالك. ربي تسبحك كل الحواس: النفسية، والروحية، والجسدية، لأنك مُسبح. لتسبحك العين لأنك أعطيت لها كل جمال

---

[١٣] القمص تادرس يعقوب ملطي، *الكمال في الفضيلة للقديس غريغوريوس أسقف نيصص*، مارجرجس إسبورتنج، ٢٠٠٣، ص ٢٠،٢١.

المخلوقات لتسعد برؤيته. لتسبحك الأذن التي فيها ينسكب كل حلاوة الأصوات وتقبلها بلذة. ربي لتسبحك اليدان الاثنتان والأصابع العشرة، التي تتحرك للعمل بدل كل الجسد. لتسبحك الرجلان التي تحملان كل الجسد، وتزفانه كمركبة في كل المواضع. لتسبحك حاسة الشم التي ملكُها كل العطور والروائح وبها تسعد كثيرًا. ليشكرك الحلق الذي يميز الحلو من المر، ويعرف أن يفحص كل اختلافات الأطعمة. ليسبحك الفم تسبيحه، والتسبيح الذي ليس خاص به فقط؛ لأنه يشكر عن الجسم كله. الفم مُلزم بالتسبيح بدون جدال، نيابة عن الأعضاء الموضوعة في الجسم التي هي بلا نطق. اللسان أيضًا والأسنان التي منها يرن صوت التسبيح... ربي كل الجسم مُلزم بتسبيحك، وهوذا الفم مفتوح ليسبح عوضًا عن الجسم كله. ساعد الفم ليوفي كل هذه الأمور بدل كل الحواس الصامتة، التي تحرك الفم، حتى يشكر[١٤]".

الإفخارستيا ورؤية الأشياء على حقيقتها

إن الإفخارستيا تردنا إلى الهدف الأساسي لكل شيء، وهو إعلان مجد الله ومحبته. إن **الكنيسة لا ترفض العالم**، لأن لله قد خلق العالم، وهو (الله) بكونه كُلّي الصلاح لا يخلق شيئًا فاسدًا "لأن كل خليقة الله جيدة" (١تي٤:٤)، لكن الكنيسة ترفض الاستخدام الخاطىء للعالم، إنها ترفض الخطية والشر الدخيلين عليه.

لذلك فالكنيسة لا تقف ساكنة أو سلبية، **بل تتحرك بإيجابية** نحو هذا العالم، لتقوم بدورها نحوه؛ وهو تقديسه بالصلاة وأعمال المحبة. فالكنيسة **تُخِّصب العالم** الذي هو أشبه بكرمة كبيرة من خلال الإفخارستيا؛ فهي من جهة تجعل العالم أكثر قُربًا من

---

[١٤] القديس مار يعقوب السروجي، *الميمر ١٠٦ على مزمور "سبحوا الرب تسبيحًا جديدًا"*.

الله (more Divine) بمعنى أن يظهر الله فيه أكثر، ليأتي بثمر أوفر، ومن جهة أخرى تجعل الكنيسة الإنسان **أكثر إنسانية** (more human). وبذلك تعمل الإفخارستيا كخميرة صغيرة، تخمر العالم كله بالصلاة، وتقدسه ليصبح قربانًا يقدم لله.

ومن منطلق هذه العلاقة السليمة مع العالم، **لا ترى الكنيسة في المادة شرًا**، بل تراها "طاهرة" كما خلقها الله، وهذا يتضح بقوة في التجسد؛ إذ إن المسيح ابن الله وكلمته، قد اتخذ "جسدًا ماديًّا"، حقيقيًّا، كاملًا، وليس خياليًّا كما ادعى بعض الهراطقة لتحقيرهم من شأن المادة. واستخدم الله أيضًا خشبة الصليب في الفداء، مُقدِّسًا إياها بموته عليها. ومن هذا المنطلق تستخدم الكنيسة مادتي الخبز والخمر في الإفخارستيا حيث يتحولان سريًّا لجسد ودم حقيقي ليسوع المسيح.

فالكنيسة لا تعبد المادة لكن **تستخدمها وتقدسها**، مبينًا أن الله نفسه أخذ في تجسده جسدًا ماديًّا؛ فالمادة خُلقت لكي يُستفاد منها، وتستخدم كوسيلة لتمجيد الله. وتأكيدًا لذلك صار استخدام المادة في عبادتنا أمرًا أساسيًّا مثل: الماء، والزيت، والبخور، والشموع وغيرها؛ لنتذكر دومًا أنها وسيلة يمكن أن تتقدس بالصلاة، ويصبح لها أهمية روحية[١٥]، ولكنها رغم كل ذلك ليست هدفًا في حد ذاتها.

وفي الإفخارستيا نستطيع أن نرى المادة في حالة "**تجلٍّ**" إذا جاز التعبير، بمعنى أنها تعكس مجد الله؛ فالحجارة الصماء تصبح مذبحًا سماويًا، والخشب والألوان يعكسان مجد الله في القديسين من خلال الأيقونات. والأطياب المستخلصة من النباتات العطرية، صارت بخورًا عطرًا تصعد معه صلواتنا وصلوات القديسين والسمائيين

[١٥] وهذا هو ما يسميه بعض اللاهوتيين المعاصرين "روحانية المادة"، أو"لاهوت المادة" أي الوظيفة الروحية التي قد تقوم بها المادة كما في الأسرار وغيرها من الاستخدامات الكنسية، أو أهمية المادة (الخليقة) كشاهد على وجود خالق لها.

المشتركين معنا في صلوات الإفخارستيا..إلخ.

ونحن حينما نصلي في الإفخارستيا لأجل كل شيء في حياتنا، ولأجل كل ما هو حولنا، وندخل كل شيء في الصلاة، فنحن بذلك إنما نقوم بعملية تنقية لعالمنا، أو بالأحرى لذواتنا، من الشوائب التي تتراكم مثل الأنانية، وحب التملك والاقتناء، والتنافس والاستهلاك. تلك الأشياء التي من شأنها أن تكون طبقة عازلة تفقدنا الإحساس بالله، وطبقة معتمة قد تحجب عنا رؤية الله في العالم الذي خلقه، ثم بعد عملية التنقية هذه نستطيع أن نرى وندرك الأشياء على حقيقتها فعلًا، كقول أحد القديسين عن الصلاة الإفخارستية، إنها "**رؤية العالم بعيني الله**"!

ومن الجيد أن نعرف أن أحد أوجه الصلاة هو أن تحمل البشر كلهم، بما فيهم من أحياء وأموات، والعالم كله في قلبك، وترفع هذا القلب لله، وهذا هو جوهر صلاة الإفخارستيا التي هي بحق "**سر الصلاة**" بل وقمة الصلاة لأنها **صلاة الاتحاد**؛ أي الاتحاد بالله. والصلاة تبدأ مثل بذرة الخردل الصغيرة، إذا رويت تنمو داخل القلب، لتصبح شجرة كبيرة وارفة، تحمل فيها كل الأشياء وتظللها. إنها "عمل إفخارستي" من خلاله نقدم ونصعد العالم لله، محمولًا على صلواتنا، كتقدمة حب وشكر من البشرية لخالقها.

الصلاة الإفخارستية كخدمة

الإفخارستيا هي عمل يختص بالله؛ أي نقوم به ونوجهه للرب: "عمل الرب" (Ἔργον Κυρίου)[١٦] (إر٤٨:١٠؛ ١كو١٥:٥٨

[١٦] إن عمل الرب (Opus Dei) الذي نشترك فيه مع الله قد يكون عملًا روحيًا صرفًا كالصلاة والصوم..إلخ، أو عملاً اجتماعيًا، خدمي كالخدمة والرعاية..إلخ، وأيضًا يشمل عمل الرب الأعمال العامة كتلك التي نقوم بها في الوظائف، أو حتى في المنزل؛ إذ إنها تصبح "عمل الرب" إذا صنعناها ووجهناها للرب كما أوصى معلمنا بولس الرسول "عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كما للرب، ليس للناس" (أف٦:٦،٧).

؛ ١كو١٦:١٠)، لذلك كثيرًا ما تلقب الكنيسة صلواتها عمومًا وتقرنها بكلمة "خدمة" وبالأخص الإفخارستيا. فالمؤمنين المشتركين في صلاة القداس الإلهي تنعتهم الكنيسة "بالخدام" فتقول: "عبيدك يا رب خدام هذا اليوم؛ القمامصة، والقسوس، والشمامسة، والإكليروس، وكل الشعب[١٧]".

حيث خدمة الإكليروس والشعب أثناء الإفخارستيا هي تمجيد الله وشكره، الصلاة لأجل كل شيء، فنجد الكنيسة تصلي لأجل كل البشر في قولها "كل الشعوب وكل القطعان باركهم[١٨]"، وتصلي لأجل الدولة والعاملين بها "الملك (الرئيس)، والجند، والرؤساء، والوزراء[١٩]"، ولأجل من ليس لهم أحد ليذكرهم "من أجل فقراء شعبك، من أجل الأرملة، واليتيم، والغريب، والضيف[٢٠]"، وغيرها من الأمور التي تصلي لأجلها الكنيسة.

لذلك فإن الإفخارستيا هي خدمة "شفاعية" بامتياز، مما يجعلنا ندرك حقيقة ذبيحة الإفخارستيا، أنها ليست فقط مقدمة لأجل خطايانا، بل **من أجل حياة العالم** (ὑπὲρ τῆς τοῦ κόσμου ζωῆς)، فالكنيسة في شخص المسيح تشفع في العالم أجمع: "لأنه فيما هو راسم أن يسلم نفسه للموت عن حياة العالم[٢١]." فصلواتنا للآخرين وللعالم ليست شيء من الكماليات أو رفاهية روحية، بل هي خدمة محبة وعطاء تقوم بها الكنيسة منذ البدء، وهذا ما نجده في القوانين التي تسلمناها من الرسل، والتي تقول: "وبعد تفسير الإنجيل فليُصَلِّ لأجل المرضى،

---

[١٧] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة تحليل الخدام، ص ١٦٤.
[١٨] المرجع نفسه، أوشية السلام الكبيرة، ص ١٩٦.
[١٩] المرجع نفسه، أوشية الملك، وأوشية السلام الكبيرة، ص ١٩٦.
[٢٠] المرجع نفسه، أوشية المياه والزروع والثمار، ص ٢٤١.
[٢١] المرجع نفسه، القداس الباسيلي، ص ٢٢٦.

والغرباء والمتضايقين، ويصلى لأجل الأهوية والثمار، والملوك، والذين رقدوا، وعن الذين يأتون بالقرابين إلى الكنيسة، والذين يصنعونها، والموعوظين، وسلامة الكنيسة الجامعة، والأسقف والإكليروس، واجتماع الشعب[٢٢]." لذلك إن صلواتنا هي خدمة شفاعية، فيها تتحد الكنيسة (المؤمنون) بالمسيح فتصلي الكنيسة بلسانٍ واحدٍ قائلة إلى المسيح: "شعبك وكنيستك، يطلبون إليك، وبك، معك، إلى الآب قائلين، ارحمنا[٢٣،٢٤]." فالكنيسة تشفع في العالم أجمع وكل الخليقة: "إنك تشفق على كل شيء" (الحكمة١١:٢٦)، طالبة لأجله الرحمة والسلام، فنحن نصلي ليس فقط لأجل البشر بل لأجل الطبيعة والحيوانات أيضًا: "الناس والبهائم تخلص يا رب" (مز٣٦:٦) لذلك يصلي الشماس قائلًا: "اطلبوا عن صعود مياه الأنهار في هذه السنة، لكي يباركها المسيح إلهنا... ويفرح وجه الأرض، ويعولنا نحن البشر، ويعطي النجاة للبهائم، ويغفر لنا خطايانا[٢٥]."

والحقيقة أن هذا الدور الشفاعي هو خدمة الكنيسة الكهنوتية في العالم، **فالكنيسة تقدم الشكر لله بلسان العالم**، وتطلب من الله عن العالم وكل هذا في المسيح المتحد بها، وبذلك تعمل الكنيسة كقناة توصل رحمة الله للعالم: "لأن عند الرب الرحمة، وعنده فِدًى كثيرٌ" (مز١٣٠:٧). والمؤمنون في الكنيسة هم رسل، يوصلون ويبشرون برحمة الله للبشر وللعالم أجمع: "وبما أنك تسود الجميع، فإنك تشفق على جميع الناس" (الحكمة١٢:١٦)، تمامًا مثل القديس بوليكاربوس

---

[٢٢] *الدسقولية تعاليم الرسل*، د. وليم سليم قلادة، دار الجيل للطباعة، ١٩٧٩، الفصل: ٣٨.

[٢٣] إن رفع الكاهن ليديه في الصلاة، يعبر أيضًا في أحد معانيه عن الشفاعة. وأول إشارة لرفع الأيدي في الصلاة كتعبير عن الشفاعة؛ كان مع موسى النبي، أثناء حرب شعب الله مع شعب عماليق حين رفع كلتا يديه على مثال الصليب طوال اليوم حتى انتصر الشعب في النهاية (خر١٧:٨-١٣).

[٢٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٥٢.

[٢٥] المرجع نفسه، أوشية مياه النهر (تقال في الفترة من ١٢ بؤنة إلى ٩ بابه)، ص ٣٢٨.

الذي هو نموذج للأسقف وللكنيسة حيث صلى عند استشهاده لأجل الجميع، ولأجل كل الكنيسة: "وأخيرًا أنهى صلاته التي ذكر فيها جميع من التقاهم، كبارًا وصغارًا، عظماء ومغمورين، والكنيسة الجامعة المنتشرة في المسكونة كلها[٢٦]". لذلك لا عجب في أن تكون عبارة "كيرياليسون"، (Ⲕⲩⲣⲓⲉ̀ⲗⲉ̀ⲏⲥⲟⲛ) أو "يا رب ارحم"، من أكثر صلوات الكنيسة تكرارًا فتصليها الكنيسة بلجاجة، لأن هذه الصلاة هي لسان حال الكنيسة كلها: "رحمة الإنسان لقريبه، أما رحمة الرب فلكل ذي جسد" (يشوع بن سيراخ ١٢:١٨)[٢٧]، بل وعملها الدائم في هذا العالم، فدستور الكنيسة هو: "طوبى للرحماء لأنهم يرحمون" (مت٥:٧).

كما أن الصلاة لأجل الآخرين في القداس الإلهي تذكرنا بأن هناك "آخر"، سواء كان هذا الآخر؛ شخصًا في احتياج مثلنا، أو طبيعة مادية أخرى. والصلاة الحقيقية سلاح، وقوة لا تغلب، تقدر على كل شيء، كما يوضح العلاَّمة "ترتليان" (القرن الثاني) في قوله: "الصلاة تنتصر على قلب الله. جعلها المسيح قوة لكل عمل صالح؛ فالصلاة تطلب استرجاع نفوس الموتى (روحيًّا) من طريق الموت نفسه. هي قوة للضعفاء، وشفاء للمرضى، قادرة أن تسند كبار النفوس، وتُلَيِّن قلوب اللصوص، وتعيل الفقراء، وتُلهم الأغنياء، وتقيم من تعثر في مسيرته، وتمسك من أوشك على السقوط، وتثبت الواقفين... ماذا نقول أكثر عن الصلاة؟ فإن الرب نفسه صلى"!

---

[٢٦] رسالة كنيسة "فيلوميليوم" إلى كنيسة "سميرنا"، مرجع سابق، الفقرة الثامنة.

[٢٧] من الجدير بالملاحظة في الأناجيل أن السيد المسيح طُلِبَ منه الرحمة سبع مرات، في مواضع مختلفة مع أشخاص مختلفين؛ كالأعميين اللذين طلبا من السيد المسيح قائلين: "ارحمنا يا ابن داود"، وغيرها من المواقف: (مت٩:٢٧؛ مت١٥:٢٢؛ مت١٧:١٥؛ مت٢٠:٣٠؛ مر١٠:٤٧؛ لو١٧:١٣؛ لو١٨:٣٨) وفي السبع مرات (رقم سبعة في الكتاب المقدس يشير دائمًا إلى الكمال، ويشير هنا إلى كمال الرحمة) بدون استثناء رحمهم الرب! فلا أحد يطلب الرحمة من الله ولا يُرحم: "لكنك ترحم جميع الناس" (الحكمة١١:٢٢).

والروح القدس هو الذي يعين الإنسان في الصلاة ويرشده، كيف ولمن يصلي؟ فتكون الصلاة لنا نورًا نعاين به ما لا يرى، ونافذة نطل من خلالها على الأبدية. إن الصلاة تطرد الشياطين كما تطرد النار الآفات الضارة، وكما يطرد النور الظلمة. الصلاة تجذب الآخرين إليها، كما تجذب النار الناس ليستدفئوا ويستنيروا بقبسها. وفي نفس الوقت تحرق الأهواء والشهوات، وتنقي الذات من كل زوان. لذلك يطلب الكاهن أثناء تقديم الإفخارستيا ويستدعي هذه النار الإلهية المطهرة بقوله في الصلاة: "أعطني يا رب روحك القدوس، النار غير الهيولية (غير المادية) التي لا يفكر فيها، التي تأكل الضعفات، وتحرق الموجودات الرديئة[٢٨]." كما إننا نطلب ذلك الروح الناري كل يوم وقبل كل قداس إلهي في صلاة رفع بخور باكر، حين نصلي: "أيها الملك السماوي، المعزي، روح الحق، الحاضر في كل مكان، والمالئ الكل، كنز الصالحات، ومعطي الحياة، هلم تفضل وحل فينا، وطهرنا من كل دنس، أيها الصالح وخلص نفوسنا[٢٩]".

ونحن بذكرنا لتلك الأمور نقدم عطية وتقدمة من وقتنا، بل من أقدس وأهم وقت لدينا، ذاك الذي نمضيه مع الله أثناء القداس الإلهي. فالكنيسة تعلمنا أن نعطي جزءًا من هذا الوقت الثمين للآخرين. وبذلك لا تكون صلواتنا دومًا متمركزة حول أنفسنا (ego-centric) بشكل حصري، لأن الصلوات التي دومًا تخلو من الآخر هي صلوات أنانية، لأن الفرد ينسى فيها أنه جزء من الكل، وأنه عضو في جسد المسيح وأنه جزء من عالم أكبر يشمل الجميع. كما تبرز صلاتنا للآخرين حقيقة هامة؛ وهي أننا في سر الإفخارستيا لا نتحد بالمسيح على مستوى فردي فقط؛ بل نتحد كلنا ببعض

[٢٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، صلاة الحجاب للقديس يوحنا المثلث الطوبى، ص ٣٩٦.

[٢٩] صلاة الأجبية "الساعات"، قطع الساعة الثالثة.

كأعضاء لجسد واحد، ويتحد هذا الجسد الواحد بالمسيح الرأس.

لذلك تصلي الكنيسة لأجل الأعضاء الضعيفة في هذا الجسد الواحد، فتصلي لأجل رد واستعادة الخراف الضالة، التي هجرت الإيمان، وتركت الحظيرة التي هي الكنيسة فتصلي قائلة: "غير المؤمنين ردهم[٣٠]" أي ردهم إليك وإلى الجسد الواحد الذي هو الكنيسة. ولقد كان القديس كبريانوس[٣١] يبكي من خرجوا من الكنيسة ويطلب استعادتهم، فكل واحد من هؤلاء هو في نظر الكنيسة "الأخ الضعيف الذي مات المسيح من أجله" (١كو٨:١١)، لذلك نرى في إحدى مقالاته عمق تأثره كراعٍ على فقدان بعض رعيته، فيقول: "ماذا سأفعل في هذا الأمر أيها الإخوة؟ كيف أتكلم؟ وماذا أقول؟ إني أحتاج للدموع عوضًا عن الكلمات، حتى أعبر عن هذا الحزن، الذي أصاب الجسد بسبب هذا الجرح! إذ لا بد أن ننوح على الكثيرين الذين ارتدوا، فمن ذا الذي هو هكذا قاسي القلب، وعديم المشاعر، حتى لا يتذكر المحبة الأخوية، ويقف مشاهدًا لهلاك أصدقائه وعيناه جافتان! أيها الإخوة أنا حزين معكم، ولا أعتقد إن كان لي أي كمالٍ أو قداسة؛ أنها ستفلح في أن تخفف من آلامي[٣٢]"! ولقد أتي المسيح ليطلب الخراف الضالة كما في مثل "الخروف الضال" (لو١٥: ٤-٧)، ويخلص ما قد هلك "لأن ابن الإنسان جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك" (لو١٩:١٠؛ مت١٨:١١). لذلك تصلي

---

[٣٠] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، طلبات القداس الغريغوري، ص ٣٤٦.

[٣١] القديس والشهيد "كبريانوس" (٢٠٠-٢٥٨م) ولد في شمال إفريقيا من عائلة وثنية ثرية. تلقى تعليمًا رفيعًا حتى صار خطيبًا ذائع الصيت. تحول إلى المسيحية حوالى عام٢٤٦م تبتل، ورسم كاهنًا ثم أسقفًا على قرطاج (تونس حاليًا)، وشمال أفريقيا لمدة عشر سنوات حتى استشهاده. احتمل هذا القديس بجانب ذلك ضيقات من داخل الكنيسة ومن الهراطقة ومن المرتدين. ونفي من كرسيه، واستشهد في عام ٢٥٨م له كتابات دفاعية عديدة ومقالات كثيرة. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ٢٣٦-٢٤٠.

[٣٢] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، الجاحدين:٤.

الكنيسة لأجل كل من ضعف وابتعد عن الله "كنور حقيقي أشرقت للضالين وغير العارفين[٣٣]." بل وتصلي الكنيسة أيضًا لأجل الانقسام والتحزب الذي قد يوجد داخل الكنيسة ويهدد وحدة الجسد الواحد، فتقول: "ولتنقضي افتراقات الكنيسة[٣٤]."

الصلاة كعمل كرازي

القداس الإلهي في اللغة الإنجليزية يسمى (Mass) وهي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية (missa)[٣٥]، والتي تعني "صرف" أو "إرسال." والمعنى هنا هو أن المؤمنين يأتون إلى الكنيسة ليتحدوا بالمسيح، ثم تصرفهم الكنيسة وترسلهم في العالم كمرسلين (missionaries)، وسفراء عن المسيح، بعد اتحادهم به في التناول.

والكنيسة من أول يوم لها في يوم الخمسين كان لها "عمل رسولي" (إرسالي)، أي إنها مرسلة في العالم كما يتضح من كلام المسيح قبل صعوده مباشرة حين أرسل الرسل قائلًا: "اذهبوا للعالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها" (مر١٦:١٥). وهذا العمل الإرسالي للكنيسة لا يقتصر على الكرازة (κήρυγμα - keyrgma) كما يظن البعض، بل يشمل أيضًا الرعاية والصلاة. فلكي تكون كرازتنا ناجحة يجب أن يتبعها رعاية من كل نوع حسب الاحتياج؛ كالتعليم والافتقاد، وتلبية الاحتياجات المادية والجسدية، إذا لزم الأمر. وكل تلك الأمور هي أيضًا صلاة بحسب قول القديس مار أفراهات السرياني: "أرح المتعبين، افتقد المرضى، أعن الفقراء، لأن هذه كلها أيضًا صلاة." كما يجب أيضًا أن تدعم الكرازة والرعاية بصلاة الكنيسة، فتتأيد الخدمة بالصلاة، لأنهما يعملان سويًّا مع

---

[٣٣] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص٣٣٣.

[٣٤] المرجع نفسه.

[٣٥] جاءت منها كلمة إرسالية (mission)، وكلمة (dismiss) أي "انصراف".

بعض (synergy). لذلك تدعم الكنيسة جميع خدماتها بالإفخارستيا لأنها قمة (summit) عمل الكنيسة. وهي **السر الحقيقي وراء نمو المؤمنين**، ونمو خدمتهم، فبدونها تكون الخدمة كشجرة تين مورقة من الخارج ولكنها من الداخل عقيمة بدون ثمر!

ولصلوات الكنيسة عمومًا والإفخارستيا خصوصًا بعد كرازي، فكنيستنا كنيسة "**رسولية**" أي مبنية على أساس الرسل، وبما أنها رسولية فهي بالضرورة "**كارزة**[٣٦]"، أي إنها مرسلة في العالم لتكون وسيلة لتقارب وتصالح الشعوب، كجزء أصيل من البشارة السارة بالخلاص لذلك فإن الصلاة والسعي المشترك، بل والسعي نحو الآخر (out reach)، والعمل على احترام الإنسان والحفاظ على كرامته، وإعلاء القيم السامية، وهي كلها من صميم عمل الكنيسة الإفخارستي الذي تقوم فيه الكنيسة بدورها الشفاعي والكرازي نحو العالم.

ولقد كان المسيحيون في القرون الأولى كارزين بطبيعتهم لأنهم كانوا "**إفخارستيين**" أولاً؛ إذ كانوا يحرصون على التناول حتى ولو خاطروا لأجل ذلك بحياتهم، فانعكس ذلك على رؤيتهم للأشياء، وجعلهم غير متشبثين بالعالم، بل شاخصين إلى السماء كوطن يترجونه. ولقد شهد التقليد والتاريخ عن أهمية الرسالة التي يحملها المسيحيون للعالم عبر العصور، فيسجل لنا كاتب "الرسالة إلى ديوجنيتوس[٣٧]" أهمية الدور الذي يقوم به المسيحيون في العالم، فيقول: "إن المسيحيين بالنسبة للعالم كالروح في الجسد، الروح

---

[٣٦] تلقب الكنيسة القبطية مثلًا بأنها "الكرازة المرقسية" أي أنها تكمل عمل مار مرقص الرسول وكرازته.

[٣٧] هي رسالة يشرح كاتبها الإيمان المسيحي لشخصية وثنية مرموقة في المجتمع. وقد إختلف العلماء والباحثون حول هوية كاتبها، إلا أنها تعد إحدى أهم وأقدم الكتابات التي تسجل حياة مسيحيي القرون الأولى، ويرجع زمن كتابتها على الأرجح إلى نهاية القرن الأول الميلادي. انظر كتاب: د. نصحي عبد الشهيد، الرسالة إلى ديوجنيتوس، مرجع سابق.

تمتد إلى جميع أعضاء الجسد، والمسيحيون ينتشرون في جميع مدن العالم. وكما أن الروح تسكن في الجسد وهي ليست منه، فهكذا المسيحيين، فإنهم يسكنون في العالم ولكنهم ليسوا منه... ومع أن النفس لا تسيء للجسم فإن الجسم يكرهها، لأنها تعيقه عن الإنغماس في الملذات، والمسيحيون كذلك لا يسيئون إلى العالم ولكن العالم يكرههم، لأنهم يقاومون ملذاته، والنفس تحب الجسد الذي يكرهها، كما أن المسيحيين يحبون الذين يكرهونهم. وكما أن النفس تحبس في الجسد ولكنها تحفظه، فإن المسيحيين أيضًا يحبسون في العالم، ولكنهم هم الذين يحفظون العالم، وكما أن النفس خالدة تسكن في خيمة فانية (الجسد)، فإن المسيحيين يعيشون غرباء بين الأشياء الفانية، منتظرين الخلود في السماء[٣٨]".

لذلك فإن الكنيسة في الإفخارستيا تصلي دائمًا لأجل تفعيل الكرازة، فتصلي لأجل خلاص العالم والشعوب: "صلوا لأجل خلاص هذا العالم[٣٩]"، وتصلي لأجل الإنجيل: "صلوا من أجل الإنجيل المقدس[٤٠]" أي لأجل أن نستحق سماعه وفهمه، **فالصلاة هي إحدى مفاتيح فهم الكلمة**. كما نصلي لأجل إنتشار البشارة السارة بخلاص الإنسان وفدائه في العالم، التي هي جوهر رسالة الإنجيل.

كما تصلي الكنيسة أيضًا لأجل خدام الكلمة؛ حتى يَفْصِلوا ويُعلِّموا كلمة الله باستقامة فتقول: "والذين يَفْصِلونَ معه كلمة الحق باستقامة، أنعم بهم على بيعتك المقدسة، يرعون قطيعك بسلام[٤١]"، كما تصلي الكنيسة لأجل إثراء الدعوات الكهنوتية والرهبانية.

---

[٣٨] الرسالة إلى ديوجنيتوس، مرجع سابق، الفصل السادس.
[٣٩] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، مرد أوشية الرحمة، ص ٢٣٧.
[٤٠] المرجع نفسه، مرد أوشية الإنجيل، ص ٨٢.
[٤١] المرجع نفسه، أوشية الآباء، ص ٢٣٦.

والحقيقة أن الصلاة مع الصوم هما الوسيلتان اللتان نالا بهما الرسل قوة وجرأة (Παρρησία) للشهادة باسم الرب كارزين للعالم أجمع ويتضح ذلك في صلاة القسمة التي تصليها الكنيسة طوال فترة صوم الكبير "الصوم والصلاة هما اللذان عمل بهما الرسل، وبشروا في جميع الأمم، وصيروهم مسيحيين، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس[٤٢]." كما وتركز فصول القراءات التي تقرأ في آحاد صوم الرسل على عناية الله برسله.

كما تصلي الكنيسة في الإفخارستيا أيضًا لأجل "الموعوظين" الذين كُرِز لهم وقبلوا الإيمان، لكي يَثْبُتوا في الإيمان، ويَتَخَلصوا من أثر العبادات التي كانوا فيها سابقًا: "كل بقية عبادة الأوثان انزعها من قلوبهم[٤٣]"، ولكي ينعم الرب عليهم بالميلاد الجديد، ويستحقوا أن يتناولوا من شجرة الحياة الجديدة التي هي الإفخارستيا.

الصلاة لأجل الراقدين في الإفخارستيا وفائدتها

والكنيسة تهتم بأعضائها حتى بعد رحيلهم ورقادهم من خلال الصلاة، وكيف لا؟! فهي تصلي من أجلهم وتطلب صلواتهم: "أيها الرب القدير إله إسرائيل، اسمع صلاة موتى بني إسرائيل" (باروخ٣:٤) إيمانًا منها وتأكيدًا على حقيقة أنهم ما زالوا أعضاء معنا في أسرة واحدة كبيرة (جسد المسيح)، لذلك رتبت الكنيسة بإرشاد الروح القدس؛ وضع صلاة خاصة لأجلهم، تصلى في أغلب خدمات الكنيسة وهي "أوشية الراقدين." إن الكنيسة في سر الإفخارستيا تذكر كل الذين رقدوا على الإيمان منذ آدم وكل القديسين إلى الآن، فيما يسمى بصلاة "المجمع": "تفضل يا رب أن تذكر جميع القديسين الذين أرضوك منذ البدء..إلخ" إيمانًا منها بأننا كنيسة

---

[٤٢] المرجع نفسه، صلاة قسمة الصوم الكبير، ص ٥١٤.

[٤٣] المرجع نفسه، أوشية الموعوظين، ص ٧٩.

واحدة، وكلنا أعضاء في عائلة واحدة، بل جسد واحد.

ويتضح هذا أيضًا في تعليم الآباء أمثال القديس يوحنا ذهبي الفم، القائل: "فليس باطلًا أن يأمر الرسل بذلك، أي أن نذكر أثناء إقامة الأسرار الإلهية، هؤلاء الذين تركوا الحياة، **عالمين كيف أنهم ينالون ربحًا عظيمًا، وفائدة كبيرة من ذلك**، لأنه حينما يقف الشعب كله بأيادٍ مرفوعة مع الجمع الكهنوتي، وتقام الذبيحة المخوفة (الإفخارستيا)، فكيف لا نتوسل إلى الله متضرعين لأجل هؤلاء؟ وهذا التوسل يخص هؤلاء الذين رحلوا وهم في الإيمان... لأن الله يريد أن يساعد الواحد منا الآخر، وإلا فلماذا يطلب أن نصلي من أجل سلام واستقرار العالم؟ ولماذا يَطلب (بولس الرسول) أن نصلي من أجل كل البشر[٤٤]؟".

ونحن نصلي للراقدين لا لأنهم ماتوا، لأنه **لا يوجد أموات في المسيحية**، فالله إله أحياء، وكنيسته كنيسة أحياء، وليس هناك موضع لموت في السماء. بل إننا نصلي لأجلهم وهم يصلون لأجلنا، لأنهم أحياء في موضع أفضل كما يتضح في صلوات القداس الإلهي: "في موضع خضرة، على ماء الراحة[٤٥]... الموضع الذي هرب منه الحزن والكآبة والتنهد، في نور قديسيك[٤٦]".

وقد خصصت الكنيسة جزء من صلاة الإفخارستيا تذكر فيه الذين رقدوا من مؤمنيها[٤٧]، فيما يسمى "الترحيم"، فلا توجد إفخارستيا تخلو من ذكر للراقدين، تأكيدًا من الكنيسة على أن المنتقلين حاضرين، وأننا ما زلنا على شركة معهم، يصلون من أجلنا،

---

[٤٤] القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، مرجع سابق، العظة الرابعة.

[٤٥] التعبير هنا رمزي للدلالة على راحة واستقرار وتنعم لأنفس الراقدين في الفردوس.

[٤٦] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، صلاة الترحيم، ص ٢٤٩.

[٤٧] باستثناء قداس واحد؛ وهو قداس خميس العهد، لأن الاحتفال بصلب المسيح، ونزوله للجحيم لم يتم بعد.

ونصلي نحن بدورنا من أجلهم، مثلما نحن على شركة مع الملائكة والقديسين. وبذلك صارت الإفخارستيا هي الوسيلة الرئيسة لذكر الراقدين والاجتماع معهم، فتقام قداسات في ذكرى الذين رقدوا، ليس بغرض تذكرهم فقط، بل بالأكثر لتحقيق التواصل والشركة معهم من خلال الصلاة الإفخارستية. ويسجل لنا القديس أغسطينوس في مؤلفه (الاعترافات) أن أمه القديسة "مونيكا" قبل نياحتها مباشرة قد أوصته قائلة: "لا تشغل بالك بأين تدفني؟ أدفني في أي مكان. لكن الأهم هو أنه أينما كنت أرجو أن تذكرني دائمًا على المذبح[٤٨]".

وهكذا فإن الإفخارستيا تجمع وتوحد كل الكنيسة معًا: **الأحياء والراقدين**، لذلك يكتب القديس "كبريانوس" قائلًا: "وطننا هو السماء... وهناك عدد كبير من الأحباء ينتظروننا، عدد لا يُحصى من الآباء والأمهات، والإخوة والأخوات والأبناء يتوقون إلينا؛ وإذ إطمأنوا هم على خلاصهم، يترجون خلاصنا نحن، لنسرع في الوصول إليهم، مشتهين بحرارة أن نكون في أقصر وقت عندهم، بل عند المسيح[٤٩]".

ولذلك فإن ذكر الراقدين في الإفخارستيا هو **عمل إيماني** من الدرجة الأولى، وذو فائدة كبيرة لأنه قد يكون سبب لتعزية أقارب وأصدقاء الشخص المنتقل، بالإضافة إلى أن صلاتنا من أجلهم قد تكون ذات نفع لهم، من جهة غفران زلاتهم أو سهواتهم[٥٠]، مثلما فعل "يهوذا المكابي" ورجاله لأجل المحاربين الذين ماتوا في الحرب، حين صلوا وقدموا ذبائح وتقدمات ليغفر الله لهم خطيتهم التي تسببت في مقتلهم. فما عمله "يهوذا المكابي" ورجاله كان بمثابة "عمل إيمان"، لأنهم كانوا يؤمنون بقيامة الأموات: "وأخذوا يصلون

---

[48] Augustine, Conf., op. cit., Book IX. 11.27

[٤٩] عظات القديس كبريانوس، مرجع سابق، الخلود:٢٤.

[٥٠] إن كان المنتقل له إيمان وتوبة، حتى ولو اقتناها في اللحظات الأخيرة من العمر مثل اللص اليمين.

ويبتهلون إليه أن يمحو تلك الخطية... ثم جمع من كل واحد تبرعًا، فبلغ مجموع التبرعات ألفي درهم من الفضة، فأرسلها إلى أورشليم ليقدم بها ذبيحة عن الخطية، وكان ذلك خير عمل، وأتقاه لإيمانه بقيامة الموتى. فلولا رجاؤه بقيامة الذين قُتلوا، لكانت صلاته من أجلهم باطلة، ولو لم يعتبر أن الذين ماتوا أتقياء ينالون جزاء حسنًا، وهو رأي مقدس وتقي، لهذا قدم كفارة عن الموتى، ليغفر الرب لهم خطاياهم" (مكابيين الثاني : ٤٢ -٤٥).

ومن هذا المنطلق تصلي الكنيسة في أوشية الراقدين، قائلة: "وإن كان لحقهم توان، أو تفريط كبشر... تفضل يا رب عبيدك المسيحيين... كل واحد باسمه وكل واحدة باسمها، يا رب نيحهم، وإغفر خطاياهم، فإنه ليس أحدً طاهرًا من دنس، ولو كانت حياته يومًا واحدًا على الأرض..إلخ[٥١]".

وقد تحدث القديس يوحنا ذهبي الفم في كثير من خطبه عن فائدة الصلاة وخصوصًا ذِكْر الراقدين في الإفخارستيا، وأيضًا أعمال الرحمة التي نصنعها باسم الراقدين، ففي إحداها يقول: "ربما تقول لي لكني لا أعرف أين ذهب (الراقد)؟ لماذا لا تعرف ذلك؟ أخبرني، فسواء عاش حياته باستقامة أم لا، فمعروف أين سوف يذهب، عندئذ تقول لي: ولكني أبكي لأجل هذا بالضبط، فلقد رحل محملًا بكثيرٍ من الخطايا، وأنا أيضًا أقول لك، لأجل هذا عليك أن تفرح! لأنه توقف عن الخطية... ولأنه بإمكانك أن تساعده بالتأكيد، لا بالدموع والنحيب؛ لكن بالصلوات والتوسلات، والإحسانات والتقدمات، لأن هذه الأمور لم تتقرر اعتباطًا. وليس بدون سبب يقف الكاهن بالقرب من المذبح المقدس، الذي ترفع عليه الأسرار الرهيبة مصليًا، من أجل الذين رقدوا في المسيح، وأيضًا من تحل ذكرى رقادهم. ولكن هذا يصير بعد

---

[٥١] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية الراقدين، ص ٤٨.

استنارة الروح القدس، فإذا كانت الذبائح التي قدمها أيوب، طهرت أولاده من الخطايا، فلماذا تتشكك أنت عندما ترفع تقدماتك لأجل أولئك الذين رحلوا عن هذه الحياة؟ لا شك أن ذلك يسبب لهم بعض الراحة والتخفيف (للمنتقلين)... ليس اعتباطًا (بدون علة) شرَّع الآباء الرسل ذكر الأموات أثناء تتميم الأسرار العظيمة، فقد عرفوا **مقدار الربح، وعظم الفائدة التي يجنيها الموتى من ذلك.** فكيف لا نُرضي الله عندما يقف كل الشعب رافعين أكفهم متضرعين إلى السماء، وبالاشتراك مع الإكليروس المقدس، أثناء الصلاة أمام الذبيحة المهيبة غير الدموية، نترجاه من أجل إخوتنا الراقدين[٥٢]".

الوقوف والصمت أمام الله في الإفخارستيا

إن وجود الإنسان في محضر الله حتى وهو صامت أثناء القداس الإلهي بإرادة واعية هو عبادة: "حينما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الرب إلهك، في المكان الذي يختاره، تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم" (تث٣١:١١)، أي أن وقوفنا في هدوء أمام الرب، حتى ولو لم نقُل شيئًا لبعض الوقت، لكن مستحضرين الله في قلوبنا وأذهاننا، هو فعل عبادة لله، ويتضح ذلك من نداء الشماس قبل البدء في الصلاة: "فلنقف جيدًا، لنقف بتقوى، لنقف باتصال، لنقف بسلام، لنقف بخوف الله ورعدة وخشوع[٥٣]"، فالوقوف الصامت والمُصلَّى هو من أعلى درجات الصلاة بحسب قول مار إسحق السرياني (القرن الخامس): "أعلى درجات الصلاة هي أن يقف الإنسان صامتًا، بورع وخشية أمام الله."

والحقيقة أن الوعي بأننا في محضر الله يغيرنا، لأنه بقدر ما يقف الشخص أمام صانعه، بقدر ما يغير ويشكل الصانع

---

[٥٢] القديس يوحنا ذهبي الفم، *عظة عن الموت*، P.G.63,801-812 .

[٥٣] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٢٣.

(الله) في خليقته: "ككلمة الله التي تعمل أيضا فيكم أنتم المؤمنين" (١تس٢:١٣). إن الصلاة هي أن ندرك أن الله أمامنا في كل حين: "جعلت الرب أمامي في كل حين" (مز١٦:٨) ونحن وقوف، ونحن نعمل، ونحن نمرح، أو حتى ونحن نيام!

ولقد اشتاق كاتب المزمور إلى الوقوف في حضرة الله، فخاطب إلهه في مناجاة جميلة قائلًا: "كما يشتاق الإيل إلى جداول المياه، هكذا تشتاق نفسي إليك يا الله، إلى الإله الحي، متى أجيء وأتراءى قدام الله" (مز٤٢:١،٢). هذا الصمت الخاشع وغير المنشغل بشيء أثناء القداس الإلهي هو **صمت مقدس**. وهذا الوقوف الصامت والمهيب يذكرنا بالوقوف أمام الله في المجيء الثاني الذي تعتبر الإفخارستيا عربونًا له، وهذا هو ما اشتهاه لنا يهوذا الرسول حين قال: "ويوقفكم أمام مجده، بلا عيب في الابتهاج" (يه:٢٤).

فالوقوف والمثول في محضر الله بخشوع وتقوى حقيقية، هو سبب سرور للثالوث لأن الماثلين أمامه في تقوى وهدوء هم عمله وخليقته: "لأننا نحن عمله" (أف٢:١٠). فكما أن الكلمة المتجسد الذي صعد ليجلس عن يمين أبيه، يظهر بجسد بشريتنا، أمام وجه الله كذبيحة دائمة تشفع فينا، ويَكْمُنُ فيها مسرة الثالوث "ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا" (عب٩:٢٤). وهي التي سكبها فينا بالروح القدس، حتى نستطيع أن نقف قدامه في المحبة كما قال بولس الرسول في دعوته للمؤمنين قائلًا: "لنكون قديسين، وبلا لوم قدامه في المحبة" (أف١:٤). فنبادله تلك المحبة الإلهية التي سكبها هو فينا أولًا، والتي بدونها لا يُسَرُّ الله. لذلك يحثنا القديس كبريانوس أن نقف دومًا أمام الله في محضره، قائلًا: "قف أمام الله كل يوم بوقار مقدس، كطفل بريء وثق فيه."

ولقد كتب الفيلسوف اليوناني سقراط (٤٧٠-٣٩٩ ق.م) في إحدى

المرات قائلًا: "انتبهوا لعقم الحياة المزدحمة." والكتاب المقدس يخبرنا عن أهمية وقيمة الصمت الذي لا يقل أهمية عن التسبيح بالشفاه؛ فنرى "آساف[٥٤]" يخبرنا بأن الله يقبل تسبيحنا كذبيحة قائلًا "ذابح الحمد يمجدني" (مز٥٠:٢٣)[٥٥]. بينما صموئيل النبي في المقابل يخبرنا بأن الاستماع والصمت (الإصغاء العامل) هو بمثابة ذبيحة أيضًا فيقول: "هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح، كما (مثلما) باستماع صوت الرب؟ هوذا الاستماع أفضل من ذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكباش" (١صم١٥:٢٢).

و"الصمت" أثناء القداس الإلهي، يجعلنا نصغي لصوت الله بوضوح، فنسمع ما يريد أن يقوله لنا شخصيًّا، ونختبر قول الشيخ الروحاني "سكت لسانك ليتكلم قلبك، وسكت قلبك ليتكلم الله"[٥٦]، وهذا الأمر ليس خاصًّا بالرهبان أو النساك فقط، بل هو لنا جميعًا، ونستطيع اختباره في القداس الإلهي حتى ولو لدقائق قليلة! فالصمت ونحن في روح الصلاة أثناء القداس الإلهي وبالأخص في وقت القراءات، يعطي لنا فرصة الإصغاء لصوت الله. هذا الصوت الموجود في أسفار الكتاب المقدس، تلك التي يقول عنها القديس أغسطينوس إنها "نشيد يسوع المسيح."

ونحن كثيرًا ما ننشغل أثناء القداس الإلهي بطلب ما نريده من الله، وننسى ما يريد الله أن يقوله لنا، وكأننا نحن فقط الذين نريد أن نتكلم، بينما لا يريد الله هو أيضًا أن يتكلم معنا! وأحيانًا نتكلم نحن ونجد الله يصمت، لكن يجب أن لا يفهم صمته على أنه

---

[٥٤] أحد كُتَّاب المزامير، وكان أيضًا أحد قادة التسبيح في الهيكل مع داود النبي.

[٥٥] هذه الآية ترتبط بالإفخارستيا ارتباطًا وثيقًا، حيث تأتي في بعض الترجمات "ذابح أو(ذبيحة) الشكر(إفخارستيا) تمجدني" أي أن ذبيحة الإفخارستيا تمجد الله، فذبيحة الإفخارستيا هي ذبيحة الشكر.

[٥٦] من أقوال القديس "يوحنا سابا" أو "يوحنا الدلياتي"، والملقب أيضًا بالشيخ الروحاني.

سكون، لأن الله دائمًا يعمل، فحتى صمته صمت عامل بمحبة: "أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل" (يو٥:١٧)، لذلك يقول أحد القديسين: "قبل أن تتكلم عليك أن تصمت وتصغي، لأن **الله يتكلم في صمت القلب**."

إن "الصمت" بانتباه وتركيز (mindfully)، يجعلنا نسمع صدى كلمة الله في قلوبنا، فيكون لسان حالنا مثل صموئيل النبي الذي دعاه الرب وهو مضطجع في صمت في خيمة الرب: "فقال عالي لصموئيل: اذهب اضطجع، ويكون إذا دعاك تقول: تكلم يا رب لأن عبدك سامع، فذهب صموئيل وإضطجع في مكانه" (١صم٣:٩).

فقط إذا "صمتنا" سنستطيع سماع ما يهمس به الروح القدس الكلي الوداعة أثناء القداس الإلهي "الروح الوديع الهادئ هو عند الله كثير الثمن" (١بط٣:٤) مخاطبًا قلوبنا وضمائرنا، ذلك الروح الذي اختبره إيليا النبي وهو على جبل حوريب (الذي يرمز للكنيسة) في النسيم اللطيف "اخرج وقف على الجبل أمام الرب؛ وإذا بالرب عابر، وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال، وكسرت الصخور أمام الرب، ولم يكن الرب في الريح، وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة، وبعد الزلزلة نار، ولم يكن الرب في النار، وبعد النار صوت منخفض خفيف" (١مل١٩:١١،١٢)، وسيعلمنا الروح لمن وبماذا نصلي. وسيعلن لنا ذاك الروح الذي يصرخ في داخلنا، معاني وأبعاد جديدة، في صلواتنا التي نصليها دومًا، حينئذ بالحقيقة سنصلي ولا نَمَلُّ (لو١٨:١). فنحن في القداس الإلهي مدعوون لسماع صوت الله **بأُذن قلوبنا** كقول أحد القديسين.

كما أن اختبار "الصمت" بخشوع ولو للحظات قليلة بعد التناول، يجعلنا نسمع ما يريد المسيح أن يقوله بداخلنا بعد اتحادنا به. فتكون صلاتنا الصامتة صلاة "من قلب لقلب" (from heart to heart) كما يعبر "ثيؤفان الناسك" بقوله: "هكذا النفس التي تعلقت بحبيبها

يسوع، تثبت فيه على الدوام بلا انفصال، وتتحدث معه سرًّا في حديث قلبي ملتهب. أ ليس كل من التصق بالرب قد صار معه روحًا واحدًا (١كو٦:١٧)." إننا حينما نصمت في محضر الله نكون كورقة بيضاء تنتظر من يكتب عليها، فنصير بحق رسالة الله، مقرؤة من الجميع.

إننا جميعًا في احتياج لأن نصمت، لندرك أننا في وقت الإفخارستيا واقفون في محضر ألوف وربوات من الملائكة، ومحفل من القديسين وقبل كل شيء في محضر الثالوث: الآب والابن والروح القدس. والإفخارستيا تمنحنا فرصة رائعة للتدرب على "**الصمت المقدس**" ولو لفترات قليلة؛ إذا اختبرنا ذلك سنستطيع رؤية كل ما حولنا بعين مختلفة، وسنسمع ما حولنا بطريقة مختلفة، وسنفتح فمنا ونتكلم بشكل مختلف. وسنصلي بقلبٍ مختلف، وستكون تسابيح الكنيسة وصلوات القداس الإلهي دومًا جديدة في مسامعنا، مختبرين كيف نسبح الرب "تسبيحًا جديدًا" (مز١٤٩:١) بنفس الصلوات اليومية، ولن تكون التسابيح والقداسات تكرارًا. بل ستكون متجددة دومًا، مندهشين في كل إفخارستيا نشترك فيها، ومتعجبين من هول وعظمة ما يحدث أمامنا، وما يُتلى على مسامعنا، كل ذلك يحدث فقط إذا "صمتنا"، وصمت ذهننا عن الانشغال بالعالم! لذلك لا عجب في أن يكتب يوحنا الدرجي عن الصمت والهدوء في الصلاة، وكيف أنه يرفع الإنسان للسماء فيقول: "**الصمت هو أُمُّ الصلاة، هو صعود مستمر للسماء**"!

والحقيقة أن الصلاة في صمت وبذهن منتبه، لها مذاق خاص، فبها نكتشف فعلًا كيف أن وصايا الله واسعة جدًّا (مز١١٩:٩٦)، فندرك مع الوقت؛ أن الصلاة عمل سري نعمله ويعمل فينا! بل أحيانًا تكون **الصلاة عطية من الله** كما يقول "ثيؤفان الناسك": "أما الذين

يتكلون على مظاهر الوقوف في الصلاة، أو تكرار الكلام باطلًا (بلا فهم أو انتباه)، فهؤلاء لن يستطيعوا الوصول إلى جوهر الموضوع، الذي هو اتحاد العقل بالقلب في صلاة منتبهة؛ إذ إن هذا لا يأتي من استعدادنا نحن فقط، بل وأيضًا من عمل النعمة."

ونحن نحتاج أن ندرب أنفسنا متى نتكلم، ومتى نصمت. ليتنا نتعلم الحكمة من أيوب البار القائل: "ليتكم تصمتون صمتًا، يكون ذلك لكم حكمة" (أي١٣:٥). إن الله في كلتا الحالتين يسمعنا، سواء ما إذا تكلمنا أو "صمتنا"، فهو يسمع حتى "صوت صمتنا"، الذي أحيانًا قد يعلو على الصراخ والهُتاف؛ كما يقول القديس أغسطينوس: "يا رب أعترف لك ليس فقط بالكلمات والأصوات التي يصنعها اللسان، بل أيضًا بصوت روحي، وبأفكاري التي أصرخ بها نحوك... فيكون اعترافي أمامك في الصمت، لأنه حتى ولم لم يتحرك لساني فإن قلبي يصرخ إليك[٥٧]."

"أبانا الذي في السموات" كصلاة إفخارستية

إن الصلاة الربانية هي نموذج للصلاة الإفخارستية، إنها **ملخص القداس كله في سبعة طلبات** (رقم سبعة يرمز للكمال). بل هي أيضًا تلخيص للكتاب المقدس بأكمله، بحسب قول العلامة ترتليان (القرن الثاني): "إن هذه الصلاة تحوي تقريبًا كل مجموع تعاليم المسيح وشريعته[٥٨]"! إنها صلاة قصيرة لكن بها كل شيء، كما يقول آباء الكنيسة. لذلك لا عجب في أن تتبع الكنيسة وصية مخلصها: "فقال لهم متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السموات" (لو١١: ٢-٤)، فنبدء ونختم صلواتنا دائمًا بالصلاة الربانية، لأن صلواتنا دائمًا لها بعد إفخارستي.

---

[57] Augustine, Conf., op. cit., X,2.

[58] *De Oration*: 1.

أبانا الذي في السموات

تبدأ الصلاة الربانية من "السموات" الموضع الذي أصبحت فيه البشرية بعد تجسد الابن، وإكماله لتدبير الخلاص، وصعوده إلى السموات جسديًّا، وجلوسه عن يمين الآب. فنحن جالسون (في المسيح) مع الآب في السموات: "وأجلسنا معه في السماويات، في المسيح يسوع" (أف٢:٦)، إنها عبارة تحدد الاتجاه الذي تتجه إليه الكنيسة في كل صلواتها وبالأخص في الإفخارستيا "السموات".

وهذه العبارة تذكرنا بهويتنا الجديدة: "أنتم من الله" (١يو٤:٤)، وبموطننا الأصلي بعد المعمودية، ومصيرنا النهائي الذي هو "السموات"! إن كلمة "السموات" تذكرنا أيضًا بأن هناك سماءً أخرى "داخلية" أي في داخلنا، حيث تصير النفس مسكنًا لله، وخباءً (خيمة) للملك.

إن صلاة "الآبانا" تذكرنا بأن كل النعم التي نحن فيها مقيمون: "النعمة التي نحن فيها مقيمون" (رو٥:٢)، هي بفضل تجسد الابن، الذي صار أخًا بكرًا لنا، ليجعل أباه بالطبيعة، أبًا لنا بالتبني: "أنت أيضًا الآن يا سيدنا اجعلنا مستحقين بنية طاهرة، وفكر صالح يليق بالبنين، أن نستجرئ ونصرخ نحو الله أبيك في السموات ونقول: أبانا.."[٥٩]. وهذه النعم يعلنها لنا الآب السماوي، كما قال السيد المسيح لبطرس الرسول: "إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السموات" (مت١٦:١٧)، فالآب يعلن لنا في ابنه أسرار ملكوت السموات، كاشفًا عمق محبته لنا، بالروح القدس الذي هو "روح الإعلان" (أف١:١٧).

ويصف القديس "أغسطينوس" الصلاة الربانية بأنها علامة البنوة لله لأننا بها نخاطب الله "الآب" بدالة البنوة، فيقول: "إننا نصلي

---

[٥٩] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، صلاة القسمة، ص ٣٦٨.

الصلاة الربانية التي تعلمناها وحفظناها، نصلي بها عند نهاية كل ذبيحة، لأن هذه الذبيحة؛ هي علامة ما نحن عليه الآن (أبناء الله)[٦٠]." تلك الدالة التي بها تخاطب الكنيسة الآب في كثير من صلوات الإفخارستيا. كما وتذكرنا عبارة "أبانا الذي في السموات" بالآب السماوي الذي يرسل لنا الخبز السماوي (الإفخارستيا) غذاءً لنا: "هو في الأعالي يسكن، حصون الصخور ملجأه، يعطي خبزه" (إش٣٣:١٦).

وهي عبارة تجعلنا نفعل الخير للجميع، لنكون مثل الآب الذي في السماء، الذي يشرق شمسه على الأبرار والأشرار: "لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين" (مت٥:٤٥)، إنه ليس مثل آبائنا الأرضيين الذين هم من أسفل، إنه أب أبدي، دائم الأبوة لنا وكامل.

والإشارة إلى السموات، تعني أن الله كاملٌ ومرتفع في كل شيء، كما ترتفع السماء عن الأرض "لأن أفكاري ليست أفكاركم، وطرقي ليست طرقكم يقول الرب، لأنه كما علت السماوات عن الأرض، هكذا علت طرقي عن طرقكم، وأفكاري عن أفكاركم" (إش٥٥:٨،٩). إنها عبارة تجعلنا نسأل أنفسنا في كل شيء نفعله أو نفكر فيه، هل هو سماوي أم أرضي؟ هل يرفعنا للسماء أم العكس؟ هل يمجد الآب الذي في السماء أم لا؟ إنها عبارة تجعلنا نتذكر دومًا أننا لسنا وحدنا في هذا العالم، لقد أصبح لنا الآن "آب"، وهو ضابط للكل: "لأن فوق العالي عاليًا يلاحظ، والأعلى فوقهما" (جا٥:٨). إنها تذكرنا أيضًا بأن لنا إخوة، لذلك ندعو الآب بصيغة (الجمع) المتكلمين "أبانا" أي أبانا كلنا.

---

[60] *Fathers Of The Church Series,* Sermon 227 .

ليتقدس اسمك

هذا هو عملنا على الأرض، تقديس اسم الله بأقوالنا وأفعالنا، في فكرنا وفي قلوبنا، وفي عبادتنا، والتي على رأسها الإفخارستيا التي تقدس اسم الله "لأن اسمك يا رب عظيم في جميع الأمم، وفي كل مكان يقدم بخورًا لاسمك القدوس، وصعيدة طاهرة[٦١]." وهذا الاسم هو الذي بواسطته ننقدس في الصلاة الأسرار.

إنها عبارة تذكرنا بأن هذا الاسم الذي من الشاروبيم يتبارك ومن السيرافيم يتقدس، قد دُعي علينا: "وقد دعينا باسمك" (إر١٤:٩)، لذلك نصلي قائلين في القداس الإلهي، قائلين: "إنقذنا من أجل اسمك القدوس الذي دُعي علينا[٦٢]."

ليأتِ ملكوتك

هذه هي رسالتنا؛ نشر ملكوت الله، فنحن نتقدس ونستعد ليأتي ملكوت الله الذي هو الهدف والغاية من كل شيء. هذه هي دعوتنا أن نحيا الملكوت الآن، ونحن على الأرض، فالأبدية تبدأ من "الآن" وفي ذات الوقت هي أيضًا مستقبل ننتظره في الرجاء. إننا مدعوون لنهيئ للرب طريقًا ليملك على الناس في داخلهم، لأجل ذلك نصلي ونعمل، ليأتي ملكوت الله على الأرض، ولِتتغْرَس بذار الأبدية في القلوب والأذهان، **فملكوت الله هو في "الإنسان"**، أي أن يملك الله على الإنسان بحب وحرية إرادة. ولأجل ذلك نقيم الإفخارستيا، لأنها عربون (ἀρραβών) الأبدية ووليمة الملكوت.

لتكن مشيئتك

هذه العبارة تذكرنا بأن الله لم يخلق العالم عبثًا، بل خلقه لمشيئة

---

[٦١] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، ص ٤١١.

[٦٢] المرجع نفسه، صلاة المجمع، ص ٢٤٩.

صالحة. والتوصيف الوظيفي (job description) للكنيسة، إذا جاز التعبير، هو تحقيق مشيئة الله على الأرض، والتي كمالها وغايتها النهائية هي جمع كل الخليقة في المسيح يسوع، وتتجلى هذه الغاية في الإفخارستيا التي تقيمها الكنيسة.

كما أنها عبارة تذكرنا بالقديسين الذين نحن على شركة معهم من خلال الصلاة وبالأخص في الإفخارستيا، فهولاء القديسون قد جاهدوا على الأرض بنعمة الله ليتمموا مشيئة عريسهم السماوي: "القديسون الذين في الأرض والأفاضل، كل مسرتي بهم" (مز١٦:٣). لذلك عندما انتقلوا، يستجيب لله لمشيئتهم في السماء، مثلما استجابوا هم لمشيئته على الأرض: "أن أفعل مشيئتك يا إلهي سررت" (مز٤٠:٨)، ونحن مدعوون كذلك لنستجيب لمشيئة الله على الأرض من كل قلوبنا: "عاملين مشيئة الله من القلب" (أف٦:٦)، فيستجيب هو لمشيئتنا من السماء.

وهي عبارة تشجعنا أن نطلب المشيئة السماوية ونخضع لها بحرية: "لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السماوات، هو أخي وأختي وأمي" (مت١٢:٥٠؛ مر٣:٣٥). ولا نطلب أو نتمم مشيئتنا الأرضية، بل نصلي أن تتحد مشيئتنا بمشيئته، حينئذ تتحد الأرض بالسماء: "جعل الاثنين واحدًا، السماء والأرض[٦٣]".

كما في السماء، كذلك على الأرض

هذه العبارة تعود على الطلبات الثلاث التي تسبقاها؛ "ليتقدس اسمك"، و"ليأت ملكوتك"، و"لتكن مشيئتك"؛ فنحن مدعوون لتقديس اسم الله؛ وطلب ملكوته والعمل على نشره؛ وتحقيق مشيئته في حياتنا على الأرض، كما أن كل ذلك هو محقق في السموات.

---

[٦٣] لحن الصعود (أسومين تو كيريو ⲁⲥⲱⲙⲉⲛ ⲧⲱ Ⲕⲩⲣⲓⲱ).

وأيضًا هذه العبارة توضح شكل العبادة الأرثوذكسية؛ فعبادة الكنيسة على الأرض هي **محاكاة** (imitation) **للعبادة التي في السماء**، كما يتضح من سفر الرؤيا الذي كشف الله فيه ليوحنا الرسول وهو في يوم الرب (يوم "الأحد" الذي تقام فيه الإفخارستيا) ما يحدث في السماء من عبادة[٦٤]!

خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم[٦٥]

إنها **طلبة إفخارستية** من الدرجة الأولى، حيث هذا الخبز الذي للغد (الأبدية) هو الخبز "**الجوهري**"[٦٦]، أي "الإفخارستيا"، التي هي خبز وليمة الملكوت، والمن السماوي، الخبز النازل لنا من السماء. حيث

---

[٦٤] يرى الكثير من آباء الكنيسة أن العبادة في العهد الجديد وبالإخص الإفخارستيا هي على نسق العبادة السماوية التي تظهر في سفر الرؤيا، ويتضح ذلك من خلال العديد من العناصر المشتركة، مثل: يوم الرب، العرش، المذبح الذي أمام العرش، الخروف القائم كأنه مذبوح، الأربعة وعشرون كاهنًا، البخور، صلوات القديسين والشهداء، واشتراك الملائكة والسمائيين، تسبحة "قدوس، قدوس"، الشعب الحاضر من كل أمة ولسان..إلخ. فسفر الرؤيا إذا جاز التعبير هو "سفر العبادة" في العهد الجديد، فهو يبرز لنا في أحد جوانبه، عناصر الليتورجيا السماوية التي تحاكيها الكنيسة على الأرض!

[٦٥] وردت هذه الآية في إنجيلي (مت٦:١١؛ لو١١:٣) ولها عدة ترجمات مختلفة:

- في الأصل اليوناني جاءت: (τόν ἄρτον ἡμῶν τόν ἐπιούσιον) والتي عادة ما تترجم إلى "خبزنا الجوهري" في كثير من كتابات آباء الكنيسة.
- في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس والمعروفة بالترجمة "الشعبية" (الڤولجاتا، Vulgata) جاءت: "خبزنا الفائق الجوهر" (panem nostrum supersubstantialem).
- في الترجمة الآرامية جاءت: "خبزنا كفاف يومنا."
- في الترجمة القبطية جاءت: "خبزنا الذي للغد" (ⲡⲉⲛⲱⲓⲕ ⲛ̀ⲧⲉ ⲣⲁⲥϯ).

٦٦ كلمة "إيبي أوسيون" (Επιούσιον) هي كلمة مكونة من كلمتين: (Επι) "إيبي" وتعني "فوق"، و(Οὐσία) "أوسيا" تعني "جوهر". وفي النص اليوناني للعهد الجديد ترجمت هذه الكلمة إلى معاني كثيرة منها:"الجوهري والضروري للوجود والحياة"، "اليومي"، "الآتي"،"الذي للغد"، و"كفافنا". ويعلق العلامة أوريجانس الذي كان ضليعًا في اللغة اليونانية أن كلمة (Επιούσιον) يندر جدًّا استخدامها في اللغة اليونانية، بل ويرجح أنها حتى لم تكن تستخدم في اللغة اليونانية قبل ذكرها في الأناجيل. وتاريخيًّا لم ترد هذه الكلمة خارج استخدامها في الأناجيل، وما يتعلق بذلك من تفاسير لآباء الكنيسة، ولم ترد في غير ذلك سوى في بردية ترجع إلى القرن الخامس الميلادي، مما يُحتِّم الاهتمام بدراسة الأصل اللغوي (etymology) للكلمة، والسياق الذي وردت فيه في النص الكتابي، لفهم المعنى الحقيقي المقصود من الكلمة.

يصير الله خبزنا، أي يصير هو حياتنا. إذن فالإفخارستيا هي خبزنا الجوهري، وخبزنا الذي للغد (الأبدية) والذي نناله اليوم على المذبح، وخبزنا الذي يكفينا (كفافنا) كزاد في مسيرة الحياة، حتى نصل للحياة الأبدية.

والله لم يعد ذلك الإله "البعيد" الذي يحيا في معزل عن البشر. كلا؛ لقد بادر الله بالاقتراب منا من خلال تجسده حيث اتحد ببشريتنا وصار إنسانًا كاملًا فيما عدا الخطية. لقد صار قريبًا جدًّا منا: "الرب قريب" (في٤:٥) ليس فقط للذين عاشوا وعاصروا المسيح في حياته على الأرض؛ بل أيضًا أنعم لكل الأجيال بعد ذلك أن يصير قريبًا منهم، في "قربان الإفخارستيا[٦٧]"، فالإفخارستيا هي "القربان الحقيقي"، لأن بواسطته يقترب الإنسان من الله، بل ويتحد به!

وفي القداس الإلهي يكون الله قريبًا جدًّا منا، على المذبح: "اطلبوا الرب ما دام يوجد، ادعوه وهو قريب" (إش٥٥:٦). فنستطيع أن نختبر ما قاله موسى قديمًا: "أي شعب هو عظيم له آلهة قريبة منه كالرب إلهنا؟!" (تث٤:٧) فهو **لم يتركنا بعد صعوده بالجسد، بل هو ماكث معنا في "الإفخارستيا"**، فهو دائمًا "عمانوئيل"، الله معنا.

والإفخارستيا هي استجابة دائمة لاشتياق الكنيسة وطلبها من المسيح بأن يمكث معنا: "إمكث معنا" (لو٢٤:٢٩)، لذلك نصلي في القداس الإلهي قائلين: "هوذا كائن معنا على هذه المائدة اليوم، عمانوئيل إلهنا[٦٨]" لذلك لا عجب في أن نصلى الصلاة الربانية دائمًا في كل إفخارستيا، لأن في الإفخارستيا تحقيق لكل ما طلبناه في صلاة "الآبانا".

لقد جمع المسيح المشتتين وصيرهم "معًا"، في هذا "الخبز الواحد."

---

[٦٧] كلمة "قربان" هي من الكلمة السريانية "قُرْبُونُو" التي تعني تقدمة، أو يَقْتَرِب.

[٦٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة القسمة للآب تقال في أعياد العذراء والملائكة والسمائيين، ص ٥٣٣.

فأصبحنا كلنا على إختلافنا وتنوعنا شعبًا واحدًا؛ له مأكل واحد، وشراب واحد، وهو جسد ودم ابن الله. لقد أعطانا المسيح أن نتذوق اليوم طعام الغد، فنشتاق إلى قدوم هذا الغد السعيد، بتناولنا خبز الحياة الأبدية، وعربون الملكوت. لذلك يحث القديس كبريانوس شعبه على الإستعداد للتناول بقوله: "يقول الرب من يأكل من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، ليؤكد أن الذين يحيون هم الذين يتقدمون إلى جسده، ويتناولون الإفخارستيا في الشركة المقدسة، وبناء على ذلك ينبغي علينا من جانب آخر أن نحترس ونصلي حتى لا يبقى أحد بعيدًا عن الخلاص، إذا إنفصل عن جسد المسيح بسبب منعه من التناول... فنحن إذًا نطلب على الدوام أن نتناول خبزنا الذي هو المسيح حتى نبقى أحياء في المسيح، ولا نبعد قط عن نعمته أو عن جسده[٦٩]".

وإغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضًا، لمن أساء إلينا

يقول المفكر الإنجليزي "فرانسيس باكون" (١٥٦١-١٦٢٦م): "الغفران المتبادل بين الناس هو باب الفردوس"، نعم الغفران هو الباب، وهو شرط الدخول للمائدة السماوية، وأحد ما تشير إليه "ملابس العرس" التي تحدث عنها السيد المسيح في مثل العرس؛ الغفران للآخر، المصالحة معه "اغفر لمن يسيء إليك، فيغفر الله ذنوبك حين تدعوه" (يشوع بن سيراخ ٢:٢٨)، بل والسعي إليه. إن الغفران للآخر هو أحد المعاني الكامنة وراء "القبلة المقدسة" قبلة السلام (بعد صلاة الصلح) في الإفخارستيا، وأيضا أحد المعاني وراء رفع الأيدي أثناء الصلاة؛ إذ إن ذلك علامة على الصلاة التي تنبع من قلبٍ طاهرٍ لا يحمل شيء على أحد: "فأريد أن يُصلي الرجال في كل مكان، رافعين أيادي طاهرة، بدون غضب ولا جدال" (١تي٢:٨) لذلك يقول

---

[٦٩] القديس كبريانوس، مرجع سابق، الصلاة الربانية: ١٨

القديس مار أفراهات: "في اللحظة التي تبدأ فيها الصلاة ارفع قلبك لأعلى... إدخل إلى انسانك الداخلي، وصَلِّ لأبيك الذي في السماء... أنت يا من تصلي يجب أن تتذكر أنك بصلاتك تقدم تقدمة لله. لا تجعل الملاك الذي يرفع الصلوات يخجل بتقديمه تقدمة لله بها عيب! عندما تصلي "إغفر لنا ذنوبنا" وأنت تعلم أنك لا بد أنت نفسك أن تغفر، فكر أولاً في عقلك هل أنت فعلًا تغفر؟ وعندها قل: "كما أغفر أنا." يجب عليك أن لا تسلك بخداعٍ مع الله وتقول "كما أغفر أنا" وأنت الحقيقة لا تغفر، لأن الله ليس مثلك، مائت تستطيع أن تخدعه[٧٠]."

إنها وصية لتطهير الذات من البُغْضة والضغينة، إنها تذكرة بأننا كلنا عبيد لله، ولسنا قضاة على بعض: "لا نحاكم أيضًا بعضنا بعضًا" (رو١٤:١٣)، إنها وصية تردنا إلى حجمنا ووضعنا الحقيقي، متذكرين الآية القائلة: "هل أنا مكان الله؟" (تك٥٠:١٩).

إن الفعل الذي إستخدمه السيد المسيح في وصيته لنا بالغفران هو "افسيس" (Ἄφεσις) والذي يعني بجانب الغفران، أيضًا "العتق"، و"الإطلاق" (let go)، فالغفران هو دعوة للتحرر من القيود التي تربطنا بمن أساء إلينا، نطلق الآخر حرًّا من الدين الذي له علينا: "فتحنن سيد ذلك العبد وأطلقه (الإطلاق)، وترك له الدين (الغفران)" (مت١٨:٢٧). إننا أحيانًا نغفر ولكن لا نطلق، وبذلك يكون غفراننا غير مكتمل بعد. إننا نحتاج أن نطلق الآخر، لكي تنطلق قلوبنا وترتفع عقولنا حرة نحو الله في الإفخارستيا. لأن عدم المغفرة تشد الإنسان إلى أسفل؛ إلى الإدانة، والغضب والانتقام، والشفقة على الذات. إن المسيح الذي هو المحبة والذي نتناوله في الإفخارستيا يستحيل أن يجتمع مع الكراهية، لذلك يجب علينا طلب نار الحب الإلهي المطهرة

---

70 S. Brock, *The Syriac Fathers on Prayer and Spiritual Life*, Cistercian publications, Mitchigan,1987,pp.17-18.

لأنفسنا: "المحبة قوية كالموت... لهيبها لهيب نار، لظى الرب" (نش٨:٦) فتلتهم الأعداء الحقيقين لنا ولله وهم الشر والخطية، كالغضب والكراهية "كما يذوب الشمع قدام النار، يبيد الأشرار قدام الله" (مز٦٨:٢). فأمام المحبة الإلهية تذوب كل جبال العدواة والبغضاء كالشمع أمام النار: "ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب" (مز٩٧:٥)، بل وتشعل قلوبنا بمحبة إلهية نحو من أساء إلينا!

ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير

هذه الآية تذكرنا بالسلاح الذي أوصى به السيد المسيح تلاميذه حتى لا يدخلوا في التجارب، "القيامة مع المسيح" و"الصلاة"، "قوموا (من القيامة) وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة" (لو٢٢:٤٦). ولكن إن حدث أن دخلنا في تجربة، لأننا ما زلنا رغم كل شيء في العالم، علينا أن نعلم أننا منتصرون فقط إذا كنا "في المسيح"، واتحادنا به في الإفخارستيا يعطينا الغلبة على العالم، فنعاين النصرة على العدو ولا نرهبه، لأن "العدو قد تم خرابه إلى الأبد" (مز٩:٦)، فنطأه بأرجلنا وندوسه تحت أقدامنا. وأيضًا ننجو من التجربة إذا إتحدنا ببعضنا البعض في الإفخارستيا التي تحقق وتثبت السلام والمصالحة، وبذلك نغلب الشرير، ولا يجد له مكانًا بيننا، لأن من يبقى وحده يسقط ولن يجد من يقيمه.

بالمسيح يسوع ربنا

إن السيد المسيح هو "الحق" الذي لا يمكن أن يزول فهو يبقى هو هو أمس، واليوم وإلى الأبد، لا يتغير. فكل شيء قد خلق وهو كائن به (بالمسيح)، لأنه قوة أبيه وحكمته. هو العامل فينا وبنا، وبدونه لا نستطيع أن نفعل شيء: "لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو١٥:٥).

إنه الابن الذي في حضن أبيه، وقد تجسد ليعرفنا الآب، إنه هو الذي أكمل لأجلنا تدبير الخلاص في جسده. إنه هو الذي يهبنا جسده ودمه الإلهيين لكي نحيا بهما ولا نموت، **فهو في الإفخارستيا المُقدَّمُ والمُقدَّم، والقابل، والموزع.** إنه رأسنا الكائن في السماء، ورأس الكنيسة "وإياه جعل رأسًا فوق كل شيء للكنيسة" (أف١:٢٢). إنه رسول اعترافنا ورئيس كهنتنا: "لاحظوا رسول اعترافنا، ورئيس كهنته المسيح يسوع" (عب٣:١) الذي اعترف الاعتراف الحسن: "المسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف الحسن" (١تي٦:١٣)، ويقودنا دومًا للاعتراف بالله كرب ومخلص للجميع. إنه (المسيح) الذي يجمع الكل في نفسه (recapitulate): "ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السموات وما على الأرض، في ذاك" (أف١:١٠).

لأن لك المُلْكَ، والقوة، والمجد إلى الأبد

إن غاية كل شيء هو إعلان مجد الله ومُلكه، الذي يدوم إلى الأبد. ومجد الله في أحد أوجهه هو "الإنسان"، كما قال القديس إيريناؤس. ومجد الله هو ما تعلنه الكنيسة في بداية كل قداس إلهي، حين يصلي الكاهن قائلًا: "مجدًا وإكرامًا، إكرامًا ومجدًا، للثالوث القدوس[٧١]." فنحن في الإفخارستيا نرى المسيح "مُكللًا بالمجد والكرامة" (عب٢:٩)، **فالإفخارستيا هي عربون ملكوت الله الآب والابن والروح القدس.**

والأبدية (الملكوت) هي معرفة الآب: "وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك (الآب)، ويسوع المسيح الذي أرسلته" (يو١٧:٣)، وهي معرفة الابن يسوع المسيح الذي نتحد به في التناول، فيصير هو حياة الكنيسة وحياتنا كلنا، وهي معرفة الروح القدس الذي يدخلنا في شركة الثالوث.

---

[٧١] القداس الإلهي، مرجع سابق، دورة القرابين، ص ١٤٦.

وهي أيضًا عبارة تذكرنا بواجب الاعتراف بأن الله يستحق منا الشكر على الدوام؛ إذ هو سيد الكل: "أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد، والكرامة، والقدرة، لأنك أنت خلقت كل الأشياء، وهي بإرادتك كائنة وخلقت" (رؤ٤:١١).

آمين

إن السيد المسيح هو "**الآمين**" لصلواتنا، "لأنه مهما كانت مواعيد الله، فهو فيه النعم، وفيه الآمين لمجد الله" (٢كو١:٢٠)، والضامن لكل النعم التي تأتينا من الآب، لذلك يقول القديس أثناسيوس الرسولي: "لأن ما يُعطى هو من خلال الابن؛ ولا يوجد شيء ما يعمله الآب، إلا من خلال الابن؛ ولهذا فإن النعمة محفوظة (ومؤمنة) لذلك الذي يقبلها[72]".

إن الصلاة الربانية تبدأ بالآب، لأنه هو المصدر والينبوع، فمنه يولد الابن، وينبثق الروح القدس. وفي نهاية الصلاة نختم بالمسيح يسوع "الابن" الذي هو الطريق إلى الآب والروح القدس. بينما الروح القدس هو الذي يحركنا لنعترف بأن يسوع هو رب لمجد الله: "ليس أحد يقدر إن يقول أن يسوع رب، إلا بالروح القدس" (١كو١٢:٣).

والصلاة الربانية هي **صلاة ثالوثية** من الدرجة الأولى، مثلما كل شيء في التدبير الإلهي هو ثالوثي، "الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له، ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" (١كو٨:٦)؛ فكل ما يصنعه الله في تدبيره هو "**من الآب، بالابن، في الروح** (ἐκ Πατρός δὶ Υἱοῦ ἐν τῷ Πνεύματς)"، كما قال كثير من آباء الكنيسة كأثناسيوس الرسولي والقديس كيرلس الكبير. وهذا هو السبب في أن الكثير من صلوات الكنيسة توجه "**للآب بالابن في الروح القدس**."

---

[72] Athanasious,*Con.Ar.*, 4.12.

وهكذا فإن صلاة "أبانا الذي السموات" وكذلك الإفخارستيا كلها هي صلاة للآب بالروح والحق؛ أي إنها موجهة للآب من خلال الابن (الحق)، في الروح (الروح القدس)، كما أعلن السيد المسيح للمرأة السامرية أن الصلاة في العهد الجديد ستكون ثالوثية[٧٣]. "لكن تأتي ساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح (الروح القدس) والحق (الابن)، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له. الله (الآب) روح، والذين يسجدون له فبالروح (الروح القدس)، والحق (الابن) ينبغي أن يسجدوا" (يو٤:٢٣،٢٤).

والحقيقة إن الصلاة الربانية هي دعوة للحياة حسب الله، دعوة لأن نحيا ملء الحياة، دعوة للحياة الأبدية، دعوة لتمجيد الله بكل كياننا، دعوة ليتحد الجسد الموجود على الأرض (الكنيسة) بالرأس الكائن في السماء (المسيح)، دعوة ليصير الجميع واحدًا في المسيح، دعوة للتنوع مع الوحدة، مثل وحدة الثالوث الذي لا ينفصم. إنها بحق دعوة إفخارستية!

[٧٣] لم تكن الصلوات في العهد القديم تخاطب الثالوث بوضوح كما في العهد الجديد، لأن الثالوث استعلن فقط بتجسد الابن في ملء الزمان.

ألحان كنسية قديمة

"المجدلة الكبرى[٧٤]"

المجد لك يا مظهر (مرسل) النور، المجد لله في العلا، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة. نسبحك، نباركك، نسجد لك، نمجدك، نشكرك لأجل عظيم جلال مجدك. أيها الرب الملك، الإله السماوي، الآب (القدير) الضابط الكل. أيها الرب الابن الوحيد يسوع المسيح، ويا أيها الروح القدس.

أيها الرب الإله، يا حمل الله، يا ابن الآب، الرافع خطايا العالم ارحمنا، يا رافع خطايا العالم، تقبل تضرعاتنا أيها الجالس عن يمين الآب، وارحمنا، لأنك أنت وحدك قدوس،

أنت وحدك الرب يسوع المسيح لمجد الآب، آمين.

في كل يوم أباركك، وأسبح اسمك إلى الأبد، وإلى أبد الأبد.

يا رب ملجأ كنت لنا من جيل إلى جيل، أنا قلت يا رب ارحمني واشف نفسي، لأنني خطئت إليك، يا رب إليك لجأت فعلمني أن أعمل مشيئتك. لأنك أنت هو إلهي، لأن من قبلك الحياة، وبنورك نعاين النور.

ابسط رحمتك على الذين يعرفونك،

قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت ارحمنا.

---

[٧٤] وجد هذا اللحن ضمن "المخطوطة الإسكندرية" (Codex Alexandrinus) التي تحوي كل أسفار الكتاب المقدس بعهديه. وقد شهد البابا أثناسيوس الرسولي أن هذا اللحن كان يرتل في أيامه، وأشار إليه في مقالاته عن البتولية. وما زال يصلى به في افتتاح كل إفخارستيا حسب الطقس البيزنطي، فيما يسمى "المجدلة الكبرى"، كما يرتل أيضًا في الطقس الغربي (اللاتيني) إلى الآن في الأعياد والقداسات الاحتفالية، فيما يعرف أيضًا باسم (Doxologia Major). ويلاحظ التشابه بين نص هذه الصلاة والنص الموجود في الأجبية القبطية في ختام صلاة باكر: "فلنسبح مع الملائكة قائلين المجد لله في الأعالي..إلخ."

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس يوحنا إبن الرعد[٧٥]

رفعنا إليك عيوننا يارب، رفعنا قلوبنا وأفكارنا. أنت الكائن من قبل تأسيس العالم وسوف تكون إلى الأبد. لا يعرف أحد بدايتك أو نهايتك. أنت غير محدود، ولا يقدر أحد أن يحدك، ولا يقدر أحد أن يعرفك أو يراك. أنت تعرف ذاتك وملكوتك غير محدود، وقوتك لا تغلب، وعظمتك لا نهائية ومجدك غير مختفي... ليست لك بداية لكنك تضع بداية لكل شيء. أنت لا نهائي لكنك تضع حدودًا لكل شيء. كل الأشياء منك وكل الأشياء بك، وكل الأشياء لك. أنت في الكل، وفي عظمتك أنت أعلى من العلويين. ومع ذلك إفتقدت المتواضعين بمجيء إبنك. في إحتجابك أنت أبعد من البعيدين، برحمتك أنت تقرب إلى نفسك البعيدين. أنت في الكل، وأنت خارج الكل. عظمتك مختبئة فيك، وقدرتك مختبئة فيك، أنت نفسك تحجب نفسك بنفسك، وتخبىء نفسك بنفسك. أخبرنا عنك إبنك الذي ولدته... هو مكرم مثلك أنت الذي ولدته، أنت أخبرتنا عنه، أنت الشاهد عنه بكلمته، بأنه هو إبنك بالحق، وبأنك أبوه بالحق، هم يعرفونك مع إبنك، وهو لديه مجد مع من ولده. ليس هناك يوم بينك وبينه، وليست هناك ساعة بين الابن وأبيه. ليس الآب أعظم من إبنه، وليس الابن أقل من أبيه... لا يعرف أحد ما بين الابن وأبيه، لكن روحك القدوس الحي يعرف أعماق لاهوتك، لقد أعلن لنا طبيعتك، وأخبرنا عن وحدانيتك، لقد علمنا وحدتك، وأعاننا لمعرفة ثالوثك القدوس، لقد حدثنا عن مساوتك غير الفاسدة، وعن وحدتك غير المنفصلة، وعن طبيعتك غير المتجزئة.

---

[٧٥] انظر حاشية ص ١١٢.

الفصل السادس

الإفخارستيا

حياة النور

الإفخارستيا حياة النور

الله نور، وهو مصدر نور الخليقة كلها. الإفخارستيا تدخل الإنسان إلى الله ليستنير ثانية بالنور الإلهي. أسرار الكنيسة وأعيادها تمنحنا نورًا إلهيًّا، الإفخارستيا تجدد استنارتنا، وتنير أذهاننا، وكل حواسنا. نحن مدعوون لنسير في النور، ونحيا كأنوار تعكس مجد الله.

قصة

كان هناك شابان تربطهما محبة أخوية قوية، أحدهما كان شاب بسيط، يتمتع بعلاقة حية مع الله؛ والآخر كان يجتهد كثيرًا لتكون له علاقة بشكل خاص مع الله، لكنه دائمًا ما كان يشعر بأن هناك حاجزًا ما بينه وبين الله، كما لو كان هناك حائط زجاجي يفصله عنه!

كان هذا الشاب (غير المؤمن) يرى أنه هناك شيء مختلف يميز صديقه، ويميز الذين يَحْيَونَ مسيحيتهم بشكل حقيقي، إلا أنه لم يكن يعرف ما هو هذا الشيء؟ فأخذ يبحث باجتهاد لسنين طويلة، قرأ فيها الكثير من الكتب المسيحية، لكنه لم يجد إجابة عن سؤاله في الكتب! فقرر أن يبحث في الشيء الوحيد الذي لم يبحث فيه من قبل، فتشجع وسأل صديقه إن كان ممكنًا أن يذهب معه إلى الكنيسة لحضور القداس الإلهي!

وبالفعل ذهبا معًا؛ إلا أنه في ذلك اليوم لاحظ شيئًا غريبًا؛ وهو أن وجه صديقه قد مال إلى اللون الأَسْوَد! ولكنه لم يهتم بذلك كثيرًا، وقرر التركيز فيما قد جاء إليه (كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي يدخل فيها الكنيسة)، ولما دخل الكنيسة انبهر بجو العبادة في الكنيسة من بخور، وأيقونات، وأنوار، وملابس الكهنة وترتيل الشمامسة والشعب، فشعر بأنه ليس على الأرض، بل أنه حقًّا في

السماء، بالرغم من عدم فهمه لأي شيء في طقس الصلاة أو اللغة التي يصلى بها من حوله!

جاء وقت التناول، فذهب صديقه للهيكل ليتقدم للتناول كالمعتاد، بينما ظل هو واقفًا في مكانه يتأمل الآخرين، وكيف أنهم بالرغم من اختلافهم في السن والمعرفة، وحتى في المستوى الاجتماعي، إلا أن الشيء الوحيد المشترك بينهم جميعًا، هو إيمانهم بأن ما يتناولوه هو جسد ودم حقيقي ليسوع المسيح!

صلى ذلك الشاب لأول مرة وطلب من الله أن يعلن له إن كانت الأشياء الموضوعة (الأسرار) على المذبح حقيقية، ولكنه لم يتوقع أن يستمع الله لصلاته. لكن فجأة رأى صديقه وهو يخرج من الهيكل بعد التناول وقد خرج من وجهه نور شديد جدًّا، لا يوصف، أضاء وجهه بالكامل، واستمر ذلك للحظات، ثم عاد ينظرُ كل شيء كما كان حسب طبيعته الأولى. في ذلك اليوم حصل ذلك الشاب على إجابة سؤاله، لتتغير بعدها حياته تمامًا!

الله والنور

إن الذي نعرفه عن الله، أو عن طبيعته الإلهية قليل جدًّا، إلا أن الكنيسة تؤمن وتُعلم منذ البدء بأن الله "نور"، كما يقول القديس يوحنا في رسائله "الله نور (Ὁ Θεὸς φῶς ἐστιν)" (١يو١:٥)، لذلك تصلي الكنيسة في القداس الإلهي قائلة: "قدوس، قدوس، قدوس في كل شيء، ومختار بالأكثر هو نور جوهريتك (جوهرك)[١]".

ولكن هذا النور، هو نور غير مخلوق، نور غير مادي، نور غير مفحوص. فالله يتشح بالنور "اللابس النور كثوب" (مز١٠٤:٢)، بل وساكن في النور كما قال بولس الرسول "ساكنًا في نور لا يدنى

---

١ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٠.

منه" (١تي٦:١٦). مما جعل الكنيسة تُسَبِّح الله هي أيضًا قائلة كل يوم عند طلوع الشمس وإشراق النور: "الله نور، وساكن في النور، وتسبحه ملائكة النور[٢]".

ولقد أقرت الكنيسة وأكدت على ذلك في صياغتها لقانون الإيمان (النّيقيّ) داعية المسيح بأنه "نور من نور[٣]". لذلك تستهل الكنيسة خطابها للآب في إحدى صلوات القداس الإلهي، قائلة: "اللَّهُمَّ والد النور[٤]".

لقد علم آباء الكنيسة كثيرًا على مدار الأجيال عن النور الإلهي، وكان من أولهم العلامة أوريجانس (القرن الثاني) القائل: "إن الله روح، ونور[٥]". وقد انعكس هذا النور الإلهي على كتابات وصلوات كثير من آباء الكنيسة عبر العصور؛ فعلى سبيل المثال نجد القديس باسيليوس الكبير يصلي لله الذي هو النور الحقيقي، طالبًا منه نعمة الاستنارة، قائلًا: "أيها الآب، أبا النور الحقيقي (يسوع المسيح)، الذي جمَّل النهار بالنور السماوي، وأبهج الليل بشعاع النار، وأعَدَّ راحة الدهر الآتي بنوره العقلي، الذي لا ينطفئ، أضئ قلوبنا لمعرفة الحقيقة[٦]".

ويعلق القديس غريغوريوس النزينزي (الناطق بالإلهيات)[٧] على النور

---

[٢] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ثيؤطوكية يوم الإثنين، ١:٩.

[٣] "قانون الإيمان"، تشير هذه العبارة أيضًا إلى الولادة الأزلية من الآب، حيث إنها مثل ولادة النور من النور.

[٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، قسمة للآب سنوي، ص ٥٣٧.

[5] Oriegn, *De Prince*.1.1.1

[٦] القديس باسيليوس الكبير، عظات على أيام الخليقة الستة، مرجع سابق، العظة الثانية، الفقرة الخامسة.

[٧] "القديس غريغوريوس النزينزي" (٣٢٩-٣٩٠م) ولد في إقليم "كبادوكيا" (آسيا الصغرى، شرق تركيا حاليًّا) من أسرة أرستقراطية، كانت لأمه التقية "نونا" أثر كبير في نشأته الروحية. تعلم البلاغة والخطابة في نزينزا، وقيصيرية الكبادوك، وأثينا، حتى صار شاعرًا بليغًا. تعرف أثناء دراسته على القديس باسيليوس الكبير وصار صديقًا حميمًا له، وترهب معه لفترة، ثم رسمه أبوه والذي كان أسقفًا على "نزينزا" كاهنًا بعد تمنُّع شديد، ليعاونه في خدمة الإيبارشية، ولكن ما لبث أن تركها هاربًا لشعوره بعظم قدر الكهنوت وجسامة مسئوليته!

الإلهي؛ موضحًا أن نور الثالوث هو كائن في كل مكان، ويسطع بوجه خاص على المؤمنين، فيقول: "الله نور، وهو الأسمى ولا يدنى منه، ولا يوصف، ولا يدرك بالعقل، ولا يعبر عنه في كلمات، وهو الذي ينير كل طبيعة عقلية. إنه كائن بين الأشياء العقلية (كالملائكة)، وبين الأشياء المادية (مثل الشمس)، هو يظهر لنا بقدر ما نتطهر.. فهو يسكب نفسه على كل ما هو خارج عنه، إنه النور الذي نتأمله في الآب والابن والروح القدس، جاعلًا الإنسان ينبهر ببهاء الثالوث[8]."

يقول الكاتب الأمريكي الأصل "ت. س. إليوت" (١٨٨٨-١٩٦٥م): "إن الضوء الذي نراه، هو التذكار الدائم للنور غير المرئي." إن بداية الخليقة كانت مرتبطة بالنور، فكان الله هو مصدر النور للخليقة، وكانت الخليقة كلها تستنير به (تك١:٣)، إلى أن خلق الله الشمس والقمر، الذين هما أنوار مادية (أما الله فهو "نور غير هَيُولِي"، أي غير مادي)[9] في اليوم الرابع من أيام الخليقة الستة (تك١:١٨)، وهذه

رسمه القديس باسيليوس الكبير بعد ذلك أسقفًا على "سازيما"، لكن القديس غريغوريوس لم يتسلم كرسيه وفضل البقاء مع والده الشيخ لمعاونته في الخدمة في "نزيانزا"، إلى أن استنجد به أهل القسطنطينية ٣٩٧م، من طغيان الأريوسيين، فذهب إليهم مدافعًا عن الإيمان، وألقى هناك خطبًا كثيرة، كانت سببًا في رجوع الكثيرين إلى الإيمان المستقيم. وهناك أيضًا ألقى خطبه اللاهوتية الخمس الشهيرة، مقدمًا فيها شرحًا لعقيدة الثالوث، والتي بسببها أطلق عليه لقب (الناطق بالإلهيات). وفي عام ٣٨٠م أقر الإمبراطور رئاسته على كرسي القسطنطينية، الأمر الذي أثار اعتراض البعض، لكونه أسقفًا على "سازيما"، فقدم استقالته عام٣٨١م ورجع إلى "نزينزا"، ثم اعتزل في آخر حياته في مدينة "أرينزا" للتأمل والصلاة والكتابة إلى أن تنيح بسلام. تميزت كتابات القديس غريغوريوس اللاهوتية بإبراز تمايز الأقانيم من جهة الصفات الأقنومية: (اللامولودية) للآب، (المولودية) للابن، (الانبثاق) للروح القدس، ودافع بوضوح عن ألوهية الروح القدس. وللقديس غريغوريوس مؤلفات عديدة منها: ٤٤خطبة، الخطب اللاهوتية الخمس، ٢٤٥ رسالة، وعشرات القصائد العقائدية والأخلاقية والتاريخية، وقام أيضًا بكتابة ليتورجيا للإفخارستيا والتي ما زالت إلى الآن تصلي بها الكنيسة القبطية والكنائس التي تتبع الطقس البيزنطي. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ٢٢٠-٢٢٤.

[8] Gregory of Nazianzus,*Oration* 40.5.

[9] "هيولي" كلمة يونانية من "إيلوس" (ὕλῳος) أي "مادي"، وترد هذه الكلمة أيضًا في صلوات الأجبية "أنقذنا من طياشة الأعمال الهيولية" أي أنقذنا من طياشة الأعمال المادية

الأنوار المخلوقة (الشمس والقمر) هما في الحقيقة يشيران إلى الصانع الأعظم، والنور الحقيقي، الذي لا يدنى منه.

ويوضح القديس باسيليوس الكبير في شرحه لأيام الخليقة أن هناك نورًا أزليًّا سابقًا للخليقة، هو الله، فيقول: "فلنفكر إذا كانت هناك حقيقة ما قبل تشييد هذا العالم، المحسوس والذي فسد لاحقًا، فلا شك أن تلك الحقيقة كانت في النور. لأنه لا يمكن أن تسكن في الظلمات المراتب الملائكية، وسائر الأجناد الفائقة السماوية، والكائنات المُسمّاة، وغير المُسّماة، والأرواح الخادمة لله[١٠]."

إن أول شيء خلقه الله هو "النور" وذلك قبل أن يخلق بقية الكائنات الحية "فقال الله ليكن نور، فكان نور" (تك١:٣)؛ إذ إن النور ضروري للحياة، فبدونه لا توجد حياة بيولوجية[١١]. وبذلك نرى أن النور يقترن بالحياة منذ بدء الخليقة. وأصبحت الظلمة نتيجة لذلك هي انعدام النور، ومقترنة بالموت، فالظلمة غير مخلوقة، والموت هو أيضًا غير مخلوق. فالله لم يخلق شيئًا سيئًا كالظلمة أو الموت: "إن الله نور وليس فيه ظلمة ألبتة" (١يو١:٥)، بل هو دائمًا "صانع الخيرات[١٢]." وكما أن النور المادي، المخلوق هو ضروري للحياة المادية البيولوجية (βίος)؛ هكذا في الحياة الروحية؛ الاستنارة بالنور الإلهي غير المخلوق هو الطريق إلى الحياة الأبدية (Ζωή) "بنور وجهك يسلكون" (مز٨٩:١٥) التي هي حياة في النور.

وحينما خلق الله آدم، كان يحيا في النور، مع الله[١٣]، وكان الله

---

[١٠] القديس باسيليوس الكبير، عظات على أيام الخليقة الستة، مرجع سابق، العظة الثانية، الفقرة الثامنة.

[١١] يعد النور عاملًا مُهمًّا لخلق نظام بيئي متكامل "Ecology" على مستوى كوكب الأرض

[١٢] صلاة الشكر.

[١٣] يعلق المفسرون اليهود في شروحهم (المِدْرَاش) على قصة الخلق والسقوط الواردة في سفر التكوين (أحد الأسفار الخمسة للتوارة)، أن الله خلق آدم على صورته وشبهه في المجد المتمثل في النور الإلهي (الشكيناه)، فكانا آدم وحواء متشحين ومتسربلين بالنور الإلهي الذي مصدره الله، ولما سقط آدم وحواء تَعَرَيَا من هذه الحُلَل النورانية وأدركا أنهما

هو مصدر ضيائه. **وعندما سقط آدم انفصل عن الله مصدر النور** والحياة، وعاش هو ونسله في الظلمة والموت، ويعلق على ذلك القديس غريغوريوس النيصيّ على سقوط آدم، بقوله: "وكأن آدم لا يزال يحيا بداخلنا، فنرى طبيعتنا المستترة بثياب الجلد والأوراق المتساقطة لهذه الحياة الأرضية، الثياب التي صنعناها لأنفسنا عندما نُزع عنا أردية النور، ولبسنا غرور الجسد، وأمجاده وشبعه الفاني بدلاً من الثياب الإلهية"، وبذلك نرى أن آدم في سقوطه، إنما سقط من النور إلى الظلمة!

وفي العهد الجديد نجد أمرًا شبيهًا بذلك، فيهوذا الإسخريوطي كان جالسًا هو أيضًا مع المسيح نور العالم، ولكنه كان من الداخل رافضًا ومقاومًا للنور، فدخله الشيطان (يو١٣:٢٧)، وخرج ليسلم المسيح كما كتب القديس يوحنا الإنجيلي عنه أنه خرج للظلمة، قائلًا: "وكان ليلاً" (يو١٣:٣٠)، لينطبق عليه قول أيوب البار "يدفع من النور إلى الظلمة" (أي١٨:١٨). وهكذا أيضًا كل من يكره أخاه، هو في الحقيقة في ظلمة "ليل" وإن لم يدرك ذلك!

لقد خَيَّم الظلام على العالم كله بعد السقوط، "لأنه ها هي

عريانان. فبادر الله بصنع أردية نورانية (حُلَل للمجد) تمثلت في الأقمصة الجلدية الواردة في (تك٣:٢١). حتى أن أغلب الرباه اليهود والمفسرين للشريعة كما يرد في الترجومين البابلي والأورشليمي يميلون إلى قراءة الآية، على النحو التالي: "وصنع الرب الإله لآدم وامرأته أقمصة من النور (المجد) وألبسهما." ويُكمِل الرباه أيضًا في شروحهم أن آدم ونسله لم يستطيعوا بعد السقوط الإحتفاظ بهذا النور الإلهي، إلى أن جاء موسى النبي الذي منحه الله هذا النور الإلهي، ولكن في هذه المرة مُنِحَ الإنسان النور مع إعطاء "التوراة" على جبل سيناء. فموسى الذي أتى بالشريعة وكان وجهه يلمع بالنور الإلهي، هو في نظر اليهود "آدم الثاني" الذي يرمز للمسيا. وبذلك ارتبطت التوراة (كلمة الله) في التقليد اليهودي منذ بدايتها بالنور والمجد الإلهي، مما جعل اليهود في تراثهم الديني يرون أن مجد إسرائيل يَكمن في التوراة! وللمزيد عن هذا الموضوع انظر:

- *Midrash Rabbah*: *Genesis Rabbah* 20:12 ; *Deutronomy Rabbah* 11:3.
- David H. Aaron, *Shedding Light on God's Body in Rabbinic Midrashim: Reflections on the Theory of a Luminous Adam*, Harvard Theological Review ,(1997), p. 299-314.

الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم" (إش٦٠:٢)، وسيطرت مختلف أعمال الظلمة عليه؛ من عنف، وقسوة، وجهل، وعبودية، حتى قال الله عن الإنسان الذي فسد "قلب بني البشر ملآن من الشر" (جا٩:٣)!

وهذا ما جعل أنبياء وأبرار العهد القديم يَئِنّون من الظلمة ويتوقون للنور، منتظرين متى يأتى الخلاص ومعه النور؛ فنرى الله في سفر أيوب وهو يتكلم عن لسان حال البشرية التي ضلت الطريق في الظلمة قائلًا: "أين الطريق إلى حيث يسكن النور؟" (أي٣٨:١٩)، فيجيب عليه إشعياء النبي بأن عذراء ستحبل: "هوذا العذراء تحبل وتلد إبنًا" (إش٧:١٤)، ونسير في نور هذا الابن الذي خرج منها، "فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك" (إش٦٠:٣).

وداود في سفر المزامير يصرخ من الظلمة طالبًا من الرب أن ينيره: "أنر عيني لئلا أنام نوم الموت" (مز١٣:٣)، فالإنسان حينما يعيش في الخطية يصبح في ظلمة، ومع الوقت تثقل حواسه كالنائم، لذلك يحث بولس الرسول المؤمنين أن يكونوا يقظين روحيًّا ويسلكوا في النور: "جميعكم أبناء نور، وأبناء نهار. لسنا من ليل ولا ظلمة. فلا ننم إذًا كالباقين، بل لنسهر ونصح" (١تس٥:٥،٦). لذلك تسبح الكنيسة مع داود وتطلب من المسيح شمس البر كل يوم أن "ينير حواسنا" كل صباح قائلة: "عندما يدخل وقت باكر إلينا، أيها المسيح إلهنا، النور الحقيقي، فلتشرق فينا حواس النور، ولا تغطينا ظلمة الآلام[١٤]." وميخا النبي أيضًا في العهد القديم كان يعيش على رجاء أنه سيأتي يوم وسيخلص من الظلمة ويرى النور قائلًا: "سيخرجني إلى النور سأنظر بره" (مي٧:٩)، بل وحتى في العهد الجديد، وفي الاختبار النسكي

---

[١٤] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، تسبحة باكر، ذوكصولوجية باكر، الربع ١٤،١٥، ص٤٣٦؛ صلاة باكر من الأجبية، القطعة الثانية

نجد البعض مثل مار إسحق يسعى ويطلب من الله العبور من الظلمة إلى النور، فيقول: "أيها المسيح أخرجني من الظلمة إلى النور، لكي أسبحك تسابيح القلب لا الفم[١٥]".

إن البشرية بعد السقوط ضَلَّت الطريق وأخذت تتخبط في وسط ظلام الموت والفساد وظلت تبحث عن الطريق والنور، بواسطة الناموس والأنبياء اللذين كانا بمثابة بصيص نور ضعيف على إثره يتحسسون طريقهم، لكنهما لم يكونا هما الطريق ولا النور: "اسألوا عن السبل القديمة؛ أين هو الطريق الصالح؟ وسيروا فيه، فتجدوا راحة لنفوسكم" (إر٦:١٦).

ونحن نرى ذروة المشكلة تتضح في صراخ داود النبي القائل: "يا رب طأطئ (شق) سمواتك وانزل" (مز١٤٤:٥)، ومن بعده أيضًا إشعياء النبي الذي صور استغاثة البشرية لله فقال: "ليتك تشق السموات وتنزل" (إش٦٤:١)! وقد استجاب الله لطلب داود النبي ولباقي الأنبياء، فحقق وعده في ملء الزمان، كما تنبأ إرميا قديمًا قائلًا: "حقًّا إن هذا اليوم الذي رجوناه، قد وجدناه، قد رأيناه، فعل الرب ما قصد، تمم قوله الذي أوعد به منذ أيام القدم" (مرا٢:١٦،١٧)!

لقد تجسد الكلمة في ملء الزمان ليكون هو "**الطريق**" (يو١٤:٦)، ولكنه ليس كباقي الطرق إنه الطريق المنير، "وعلى طُرُقِكَ يضيء نور" (أي٢٢:٢٨)، إنه "**النور الحقيقي**" (يو١:٩) نور الآب ذاته (αὐτοφώς). إنه النور الذي ينجلي للأمم "نور إعلان للأمم" (لو٢:٣٢).

وهذا النور يجذب إليه النفوس الجالسة في الظلمة وظلال الموت، بحسب وصف القديس غريغوريوس النزينزي: "إن الله يجذب البشر لنفسه لإنارتهم بنوره[١٦]"، منيرًا عقول الذين يقبلونه، مانحًا إياهم

---

[١٥] *ميامر مار إسحق*، الميمر الأول: ١٩.

[16] Gregory of Nazianzus, *Oration* 21.1.

استنارة روحية، كقول القديس كليمندس الروماني (القرن الأول): "بالمسيح تشخص عيوننا إلى أعالي السماوات، وفيه نرى انعكاس وجه الله الجليل النقي، وبه تنفتح عيون بصيرتنا، وبه تنفتح عقولنا الغليظة المظلمة على النور، وبه شاء السيد أن يُذِيقنَا المعرفة الخالدة[١٧]".

ويشدد القديس كيرلس الكبير (القرن الرابع) على أن أحد أهداف تجسد المسيح هي أن ينير الإنسان وأن تظهر حياته فينا، فيقول: "كان من الضروري أن كلمة الله غير المتغير يصير إنسانًا، ويطلب من الآب العطايا الآتية من عنده، لكي تحفظ بثبات بواسطته في طبيعتنا؛ إذ إن الذي نالها، غير متغير وغير متقلب، فمنذ أن صارت للنعمة هذه البداية (الجديدة)، فهي تستقر في المسيح، وهو يشعها فينا بالمشابهة[١٨]".

النور في العهد القديم

إن الله الرحوم والمحب للبشر منذ الأزل، لم يترك البشرية التي خلقها في العهد القديم بدون نوره تمامًا (بالرغم من السقوط). فعندما أمر الرب بصنع خيمة الاجتماع كان يتراءى الرب على غطاء تابوت العهد بين الكروبين في هيئة نور سماوي يسمى "الشاكيناه[١٩]" (زال مع اختفاء التابوت في السبي البابلي) وكان يمثل حضور الله ومجده وسط شعبه[٢٠]، كما كان يقود شعبه أثناء الليل بعمود نار، أربعين سنة في البرية مضيئًا لهم.

---

[١٧] رسالة القديس كليمندس الروماني إلى كنيسة كورنثوس٣٦:٢.

[١٨] القديس كيرلس الكبير، الكنوز في الثالوث:٢٣.

[19] Cecil Rothe, A., *Encylopedia Judaica,* Keter Publishing House, Jerusalem, 1978.,Vol. 14، pp.1349-1351.

[٢٠] لقد كان اليهود يرون أن مجدهم وفخرهم هو الله "قدوس إسرائيل"، وهذا المجد الإلهي كان يتمثل في خمسة أشياء: الناموس، الهيكل، الذبائح، النار المقدسة، الشاكيناه. وبعد خراب الهيكل سنة ٧٠م لم يتبق لهم من هذا المجد كما يقول الرباه سوى التوارة (الناموس) فقط!

وكانت إحدى الوسائل التي يستطيع بها شعب إسرائيل في العهد القديم أن يعرف إرادة الله وخصوصًا في الحروب هي استخدام حجرين يسميان "الأوريم" و"التميم" (تعني بالعبرية "الأنوار" و"الكمالات") اللذين كانا يعلقان على صدرة رئيس الكهنة، ويتلألآن عند حلول "الشكيناه" وقت تقديم الذبيحة (كانت علامة على قبول الذبيحة)، وكان ضوء باهر يتألق منها أيضًا قبل الخروج للحرب، وبذلك يعرف الشعب أن الرب قد أعطاهم النصرة على أعدائهم ودفعهم ليدهم[٢١].

والحقيقة إن المسيح الذي نتحد به اليوم بواسطة التناول يكون لنا مثل "الأوريم" و"التميم" فالمسيح هو "الأوريم" الحقيقي، أي لأنه هو النور الحقيقي الذي أتى إلى العالم: "النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتيًا للعالم" (يو١:٩)، وكلمته التي نسمعها تنير لنا الطريق، وهو أيضًا "التميم" لأن فيه تمت واكتملت كل النبوات والوصايا. ونحن أيضًا حين نتحد بالمسيح في الإفخارستيا، ننال قوة بها نستطيع أن نتمم وصاياه، أو بالأحرى يتمم هو وصاياه فينا بقوة روحه القدوس. هذا الروح الذي نلناه (في سري المعمودية والميرون) يحل علينا أيضًا في كل قداس إلهي ليصير مرشدًا لنا: "روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية" (يو١٦:١٣).

إننا اليوم في الكنيسة، والتي صارت هي الآن مسكن الله مع الناس، نعاين من خلال "سر الإفخارستيا" ما هو أعظم من الشاكيناه، ومن عمود النار؛ نرى حضور الله بجسده ودمه في وسط شعبه، ونتناول ما يشتهي الملائكة التطلع إليه، فالله لم يعد ينير لنا من بعيد (كما في الماضي)، بل أتى ليتحد بنا وليكون هو نفسه نورنا: "الرب نوري" (مز٢٧:١) المتحد بنا.

---

[٢١] قلت أهمية "الأوريم والتميم" منذ أيام صموئيل النبي، وحلت محلها النبوة (أقوال الأنبياء)، واختفى أثرهما تمامًا بعد السبي البابلي. انظر: *تاريخ يوسيفوس*، المجلد الثالث ٨:٩.

وكل إنسانٍ في المسيح يصير مسكنًا لله، وهيكلًا لروحه القدوس، ويصبح مدعوًّا للتمتع بحضور الرب في حياته، فالرب حين يدخل قلب أو بيت شخص ما ينيره بذاته، ويصبح هذا النور علامة له، كما قال الكتاب: "لكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم" (خر١٠:٢٣)، وفي موضع آخر يقول أيضًا: "أما شعبك المقدس فكان عندهم على الدوام نور عظيم" (الحكمة١٨:١). لذلك تطلب الكنيسة باستمرار هذا النور، قائلة: "فليضئ علينا نور معرفتك الحقيقية، لنضيء بشكلك المحيي[٢٢]".

لقد كان اليهود يحتفلون بالنور أكثر من مرة في السنة، وذلك بإنارة منائر الهيكل (menorah) أولاً في "عيد التجديد" (أحيانًا يسمى بعيد "الأنوار")[٢٣] حيث يحتفل بذكرى تجديد الهيكل وتطهيره في أيام يهوذا المكابي، وقد احتفل به السيد المسيح (يو١٠:٢٢). والعيد الثاني هو "عيد المظال"، وهو أحد أكبر ثلاثة أعياد لدى اليهود، وكان يستمر لسبعة أيام ويعقبها يوم ثامن (رقم ثمانية يرمز للأبدية والقيامة) كعيد منفصل، وكان هذا العيد يتميز بطقسين هامين؛ الأول هو طقس "سكب المياه"، والثاني هو طقس "إنارة الهيكل[٢٤]". حيث كانت تنار أربعة منائر كبار في رواق النساء، يصعدون إليها بسلم وتضاء بزيت نقي، وتصنع فتائلها من ملابس الكهنة البالية، وفي نهاية كل منارة أربعة سرج[٢٥]، تضيء بنور عظيم (يتزامن هذا العيد دائمًا مع إنتصاف القمر مما يزيد من الإضاءة) لدرجة أنه

---

[٢٢] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، قسمة القيامة، ص ٥٢٣.

[٢٣] يعرف حاليًا بين اليهود بعيد "الحانوكاه" أي "التدشين"، تذكارًا لتجديد الهيكل وتدشينه.

[٢٤] بحسب التلمود (التقليد اليهودي المكتوب) كان يتم في اليوم الأخير والعظيم من العيد (اليوم السابع)، والذي يدعى"هوشعنا رباه" (Hoshana Rabbah) أي (خلاصنا العظيم) إحضار الماء بفرح من بركة سلوام، ثم يسكب مع الخمر على المذبح *Sukkah* 5:1، وفي هذا اليوم تحديدًا وقف السيد المسيح في الهيكل وقال عن نفسه أنه هو "الماء الحي" (يو٧:٣٨).

[25] *Sukkah* 5:2.

كان يقال أنه من شدة الإنارة وإنعكاس النور على جدران الهيكل المكسوة بالذهب، أنه لم تكن هناك ساحة واحدة في أورشليم كلها، لم تكن تضاء بالنور المنبعث من الهيكل[٢٦]! في هذا اليوم بالذات يخبرنا الإنجيل أن السيد المسيح وقف وأعلن للجميع أنه هو "نور العالم" (يو٨:١٢). وقام في هذا اليوم أيضًا بفتح عيني المولود أعمى (يو:٩)، وأعطى النور لعينيه، وذلك عن طريق الاغتسال في بركة سلوام التي كان الذهاب إليها جزء أساسيًّا من الاحتفال بعيد المظال. وبذلك ربط المسيح بين الماء والنور وبين شخصه، موضحًا أنه هو المقصود والمرموز إليه في هذا العيد؛ فهو "الماء الحي"، و"النور الحقيقي" معًا فهو "نور الحياة" (يو٨:١٢).

وبيت الله (الكنيسة) يرتبط دومًا بالنور، فهو مسكن النور والبركة. حيث المذبح فيه هو مصدر نورنا: "النور المنبعث من المذبح" (المكابين الثاني١:٣٢)، ومنه (المذبح) تنبع كل الأسرار حيث ذبيحة المسيح كائنة في كل إفخارستيا تقيمها الكنيسة، فمن "المذبح" تتدفق كل النعم، كما من نبع جار!

كان الناس في العهد القديم يتصورون الجحيم على أنه مكان مظلم في أسفل الأرض مثل حفرة أو هوة عميقة تذهب إليها أنفس جميع الموتى حتى الأبرار، كما قال أيوب في سفره: "ليرد نفسه من الحفرة ليستنير بنور الأحياء" (أي٣٣:٣٠) ودعوا ذلك المكان "شيول[٢٧]". وكان الناس في الجحيم حتى الأنبياء والأبرار (جميع البشرية قبل الفداء، أبرار أو أشرار كانوا يذهبون للجحيم كمكان إنتظار) يمكثون كأنهم نائمون أو في حالة نصف وعي، ويحيون حياة ظلية.

---

[26] Ibid.

[٢٧] أيضًا نجد في الأساطير الهلينية ما يشبه الجحيم (شيول) الموجود عند اليهود، فاليونانيون كانوا يرون أن هناك عالم سفلي يذهب إليه الموتى يسيطر عليه الإله "هادس" (Hades) إله الموتى والعالم السفلي، وهو ابن الإله "كرونوس" وأخو الإله "زيوس" و"بوسيدون"، وصار يسمى هذا الإله عند الرومان فيما بعد "بلوتو".

حيث الجميع مقيدون في الظلمة ومغلق عليهم، منتظرين مجيء المسيا، ليخلصهم، ويصف كاتب المزمور ذلك قائلًا: "الجلوس في الظلمة وظلال الموت، موثقين بالذل والحديد... أخرجهم من الظلمة وظلال الموت، وقطع قيودهم... لأنه كَسَّرَ مصاريع نحاس، وقَطَّعَ عوارض حديد" (مز١٠٧:١٠،١٤،١٦).

النور والفصح

لقد نزل السيد المسيح إلى الجحيم يوم "سبت النور"؛ في حين ظل "بجسده" في القبر. هذا اليوم (السبت الكبير، أو سبت النور) هو الذي سبق وأن رمز له موسى النبي سريًّا (رمزيًّا) باليوم السابع (يوم السبت)، يوم الراحة. فالرب واضع الناموس حتى وهو في القبر لم يكسر الوصية التي سبق وأعطاها في العهد القديم الخاصة بحفظ السبت والتي هي إحدى الوصايا العشر، وعلامة العهد بين الله وشعبه (لدى اليهود)! فاستراح في القبر يوم السبت "بالجسد" بعد أن أكمل كل أتعابه وآلامه وأعماله (الخلاص)، مثلما استراح في القديم بعد أن أكمل أعمال خليقته الأولى في اليوم السابع، فنزل المسيح "**بنفسه البشرية المتحدة باللاهوت**" ليخلص نفوس أبرار العهد القديم بدءًا من آدم وحواء، لذلك يصلي الكاهن في القداس قائلًا: "أعطيت إطلاقاً لمن قبض عليهم في الجحيم[٢٨]".

نزل "**الحياة**" إلى أقسام الأرض السفلى فتشققت القبور، وقام الأموات بقوة الذي هو في ذاته الحياة، وواهب الحياة "الأرض تزلزلت، والصخور تشقَّقت، والقبور تفتَّحت، وقام كثير من أجساد القِدّيسين الراقدين، وخرجوا من القُبور بعد قيامته، ودخلوا المدينة المقدَّسة، وظهروا لكثيرين" (مت٢٧:٥١-٥٣).

---

[٢٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٤.

نزل النور الحقيقي لعمق الظلمة في الجحيم كقول بولس الرسول "إذ صعد إلى العلاء سبَى سبيًا، وأعطى الناس عطايا، وأما أنه صَعِدَ فما هو إلا إنه نزل أيضًا أولاً إلى أقسام الأرض السُّفلى. الذي نزل هو الذي صعد أيضًا فوق جميع السماوات، لكي يملأ الكل" (أف٤:٤-١٠). كما وتعبر الكنيسة عن ذلك في القداس الإلهي بقولها "نزل إلى الجحيم من قِبَل الصليب[٢٩]"، وقام ليجعل كنيسته منيرة بنوره كما وصفها يوحنا الحبيب في سفر الرؤيا "إمرأة متسربلة بالشمس، والقمر تحت رجليها" (رؤ١٢:١).

نزل ليشرق ويضيء على المقيدين في الظلمة وظلال الموت، نزل إلى الجحيم ليضيء على الذين سبق وتم سبيهم في الظلمة، واهبًا لهم الحياة والنور: "النور الحقيقي الآن يضيء" (١يو٢:٧)، منتصرًا على الموت والظلمة، ومحررًا إياهم من أسر الشيطان. وناقلاً إياهم إلى موضع الراحة في الفردوس، كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "الآن أضاءت علينا إشعاعات من نور المسيح المقدس، وأشرقت علينا أضواء صافية من الروح القدس النقي، وانفتحت علينا كنوز سماوية، من المجد والألوهة! لقد ابتُلع الليل الكثيف الحالك، وانقشع الظلام الدامس، واختفى ظل الموت الكئيب. الحياة امتدت وشملت كل واحد، وامتلأ الجميع من النور غير المحدود. الفجر الجديد أشرق على الجميع، والمسيح العظيم القوي غير المائت الذي قبل كوكب الصبح، بل وقبل كل الأجسام المنيرة، صار يضيء الآن على الجميع أكثر من الشمس. بسبب ذلك أوجد لنا نحن المؤمنين به، يومًا جديدًا مضيئًا، عظيمًا أبديًا، لا ينقص نوره، إنه الفصح السري الذي كانوا يحتفلون به رمزيًا في الناموس، ولكنه الآن اكتمل بالتمام في المسيح[٣٠]".

---

[٢٩] المرجع نفسه، القداس الباسيلي، ص ٢٢٥.

[٣٠] عظة فصحية من القرن الثاني، وجدت محفوظة مع كتابات القديس يوحنا ذهبي الفم.

وقام الرب بعد ثلاثة أيام في "أحد القيامة"، ليصير "الأحد" بديلًا عن "السبت" الذي كان في العهد القديم[٣١]. كما أن الأنبياء تنبأوا عن مجيء يوم راحة آخر عوض السبت (الذي كان رمزًا ليوم الراحة الأبدية "الأحد") "لأنه لو كان يشوع قد أراحهم (من خلال يوم السبت)، لما تكلم عن يوم راحة آخر (يوم الأحد)" (عب٤:٨). فيوم السبت لم يلغ لكنه استمر في الكنيسة بشكل آخر، وهو يوم الأحد، ليكون هو "**يوم الخليقة الجديدة**[٣٢]"، و"**يوم النور**".

واليوم الأحد (القيامة) الذي تحتفل فيه الكنيسة منذ البداية بالإفخارستيا وإلى الآن كعيد أسبوعي نحتفل فيه بالفصح (القيامة)[٣٣]. كما يشهد سفر أعمال الرسل، وكتابات الآباء مثل القديس يوستينوس والشهيد الذي كتب أنه في أيامه كانت يحتفل بالذبيحة الإلهية دائمًا يوم الأحد، فيقول: "ويوم الأحد هو بالحقيقة اليوم الذي نعقد فيه اجتماعنا المشترك (الإفخارستيا) لأنه اليوم الأول الذي حَوَّلَ الله الظلمة (إلى نور)، والمادة وخَلَقَ العالم (أي بدء في خلقته)، وفيه أيضًا قام مخلصنا يسوع المسيح من الموت... وظهر لتلاميذه ورسله وعلمهم الأشياء التي نقلناها لكم للتأمل فيها[٣٤]".

لقد كانت الكنائس قديما تحتفل بأحد الفصح (عيد القيامة)

---

[٣١] وصايا الله ووعوده وبركاته في العهدين أبدية، ولكن فيما يخص العهد القديم فقد كان كثير من الوعود والبركات لها بعدان؛ بعد "زمني" (مؤقت) أرضي، وبعد آخر "أبدي" (روحي) يتحقق في الأبدية التي تبدأ من العهد الجديد. أما "أعمال الناموس" فقد تحولت في العهد الجديد إلى ممارسات روحية أخرى كالأسرار.

[٣٢] يرى اليهود في تقليدهم أن أول يوم في أيام الخليقة الستة كان يوم "الأحد"، لذلك دعوه اليوم الأول من الأسبوع "إحاد" (جاء منه كلمة أحد). أما بعد قيامة المسيح فقد دعت الكنيسة يوم الأحد "الكيرياكي" أي "يوم الرب" لأنه يوم قيامة المسيح، ويوم الخليقة الجديدة، حيث المسيح القائم صار هو بكر القائمين، وباكورة الخليقة الجديدة.

[٣٣] تحتفل الكنيسة يوم الأحد بالقيامة كعيد أسبوعي، ومرة كل شهر في اليوم التاسع والعشرين من كل شهر قبطي (تذكار شهري)، وسنويًا في أحد القيامة "عيد الفصح"، والخمسين يومًا التي تلي الفصح "الخماسين المقدسة"، كما وتذكر الكنيسة القيامة في صلاة باكر (الأجبية). وبذلك تحتفل الكنيسة دومًا بالقيامة يوميًا، وأسبوعيًا، وشهريًا، وسنويًا.

[٣٤] القديس يوستينوس، مرجع سابق، الدفاع الأول:٦٧.

بأن تطفئ أنوار الكنيسة وتضاء شمعة كبيرة تسمى بالشمعة الفصحية (ترمز للمسيح القائم) يضيء منها جميع الشعب شموعهم في حضور المعمدين (الحاصلين على سر الاستنارة يوم سبت النور) وهم أيضًا يمسكون في أياديهم شموعًا، وما زال إلى الآن تطفأ أنوار الكنيسة أثناء تمثيلية القيامة ثم تضاء الأنوار لتبدأ دورة القيامة بالشموع، وفي ذلك محاكاة لليوم الأول (الأحد) في أيام الخليقة الستة، حيث أمر الله أن يشرق النور من الظلمة قائلًا: "ليكن نور" (تك١:٣). كما أن هذا الطقس يشير إلى انتصار المسيح على الشيطان؛ والنور على الظلام؛ انتصار المسيح الحياة على الموت، ومنحه الحياة والنور للذين في القبور، فالذين كانوا سابقًا عائشين في ظلمة الخطية صاروا الآن يسمعون صوت المسيح قائلًا: "استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضيء لك المسيح" (أف٥:١٤). فالكهنة والشمامسة يطوفون الكنيسة بأيقونة القيامة (في عيد القيامة والخماسين)، لنتذكر دومًا أننا مدعوون لننضم إلى موكب نصرته، حيث المسيح نفسه يقودنا ونحن نتبعه "الذي يقودنا في موكب نصرته، في المسيح كل حين" (٢كو٢:١٤).

وبهذا نرى أن **القيامة ترتبط دائمًا بالنور** فلكي نستنير ينبغي أن نقوم أولاً مع المسيح: "قومي استنيري لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليك" (إش٦٠:١). **فكل إنسان يشترك في قداس عيد القيامة (أو قداس الأحد) ينبغي أن يحتفل بقيامته ونصرته هو شخصيًّا** (في المسيح) على الموت والخطية (التي حققها المؤمن مع بقية الجسد "الكنيسة" أثناء مسيرة الصوم الكبير) فنحن إنما نحتفل بقيامتنا "نحن" مع المسيح "وأقامنا معه" (أف٢:٦)، واستنارتنا به "أجعل الظلمة أمامهم نورًا" (إش٤٢:١٦).

والكنيسة قبل قراءة أي إنجيل تذكرنا بهذه الحقيقة حيث

نصلي قائلين: "لأنك أنت هو حياتنا كلنا، وخلاصنا كلنا... وقيامتنا كلنا[٣٥]"، والقداس الإلهي ليس هو إحياء لذكرى أحداث تاريخية تمت في الماضي لا تخصنا، بل إن الإفخارستيا هي امتداد لحياة ووجود المسيح وعمله في الكنيسة، واستمرار لحضوره المنير في المؤمنين. والإفخارستيا تسبقها دومًا التوبة والاعتراف والذي يعد استعدادًا لها، فكل مرة نتوب فيها ونرجع إلى الله، نرجع بالحقيقة إلى ذاك الذي دعانا من الظلمة إلى النور "الذي دعاكم من الظلمة إلى نوره العجيب" (١بط٢: ٩)، ونقوم من الموت للحياة. متذكرين ذاك الذي أشرق في قلوبنا بنور معرفته "لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة، هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله، في وجه يسوع المسيح" (٢كو٤: ٦).

فالتوبة تنقل الإنسان إذا جاز التعبير، من عصر الظلمة إلى عصر النور[٣٦]. فالتوبة حينما تشرق في النفس تجعل الإنسان كله نيرًا بالله، وتلك الاستنارة[٣٧] التي تشمل الحياة المسيحية كلها، تُقْتَنى بالتوبة، والتي تجذب الآخرين أيضًا إليها بحسب قول القديس غريغوريوس اللاهوتي: "يجب أن نمتلئ ونتنقى بالمخافة فنستنير بالله، حينئذ يؤهل الإنسان إلى ما هو أسمى... فحيثما توجد النقاوة توجد الاستنارة، والاستنارة هي شبع الذين يطمحون في الأمور العظمى، أو بالحري يطمحون إلى الكائن الأعظم الذي يسمو فوق كل

---

[٣٥] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية الإنجيل، ص٨٣.

[٣٦] كانت العصور الوسطى في أوربا تسمى عصور الظلمة (dark ages)، ثم تلاها عصر النهضة "renaissance" (بدءًا من القرن الخامس عشر) حيث بدأ الاهتمام بالتعليم والثقافة (تنوير)، وأصبح "النور" عنصرًا أساسيًا في النتاج الثقافي لذلك العصر، وبالأخص في الأعمال التصويرية حيث التركيز على "الضوء والظل" كان أحد السمات الأساسية للفن في تلك الفترة.

[٣٧] يرى البعض في سر المعمودية الذي يدعى أيضًا "سر الاستنارة"، كما لو أن الله يقول للإنسان المعمد الذي استنار "لتكن نورًا" كما في اليوم الأول من الخلق، فيحيا بعد ذلك الإنسان كنور في العالم كما أوصى السيد المسيح.

عظمة... إننا حينما نهرب من الشرير ونصنع الفضائل، جاعلين المسيح يسكن داخلنا بالكلية، أو على الأقل بقدر الإمكان، حينئذ نكون قد أنرنا أنفسنا بنور المعرفة... ونضيء للآخرين. تعالوا إذًا لننقي أنفسنا ونتجه نحو الكلمة (المسيح) عاملين الصلاح قدر جهدنا، لكي تصير نفوسنا على صورة الله، فنستقبل الكلمة داخلنا عندما يأتي، ليس فقط نستقبله، بل بالحقيقة نتمسك به في داخلنا، ونظهره للآخرين[٣٨]." ويكمل بعدها القديس "غريغوريوس النزينزي" بقوله: "الاستنارة هي إشراق النفوس وتحول الحياة، إنها إستغاثة الضمير لله. الاستنارة هي عون لضعفنا، وقمع للجسد، وسلوك بحسب الروح، وشركة مع الكلمة. الاستنارة هي ارتقاء للخليقة وتحطيم للخطية، وشركة في النور وانحلال الظلمة. هي مركبة تقود الإنسان لله، وموت مع المسيح. هي اكتمال العقل، وترس الإيمان، ومفتاح ملكوت السموات. هي تغيير الحياة وإزالة الأوساخ، وحل القيود وتجديد كياننا... إنها أعظم عطايا الله[٣٩]"! لذلك تشكر الكنيسة راعيها الأعظم الذي يشرق على البعيدين ويردهم إلى حظيرة الإيمان قائلة: "كنور حقيقي أشرقت للضالين وغير العارفين[٤٠]." فهو الذي أعطانا أيضًا أنه في كل مرة نداوم على مناجاة اسم يسوع، وترديد اسمه القدوس، يضيء المسيح داخلنا "فليكن اسم الرب فينا، ليضيء علينا في إنساننا الداخلي[٤١]."

إننا في كل مرة نتناول فيها من جسد الرب ودمه، ننفصل عن الظلمة ونتحد بالنور، ننفصل عن الموت ونتحد بالحياة: "الذي أصعدنا من العمق إلى النور، الذي أعطانا الحياة من الموت... الذي جعل ظلمة

---

38 Gregory of Nazianzus, *Oration* 39,8-10.

39 Ibid. 40:3.

٤٠ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٣.

٤١ الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، إبصالية يوم الإثنين، الربع الثاني عشر، ص ٢٧٥.

الضلال التي فينا تضيء، من قبل (بواسطة) إتيان (مجيء) ابنك الوحيد بالجسد[٤٢]." ففي الإفخارستيا تستنير وتستضيء أذهاننا وقلوبنا وكل حواسنا، وتصبح أعمالنا أعمال نور "فليضئ نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة، ويمجدوا أباكم الذي في السماوات" (مت٥:١٦). إننا في الإفخارستيا نحيا عربون الملكوت، ونقتني النور داخلنا، ونتحد به فيصير المسيح الذي تناولناه نورًا أبديًّا لنا، كما قال إشعياء: "الرب يكون لك نورًا أبديًا" (إش٦٠:١٩،٢٠).

إننا في الإفخارستيا نستقبل داخلنا نور المسيح الذي يمكن أن يشعر به الآخرون من حولنا (إذا حافظنا عليه وتجاوبنا معه) كما يتكلم القديس يوحنا الدرجي في سلمه الروحي عن الشخص الذي ملأ الرب حياته بالنور قائلًا: "عندما يتحد الإنسان بالله، ويمتلئ داخليًّا بالحب الإلهي، يمكن لنا أن نشاهد في جسده الهدوء، في نفسه النور، كما لو أننا ننظر في المرآة، وذلك كما حدث مع موسى عندما تأهل لرؤية الله، فشع وجهه بالنور[٤٣]".

النور الإلهي في كنيسة العهد الجديد

إن الكتاب المقدس في بداية سفر التكوين يتحدث عن النور والحياة، وأيضًا القديس يوحنا الإنجيلي يتحدث بالمثل هو الآخر عن النور والحياة في بدء إنجيله[٤٤] فيذكر أن المسيح (الكلمة) كان في البدء، وأنه هو النور الحقيقي، وأنه هو الحياة رابطًا إياهما معًا قائلًا: "فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس" (يو١:٤). إن هذا النور

---

[٤٢] الخولاجي المقدس، قسمة للآب سنوي، ص ٥٣٧.

[٤٣] القديس يوحنا الدرجي، السلم إلى الله، مرجع سابق، ٣٠:١٧.

[٤٤] يعد إنجيل يوحنا أكثر الأناجيل التي كتبت عن الحياة والنور، حيث وردت كلمة "نور" ما يقرب من عشرين مرة في إنجيل يوحنا وحده!

الحقيقي (الابن) هو الذي كان في البدء في سفر التكوين، وهو الذي خلق العالم: "كان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتيًا إلى العالم. كان في العالم وكُوِّنَ العالم به، ولم يعرفه العالَم" (يو١:٩،١٠).

وقد تجسد المسيح الذي هو النور الحقيقي، وشمس العدل، من القديسة مريم والدة الإله: "أشرق جسديًّا من مريم العذراء، بغير زرع بشر، حتى خلصنا[٤٥]"، وذلك ليعيد خلق الإنسان من جديد معطيًا له الحياة، وواهبًا له الاستنارة التي فقدها، وذلك بأن أخذ طبيعتنا التي كانت مظلمة واتحد بها فأعاد إليها النور بحسب شرح القديس أثناسيوس الرسولي: "لأنه لو كان حلوله في جسدٍ أمرًا غير لائق، لكان من غير اللائق أيضًا أن يوجد في الكون كله، ويعطي بعنايته نورًا وحركة لكل الأشياء، لأن الكون أيضًا هو جسم، فإن كان قد لاق به أن يرتبط بالكون، وأن يعرف في الكون كله، فإنه يليق به أيضًا أن يظهر في جسد بشري، وأن ينير هذا الجسد ويعمل به، لأن البشرية هي جزء من الكل (الكون كله) كغيرها من الأجزاء[٤٦]".

وقد أعلن السيد المسيح عن نفسه أنه هو نور العالم قائلًا: "أنا نور العالم" (يو٩:٥)، وقال أيضًا إن المؤمنين به هم أنوار للعالم أيضًا: "أنتم نور العالم" (مت٥:١٤). إن بنوتنا لله، واتحادنا به يجعلنا نضيء بنور المسيح، إننا نضيء ليس من أنفسنا، بل من الله الذي هو مصدر النور الحقيقي، بينما نحن أوعية ومصابيح تحمل نور الله للعالم.

وعن أهمية أن يظهر نور الإيمان الذي فينا للآخرين يوصي القديس أثناسيوس الرسولي المؤمنين بقوله: "يجب أن تضيئوا بلمعان الإيمان[٤٧]"، فنحن نستنير بنور الثالوث كما قال القديس غريغوريوس الناطق

---

[٤٥] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، مرد ثيؤطوكية يوم الإثنين، ص ٢٨١.

[٤٦] البابا أثناسيوس الرسولي، تجسد الكلمة، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مرجع سابق، الفصل ٤١: ٦،٧.

[٤٧] القديس أثناسيوس الرسولي، *الرسالة إلى أبكتيتوس أسقف هيرموبوليس.*

بالإلهيات: "تصيرون أنقياء، فتصيرون كأنوار في العالم، فتدركون سر الاستنارة السمائية، وتستنيرون بنور الثالوث بأكثر كمال وبهاء، الذي منه تتقبلون من الآن جزئيًّا على قدر ما تستطيعون، هذا الشعاع الواحد[٤٨]."

إن القديس مقاريوس الكبير يكتب في إحدى عظاته عن كيف أن المؤمنين يجب أن يكونوا مضيئين مثل المسيح، فيقول: "المسيحيون إذن هم من عالم آخر، وهم أولاد آدم السماوي (المسيح)، جنس جديد، أولاد الروح القدس، وإخوة المسيح المضيئون، مثل أبيهم آدم السماوي المضيء. وهم من تلك المدينة، ومن ذلك النسب، ومن تلك القوة (السماوية)، إنهم ليسوا من هذا العالم، بل من عالم آخر[٤٩]"!

وكتب الروائي الروسي الشهير "ليو تولستوي" (١٨٢٨-١٩١٠م) قائلًا في أحد أعماله[٥٠]: "كما أن الرسام بحاجة إلى النور، لكي يتمكن من إضفاء لمساته الأخيرة على اللوحة، كذلك أحتاج أنا إلى نور داخلي." إن إشراق النور الإلهي في النفس وفي الكنيسة كان منذ البدء مصدرًا لإلهام الكثير من آباء الكنيسة الذين وصفوا ذاك النور الإلهي وأثره في تنقية النفس، بل والعالم كله. وكان من بين أولئك الآباء؛ القديس كليمندس السكندري الذي أسهب في الكتابة عن النور الإلهي قائلًا: "مرحبًا أيها النور! لأن النور قد أشرق من السماء، النور الذي هو أطهر من الشمس، وأحلى من الحياة الأرضية، أشرق فينا نحن الغارقين في الظلمة، والمحبوسين في ظلال الموت. هذا النور هو الحياة الأبدية، وكل من يشترك فيه يحيا. إن الليل يخاف من النور ويختبئ مرتعدًا وهكذا يفسح المكان ليوم الرب (الأبدية والتي يرمز لها بيوم" الأحد"). النور الذي لا ينام الآن هو فوق الكل،

---

[48] Gregory of Nazianzus, *Oration* 39.20.

[٤٩] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، العظة ٨:١٦.

[٥٠] ليو تولستوي، *الخريف*.

والغرب قد أعطى ثقته للشرق (أي أصبح مثل الشرق)، فهذا هو معنى الخليقة الجديدة. لأن "شمس البر" الذي يقود مركبته فوق الكل، ينتشر الآن بالتساوي في كل البشرية، مثل أبيه "الذي يشرق شمسه على كل البشر"، ويفيض عليهم ندى الحق. لقد غير الغروب إلى شروق، وبالصليب حول الموت إلى حياة؛ وإذ أنقذ الإنسان من الهلاك، قد رفعه إلى الأجواء العليا، محولاً الموت إلى خلود، ونقل الأرض إلى سماء[٥١]".

إن الذين يرفضون الرب، أو يرفضونه في الآخرين (عندما نكرههم) في الحقيقة يسلكون في ظلمة "وأما من يبغض أخاه فهو في الظلمة، وفي الظلمة يسلك، ولا يعلم إلى أين يمضي، لأن الظلمة أعمت عينيه" (١يو٢:١١)، بل يتحاشون نور الرب، ويتوارون منه! هولاء يقول عنهم القديس يوحنا ذهبي الفم: "كيف يمكن لمن هو نور العالم أن يختبئ؟ ومع أن الشمس يشرق ضياؤها في كل مكان، إلا أنه ما أسهل للإنسان أن يحجب النور، ويخلق لنفسه جوًّا من الظلام (إذا دخل واستتر في شيء)! أما في الأبدية لن تكون هناك ظلمة ألبتة، بل نور دائم، وسيكون الله هو مصدر هذا النور: "ولا يكون ليل هناك، ولا يحتاجون إلى سراج أو نور شمس، لأن الرب الإله ينير عليهم" (رؤ٢٢:٥)، فهؤلاء إنما يرفضون (للأسف) النور، ويكون نصيبهم المكوث في ظلمة هذا العالم "الذين لا يعاينون النور إلى الأبد" (مز٤٩:١٩).

وتبرز الكنيسة "النور الإلهي[٥٢]" في عدة أعياد، ومن أبرزها "عيد

---

[51] *Protrept.*11.88.

[٥٢] يمثل "النور الإلهي" عنصر أساسي في الاحتفال الليتورجي لبعض الأعياد مثل: الميلاد، الغطاس (الظهور الإلهي)، التجلي، سبت النور، الفصح (القيامة). وفي الغرب يحتفل بالنور الإلهي أيضًا في عيد دخول السيد المسيح إلى الهيكل (بعد أربعين يومًا من مولده)، نظرًا لاستعلان المسيح كنور يتجلى للأمم كما قال سمعان الشيخ: "نور إعلان للأمم" (لو٢:٣٢)، لذلك يتم مباركة الشموع وتوزيعها على الشعب في هذا العيد.

الغطاس" لارتباط النور بالظهور الإلهي، فالقديس غريغوريوس النزينزي انتهزها فرصة في إحدى عظاته عن عيد الغطاس ليذكر شعبه بأهمية وارتباط النقاوة بالاستنارة، قائلًا : "فلنطهر كل عضو يا إخوتي، لنطهر كل حاسة، لا ندع فينا شيئًا دنسًا من ميلادنا الأول (الميلاد الجسدي)، لا ندع فينا شيئًا غير مضيء." وفي عظة أخرى له دعى فيها عيد الغطاس بأنه "**عيد الأنوار**" وأكد فيها على أن المصدر الحقيقي للاستنارة هو الله، قائلًا: "عيد الأنوار المقدسة (عيد الغطاس)، الذي قد جئنا لنحتفل به اليوم، إنه معمودية المسيح الذي هو النور الحقيقي، الذي ينير لكل إنسان آتٍ إلى العالم... إن المسيح يسند طهارتنا، ويعضد النور الذي أخذناه منه في البداية من فوق، ثم انطفأ، وشوه بالخطية (ما نقترفه من خطايا بعد العماد)[٥٣]".

كما أن "**عيد التجلي**" أيضًا يتضح فيه جليًّا نور المسيح على جبل طابور. وأيضًا في "**عيد القيامة**" (الفصح) الذي نحتفل فيه بقيامة المسيح، الذي هو باكورة لقيامتنا (نحن) العامة، حين نقوم بجسد نوراني ممجد كما قام المسيح. الأمر الذي يتضح في تعاليم آباء الكنيسة، فنجد القديس مقاريوس الكبير مثلاً يَقْرِن تجلي المسيح وقيامته، بقيامة الراقدين وتجليهم بجسد نوراني ممجد في القيامة العامة: "كما أن جسد الرب تمجد لما صعد إلى الجبل، وتجلى بالمجد الإلهي، وبالنور اللانهائي، هكذا أيضًا أجساد القديسين ستتمجد وتضيء كالبرق. فكما أن مجد المسيح الكائن داخله، قد امتد إلى جسده أيضًا وجعله يضيء، هكذا أيضًا سيحدث بالمثل للقديسين، أن قوته الكائنة داخلهم ستمتد في ذلك اليوم إلى الخارج أيضًا وتفيض على أجسادهم... "أنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني" (يو١٧:٢٢)، فكما أن مصابيح كثيرة توقد جميعًا من نار واحدة،

---

[53] Gregory of Nazianzus, *Oration* 39.1.

هكذا أيضًا بالضرورة، لا بد أن أجساد القديسين التي أعضاء المسيح تصير على حال المسيح نفسه[٥٤]".

والحقيقة أن كل أسرار الكنيسة تمنح المؤمنين استنارة، كل سر بطريقة متميزة: "الرب هو الله وقد أنار لنا" (مز١١٨:٢٧)، لذلك لا نخطئ في شيء إذا ما دعونا أسرار الكنيسة بأنها "**أسرار النور**"، فبواسطتها يتوزع النور (الاستنارة) على المؤمنين: "في أي طريق يتوزع النور؟" (أي٣٨:٢٤).

فمن خلال المعمودية التي هي باب الأسرار ننال التبني للآب، ونصبح أبناء لله، وأبناء للنور (يو١٢:٣٦) "قوموا يا بني النور، لنسبح رب القوات[٥٥]"، وذلك من خلال المسيح (الابن) الذي هو نور الآب كما نصلي "نورك الحقيقي ابنك الوحيد، ربنا وإلهنا ومخلصنا، وملكنا كلنا يسوع المسيح[٥٦]"، إنه النور المولود من الآب بسر لا يدرك "نور من نور"، فنحن نولد من الآب بطريقة سرية في سر المعمودية، نولد من النور (الآب) على نحو عجيب، ونلبس المسيح (الابن) الذي هو نور، لذلك المعمودية تدعى استنارة، إنها "**حميم النور**"! فنحن في المعمودية نلبس ثياب النور، ثياب التجلي، ثياب البر، "الحُلَّة الأولى" (لو١٥:٢٢) التي فقدها آدم ونسله بالخطية فصار عريان من النعمة والمجد الإلهي. إن للإفخارستيا دورًا هامًّا في تجديد وحفظ نقاوة هذه الثياب، بل وجعلها أكثر إشراقًا كما قال يوحنا الرائي في سفره: "الذين غسلوا ثيابهم، وبيضوا ثيابهم في دم الخروف" (رؤ٧:١٤).

إننا في كل يوم وفي كل شيء نفعله مدعوون لنخلع ونترك الظلمة ونلبس النور، كقول معلمنا بولس الرسول: "فلنخلع أعمال الظلمة،

---

٥٤ عظات القديس مكاريوس الكبير، مرجع سابق، العظة ١٥:٣٨.

٥٥ الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، لحن "تين ثينو ⲧⲉⲛ ⲑⲏⲛⲟⲩ" أي "قوموا يا بني النور"، ص ٤٧.

٥٦ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، ص ٤١٠.

ونلبس أسلحة النور" (رو١٣:١٢)، في كل مكان، في البيت وفي الكنيسة، وفي العمل..إلخ إن دعوتنا هي السير في النور: "هلم فنسلك في نور الرب" (إش٢:٥)، تلك الحقيقة التي أكد كثير من الآباء مثل باسيليوس الكبير، القائل: "بعد أن إمتحنت خطاياه بالنار (في المعمودية)، ونال عنها الغفران بدم المسيح، وجب عليه أن يتلألأ بالحياة الجديدة، والبر الذي في المسيح، أكثر من الأحجار الثمينة[٥٧]".

إننا في كل إفخارستيا نجدد هذه الاستنارة الأولى (استنارة المعمودية)، فدعوتنا وحياتنا مع المسيح هي رحلة عبور (مسيرة) من الظلمة إلى النور، كما كتب كثير من الآباء مثل القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات الذي كتب قائلًا: "لنتمسك بالنور الإلهي الأكثر بهاءً، ولنسر نحو بهائه[٥٨]".

ومن المدهش في سر الإفخارستيا أننا نستنير بذلك الذي هو "النور"، وهذا النور "**نور المسيح**" **يغير الإنسان (من الداخل)**، ويجعله مسكنًا، وهيكلًا منيرًا يليق بالله، كما يقول القديس مقاريوس الكبير: "هكذا أيضًا النفس التي تتشبع تمامًا بالجمال الذي لا يوصف، جمال مجد نور وجه المسيح. وتكون في شركة تامة مع الروح القدس، وتنال الامتياز بأن تكون محل سكن الله، وعرشًا له، فإنها تصير كلها عينًا، وكلها نورًا، وكلها وجهًا، وكلها مجدًا، وكلها روحًا (مثل الشاروبيم). والمسيح الذي يقودها، ويرشدها، ويحملها، ويسندها، هو الذي يصنعها ويجعلها هكذا، وينعم عليها، ويزينها هكذا بالجمال الروحاني[٥٩]".

---

[٥٧] القديس باسيليوس الكبير، *المعمودية المقدسة*، ترجمة القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي ومراجعة د. جوزيف موريس فلتس، مؤسسة القديس باسيليوس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ٤٦.

[58] Gregory of Nazianzus, *Oration* 40.37.

[٥٩] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، العظة الأولى:٢.

إن القداس الإلهي في الحقيقة هو للمؤمنين بمثابة إرسالية للنور: "لأنكم كنتم قبلا ظلمة، وأما الآن فنور في الرب، اسلكوا كأولاد النور" (أف٥:٨)، **فنخرج من القداس الإلهي لننير العالم** "كما أظهرت لهم فينا قداستك" (يشوع بن سيراخ٣٦:٤)، ويكون أن كل من يتعامل معنا يشهد بأنه قد ارتسم (انطبع) علينا نور وجه المسيح: "إرفع علينا نور وجهك" (مز٤:٦).

وعنصر "النور" يظهر بوضوح في **صلوات باكر** (تسبحة باكر، وصلاة باكر من الأجبية) حيث تصلي الكنيسة ويصلي المؤمنون طالبين الاستنارة في كل ما نقوم به خلال اليوم: "يا ملكنا ملك الدهور، ليشرق لنا نور وجهك، وليضئ علينا نور علمك الإلهي، واجعلنا يا سيدنا أن نكون بني النور، وبني النهار، لكي نجوز هذا اليوم ببر وطهارة، وتدبيرٍ حسن[٦٠]"، إننا نخاطب الله قائلين له: "أيها الباعث النور فينطلق، المشرق شمسه على الأبرار والأشرار[٦١]".

والكنيسة تسبح ذلك النور غير المخلوق وتمتزج تسابيحها دائمًا بالنور، كما أنه في كل ليتورجيا وبالأخص في "الإفخارستيا" حيث تنير الكنيسة قلوبنا وعقولنا بالقراءات الإلهية (في قداس الموعوظين أو قداس الكلمة) فكلمة الله هي نور، وسراج "سراج لرجلي كلامك، ونور لسبيلي" (مز١٠٩:١٠٥)، ينير الذهن "فَتْحُ كلامك ينير، يُعَقِّلُ الجُهّال" (مز١١٩:١٣٠). ويعلق على هذا الأمر القديس كيرلس الكبير في إحدى عظاته قائلًا: "مكتوب أنه يوجد دائمًا نور للبار، أما نور الأشرار فينطفئ" (أم١٣:٩ سبعينية)، إن الله الآب يمنح نور المعرفة الحقيقية غير المنطفىء الخاص بالرؤيا الحقيقية لله، لأولئك الذين يقبلون بر المسيح، فهو يكشف لهم الابن... أما بالنسبة لأولئك

---

[٦٠] تحليل صلاة باكر من الأجبية.

[٦١] المرجع نفسه.

الذين لا تميل إرادتهم إليه، وعن شر يرفضون وصايا المسيح، فحتى ذلك النور الذي لهم في أذهانهم من وصية موسى، يتلاشى وينطفئ، وتغتصب ظلمة الجهل مكانه[٦٢]".

لقد كان اليهود قديمًا (بحسب التلمود) يؤمنون بأن قراءة الشريعة "الناموس" تجلب نور الرب ومجد حضوره في الوسط: "إذا جلس اثنان وحديثهما في التوراة، تحل "الشكيناه" وتكون في وسطهم[٦٣]". لذلك فإن حضور القراءات في الكنيسة والإنصات الجيد والواعي لها، كما ينادي الشماس قائلًا: "بحكمة الله نصغي" (إن صوفيا ثيؤ بروس خومين) (ⲉⲛ ⲥⲟⲫⲓⲁ̀ Ⲑⲉⲟⲩ ⲡ̀ⲣⲟⲥⲭⲱⲙⲉⲛ)، ينير الإنسان داخليًّا وتدريجيًّا كما يخبرنا سفر الأمثال: "الوصية مصباح، والشريعة نور" (أم٦:٢٣).

وكما يخبرنا أيضا معلمنا بطرس الرسول "وعندنا الكلمة النبوية وهي أثبت، التي تفعلون حسنًا إن إنتبهتم إليها، كما إلى سراج منير في موضع مظلم، إلى أن ينفجر النهار، ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم" (٢بط١:١٩). ولذلك تعتبر القراءات التي تسبق قداس الكلمة استنارة للمؤمنين تهيء للتناول.

فالله يعمل فينا (ينيرنا) من خلال كل شيء في القداس الإلهي (وطوال القداس الإلهي) وخصوصًا في القراءات: "أنر عقولنا، وقلوبنا، وأفهامنا يا سيد الكل[٦٤]"، فهو يكتب وصاياه في قلوبنا: "أجعل شريعتي في داخلهم، وأكتبها على قلوبهم" (إر٣١:٣٣) ويطبعها في أذهاننا، فيخرج الإنسان من كل قداس وقد سمع رسالة الله

---

[٦٢] القديس كيرلس الأسكندري، *تفسير إنجيل لوقا*، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٧، عظة ١٣٢، الإصحاح التاسع عشر.

[63] *Mishnah*. Aboth.3:2.

[٦٤] تحليل صلاة باكر من الأجبية.

الشخصية له، سواء كانت رسالة جديدة له، أو تأكيد على رسالة قديمة.

إن الإنسان له بجانب حواسه الخمس الخارجية (السمع، البصر.. إلخ)، **حواس أخرى داخلية**[65] "روحية" (كالذهن والقلب وما فيهما من بصيرة روحية)، كقول أحد القديسين: "أنصت إلى الله بأذن قلبك إن المسيح أتى ليرفع كل حواسنا (الخارجية، والداخلية) إلى فوق مانحًا إياها استنارة "مستنيرة عيون أذهانكم، لتعلموا ما هو رجاء دعوته" (أف١:١٨)، فتتقدس (الحواس) وتتبارك وتمنح استنارة، فتصبح حواس روحية وسماوية، ترتفع إلى مستوى الإحساس بالروحيات ومعاينتها، فالمشاركة الحية في القداس هي تدريب روحي للحواس: "الذين بسبب التمرن قد صارت لهم الحواس مدربة" (عب٥:١٤).

فعيوننا تستنير بالنظر إلى المذبح والأسرار والأيقونات، وتتبارك أذاننا بسماع كلمة الله، تلك الأمور التي اشتهى آباء وأنبياء، وأبرار العهد القديم أن يروها أو يسمعوها ولم يستطيعوا، أما نحن فأعطينا هذه البركة لنرى ونسمع ونفهم الأمور الإلهية: "أما أنتم فطوبى لأعينكم لأنها تبصر، ولآذانكم لأنها تسمع." وحينما نستنشق رائحة البخور نتذكر أننا رائحة المسيح الذكية: "كم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب" (نش٤:١٠).

وبذلك حينما نتذوق الأسرار بإيمان، نختبر وتتدرب حواسنا على استطعام الروحيات، ولمس غير الماديات: "من كأس دمك نشرب، أعطنا مذاقة روحية لنستطعم مذاقة أسرارك المحيية... لكي بذوق

---

[65] Andrew Sims, *Symptoms Of The Mind*, Saunders Press,2008.

جسدك نؤهل لذوق نعمتك، ويشرب دمك نؤهل لحلاوة محبتك[٦٦]".

يوجد في الطب النفسي شئ شبيه، فقد افترض عالم الطب النفسي الشهير "Andrew Sims" المختص بدراسة ووصف أعراض وظواهر الأمراض النفسية (Phenomenology)، أنه بداخل الإنسان يوجد ما يشبه حواس السمع والبصر..إلخ، ولكنها داخلية وهي تعمل طبيعيًا (كما يحدث حينما يحلم الإنسان وهو نائم، فيستطيع أن يرى، ويسمع، ويلمس..إلخ)، وقد تتأثر هذه الحواس الداخلية هي الآخرى في بعض الأمراض النفسية.

[٦٦] القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، مرجع سابق، قسمة للقديس كيرلس، ص ٦١.

ألحان كنسية قديمة

"أيها النور البهي"[٦٧،٦٨]

أيها النور البهي، نور المجد المقدس، نور الآب الذي لا يموت،
السماوي القدوس المغبوط، يا يسوع المسيح،
إذ قد بلغنا غروب الشمس، ونظرنا نور المساء،
نسبح الله الآب والابن والروح القدس،
إنه يحق في كل الأوقات،
أن تسبح بأصوات بارة،
يا ابن الله يا معطى الحياة،
لذلك العالم إياك يمجد.

---

67 Daniel Liderboch (fr.), op. cit., p.51.

٦٨ يعد لحن "النور البهي" (Φῶς ἱλαρόν) أحد أقدم ألحان الكنيسة على الإطلاق، وقد وجد في المخطوط الإسكندري (Codex Alexandrinus)، وقد أشار إليه القديس باسيليوس الكبير (رئيس أساقفة قيصرية، القرن الرابع، Basil, *De Sp.* St., 73) على أنه من الألحان الواسعة الانتشار، والذي كان معروفًا في الكنيسة الأولى، حيث كان مستخدمًا في طقوس العبادة المسيحية في السراديب والمخابئ في القرن الثاني كجزء من الليتورجيا، وذلك أثناء خدمة "إيقاد القناديل" عند غروب الشمس، حيث كانت تبدأ الصلوات والتسابيح، التي تستمر طوال الليل، لتنتهي بالإفخارستيا في الصباح، وهذا اللحن يصلى إلى الآن في الطقس البيزنطي في صلاة الغروب. انظر كتاب: نيافة الأنبا مكاريوس، مرجع سابق، ص ٣٠.

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس يوحنا ذهبي الفم[٦٩]

رئيس أساقفة القسطنطينية

صلاة قبل الإنجيل:

أيها السيد المحب البشر أضئ قلوبنا بصافي نور معرفتك الإلهية. وإفتح عيون أذهاننا لنفهم تعاليمك الإنجيلية. ضع فينا خشية وصياك المغبوطة، حتى إذا دُسنا جميع الشهوات الجسدية، نسير سيرة روحية، مفكرين وعاملين بكل ما يرضيك. لأنك أنت استنارة نفوسنا وأجسادنا، أيها المسيح الإله. وإليك نرفع المجد، وإلى أبيك الأزلي، وروحك القدوس الصالح والمحيي. الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين.

---

[٦٩] انظر حاشية ص ٣٢.

الفصل السابع

الإفخارستيا
حياة الشركة

الإفخارستيا حياة الشركة

الشركة مع الآخر هي تحقيق وجودنا. الآخر هو أنا. مفهوم الشركة هي أن نسير كلنا معًا في النور. الحياة مع الله تتميز بالشركة والعمل المشترك. السلام والمصالحة شرط للشركة. الإفخارستيا تحقق الوحدة والشركة بين الكنيسة كلها. الإفخارستيا تجمع كل الخليقة الأحياء والأموات، البشر والملائكة، الأرض والسماء حول المسيح.

قصة

أقيمت في سياتل دورة للألعاب الأوليمبية لذوي الاحتياجات الخاصة من المعاقين. اشترك فيها متسابقون من مختلف دول العالم، بعد أن تكبدوا مجهودًا وعناء ضخمًا في التدريب استعدادًا لهذا الحدث العالمي، ليثبتوا أمام العالم أنهم قادرون على التفوق، شأنهم شأن غيرهم من الأصحاء. فهم ليسوا غير قادرين (unabled)، بل هم فقط لديهم صعوبة في القيام بالأشياء (disabled).

وحدث في أحد سباقات الجري الخاصة بالمعاقين ذهنيًّا، أن اصطف اللاعبون في انتظار صافرة الانطلاق، وبالفعل انطلقت الصافرة وانطلق معها المتسابقون، بكل عزم وحماس، لكن بينما الجميع يَعْدُون في السباق، أصيب أحد المتسابقين بشد عضلي تعثر على إثره وسقط على الأرض، وأخذ يجهش بالبكاء كطفل، حتى أنه لم يستطع القيام من شدة الألم لاستكمال السباق!

سمع المتسابقون الآخرون صوت بكاء زميلهم الذي لا يعرفونه، وابتدأوا يتوقفون واحدًا تلو الآخر، ناظرين إلى زميلهم الواقع على الأرض، وهو منهمر في البكاء! وبتلقائية شديدة إبتدأ المتسابقون يرجعون للخلف لزميلهم، وسط صيحات المشجعين والمدربين، التي تستنكر توقفهم أثناء السباق، وتطالبهم بعدم الالتفات وإستكمال السباق!

رجع جميع المتسابقين وأخذوا يهدئون من روع زميلهم، وأقاموه من على الأرض، وأمسك الجميع بعضهم في أيدي بعض، وابتدأو يجرون معًا حتى أكملوا السباق "مع بعض" وسط تصفيقٍ حاد هذه المرة!

الأمر الذي أذهل جمهور العالم أجمع، وأجبرهم على القيام والوقوف احترامًا لما قاموا به نحو زميلهم الذي لا يعرفوه، بعفوية وتلقائية أبهرت الجميع، ضاربين للعالم أجمع المثل في كيف تكون الشراكة.

إنهم قد استوعبوا رغم عجزهم العقلي، ما عجز عنه غيرهم من الأصحاء أن يستوعبوه، وهو أن أحد أهداف اللعب هو الشراكة مع الآخر؛ أيًّا كان، حتى ولو كان منافسًا. فما فعله هؤلاء اللاعبين بتلقائية، من خلال فطرتهم قد كشف لنا نحن الذين نرى أنفسنا على أننا "الأصحاء" و"الأسوياء"، أننا بحق قد صرنا معاقين بالأنانية، وحب الذات الأعمى، والطموح الجامح والرغبة في التفوق، حتى ولو كان ذلك على حساب الآخر!

الكنيسة الجامعة

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه كما يصفه علماء النفس والاجتماع، فهو مخلوق ليعيش في شركة "Κοινωνία" (كينونيا) مع من حوله. فقد أثبتت الدراسات المختلفة لعلماء الآثار، والمختصين بدراسة الأجناس البشرية، أن الإنسان منذ فجر التاريخ كان يعيش في جماعات. الأمر الذي أكده الكتاب المقدس في سفر التكوين عندما سجل بداية نشأة الجماعات الإنسانية بحسب اشتراكهم في المهنة كالرعي وغيرها (تك:٤)، ثم بعد ذلك أصبحت الشعوب تتشكل وفق الاشتراك في النسل واللغة، كما في نسل نوح (تك:٩،١٠)، وسكان بابل (تك:١١).

ويسجل لنا سفر التكوين أيضًا محطة هامة في تاريخ البشرية

والخلاص؛ عندما دعا الله إبراهيم (تك:١٢)، وكون من نسله الجسدي شعب إسرائيل؛ الذي أتى منه المسيح؛ ليصبح الجميع مشتركين جسديًّا في الأصل الذي هو إبراهيم أب الآباء، ومشتركين في الإيمان، والعهد، والمواعيد.

ثم أتى المسيح الذي أكمل كل المواعيد، وصنع تدبيره الخلاصي لكل العالم، ليجمع في كنيسته الواحدة كل الشعوب، ويشترك في خلاصه كافة الأمم لتصير كنيسته "كنيسة واحدة مقدسة جامعة[١]" وبذلك يتحقق أحد أهداف الخليقة وهو أن يحيا الجنس البشري كشعب واحد: "**وجعلنا له شعبًا مجتمعًا**[٢]" وعائلة واحدة، ورب هذه العائلة هو الله. وهذه العائلة تشمل الجميع من مختلف العرقيات والثقافات والحضارات. لقد أتى المسيح ليصبح الجميع رعية واحدة: "ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن آتي بتلك أيضًا فتسمع صوتي، وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد" (يو١٠:١٦)، ويسود العالم **حضارة المحبة** "ومملكته على الكل تسود" (مز١٠٣:١٩).

الشركة في "عائلة الله" أي "**عائلة الثالوث**" تتحقق أولًا من خلال شركتنا في الإيمان. هذه الشركة الروحية تفعَّل بولادتنا من الله في سر المعمودية حيث نصبح أعضاء في الجسد الواحد الذي هو الكنيسة. حيث يصير الله الآب أبًا للجميع، ويصبح لنا شركة معه: "أما شركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (١يو١:٣). وهذه الشركة تُثَبَّت في سر الميرون حيث نصبح بفضل الروح المعطى لنا "شركاء الروح القدس" (عب٦:٤)، وتنمو هذه الشركة مع الثالوث من خلال اشتراكنا المتواتر في جسد ودم ابن الله في سر الإفخارستيا حيث نصير "شركاء المسيح" (عب٣:١٤).

---

[١] قانون الإيمان.

[٢] القداس الإلهي، مرجع سابق، القداس الباسيلي، ص ٢٢٤.

من أكثر الكلمات تعبيرًا عن معنى حياة الشركة في الإفخارستيا، هي الكلمة الإنجليزية المستخدمة للتعبير عن التناول (communion) وهي تعني "اشتراك" أو "شركة مع آخرين"، ولها أصل مشترك مع كلمتين: الأولى كلمة (common) أي "مشترك"، والثانية كلمة (union) أي "وحدة"، ومنها جاءت كلمة (community) أي "مجتمع." فالأُسُس التي تقوم عليها المجتمعات هي الوحدة، والشراكة مع الآخر، الذي يُكملني من خلال التعاون المشترك.

والمسيحيون منذ القرون الأولى، بالرغم من الاضطهادات، اتسموا بالانفتاح على الآخر وعدم الانغلاق، على عكس شعب الله في العهد القديم الذي كان يتأرجح أحيانًا، بين الحياة في عزلة اجتماعية وعنصرية، وبين الانفتاح المبالغ فيه على الأمم الوثنية المجاورة، الأمر الذي لم يكن يخلو من الخطية والاستباحة!

شركة الآخر ضرورية لإكتمال حياتنا

في اللغة اليونانية التي كتب بها الإنجيل، لا يطلق على الإنسان كلمة "شخص" (Πρόσωπον - prosopon - persona)، إلا إذا وجد شخص آخر معه، في حين لو كان الإنسان بمفرده، يطلق عليه كلمة "فرد، (Ἄτομο - Atomo) فقط، مما يدل على أنه لا يكتمل ولا يتحقق وجود الإنسان إلا في وجود "الآخر."

فالشركة مع الآخر ضرورية لنكون بحق "أشخاص"، لذلك أخذ آدم يبحث عن آخر معه فلم يجد "وأما لنفسه فلم يجد معينًا نظيره" (تك٢:٢٠)، حتى إن الله نفسه قال عن آدم بعد أن خلق له كل شيء: "ليس جيدًا أن يكون آدم وحده" (تك٢:١٨) فخلق له من جنبه "آخر"، ليكون معه "معينًا نظيره" (تك٢:١٨) التي هي حواء، وبذلك

تحقق وجوده واكتمل[٣،٤]، لأنه أصبح معه "آخر" معينًا ونظيرًا.

وحيث إن الوجود خُلِق على صورة الثالوث، فهو شركة لذلك فالآخر يضيف إلينا، ويكون مصدر ثراء لنا وليس تهديدًا، لذلك يقول أحد الفلاسفة الفرنسيين ("بيير دي شاردن"، القرن العشرين) "لا يوجد شيء ثمين مثل ذاك الجزء الذي منك في الآخرين، والذي من الآخرين فيك." إن ذلك يذكرنا ليس فقط بحاجتنا للآخر، بل يذكرنا بأن هذا الآخر، أيًّا كان، ليس غريبًا عني، بل هو في حقيقة الأمر أنا، "**الآخر هو أنا**"؛ "عظم من عظامي ولحم من لحمي" (تك٢:٢٣) كما قال آدم عن حواء. إن الآخر يُكملني، ليس فقط في الزواج، أو في الكنيسة، بل أيضًا في المجتمع، حيث وجود الآخر ما زال ضروريًّا ليُكملني.

لقد خاطب شعب إسرائيل دواد الملك قائلين: "هوذا عظمك ولحمك نحن" (٢صم٥:١)، وكلم داود بعد ذلك شيوخ يهوذا على لسان "صادوق" و"أبيثار" الكاهنين قائلًا: "أنتم إخوتي، أنتم عظمي ولحمي... أما أنت عظمي ولحمي؟" (٢صم١٩:١٢،١٣). فأحد مهام الكهنوت هي توصيل رسالة الله بأننا صرنا بعد تجسد المسيح؛ لحمًا من لحمه، وعظمًا من عظامه "لأننا أعضاء جسمه من لحمه وعظامه" (أف٥:٣٠)، وأننا كلنا أعضاء لبعضنا البعض، أعضاء في جسد واحد (الكنيسة).

ولذلك فنحن لنا مسئولية تجاه الآخر، فما زال الله يسأل كل نفسٍ أين أخاك؟: "أين هابيل أخوك؟" (تك٤:٩) أين هو من محبتك؟

---

[٣] حقيقة أن الآخر يكملنا؛ وأن الرجل والمرأة يُكَمِّلان بعضهما البعض نجدها متجذرة في الثقافة الإنسانية، ولعل أبرز دليل على ذلك ما ذكره الفيلسوف اليوناني أفلاطون عن الأسطورة الهلينية القديمة التي تقول بأن آدم خُلِقَ على شكل "كرة" (sphere)، ولكن عقابًا له، شَطَرَه الإله "زيوس" لنصفين، ومن هنا جاءت "حواء"! ليظل الإنسان من بعدها يبحث دائمًا عن نصفه الآخر!

[4] Plato, *Symposium* 14.15.

أين هو من اهتمامك؟ أين هو من الخلاص؟ إن القديس بولس الرسول يوصينا قائلًا: "لتثبت المحبة الأخوية" (عب١٣:١)، والقديس بوليكاربوس، يقول: "إنه لفعل محبة حقيقية راسخة، ألا نسعى لخلاص نفوسنا فحسب، بل إلى خلاص جميع الإخوة"[٥]، والقديس يوحنا ذهبي الفم هو الآخر يحثنا على السعي لخلاص الآخرين، من منطلق المحبة والمسئولية تجاه الجسد الواحد الذي نحن أعضاء فيه، فيقول: "إذا أتيت للكنيسة، ونظرت حولك، ولم تجد أخًا لك كنت تعرفه... اذهب وأحضره؛ إذ كيف تسمح لنفسك بأن تكون ضيفًا على هذه المائدة الملوكية، ولك أخ محروم منها"؟!

وعندما تجسد ابن الله، صار أخًا بكرًا لنا: "أنا أيضًا أجعله بكرًا، أعلى من ملوك الأرض" (مز٨٩:٢٧)، وأصبح هذا الأخ البكر (المسيح) هو حياتنا، جاعلًا منا كلنا أبناء لله، وإخوة له، ولبعضنا البعض: "من ثم كان ينبغي أن يشبه إخوته في كل شيء" (عب٢:١٧)، والذي على صورته (المسيح) بقية الإخوة. وبذلك جعل المسيح من الآخر أخًا لنا، مستمدًّا أهميته وقيمته من شخص المسيح نفسه الذي فيه يكتمل الجميع.

إن علاقتنا بالآخر ليست كما يقول الفيلسوف الوجودي "سارتر" أن "الجحيم هو الآخر"! بل في المسيح أصبح "**الآخر هو حياتنا**"، وكل شيء نصنعه له، يحسب كأننا نصنعه مع المسيح! لقد صدق أحد الفلاسفة (في العصر الحديث) حين قال: "لقد بحثت عن الله بمفرده فلم أجده، وبحث عن نفسي فلم أجدها، وبحثت عن أخي فلم أجده أيضًا، إلى أن وجدت "الآخر"؛ فوجدت فيه الثلاثة معًا: الله، ونفسي، وأخي"!

ولأن الاهتمام بالآخرين وباحتياجاتهم أصبح من صميم اهتمامنا

---

[٥] القديس بوليكاربوس، مرجع سابق، الرسالة إلى سميرنا ١:٢.

بالمسيح، لذلك لا تخلو صلواتنا الليتورجيا (الجماعية) على تنوعها من "الأواشي"؛ التي هي صلوات لأجل الآخرين واحتياجاتهم، ويتضح ذلك بالأخص في القداس الإلهي، حيث تذكر الكنيسة الجميع، وتذكر احتياجاتهم في مواضع عديدة من القداس، من البداية إلى النهاية حين ينادي الشماس الشعب قائلًا: "صلوا من أجل الذين قالوا لنا من أجلهم أن نذكرهم في بيت الرب[٦]".

كان القديس يوحنا ذهبي الفم ينبه قلوب شعبه للإحساس بالفقراء والمحتاجين لأنهم إخوة الرب بالحقيقة، بل هم امتداد لجسد المسيح فيقول: "أود أن تكرم جسد المسيح؟ لا تحتقره، إذا كان عاريًا، لا تكرمه (جسد المسيح) هنا في الكنيسة، بأقمشة من حرير، ثم تهينه خارجًا حيث يعاني البرد والعري، فالذي قال "هذا هو جسدي" (لو٢٦:٢٦)، هو نفسه القائل "جعت فلم تطعموني" (مت٢٥:٤٢)، وأيضًا "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم" (مت٢٥:٤٠)، أي جدوى من أن تكون مائدة المسيح (المذبح) حافلة بالكؤوس الذهبية، فيما هو يموت جوعًا! أعط الجائع ما يأكله، ثم زين المائدة (المذبح) بما يفضل[٧]".

الشركة مع الآخر في النور

أحد مفاهيم الشركة في العهد الجديد هي أن نسير كلنا "معًا"، في "النور" نحو الله: "شركة ميراث القديسين في النور" (كو١:١٢). فنحن دومًا في حركة (dynamic) مستمرة نحوه. ومسيرة حياتنا التي نحياها معًا، ونتحرك فيها نحو الله (سواء كعائلات في الكنيسة، أو كرهبان في جماعات رهبانية) هي بمثابة ليتورجيا طويلة،

---

[٦] الخولاجي المقدس، مرد الشماس بعد صلاة الاعتراف وقبل التوزيع مباشرة، مرجع سابق ص ٢٧٩.

[٧] القديس يوحنا ذهبي الفم، *عظات على إنجيل متى*، ٥٠: ٣،٤.

ليتورجيا للخلاص تستغرق العمر كله، يسيرها الشخص مع بقية الجسد (القطيع) في وحدة. فالخلاص في أحد جوانبه هو **عمل إلهي إنساني**، يصنعه الله مع الشخص، داخل الجماعة (الكنيسة). وهذه الليتورجيا تبدأ هنا على الأرض، في الزمان الحاضر (هنا والآن) وتكتمل في السماء، في الأبدية.

ولكي تتحقق هذه الليتورجيا في حياتنا نحتاج للآخرين، لأن الفرد إذا كان بمفرده من السهل أن يسقط أو أن يضل، وحينها لن يجد من يرده، أو من يقيمه، ويطبب جروحه: "لأنه إن وقع أحدهما يقيمه رفيقه، وويل لمن هو وحده إن وقع، إذ ليس ثانٍ ليقيمه" (جا٤:١٠). ومن هنا المسيرة الجامعة للجسد نحو الرأس، فهي مسيرة حب، ومسيرة الخلاص، ومسيرة الفرح، ومسيرة في النور، ونحو النور.

شركتنا مع الله كأصدقاء وأحباء

شبه السيد المسيح كثيرًا ما دعى تلاميذه أصحاب، حتى الخائن منهم ظل وفيًّا له قائلًا: "يا صاحب لماذا جئت؟" (مت٢٦:٥٠) لعله يرجع ويتوب، لذلك يصلي الكاهن قائلًا: "من أجل تنازلك غير الموصوف ومحبتك للبشر، لم تحرق الغاش، عندما دنا منك، بل قبلته بقبلة المصاحبة، جاذبًا إياه إلى التوبة، ومعرفة جسارته[٨]".

ولقد شبه المسيح علاقته معنا في العهد الجديد، بعلاقة الصداقة في كثير من الأمثال التي كان يعلم بها، لأن للصداقه معنى قوي وعميق في الشركة. فالصديق الحقيقي يشترك مع من يحبه في أشياء كثيرة؛ فهو عادة يحب ما يحبه صديقه، ويكره ما يكرهه. إن الأصدقاء يمضون وقتًا طويلًا مع بعضهم، يتبادلون أطراف الحديث بينهم. إن الأصدقاء يعرفون عن بعض أشياء شخصية، ولديهم

---

[٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، صلاة الصلح للبطريرك ساويرس، ص ٣٢٠.

ذكريات تجمعهم، ولديهم تاريخ مشترك، ولا يخفون شيئًا عن بعض، لأن بينهم ثقة متبادلة.

كانت علاقة آدم بالله قبل السقوط أشبه بالصداقة، كان آدم لا يخجل ولا يُخفي شيئًا عن الله، وكان صديقًا وسيدًا لكل الخليقة، لكن بعدما سقط، انفصل عن صداقة الله، وابتدأ يخجل ويختبئ من الله "سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان فاختبأت" (تك٣:١٠)!

لقد بادر الله ثانية في إقامة علاقة صداقة مع الإنسان منذ القديم؛ فنجد إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا له (٢أخ٢٠:٧؛ إش٤١:٨؛ يع٢:٢٣)، حتى إن الله قال عنه: "هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟" (تك١٨:١٧)، وموسى النبي الذي صار كليم الله، الذي قال عنه أيضًا: "فم إلى فم أتكلم معه لا بالألغاز، وشبه الرب يعاين" (عد١٢:٨)، ويشوع بن نون أيضًا الذي قال له الرب: "كما كنت مع موسى أكون معك" (يش١:٥) أي علاقتي معك ستكون مثل علاقتي بموسى النبي.

إن السيد المسيح في العهد الجديد يدعونا بالمثل لنكون أحباء وأصدقاء: "**لا أعد أدعوكم عبيدًا بل أحباء** (Φίλους - philos)" (يو١٥:١٥)، وكلمة (Φίλους) باليونانية تعني "أحباء" أو "أصدقاء." فنحن مدعوون ليكون الله صديقًا لنا، وندخل في شركة صداقة ومحبة معه، كما كان مع موسى ويشوع، ومع كثيرين آخرين. بل أكثر من ذلك إنه يريد أن يعلن لنا الخفيات: "أدعني فأجيبك، وأخبرك بعظائم وعوائص لم تعرفها" (إر٣٣:٣). فهو يدعونا ليكشف لنا سر كل الدهور، الذي هو المسيح الابن المتجسد، وسر تدبيره الخلاصي لنا، والأمور الخاصة بالأبدية: "لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات" (مت١٣:١١)!

هناك شيء آخر يميز الأصدقاء أحيانًا، وهو أنهم يفهمون بعضهم البعض من مجرد نظرة، من أقل إشارة، وتجدهم غيورين على بعض، لذلك نجد الله يتكلم عن نفسه قائلاً: "لأني أنا الرب إلهك، إله غيور" (خر٢٠:٥)، إن الصديق يلجأ أول شيء لصديقه في وقت الحاجة، ليكون معه في وقت الشدة، لطلب المشورة والمعونة. لذلك يخاطب الله كل نفس تطلبه قائلًا: "يدعوني فأستجيب له، معه أنا في الضيق أنقذه وأمجده" (مز٩١:١٥)، ويحدث (الله) كل إنسان صديق له قائلًا: "ادعني في وقت الضيق أنقذك فتمجدني" (مز٥٠:١٥)، إن الصديق الحقيقي هو من يلتصق بصاحبه "يوجد محب ألزق من الأخ" (أم ١٨:٢٤). إن المسيح هو الصديق الألزق من الأخ لنا، إن لله يدعونا في علاقتنا وشركتنا معه أن ترتفع لمستوى الصداقة والمحبة الأخوية[٩]!

والإفخارستيا تحقق هذه العطية: **عطية الاتحاد والالتصاق بالمسيح**، فكل من يشترك في التناول يلتصق بالمسيح، ويختبر قول المزمور "التصقت نفسي بك" (مز٦٣:٨)، إننا في الإفخارستيا نستطيع أن نختبر عمق ما قاله القديس أغسطينوس "إنه (الله) أقرب إلينا من أنفسنا"[١٠]! كما أننا في الإفخارستيا نلتصق ببعضنا البعض كجسد واحد.

الاشتراك في العمل مع الله

إن الإيمان الأرثوذكسي يشرح بوضوح التعاون و"**العمل المشترك**" (Συνεργία - Synergia)[١١] سواء بين الله والإنسان، أو بين الشخص

---

[٩] من الجدير بالذكر أن كلمة (Communion) التي تستخدم في الإنجليزية للتعبير عن التناول أصلها في اللغة اللاتينية (Communio) والتي تعني (fellowship) أي "رفقة" أو "زمالة" أو "ألفة ومودة". ومرادفها في اللغة اليونانية هو (Κοινωνία) "كينونيا".

[10] Augustine, Conf., op. cit., III, 6,II.

[١١] "سينرجيا" (Συνεργία) هي كلمة يونانية من الفعل (Συνεργέω) أي ""يعمل مع" أو "يتعاون مع"، وهي تتكون من كلمتين: (Syn - σύν) وتعني "مع" أو "معًا"، و (Ergon - Εργον) وتعني "عمل" أو "شغل"، وبذلك الكلمة تعني "العمل المشترك"، حيث ناتج عمل الاثنين معًا أكبر من مجموع عملهما منفردين، كما يحدث في بعض التفاعلات

والجماعة من خلال علاقة الله بالكنيسة. لذلك نجد في خلاصنا الكثير من الشركة الروحية دون تعارض أو تناقض. وإن وجد، يكون هذا التعارض ظاهريًّا فقط. وهذه الشركة في العمل، تكون كجناحي الطائر، كلاهما يكمل ويسند الآخر؛ فنجد مثلًا: "الله والإنسان"، "الإيمان والأعمال"، "النعمة والجهاد".إلخ.

فنحن نؤمن أن الله يعمل معنا، فمعلمنا بولس الرسول يقول: "فإننا نحن عاملان مع الله" (١كو٣:٩)، وفي موضع آخر يقول أيضًا: "فإذ نحن عاملون معه" (١كو٦:١)، فالله يشترك في العمل معنا ويكمله حسب قصده: "ليُكمِّلكُم في كل عملٍ صالح، لتصنعوا مشيئته، عاملًا فيكم ما يرضي أمامه بيسوع المسيح" (عب١٣:٢١).

والإفخارستيا هي نموذج للعمل المشترك (synergy) بين الله والإنسان، مما يجعلها "عمل إلهي إنساني"، فيقول الكاهن استعدادًا للصلاة: " نعم يا سيدنا، كن معنا، اشترك في العمل معنا، باركنا[١٢]". ويصلي الكاهن في نهاية القداس الإلهي طالبًا من الرب أن يشترك مع شعبه في كل عمل صالح قائلًا: "عبيدك يا رب هؤلاء الذين يخدمونك، ويطلبون اسمك القدوس ويخضعون لك، حل فيهم يا رب، وسر بينهم، وساعدهم في كل عملٍ صالح[١٣]".

كما أن سر الإفخارستيا أيضًا يقوم على أساس شركة المؤمنين معًا في جسد الرب، وهذه الشركة تمكن الإنسان ليس فقط من الاشتراك مع أعضاء كنيسته المحلية، بل تمكنه من الاشتراك مع كافة المؤمنين، ومع السمائيين، والقديسين الذين رقدوا على الإيمان منذ البدء.

الكيميائية حيث واحد زائد واحد لا يساوي اثنين، بل ثلاثة أو أكثر. وقد جاءت هذه الكلمة خمس مرات في العهد الجديد (مر١٦:٢٠؛ رو٨:٢٨؛ ١كو١٦:١٦؛ ٢كو٦:١؛ يع٢:٢٢).

[١٢] الخولاجي المقدس، صلاة الاستعداد عند فرش المذبح، مرجع سابق، ص ١٣٧.

[١٣] المرجع نفسه، القداس الباسيلي، صلاة خضوع للآب بعد التناول، ص ٢٨٩.

السلام والمصالحة أحد مكونات الشركة

إن السيد المسيح لم يدعو فقط الكثيرين ليكونوا أصدقاء له، بل أيضًا كان يدعو الجميع ليكونوا أصدقاء فيما بينهم، فنجد أنه جمع في تلاميذه بين العشار الثري[١٤] وبين الصيادين الفقراء، جاعلًا منهم إخوة وأصدقاء! كان صانعًا للسلام أينما ذهب، حتى وهو في أشد لحظات آلامه، كان سببًا في مصالحة أعدائه فيما بينهم، صانعًا بينهم سلامًا، محولًا عداوتهم إلى صداقة! مثلما صنع مع بيلاطس الذي أمر بجلد وصلب المسيح، وهيرودس الذي سَخِر من المسيح وألبسه ثوبًا أرجوانيًّا إمعانًا في الإستهزاء به. يقول الكتاب عنهم أنهم تحولوا وصاروا أصدقاء بعد أن كانوا أعداء من قبل: "فصار بيلاطس وهيرودس صديقين مع بعضهما في ذلك اليوم، لأنهما كانا من قبل في عداوة بينهما" (لو٢٣:١٢). إن يسوع حقًا هو صانع الأصدقاء، كما أنه صانع السلام!

والحقيقة أن شركتنا تُفَعّل وتعزز باتفاق الرأي بعد الاختلاف والتشاور، مثلما حدث مع الآباء الرسل، في مسألة التهود حيث اجتمع الرسل معًا، عاقدين أول مجمع للكنيسة (مجمع أورشليم، سنة ٤٩-٥٠م)، فبعد تشاورهم وتبادلهم للآراء في روح وداعة واتضاع، وخضوع لإرشاد الروح القدس قالوا معًا: "لأنه قد رأى الروح القدس ونحن" (أع١٥:٢٨).

من الطبيعي أن يكون لكل إنسان رأي، وأن يكون له الحق في التعبير عنه، لكن من المهم أيضًا أن نضع وحدتنا فوق كبريائنا واعتدادنا برأينا، لكي نحافظ على حياة الشركة ورباط الصلح. فشركة المؤمنين هي في الأساس شركة اتضاع ووحدة. لأن وحدة

---

[١٤] كان العشارون مكروهين من الشعب اليهودي لجمعهم الضرائب لصالح الرومان، فكان ينظر لهم على أنهم طبقة أرستقراطية، جشعة وخائنة.

العمل واتفاق الرأي لا يأتيان إلا بالاتضاع وإنكار الذات الذي هو من ثمر الروح القدس.

إن اشتراكنا في الإفخارستيا بنيةٍ طاهرة، بعد نبذ أي خصومة، هو مصل واقٍ من العداوة والكراهية، لأننا نتناول صانع السلام نفسه، الذي صالح الأرض مع السماء، لذلك يقول القديس أغسطينوس: "ينشأ سر سلامنا ووحدتنا فوق مذبحه[١٥]".

لذلك فالإفخارستيا هي ينبوع يفيض بالسلام، يمنح السكينة، والسلام الداخلي لكل عضو، كما تصنع الإفخارستيا السلام بين سائر الأعضاء، لذلك تحثنا الكنيسة على المواظبة على التناول، فنجد القديس إغناطيوس الأنطاكي يحث كنيسة "أفسس" في خطابه لها قائلًا: "احرصوا على أن تجتمعوا بأكثر مواظبة، لتقديم الإفخارستيا لله ولتمجيده، لأنكم حينما تجتمعون بمواظبة تنحل قوات الشيطان، ويبطل الهلاك الذي يدبره لنا، بتوافقكم في الإيمان. لا شيء أفضل من السلام الذي يبطل المحاربات، سواء كانت (المحاربات) أرضية أم سمائية[١٦]".

إن سر قوة الكنيسة الأولى وانتشارها يكمن في اجتماعها، اجتماع الآباء الرسل في العلية، هناك حيث غسل الرب أرجل تلاميذه وكسر الخبز، هناك كان التلاميذ يحيون في شركة، تلك الشركة التي قطع يهوذا نفسه منها فضل طريقه وسقط، ولم يكن من يقيمه. لقد أخرج يهوذا نفسه من العلية التي هي مثال الفردوس، بعد أن امتلأ قلبه بالشهوة، فخرج من اجتماع العلية ليخون سيده. لقد فصل نفسه عن محبة الإخوة فهلك! في حين لم يهلك بطرس الرسول بالرغم من إنكاره للمسيح، وكذلك بقية التلاميذ بالرغم

---

[١٥] القديس أغسطينوس، *عظات للمعمدين الجدد*، العظة ٢٢٧.

[١٦] القديس إغناطيوس، مرجع سابق، الرسالة إلى أفسس ١٣:١.

من تفرقهم، ذلك لأنهم عادوا ليجتمعوا معًا، عادوا لشركتهم، عادوا ليكونوا معًا كالأول، بالرغم من خوفهم وشكوكهم، عادوا ليصلوا معًا، وليساندوا ويشجعوا بعضهم البعض. عاد التلاميذ لاجتماع العلية، هناك حيث كسر معلمهم الخبز وأطعمهم، وظهر لهم بعد القيامة وهم مجتمعين، مبددًا مخاوفهم وشكوكهم وتوترهم، ومنحهم عطية السلام السمائي، كوَّنوا بحق في العلية، أول مجموعة مساندة (support group) لمقاومة القلق والاضطراب والخوف.

لقد صار اجتماع الرسل هذا، صورة للكنيسة المجتمعة في المسيح في كل زمان ومكان. كما يتضح في أحد خطابات الشهيد يوستينوس للإمبراطور حيث يكتب في خطابه الدفاعي الأول أنه من عادة المسيحيين أن يجتمعوا "نهار الأحد" اجتماعًا يضم في مكان واحدٍ كل مسيحيي المدن والقرى[١٧]. ونحن مدعوون بالمثل ونحن في القرن الواحد والعشرين لهذا الاجتماع الأول "اجتماع العلية"، الذي هو في الواقع كل الكنيسة، حيث المسيح في الإفخارستيا يستعلن بوضوح على المذبح، منيرًا كل ظلمة ومبددًا كل خوف وشك بداخلنا.

إن حضور المسيح "رئيس السلام" (إش٩:٦) وإستعلانه في وسط الكنيسة ليس فقط يخلصنا من خطايانا، بل ويخلصنا من المخاوف والشكوك، ويمنحنا "عطية السلام السمائي" الذي يفوق كل عقل، كل ذلك يحدث حينما يكون المسيح في الوسط حاضرًا في الإفخارستيا، في وسط الكنيسة، حيث يبارك شعبه بالسلام "الرب يبارك شعبه بالسلام" (مز٢٩:١١).

لذلك يعلن الكاهن وينطق على لسان السيد المسيح مانحًا للشعب السلام ومباركًا إياه قائلًا: "السلام لجميعكم" (إيريني باسي) (Ⲓⲣⲏⲛⲏ ⲡⲁⲥⲓ)، كما فعل المسيح أكثر من مرة بعد

---

[١٧] القديس يوستينوس، مرجع سابق، الدفاع الأول:٦٧.

القيامة قائلًا للتلاميذ: "سلام لكم" (يو٢٠:١٩،٢١،٢٦). ويفسر القديس كيرلس الكبير عطية السلام التي أعطاها المسيح لتلاميذه بأنها هي عطية الروح القدس.

والسلام هو طلبة الكنيسة الرئيسة؛ فنحن نصلي لأجل سلام الكنيسة وكل ما فيها، وسلام البطريرك، وسلام كل الناس، بل وسلام العالم أجمع، فنصلي قائلين: "كل الشعوب وكل القطعان باركهم، السلام الذي من السموات أنزله على قلوبنا جميعًا، بل وسلام هذا العمر، أنعم به علينا إنعامًا... الجموع، وجيراننا، ومداخلنا، ومخارجنا، زينهم بكل سلام..إلخ[١٨]"، وأيضًا في صلاة الصلح نذكر السلام الذي وهبه المسيح بتجسده فنقول: "وملأت الأرض من السلام الذي من السموات[١٩]".

فالسلام هو شرط لقبول صلواتنا كما يقول القديس كبريانوس (القرن الثالث): "الله لا يرضى إلا بالصلوات المرفوعة في سلام إن أبهج تقدمة يمكن أن نقدمها لله هي سلام واتفاق الإخوة، ووحدة كل المؤمنين في الآب والابن والروح القدس[٢٠]".

ومن الجدير بالذكر أن القبلة المقدسة في الإفخارستيا هي بمثابة ختم على سلامنا ومصالحتنا مع الله ومع الآخرين، لذلك لا يصح أن يتقدم للتناول من هو في خصام، أو من لديه شيء على أحد، بحسب الدسقولية (قوانين الرسل): "والشماس القائم مع رئيس الكهنة للخدمة، فليقل للشعب أن لا يدع أحد بينه وبين أخيه ضغينة ولا رياء، ثم بعد ذلك فليُقَبِّل كل واحد من الرجال بعضهم بقبلة طاهرة[٢١]".

القُبلة المقدسة هي علامة على شركة المحبة الحقيقية التي بين

---

[١٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية السلام الكبيرة، ص١٩٦.
[١٩] المرجع نفسه، القداس الباسيلي، صلاة الصلح، ص٢١٠.
[٢٠] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، الصلاة الربانية:٢٣.
[٢١] الدسقولية، مرجع سابق، الفصل العاشر.

الإخوة والأصدقاء، لذلك من يبغض أخاه، أو يرفض أن يغفر لأخيه، أو من يصر على الاحتفاظ بالغضب ناحية أحد، لا يكون في شركة مع الله: "فحيث شقاق وغضب لا يقيم الله[٢٢]"، ويعظ القديس كيرلس الأورشليمي عن أهمية القبلة المقدسة في الإفخارستيا قائلًا: "لا تظنوا أن هذه القبلة لها سمات القبلة العادية الشائعة بين الأصدقاء، إنها ليست كذلك، ولكنها قبلة تربط النفوس ببعضها، وتعطي مسامحة كاملة لهم. لذا فهذه القبلة هي علامة أن نفوسنا قد ترابطت معًا، وأننا قد طردنا كل تذكر للأخطاء... إنها قبلة المصالحة، ومن أجل السبب المقدس، كما نادى المطوب بولس الرسول في أكثر من موضع قائلًا: "سلموا بعضكم على بعض بقبلة مقدسة" (رو١٦:١٦؛ ١كو١٦:٢٠)، ويطرس الرسول قائلًا: "بقبلة المحبة" (١بط٥:١٤)[٢٣]".

لذلك من يصنع خصومة أو عدواة عن قصد، يدمر نفسه بنفسه أولًا، ويفصل نفسه عن شركة الكنيسة أيضًا. ويكون بفعله هذا مقاومًا للمسيح الذي يريد أن يجمع الكل في نفسه، بحسب تعبير القديس يوحنا ذهبي الفم: "إن الذين يخترعون الخصومات يكونون أبناء إبليس... فإن كثيرين يسرون بالشر، ويمزقون جسد المسيح بقسوة تفوق ما فعله الجنود، الذين طعنوه بالحربة، واليهود الذين سمروه بالمسامير. فشر أولئك كان أهون، لأن الأعضاء التي مزقوها بقيت منجمعة... والآن متي تفكرت في محاربة أخيك، اذكر أنك مزمع أن تحارب أعضاء المسيح، وكف عن جنونك! إن الله من أجل أخيك صار عبدًا وذبح، وأنت تعتبره كلا شيء؟! بالتأكيد إنك تقاوم الله، لأنك تبدي حكمًا مخالفًا لحكمه[٢٤]"!

---

[٢٢] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى فيلادلفيا٨:١.

[٢٣] القديس كيرلس الأورشليمي، *عظات للموعوظين*، العظة الثالثة والعشرون.

[٢٤] القديس يوحنا ذهبي الفم، العظة الثالثة على رسالة كولوسي.

الإفخارستيا طعام الشركة والوحدة

لقد تجسد وتأنس ابن الله في ملء الزمان من والدة الإله، واشترك في طبيعتنا: "باركت طبيعتي فيك[٢٥]"، متحدًا ببشريتنا في اتحاد أقنومي كامل سيظل للأبد: "**بغير اختلاط، ولا امتزاج، ولا تغيير**[٢٦]"، وهذا الاتحاد العجيب يفوق كل شرح ومثال، حتى صار من غير الممكن أن نتكلم بعد عن الله بدون أن نتكلم عن الإنسان، وبالمثل يستحيل أن نتكلم عن الإنسان دون الله، لأن الإنسان أصبح (في المسيح) "إنسان الله" (١تي٦:١١؛ ٢تي٣:١٧)!

لذلك في قانون الإيمان بعدما نعلن إيماننا بالله؛ الآب والابن والروح القدس، نعلن مباشرة إيماننا بالكنيسة التي هي جسد المسيح، ومعموديتها التي فيها نولد من الله، ونصير أعضاء في الكنيسة فنقول: "وبكنيسة واحدة، مقدسة، جامعة، رسولية، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا..إلخ[٢٧]".

في الإفخارستيا يتحد الجسد (الكنيسة) بالرأس (المسيح) في وحدة لا تنفصم وشركة أبدية كما يقول ذهبي الفم: "حيث يكون الرأس هناك يكون الجسد"، ويشرح القديس كيرلس عمود الدين دور الإفخارستيا وكيف أنها توحد الجميع قائلًا: "لقد صار السر الذي في المسيح، بداية، وطريق نشترك بواسطته في الروح القدس، والاتحاد مع الله... فلكي نرتبط نحن أنفسنا معًا، ونندمج في الوحدة مع الله، ومع بعضنا البعض، رغم وجود اختلاف بيننا؛ إذ لكل واحد منا كيان منفرد بنفسه وجسده، فإن الابن الوحيد، بحكمته الذاتية، وبمشورة الآب، قد ابتكر طريقة لتتم بها هذه الوحدة، فإنه بواسطة جسدٍ

---

[٢٥] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٤.
[٢٦] المرجع نفسه، صلاة الاعتراف، ص ٢٧٨.
[٢٧] قانون الإيمان.

واحدٍ، الذي هو جسده، يبارك من خلال سر الإفخارستيا، أولئك الذين يؤمنون به، ويجعلنا من الجسد نفسه، معه ومع بعضنا البعض. فمن يستطيع أن يقسم أولئك الذين ارتبطوا معًا بواسطة جسده المقدس؟ فإن كنا نشترك جميعنا في الخبز الواحد (١كو١٠:١٧)، فإننا نصير كلنا جسدًا واحدًا، لأن المسيح لا يمكن أن ينقسم[٢٨]".

لقد صار اليوم (في العهد الجديد) للجميع ذبيحة واحدة لليهود وللأمم، (لأن في العهد القديم كان اليهود لا يشتركون مع الأمم في أي شيء)، وصار للكهنة والشعب طعام واحد[٢٩]، وهذا الطعام قد صار تسبحة للكنيسة تقتات به في صلواتها، فنقول: "الله هو عمانوئيل، الطعام الحقيقي، شجرة الحياة العديمة الموت[٣٠]".

وعن وحدة الجميع في طعام واحد يكتب ذهبي الفم قائلًا: "ثمة حالات لا يتميز فيها الكاهن بشيء عن الخاضعين له، وكذا هي الحال عند التناول من الأسرار المقدسة الرهيبة، فنحن جميعًا مستحقون لها بالقدر نفسه، لقد تغيرت الحال مما كان عليه من قبل في العهد القديم، وذلك عندما كان للكهنة طعام وللشعب طعام آخر، حيث لم يكن يسمح للشعب بمشاطرة الكهنة طعامهم. اليوم الحال مختلفة، اليوم الجسد ذاته والكأس ذاتها ممنوحان للجميع! اليوم كلنا نصافح بعضنا بعضًا[٣١]". وفي موضع آخر يقول: " لقد منحنا الله كل شيء بالتساوي؛ نحن الكهنة وأنتم الشعب،

---

[٢٨] القديس كيرلس الكبير، مرجع سابق، شرح إنجيل يوحنا ١٧: ٢٠،٢١.

[٢٩] كان الكهنة في العهد القديم تُخصص لهم أجزاء من الذبائح يأكلونها هم فقط، وكان خبز التقدمة (خبز الوجوه) في العهد القديم الذي يرمز لخبز العهد الجديد الذي هو جسد الرب، لا يجوز أن يأكل منه سوى الكهنة. فقط داود النبي ورجاله هم من خرقوا هذا الترتيب، ليصير عملهم ذلك نبوة لإشتراك الجميع (إكليروسًا وشعبًا) في الخبز الواحد (الإفخارستيا)، وقد أشار السيد المسيح بنفسه لتلك الواقعة (مت١٢:٤).

[٣٠] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، إبصالية يوم الإثنين، الربع السابع، مرجع سابق، ص٢٧٣.

[٣١] القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير الرسالة الثانية لأهل كورنثوس*، العظة الثامنة عشرة.

حتى تلك الخيرات العظمى[٣٢]"!

لقد صار الجميع الآن يجتمعون حول مأكلٍ واحدٍ حق، ويشتركون في مشربٍ واحدٍ حق، لتتم النبوة القائلة: "اجمعوا إليَّ أتقيائي، القاطعين عهدي على ذبيحة" (مز٥٠:٥). لقد صار الجميع جسدًا واحدًا في المسيح. إن روح الوحدة هذه هي التي ينبغي أن نصلي بها في القداس الإلهي كما يقول القديس كبريانوس: "إذا صلينا فلا نصلي لواحد، بل للشعب كله، لأننا نحن الشعب كلنا واحد[٣٣]".

إن المسيح يجلسنا في القداس الإلهي حول ذبيحة نفسه، التي بذلها لأجلنا صانعًا عهدًا جديدًا بدمه. "لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد[٣٤]." ونحن في الإفخارستيا نأكل "خبز الراحة"، و"خبز الملائكة[٣٥]". "أكل الإنسان خبز الملائكة. أرسل عليهم زادًا للشبع" (مز٧٨:٢٥). إننا نأكل "خبز الحياة" (Ὁ ἄρτος τῆς ζωῆς)، النازل والمرسل من السماء: "خبز الملكوت[٣٦]"، "طوبى لمن يأكل خبزًا في ملكوت الله" (لو١٤:١٥). هذا الذي أعطاه لنا المسيح سريًّا، عوضًا عن "خبز المشقة" (تث٣:١٦)، "خبز الحزن" (هو٣:٤)، و"خبز الأتعاب" (مز١٢٧:٢) الأرضي، الذي كانت تأكله البشرية بعد السقوط، والذي لم يسد جوع البشرية عبر الأجيال.

---

32 EPE 23,86.

٣٣ مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، في الصلاة الربية:٣.

٣٤ القداس الإلهي، الرشومات.

٣٥ استخدام كلمة "ملائكة" كوصف في هذه الآية من المزمور الذي كتب بإسلوب شعري، تشير إلى ارتفاع مكانة هذا الخبز، فهو خبز سماوي. إن الملائكة لا تستطيع أن تتناول، فهي مخلوقات نورانية وبطبعها لا تأكل، لكنها تشترك مع الإنسان بالصلاة والتسبيح فقط، وهذه الخدمة هي بمثابة طعام لها، كما قال المسيح عن نفسه: "طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني، وأتمم عمله." (يو٤:٣٤).

٣٦ يتكلم الإنجيل عن خبز الملكوت، مع أن ملكوت الله ليس فيه أكل أو شرب مادي؛ لكن المقصود به "الإفخارستيا" الطعام الذي يهب الملكوت، الطعام غير البائد (غير الزائل)، إنه الطعام الذي يذيقنا (تذوق سابق) الرب فيه طعم السماء والأبدية، هو عربون الملكوت.

لذلك يكتب القديس أمبروسيوس[٣٧] قائلًا: "لقد كانت حقًّا معجزة إلهية عظيمة أن الله قد أمطر المن من السماء على الشعب، والشعب لم يعمل ولكن أكل: "أما شعبك فبدلًا من ذلك، أطعمتهم طعام الملائكة، وأرسلت لهم من السماء، خبزًا معدًّا، لا تعب فيه، يتضمن كل لذة، ويلائم كل ذوق" (الحكمة١٦:٢٠). ربما تقولون: خبزي من النوع العادي ولكن هذا الخبز (القربان) هو "خبز" (عادي) قبل كلمات السر، ولكن بعد التقديس يتحول من كونه خبزًا فيصبح جسد المسيح[٣٨]." وأيضًا يكتب القديس أغسطينوس عن هذا الخبز قائلًا: "نحن لا يمكن أن تكون لنا حياة أبدية من أنفسنا، **إنما نحيا بالأكل من هذا الخبز؛ ولأجل ذلك نزل الرب من السماء**[٣٩]."

إن الكنيسة منذ ولادتها كانت نموذجًا للتآلف والانسجام سواء بين الإكليروس والشعب، أو بين الكنيسة والروح القدس، وسيمفونية التآلف هذه قد امتدت في حياة المؤمنين بالروح القدس. هذا الروح الواحد غير المنقسم، هو الذي يعمل كل يوم في الجميع، موزعًا مواهب مختلفة، حسب الاحتياج والاستعداد كما يقول القديس كيرلس الأورشليمي: "الروح القدس يوزع النعم حسب الأواني،

---

[٣٧] "القديس أمبروسيوس" (٣٣٩-٣٩٧م) ولد في مدينة "تريف" (مدينة على الحدود بين بلجيكا وفرنسا حاليًا)، من أسرة رومانية نبيلة، أبوه كان حاكم لولاية الغال (فرنسا)، درس أمبروسيوس القانون والفلسفة والبلاغة والأدب، وعين حاكمًا للمقاطعة الشمالية في إيطاليا عام ٣٧٠م، وبعد أربع سنوات إنتخبه الشعب بالإجماع ليكون أسقفًا عليها، فكان نموذجًا رائعًا لتحرر الكنيسة من نفوذ الحكام وإستغلال السلطات الروحية، رعى وعلَّم شعبه بغيرة رسولية فكان يفسر يوميًا كلمة الله للشعب المسيحي في عظات نقحها ثم نشرها بعد ذلك، وله مؤلفات عقيدية وروحية عديدة منها: "في الأسرار"، "في الإيمان"، "في الروح القدس"، "في التوبة"، هذا بجانب مؤلفاته النسكية ورسائله العديدة. ويعتبر أيضًا القديس أمبروسيوس أبو الألحان الكنسية في الغرب (الطقس اللاتيني) وتحتل ألحانه جزءً هاماً من صلوات السواعي في الغرب وفي غيرها من الخدمات الليتورجية. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ٢٥٨-٢٦١.

[٣٨] القديس أمبروسيوس، *الأسرار*، الكتاب الرابع.

[39] Augustine, *In John,* Tractate 26.

وسعة القابلين"، مرشدًا الجميع ليعملوا في تناغم وتآلف، ووحدة مع بعضهم البعض، هذه الوحدة هي على مثال وحدة الثالوث المتساوي، رغم تمايز الأقانيم فيما بينها.

إن الإفخارستيا هي التي تحقق الشركة "Κοινωνία" والوحدة بين أعضاء الجسد الواحد على أعلى مستوى كما نصلي في القداس الإلهي قائلين: "وحدانية القلب التي للمحبة فلتتأصل فينا... ونحن كلنا احسبنا في وحدانية التقوى[٤٠]." فبدون هذه الوحدة لا يكتمل خلاصنا. لذلك يشدد القديس إغناطيوس الأنطاكي والشهيد (القرن الأول) على أهمية شركة الإفخارستيا فيقول: "لا يضلن أحد، فمن ابتعد عن المذبح، حُرم من خبز الحياة، لأنه إن كان لصلاة اثنين فعالية كبرى؛ فما القول عن صلاة الأسقف والجماعة كلها؟! من امتنع عن مشاركة الجماعة، عُدَّ متكبرًا وقد أدان نفسه بنفسه[٤١]." وقد عاشت الكنيسة منذ القرن الأول برغم خطر الاضطهادات من الخارج، وخطر البدع والمعلمين الكذبة من الداخل، في وحدة بسبب تمسكها بالإفخارستيا، جاعلة الوحدة والشركة فوق كل شيء، بشرط الحفاظ على سلامة الإيمان والمحبة.

إن الإفخارستيا أيضًا تجمع الكنيسة (الرعية) التي هي جسد المسيح حول أسقفهم (راعيهم) لتقديم المجد لله: "لكي تمجدوا الله أبا ربنا يسوع المسيح بنفسٍ واحدة وفم واحد" (رو١٥:٦). فالأسقف في ترأسه للإفخارستيا هو صورة للمسيح رئيس الكهنة الأعظم منذ القرن الأول، وعن صورة الوحدة التي تتجلي في الإفخارستيا يكتب القديس إغناطيوس الأنطاكي قائلًا: "فاحرصوا إذن ألَّا تشاركوا إلا في قربانٍ واحدٍ، لأنه ليس ليسوع المسيح إلا جسد واحد، وكأسٌ

---

[٤٠] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، الطلبة الأولى، ص ٣٤٥.
[٤١] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أفسس ٥: ٢،٣.

واحدة، توحدنا بدمه، ومذبح واحد[٤٢]، وأسقف واحد[٤٣]، مع كهنته وشمامسته[٤٤]".

ووحدة الأسقف مع الشعب هي على مثال وحدة المسيح مع الكنيسة، لذلك كان يوحنا الرائي يخاطب الكنائس السبع التي في آسيا الصغرى (تركيا حاليًّا) في أشخاص أساقفتها السبعة، ومن بعده يكتب القديس إغناطيوس الأنطاكي مقولته الشهيرة، قائلًا: "حيث يكون الأسقف هناك تكون الرعية، وحيث يكون المسيح هناك تكون الكنيسة الجامعة[٤٥]". ويقول القديس إغناطيوس الأنطاكي في موضع آخر: "إنني أرجو أن تفعلوا كل شيء تحت رئاسة أسقفكم، كرمز لله، والكهنة كرمز لمجمع الرسل، والشمامسة الذين أحبهم، كمؤتمنين على خدمة يسوع المسيح[٤٦]".

لذلك فالصلاة لأجل أبينا البطريرك والآباء الأساقفة في الإفخارستيا له أهمية كبيرة؛ إذ إنه بعد ذكرنا المسيح الرأس وسرد تدبيره الخلاصي، نذكر الجسد (باقي أعضاء الكنيسة) وأولهم الأب البطريرك والآباء الأساقفة.

إن القديس إغناطيوس الأنطاكي (القرن الأول) يسجل لنا في كتاباته نموذج الوحدة في الكنيسة قائلًا: "يجب أن تكونوا على وفاق في الرأي مع أسقفكم، وهذا ما أنتم تفعلوه. إن كهنتكم موقرون، وهم جديرون بالله، ومتآلفون مع أسقفهم تآلف الأوتار مع القيثار، وأنتم بتآلف مشاعركم، وتناغم محبتكم ترفعون التسبيح

---

[٤٢] في القرن الأول كان الأسقف يقيم الإفخارستيا في المدينة ليجتمع حوله وحول الذبيحة الإلهية كل الشعب بهدف الوحدة، ومع الوقت تطور الأمر لتزايد عدد المؤمنين وكثرة الكنائس.

[٤٣] المقصود أسقف واحد لكل رعية.

[٤٤] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى فيلادلفيا ٤:١.

[٤٥] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أزمير ٨:١.

[٤٦] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى مغنيسيا ٦:١.

للمسيح يسوع. ولتكونوا كلكم معًا جوقًا (كورال) متناسقًا وفي اتحاد متناغم مع الله. ترنمون بصوت واحد، نشيدًا للآب بالمسيح يسوع، فيصغي إليكم ويعرفكم من أعمالكم الصالحة، أنكم أعضاء في ابنه، فخير لكم أن تنصهروا في وحدة لا تنفصم، وتكونوا مع الله في شركة دائمة[٤٧]".

وفي رسالة أخرى يحث القديس إغناطيوس الأنطاكي شعب كنيسة "فيلادلفيا"، أن يسيروا معًا في شركة مع الأسقف، كقطيع واحد خلف راعيهم (الأسقف)، حذرين من كل شيء يفكك وحدتهم، أو يعطلهم عن مسيرتهم معًا فيقول: "فيا أبناء النور الحقيقي، تجنبوا الانقسامات، والتعاليم الفاسدة، وحيثما وجد أسقفكم، فاتبعوه كالنعاج. كثيرة هي الذئاب المتلبسة بالإيمان (اللابسة ثوب الإيمان من الخارج في حين هي على خلاف ذلك من الداخل)، التي تغري بالمتعة الفاسدة الذين يسلكون سبيل الله، فلا يكن لهم في شركتكم مكان[٤٨]".

الشركة مع القديسين في الإفخارستيا

إنه لمن المهم أن ندرك أننا لسنا فقط نسير مع بعضنا البعض، ولسنا نسير أيضًا في طريق جديدة لم يسلكها أحد من قبل. بل إننا نسير في طريق سبق أن مشى فيه السيد المسيح نفسه، ومن بعده الرسل، والآباء، والقديسون، مما يبعث على الطمأنينة. فهناك كثيرون آخرون سبقونا وأكملوا رحلتهم، وأصبحوا على دراية بالطريق، لذلك هم أجدر على إرشادنا، فنحن وقديسو الكنيسة في العهدين لنا تاريخ خلاص مشترك.

فلا عجب من أن تسترشد الكنيسة بهم منذ القرن الأول،

---

[٤٧] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أفسس: ٤.

[٤٨] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى فيلادلفيا ٢: ١، ٢.

وتستقي تعاليمها ممن سبقوا من الآباء، الأمر الذي كان شائعًا في كل الكنائس منذ البدء بشهادة التقليد: "فالمسيح نعبده لأنه ابن الله، أما الشهداء فنحبهم كتلاميذ يقتدون بالمسيح، وهذا حق لهم، لتفانيهم الذي لا يُضاهى نحو مليكهم ومعلمهم (المسيح)، جُعلنا نحن أيضًا تلاميذ رفقاء لهم[٤٩]".

ونحن نستلم من الآباء والقديسين خريطة الطريق الروحي استلامًا كما استلموها هم ممن قبلهم، كميراث روحي لنا من المسيح، محفوظ ومذخر في حياة قديسي الكنيسة وآبائها "لتعلموا ما هو رجاء دعوته، وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين" (أف١:١٨)، لذلك يكتب القديس مقاريوس الكبير في إحدى رسائله قائلًا: "كثيرة هي أمجاد القديسين، وينبغي أن نغير من أجلها. ونطلب معرفة تدبيرهم وعملهم، ونفتش لنعرف كيف استحقوا الملكوت، ونالوا النعيم في تلك الرتبة. لأنهم لم يشتروها بمال، بل كما تحققناه منهم، إنهم إقتفوا فقط آثار القديسين الذين قبلهم[٥٠]".

إننا نقتفي آثار القديسين بُغية الوصول لأرض الموعد "أورشليم السماوية"، الموضع الذي لا يوجد فيه حزن ولا كآبة ولا تنهد، إنما نور القديسين. فهم بمثابة رفقاء درب لنا، وإن كانوا غير منظورين. هم سحابة شهود فوقنا يظللون علينا بصلواتهم، وسماوات نستطيع أن نرى الله فيها (في حياتهم). هم شهود لما قد تستطيع إمكانيتنا البشرية (إذا تجاوبت مع عمل النعمة) أن تصل إليه وتحققه!

لذلك صارت تواريخ نياحة أو استشهاد القديسين أعيادًا تحتفل بها في الكنيسة منذ البدء، إيمانًا منها بأن يوم وفاة المؤمن هو نفسه يوم

---

[٤٩] رسالة كنيسة "فيلوميليوم" إلى كنيسة "سميرنا"، مرجع سابق، بخصوص استشهاد القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا (مطلع القرن الثاني)، الفقرة :١٧.

[٥٠] خطاب أنبا مقار الأخير بحسب مخطوط س١٨، بمكتبة دير أنبا مقار، انظر كتاب: *الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار*، طبعة ٢٠٠٦، ص ١١١.

ميلاده في السماء، وانضمامه لصفوف الكنيسة غير المرئية، كما نرى في استشهاد القديس "بوليكاربوس السميرني" الذي تكالبت الكنائس للاحتفال باستشهاده: "سوف نحتفل معًا بذكرى شهادته (مطلع القرن الثاني)، ذكرى ولادته للحياة (أي ولادته في الحياة الأبدية)[٥١]."

ونفس الأمر يحدث مع الآباء البطاركة الذين قادوا سفينة الكنيسة عبر العصور ثم رقدوا، مقتفين أثر بعضهم البعض في تسليم وتسلسل رسولي عبر الأجيال، يسجل لنا الكتاب المقدس تاريخ احتفال شعب الله برجال الإيمان: "والآن دعونا نمدح المشاهير من آبائنا الذين سبقوا، والذين مَجَّدَهم الرب كثيرًا وعَظَّمَهم منذ البدء... هم أتقياء وأعمالهم الصالحة لا تنسى، ذكرهم العاطر تتوارثه ذريتهم، ما دام هؤلاء على عهد الرب باقين كآبائهم، وهم لا شك باقون على العهد جيلًا بعد جيل، لذلك يدومون إلى الأبد ولا يمحى مجدهم" (يشوع بن سيراخ ٤٤:١،٢؛ ١٠-١٣)، لذلك تذكرهم الكنيسة على المذبح (بعد مرد القارئون)، حيث يذكر الشماس أسماءهم جميعًا لأننا على وحدة إيمانية معهم، وهم يشاركونا بالصلاة في القداس الإلهي مع الصفوف غير المرئية من الكنيسة.

ونحن نسأل الملائكة والقديسين أن يصلوا معنا للرب، وهم يجيبون علينا بصلواتهم معنا ولنا[٥٢]، بل والأكثر من ذلك أن القديسين وإخوتنا الذين رقدوا في الإيمان، ينتظرونا في شوقٍ لكي نتوج معًا، فهم لم ينالوا أكاليلهم بعد؛ هم ماكثون في الفردوس موضع راحة وانتظار أنفس الأبرار والصديقين من آدم وإلى المجيء

---

[٥١] رسالة كنيسة "فيلوميليوم" إلى كنيسة "سميرنا"، مرجع سابق، الفقرة:١٨.

[٥٢] مثل "مجمع التسبحة " الذي يصلى في تسبحة نصف الليل، ولحن "الهيتينيات" أي "الشفعات" الذي يصلى في القداس قبل قراءة البولس، و"صلاة المجمع" (مجمع القديسين)؛ ولحن "بي نيشتي ⲧϣⲓⲛⲓⲡⲓ" اللذين يصليا بعد حلول الروح القدس في القداس الإلهي.

الثاني. هم ينتظرون مجيئنا، ليكتمل الجسد معًا حين تقوم جميع الأجساد في القيامة العامة (شركة القيامة). حينئذ فقط ستكافأ أجسادهم وأعضاؤهم التي جاهدوا بها حتى الدم حين كانوا على الأرض: "فأعطوا كل واحد ثيابًا بيضًا، وقيل لهم أن يستريحوا زمانا يسيرًا أيضًا حتى يكمل العبيد رفقاؤهم وإخوتهم أيضًا" (رو٦:١١). والذين سبقوا فرقدوا ينتظرونا ليتكلل جسد المسيح الواحد بأكمله، حيث سنكلل كلنا معًا، وبذلك تكتمل شركتنا، فهم أكملوا جهادهم، ويساعدونا بشركة صلواتهم، لنكمل نحن أيضًا جهادنا وخلاصنا ونذهب لهم، ثم نشترك كلنا في القيامة العامة (نقوم معًا)، لنتوج معًا. فالجسد كله سيتوج معًا حين يكتمل كقول بولس الرسول: "فهؤلاء كلهم، مشهودًا لهم بالإيمان، لم ينالوا الموعد، إذ سبق الله فنظر لنا شيئًا أفضل، لكي لا يكملوا بدوننا" (عب١١: ٣٩،٤٠)، كل عضو حسب جهاده وقامته سيتوج ويكلل، بأكاليل روحية وسماوية.

وعن تتويج الجسد معًا يكتب القديس يوحنا ذهبي الفم قائلًا: "إن هؤلاء ظلوا سنوات طويلة جدًّا حتى انتصروا على كل هذه الضيقات والآلام، ولم يتمتعوا بعد بالمكافأة أو المجازاة، وأنتم الذين بعد في مرحلة الجهاد لا تصبروا؟! كم من الزمن سينتظر إبراهيم، والرسول بولس حتى تُكمَّل أنت؟ لكي يستطيعوا عندئذ أن ينالوا المكافأة، لأنه إن لم توجد (أنت) إلى جوارهم هناك (في الحياة الأبدية)، فلن يكافئهم المخلص... تمامًا مثل أب حنون قال لأبنائه الذين يبتهجون، وقد أكملوا عملهم، إن لم يأت أخوتهم، فلن يأكلوا... إذًا ماذا ينبغي لهابيل أن يفعل؟.. وهو بعد غير متوج... ماذا يفعل كل أولئك الذين عاشوا كل هذه السنوات، والذين ينتظرونك أنت وكل من سيأتي بعدك؟ أ رأيت كيف أننا بمكانة أكثر تميزًا

من أولئك (الذين جاهدوا قديمًا)؟ إذ حسنًا قال: "إذ سبق الله فنظر شيئًا أفضل" لكي لا يعتقدوا أنهم متميزون علينا، لأنهم توجوا أولًا. لذلك عين الله زمن التتويج واحدًا للجميع، حينئذ يتم قول داود المرنم: "يفتخر القديسون بمجد" (مزمور١٤٩)، فمن انتظر منذ سنوات طويلة سينال إكليله معك أنت... لم يَظلِم هؤلاء، لكن كرمنا نحن، لأن هؤلاء (شهود الإيمان) أيضًا ينتظرون إخوتهم، ما دمنا جميعًا جسدًا واحدًا... سيكون التتويج مشتركًا، وليس بشكل فردي... أي سيتوجوا مع كل أعضاء جسدهم الواحد (جسد المسيح)[٥٣]".

وعندما دخل شعب الله ليمتلك أرض كنعان التي ترمز للأبدية في أيام يشوع بن نون[٥٤]، لم يتم تقسيم الأرض وإمتلاكها فعليًا؛ إلا بعدما عبر الشعب نهر الأردن وحارب الأسباط الاثني عشر "معًا"، وامتلكوا كل الأرض التي لهم. حتى سبطي "رأوبين" و"جاد" ونصف سبط "منسى"، الذين كانت أرضهم شرق نهر الأردن، عبروا مع إخوتهم وحاربوا، ثم عادوا ليمتلكوا أرضهم مع الباقين في النهاية. لقد جاهدوا معًا وامتلكوا معًا، صائرين لكنيسة العهد الجديد نموذجًا يُحتذى؛ فالجسد كله يجاهد "معًا" ثم يكلل الجميع معًا. حتى المؤمنين الذين سبقوا وتنيحوا في الإيمان، هم يساندون جهادنا بصلواتهم، حتى ندخل كلنا كنعان الحقيقية، التي هي ملكوت السموات معًا، ونملك كلنا معًا.

والكنيسة من خلال الإفخارستيا تدخلنا في شركة مع الراقدين، لأن شركتنا نحن المؤمنين هي "**شركة أحياء**"، والذين

---

[٥٣] القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة العبرانيين، مرجع سابق، العظة الثامنة والعشرون في تفسير الإصحاح الحادي عشر.

[٥٤] يسجل لنا سفر يشوع تفاصيل امتلاك الأرض وتقسيمها؛ النصف الأول من السفر من الإصحاح الأول إلى الثاني عشر يصف المعارك التي خاضها شعب الله مع الشعوب الكنعانية؛ والنصف الثاني من السفر من الإصحاح الثالث عشر إلى الرابع والعشرين يصف تقسيم وامتلاك الأرض.

رقدوا هم ما زالوا أحياء. لذلك لا تنقطع شركة أحد الأعضاء ببقية الجسد (الكنيسة)، فأرواحهم وأنفسهم ما زالت حية بالحقيقة وتسكن في موضع انتظار الأحياء، فأعضاء جسد المسيح دومًا أحياء، وفي حالة شركة ووحدة من خلال الإفخارستيا، سواء الأحياء في الكنيسة المنظورة (على الأرض)، أو الأحياء الذين انتقلوا للجزء غير المنظور من الكنيسة، فالجميع أحياء، والجميع في الكنيسة جسد واحد لرأس واحد.

والشركة مع الراقدين هي من صميم إيماننا، لذلك وضعت الكنيسة في قانون إيمانها جزءًا خاصًا بالقيامة من الموت، ربطته مباشرة بالحياة الأبدية والملكوت: "وننتظر قيامة الأموات، وحياة الدهر الآتي[٥٥]"، فالموت للمؤمنين صار بوابة عبور للملكوت ولعالم الأحياء غير المنظورين "في كورة الأحياء إلى الأبد، في أورشليم السمائية، في ذلك الموضع[٥٦]".

لذلك تستخدم الكنيسة كلمات مثل: "رقاد"، "نياحة"، "انتقال" كتعبير ووصف أدق لحالة المتوفى لأنها تشير بحقيقة أنه ستكون هناك استمرارية لحياة الشخص بعد وفاته. بينما لا تفضل الكنيسة استخدام كلمة "موت" عندما يرقد أحد المؤمنين، لأنها تحمل معنى ضمنيًا بالانتهاء أو الانقطاع لذلك تصلي الكنيسة في أوشية الراقدين وتقول: "لأنه ليس موت لعبيدك، بل هو انتقال[٥٧]".

الإفخارستيا سيمفونية شركة بين السماء مع الأرض

ومن هنا فإن الإفخارستيا هي سيمفونية[٥٨] وليتورجيا للخلود،

---

[٥٥] قانون الإيمان.

[٥٦] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلوات بعد الترحيم، القداس الباسيلي، ص ٢٦١.

[٥٧] المرجع نفسه، أوشية الراقدين، ص ٤٨.

[٥٨] "سيمفونية" (Συμφωνία) كلمة يونانية وتعني "توافق أو تناغم الأصوات"، حيث (Phoni - Φωνή) تعني "صوت".

ليتورجيا للوحدة، تعزفها أوركسترا السماء والأرض معًا في توافق وتناغم مذهل. وليتورجيا الوحدة هذه قد ظهرت بواكيرها منذ ميلاد المسيح في بيت لحم، حيث نجد كل عناصر الليتورجيا هناك. فنجد السماء تشترك مع الأرض، في الاحتفال بالصبي المولود. الملائكة يبشرون البشر (الرعاة) بمولد المخلص الذي هو المسيح الرب، وجمهور من الجند السماوي يسبحون قائلين: "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة" (لو٢:١٤). ونجد أيضًا الرعاة (اليهود) وقد أتوا يمجدون، والمجوس ملوك المشرق (الأمم) يسجدون.

وبذلك اشتركت السماء متمثلة في النجم والملائكة، وجوق الجند السماوي، مع الأرض وكل سكانها (المسكونة) من يهود وأمم. في تقديم التسابيح، والتقدمات (هدايا المجوس) للإله المتجسد والمولود في بيت لحم. وهذه الليتورجيا التي بدأت بالميلاد قد اكتملت فيما بعد بالصليب والقيامة، لتستمر بعد ذلك في الكنيسة بعمل الروح القدس الذي حل على الكنيسة في يوم الخمسين.

والروح القدس يعمل في الكنيسة بشكلٍ دائمٍ ومستمر. وعمله فيها يتميز بالتنوع والانسجام (أي إنه يوحد، وينوع في آنٍ واحد)، لذلك تسبحه الكنيسة كل يوم، مشبهة مسحة الروح القدس بالطيب النازل على جسد المسيح كله من الرأس إلى القدمين (الكنيسة هي جسد المسيح التي تتألف من الشيوخ والصبيان والفتيان والخدام) فنقول في تسبحة باكر: "ما هو الحسن وما هو الحلو، إلا اتفاق إخوة ساكنين معًا؛ متفقين (أي متآلفين مثل السيمفونية التي تنساب فيها الأصوات المختلفة بانسجام، "Symphonin") بمحبة حقيقية إنجيلية كمثل الرسل، مثل الطيب على رأس المسيح، النازل على اللحية إلى أسفل الرجلين؛ يمسح كل يوم الشيوخ والصبيان والفتيان والخدام؛ هؤلاء الذين ألفهم الروح القدس معًا، مثل قيثارة مسبحين الله كل

حين؛ بمزامير وتسابيح وترانيم روحية، النهار والليل بقلب لا يفتر[٥٩]".

وهذه السيمفونية تتحقق في الإفخارستيا حيث يشترك فيها خورس السمائيين؛ وعلى رأسهم والدة الله القديسة مريم، ورؤساء الملائكة الأطهار وبقية الطغمات السمائية من السيرافيم والشيروبيم والكراسي، والأرباب، والقوات، والأربع حيوانات غير المتجسدين، والمئة والأربعة والأربعون ألفًا البتوليون، والأربعة والعشرون قسيسًا، ومعهم الرسل، والأنبياء، والشهداء، والمعترفون، والآباء القديسون، والسواح وروح كل صديق رقد في الرب.

وهذا المحفل المكون من ربوات وربوات (الربوة هي عشرة آلاف) يشترك في كل قداس إلهي، مع خورس الأرضيين المؤلف من الكهنة والشمامسة والشعب. الكلُّ يشارك بحسب دوره في القداس الإلهي، وعن ذلك يقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات في قداسه: "الذي ثبت قيام صفوف غير المتجسدين في البشر[٦٠]". والجميع واقفون ليتبادلوا تسبيح الثالوث القدوس الواحد في الجوهر بتسبحة عذبة شجية، سمائية وأرضية في آنٍ واحد، قائلين: "قدوس، قدوس، قدوس، رب الصاباؤت، السماء والأرض مملؤتان من مجدك الأقدس[٦١]"، هذه التسبحة الخالدة هي تسبحة الشيروبيم المدونة في سفر إشعياء في العهد القديم، والتي صارت تسبحة الكنيسة كلها: "الذي أعطى الذين على الأرض تسبيح السيرافيم[٦٢، ٦٣]".

---

[٥٩] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ذكصولوجية باكر آدام لربي يسوع، مرجع سابق، القطع ٢٨-٣٣، ص ٤٣٩.

[٦٠] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٢٧.

[٦١] المرجع نفسه، ص ٣٢٩.

[٦٢] المرجع نفسه، ص ٣٢٧.

[٦٣] يكمل هذا النشيد المثلث التقديس (في طقوس الكنائس التقليدية الأخرى) بتسبحة الخلاص التى من الأرض؛ والتي رنمها الأطفال مع الكبار في العهد الجديد عند دخول السيد المسيح مدينة أورشليم: "هوشعنا في الأعالي، مبارك الآتي باسم الرب، هوشعنا في الأعالي" (مت٢١:٩)، فالكنيسة تدخل بهذه التسبحة إلى "أورشليم العليا" المدينة السمائية.

وهذه التسبحة هي إفخارستية من الدرجة الأولى لأنها تجمع السمائيين والأرضيين "اقبل منا نحن أيضًا أصواتنا مع غير المرئيين، احسبنا مع القوات السمائية[٦٤]"، العهد القديم والعهد الجديد، الكنيسة المنظورة وغير المنظورة، الجميع يسبحون معًا في تآلف وانسجام (ἁρμόνιος - harmony)[٦٥] عجيب "ترنمت كواكب الصبح معًا، وهتف جميع بني العلي" (أي٣٨:٧).

والمايسترو الذي يقود ويتقدم الجميع في إيقاع عجيب هو المسيح، الذي بالروح القدس يجمع في ذاته كل الخليقة، إذ أنه هو مصدر وواهب التآلف والانسجام (ipse harmonia est) وبذلك تلتف الكنيسة في سر الإفخارستيا حول المسيح، حيث يجتمع الجسد كله، ويشترك في صلاة واحدة، وتسبيح واحد، صاعدًا إلى السماء حيث قمة الشركة والوحدة كما يقول القديس "كليمندس الروماني": "فلنهتف له نحن أيضًا كلنا من غير كلل، بقلبٍ واحد، وفم واحد، وتوقدٍ (شوق) واحدٍ، نشيد أمانتنا المشتركة، من أجل أن نكون شركاء عهوده الجليلة المجيدة[٦٦]".

---

[٦٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٢٧.

[٦٥] كلمة (ἁρμόνιος) "هارموني" تعنى: "وضع الشئ في المكان المناسب المتناسق مع غيره من الأشياء مثل الحجارة في البناء، ومثل الأصوات والأنغام في اللحن الموسيقي". انظر:

- G. Lampe, *A Patristic Greek Lexion*, Oxford University Press, U.S.A, 1696, p. 227.

[٦٦] رسالة القديس كليمندس الروماني إلى كنيسة كورنثوس، مرجع سابق، ٣٤:٧.

ألحان كنسية قديمة

"تسبحة المسيح المخلص"[٦٧،٦٨]

يا لجام المُهر غير المروض، وجناحي الطيور غير الشاردة،
دفة السفن الأمينة، راعي الخراف الملكية.
اجمع أطفالك الأطهار، ليسبحوك بالقداسة،
ويرنموا بصوتٍ جميل، المسيح قائد الأطفال،
قُد أيها الراعي غنماتك الناطقة،
واهد أطفالك الأطهار، أيها الملك القدوس...
آثار أقدام المسيح تصنع الطريق إلى السماء.

---

67 Daniel Liderboch (fr.) op. cit., p.51،52.

٦٨ هذه المقاطع هي أجزاء من لحن "تسبحة المسيح المخلص"، الذي يعد أحد أقدم الألحان الكنسية في العالم على الإطلاق، وينسب للقديس "كليمندس السكندري" (١٥٠-٢١٥م)، الذي اشتهر بتأليفه للكثير من الترانيم الكنسية للدفاع عن الإيمان ضد الغنوسية، وكان يقال هذا اللحن في طقس المعمودية في ذلك الزمان، وقد وجد كاملًا في كتاب "البيداجوجوس" أي "المُربي" (*Paed.*, III.12.101).

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس يوحنا ذهبي الفم[٦٩]

رئيس أساقفة القسطنطينية

فمع هذه القوات المغبوطة، نهتف نحن أيضًا أيها السيد المحب البشر، ونقول: قدوس أنت وكلي القداسة أنت وإبنك وروحك القدوس، قدوس أنت وكلي القداسة، ومجدك عظيم الجلال. أنت أحببت عالمك بهذا المقدار، حتى إنك بذلت إبنك الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية... ونحن بما أننا ذاكرون هذه الوصية الخلاصية وكل ما جرى لأجلنا: الصليب، والقبر، والقيامة في اليوم الثالث، والصعود إلى السموات والجلوس عن الميامن، والمجيء الثاني المجيد أيضًا.

التي لك، مما لك، نقدمها لك عن كل شيء ومن أجل كل شيء... وأيضًا نقرب لك هذه العبادة الناطقة وغير الدموية، ونطلب ونتضرع ونسأل، فأرسل روحك القدوس علينا، وعلى هذه القرابين الحاضرة... لكي يكونا للمتناولين لنباهة النفس، ومغفرة الخطايا، وشركة روحك القدوس، وكمال ملكوت السماوات. والدالة لديك، لا للمحاكمة ولا للدينونة. وأيضًا نقرب لك هذه العبادة الناطقة من أجل الذين توفوا على الإيمان: الأجداد، والآباء، ورؤساء الآباء، والأنبياء، والرسل، والكارزين، والمبشرين، والشهداء، والمعترفين، والنساك، وروح كل صديق توفي على الإيمان.

---

[٦٩] انظر حاشية ص ٣٢.

الفصل الثامن

الإفخارستيا

حياة الشفاء

الإفخارستيا حياة الشفاء

الإفخارستيا هي دواء للحياة، لشفاء الجسد والروح. الخلاص هو عمل شفاء. الشفاء عملية تسغرق وقتًا، وتحتاج إلى قوة إلهية نستمدها من كل الأسرار وخصوصًا الإفخارستيا. الإفخارستيا هي وقت وزمان الشفاء. ارتباط الأكل بالمحبة. الكنيسة هي مستشفى للمرضى، ومجتمع علاجي.

قصة

ذهب كاهن في أواسط العمر (بعد رسامته بثلاث سنوات) لزيارة أحد أديرة الراهبات. وطلب مقابلة رئيسة الدير، سائلًا منها الصلاة لأجله وطالبًا منها معونة شفيع الدير، لأجل أن ينال الشفاء إذ اكتشف مؤخرًا أنه مصاب بسرطان في الحنجرة، وأنه في مرحلة متأخرة جدًّا من المرض تستلزم الجراحة. والتي سيفقد بعدها القدرة على الكلام إلى الأبد!

وبالفعل قابلته رئيسة الدير واستمعت له، ثم سألته مباشرة عما إذا كان يصلي "قداس" كل يوم أم لا؟ استغرب الكاهن من السؤال، لكن جاوبها أنه يصلي القداس الإلهي مرة أو إثنتين على الأكثر في كنيسته كل أسبوع، وذلك حسب دوره بالترتيب مع بقية كهنة الكنيسة، ثم سألها عن الهدف من سؤالها هذا.

أخبرته رئيسة الدير أنها بالتأكيد ستصلي لأجله، وأن شفيع الدير سيتدخل، قائلة له أن كل ذلك جيد، ولكن يجب أن يطلب هو أيضًا بإلحاح من الله وبإيمان لأجل شفائه، وهو ممسك بجسد المسيح على المذبح، لأن هذه الفرصة التي يتمتع بها ككاهن لا تتاح لها. قائلة له إن كل المرضى (في الأناجيل) الذين طلبوا الشفاء من المسيح، حتى ولو من أمراض مستعصية شفاهم. وأوصته بأن يصلي القداس الإلهي كل يوم لمدة شهر، ثم يأتي لزيارتها ثانية.

مضى شهر بعد زيارة الأب الكاهن للدير وفعل كما أمرته رئيسة الدير، ليفاجأ في زيارته الدورية لطبيبه المعالج، أن الورم إختفى تمامًا، ولا أثر له، وأنه لن يحتاج لأي علاج من أي نوع. تغيرت حياة ذلك الكاهن، بل وحياة رفقائه الكهنة الذين في كنيسته، وأصبح لهم اهتمام أكثر بالإفخارستيا؛ كسر شاف.

الخلاص عملية شفاء وتطهير

كان البرص أكثر الأمراض في العهد القديم تعبيرًا عن الخطية، فالمصاب به كان يحسب نجسًا، ويُعزل عن بقية الشعب: "أوصِ بني إسرائيل أن ينفوا من المحلة كل أبرص" (عد٥:٢)، وكان لا يسمح لأحدٍ أن يلمسه، لئلا يتنجس، لذلك كان يقيم المصابون به في أماكن مهجورة. ولم يكن مسموح لهم بدخول المدينة المقدسة (أورشليم) ولا بتقديم أي عبادة في الهيكل أو المجامع لأنهم غير طاهرين، وبذلك كانوا يعانون بجانب المرض، عزلة اجتماعية ونفسية شديدة!

وعندما يشفى الأبرص كان يأتي الكاهن ليتأكد من طهره في "اليوم الثامن[1]"، حيث يغمس الكاهن إصبعه في دم الذبيحة، ويرش على الأبرص سبع مرات، إشارة إلى أن الأبرص قد شفي وتطهر بالكامل. وهكذا ارتبط الشفاء بالطهارة والقداسة، وارتبطت الخطية بالنجاسة.

لقد كانت البشرية قبل التجسد بأكملها تشبه الأبرص الذي شفاه المسيح (لو٨:٢٧) الذي كان مقيمًا في القبور (مكان الموت والنجاسة). فالبشرية كلها كانت مريضة بالخطية (البرص)، ومنعزلة عن السماء إلى حد كبير، بل ومنطرحة بعيدًا عن الله مثل المصابين بالبرص. وكان الإنسان سائرًا في طريق الموت، بل ومقيمًا

[1] طقس تطهير الأبرص كان يستمر لمدة ثمانية أيام (لاو:١٤)، ورقم ثمانية في الكتاب المقدس يرمز إلى الحياة الأبدية، ولقيامة المسيح التي بها ننال التطهير وتجديد طبيعتنا.

فيه كالأبرص في القبور. إلا أن الله ونحن بعد خطاة، أرسل ابنه ليفتقدنا ويشفينا، فيقول الكتاب: "أرسل كلمته فشفاهم ونجاهم من تهلكاتهم" (مز١٠٧:٢٠)، وفي موضع آخر يقول أيضًا: "أرسل من العلى فأخذني. نشلني من مياه كثيرة" (٢صم٢٢:١٧؛ مز١٨:١٦).

ولقد كتب كثير من آباء الكنيسة أن تجسد الابن هو لشفاء البشرية من الموت والفساد ولمنح الإنسان حياة جديدة بواسطة الاتحاد بالمسيح، فمثلًا القديس "أثناسيوس الرسولي" يذكر أن أحد أسباب تجسد الكلمة هو " ليشفي ويعلم أولئك الذين هم تحت الآلام[٢]." **وهذا هو ما ركز عليه الآباء الشرقيون في تعليمهم عن الخلاص أنه "عملية شفاء"، وليس مجرد نطق بحكم براءة**، لذلك يشجع القديس يوحنا ذهبي الفم الخطاة على التوبة، قائلًا: "تعال إلى الكنيسة وتب لأن هنا يوجد مستشفى، وليست محكمة[٣]." فالخاطئ مريض يحتاج إلى شفاء كما صلي إرميا النبي قائلًا: "اشفني يا رب فأشفى، خلصني فأخلص" (إر١٧:١٤). وكما نرى أيضًا في صلوات الكنيسة حيث يصلي الكاهن على لسان البشرية في القداس الإلهي، قائلًا: "ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة، أنت الذي أرسلت لي الأنبياء، أنا المريض[٤]."

وبذلك يتضح أن **المسيحية "ديانة شفاء"** (Therapeutic religion) لذلك حينما نتقدم للتناول، نتقدم كمرضى يحتاجون للشفاء والخلاص والحياة الأبدية كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "فلنتقدم إليه بإيمان نحن المرضى، فإن كان الذين لمسوا هُدب ثوبه فقط قد نالوا منه موهبة هكذا عظيمة، فكم بالأحرى ينال منه الذين يحصلون عليه كله؟![٥]"

---

[٢] القديس أثناسيوس الرسولي، تجسد الكلمة، مرجع سابق، ١:٤٣.

[٣] القديس يوحنا ذهبي الفم، التوبة، مرجع سابق، ٤:٣.

[٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، صلاة (إكؤاب Ϫⲟⲩⲁⲃ) "قدوس، قدوس، قدوس"، ص٣٣٣.

[٥] القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير إنجيل متى*، عظة ٥٠:٣.

ويقول القديس "مقاريوس الكبير" في إحدى عظاته مؤكدا على ذات المعنى: "إذا افترضنا أن هناك ملكًا عظيمًا، يبحث ويفتش، ليجد إنسانًا في فقر ومعاناة، وهو لا يخجل منه، بل يعالج جروحه بأدوية شافية، ويحضره إلى قصره، ويلبسه الأرجوان، والتاج الملكي، ويجعله شريكًا في مائدته الملوكية. فهكذا أيضًا المسيح الملك السمائي، جاء إلى الإنسان المجروح وشفاه، وجعله شريكًا في المائدة الملوكية (الإفخارستيا)، وذلك بدون أن يغتصب إرادته، بل بواسطة الحث، والإقناع يجعله في مثل هذه الكرامة العظيمة[٦]."

ولقد جاء السامري الصالح ليصب زيتًا وخمرًا على جروحنا فتشفى (لو١٠:٣٤). الزيت الذي يصبه المسيح له المجد هو روحه القدوس الشافي، والخمر الذي يسكبه هو دمه الكريم (الإفخارستيا). والمسيح في العهد الجديد يقدم لنا جسده ودمه على المذبح، لا لكي نُرش به لطهارة الجسد من الخارج كما في شريعة تطهير الأبرص في العهد القديم؛ بل لنشرب منه فنشفى ونتطهر من الداخل؛ من أصل الداء الذي هو "برص الخطية." لنقوم مع المسيح القائم من بين الأموات ونذوق الأبدية، متحدين به ومشتركين في قداسته "لكي نشترك في قداسته" (عب١٢:١٠)، وصائرين بالكامل مقدسين له. ونحيا في شركة القديسين، بعد أن فصلتنا الخطية عن كل ذلك.

وهذا هو ما يعلنه الكاهن في نهاية القداس حين يقول: "**القدسات للقديسين**[٧]"، أي إن الشعب التائب والمشترك في الصلاة، قد تهيأ بفعل التوبة، وعمل الروح القدس. لذلك يمكنه الآن أن يتقدم للتناول، فلا أحد يستطيع الاقتراب من الذبيحة الإلهية، إلا إذا استعد وتقدس أولًا لذلك، كما يتضح أيضًا في قوانين الآباء الرسل الخاصة

---

[٦] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، العظة ١٥:٣٠.

[٧] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلوات ما قبل الاعتراف، ص٢٧٥.

بالإفخارستيا والتي فيها يقولون من جهة الاستعداد للاشتراك في الإفخارستيا: "من تقدس فليقترب، ومن ليس بعد؛ فليتبْ[٨]".

وقد تحدث إشعياء النبي في سفره عن الجمرة التي أخذت من المذبح ومست شفتيه فطهر: "فطار إليَّ واحد من السَّرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح، ومس بها فمي، وقال: إن هذه قد مست شفتيك، فانتزع إثمك، وكفر عن خطيتك" (إش٦:٦). لقد كانت تلك الجمرة رمزًا للإفخارستيا، التي بها نطهر، وننال غفران الخطايا.

ويعلق القديس "مار إفرام السرياني" على رؤيا إشعياء النبي، قائلًا على لسان المسيح، الجالس مع تلاميذه في العلية يوم الخميس الكبير: "أنا هو خبز الحياة، أنا هو الجمرة التي قدست إشعياء حين مست شفتيه. أنا ألمسكم الآن، وأقدسكم بالخبز. هذا الملقط الذي رآه النبي، والذي أخذ به الملاك الجمرة من على المذبح، يصور لي سرًّا عظيمًا. لقد أتت النبوة التي تسبق الحقيقة. لقد نظر إشعياء الرب تمامًا كما ترونني الآن. أنظروا لقد مددت يدي اليمنى، ووضعت الخبز الحي في أفواهكم. الملقط هو يدي اليمنى، لقد أخذت مكان السيرافيم، تلك الجمرة هي جسدي، وكلكم تكونون كإشعياء. المذبح هو هذه المائدة، الهيكل هو هذه العلية، ورب هذا الهيكل هو أنا[٩]".

ولقد حولت الكنيسة هذه الرؤيا إلى صلاة في القداس الإلهي قائلة "وكما طهرت شفتي عبدك إشعياء النبي؛ إذ أخذ أحد السيرافيم جمرة بالكلبتين (الملقط) من على المذبح، وطرحها في فيه وقال له؛ ها إن هذه قد لمست شفتيك ترفع آثامك، وتطهر من جميع خطاياك.

---

[٨] الديداخي، مرجع سابق، ١٠:٦.

[٩] القديس مار إفرام السرياني، عظة على الإصحاح السادس في سفر إشعياء.

هكذا نحن أيضًا الضعفاء الخطاة عبيدك الطالبين رحمتك، تفضل طهر أنفسنا، وأجسادنا، وشفاهنا، وقلوبنا، وأعطنا هذه الجمرة الحقيقية المعطية الحياة للنفس والجسد والروح، التي هي الجسد المقدس والدم الكريم اللذان لمسيحك[١٠]".

الخليقة والمرض والشفاء

يخبرنا الكتاب المقدس بأن **الله خلق الإنسان سليمًا ومعافى، ولم يخلق المرض ولا الموت**: "الله صنع الإنسان مستقيمًا" (جا٧:٢٩)، وفي موضع آخر يقول الكتاب: "خلق كل شيء للبقاء، وجعله في هذا العالم سليمًا، خاليًا من السم القاتل" (الحكمة١:١٤). بينما **المرض والموت هما نتاج الخطية** التي هي من اختيار الإنسان: "لكن الأشرار جلبوا على أنفسهم الموت بأعمالهم وأقوالهم، حسبوا الموت حليفًا لهم وعاهدوه فصاروا إلى الفناء، فكان هو النصيب الذي يستحقون" (الحكمة١:١٦).

لذلك كان **يجب أن ننتصر على الموت أولاً، ونستعيد الأبدية** التي فقدناها، حتى ما نسترد العافية. كما يقول القديس "كبريانوس" (أسقف قرطاج، القرن الثالث): "فمنذ أن تعدى الإنسان الوصية، فقد صحة الجسد وكذلك الخلود، ومع الموت دخل المرض، لذلك لا يمكن أن تسترد الصحة، قبل أن يُسْتَعَاد أيضًا الخلود[١١]".

لذلك صارت قضية التغلب على الموت والفناء العائق الأكبر للبشرية؛ فالأشرار يرون أنه لا يوجد علاج للموت الذي هم فيه "يخطئ الأشرار حين يقولون في أنفسهم... لا من دواء للموت" (الحكمة٢:١)، بينما يتمسك الأبرار في رجاء؛ بأن الدواء هو في كلمة الله: "فلا نبات ولا مرهم شفاهم أيها الرب، بل كلمتك التي تشفي

---

[١٠] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، صلاة القسمة، ص ٤٧٤.
[١١] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، فائدة الصبر:١٧.

الجميع" (الحكمة ١٢:١٦). فإرميا النبي أخذ يرثي لحال شعبه في العهد القديم باحثًا لهم عن ذلك الدواء قائلًا: "أ ليس بلسان (مرهم) في جلعاد؟" (إر٨:٢٢)[١٢]، ويعود ثانية ويتنبأ قائلًا: "اصعدي إلى جلعاد، وخذي بلسانًا يا عذراء، بنت مصر. باطلًا تكثيرين العقاقير. لا رفادة لك" (إر٤٦:١١). والكنيسة تخبرنا في القداس الإلهي بأنها هي جلعاد الحقيقية، وأن الموضوعين على مذبحها هما الدواء: "فلنمض إلى جلعاد لننال الدواء من ذلك الموضع، جلعاد هي الكنيسة الجامعة الرسولية، والبلسان (الدواء) الذي فيها، هو جسد ودم عمانوئيل[١٣]." فالكنيسة تعلمنا أن الإفخارستيا هي "ترياق الحياة"، و"دواء الخلود"، الذي به نقاوم كل ضعف بحسب قول العلامة "ترتليان" (القرن الثاني) عن الإفخارستيا: "دواء الحياة، الذي يقاوم الضعف والمرض، ويقوينا في الحرب ضد الشيطان والخطية."

ولقد أرسل الله في ملء الزمان، هذا الدواء الشافي والمخلص؛ "الكلمة المتجسد"، "ولكن لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه" (غل٤:٤)، والذي رمز له سليمان قديمًا بالحكمة في أسفاره قائلًا "هي حياة للذين يجدونها، ودواء لكل جسد" (أم٤:٢٢). فمن خلال سري المعمودية والإفخارستيا ننتصر على الموت، ونخلع الفساد، مُتَقبِّلين الشفاء الذي يقدمه لنا الله.

وهكذا فإن تدبير الثالوث لخلاص البشرية هو في حقيقة الأمر "عمل شفاء"؛ فالآب يرسل الابن لشفاء البشرية من خلال موته وقيامته "أرسل فداءً لشعبه" (مز١١٠:٩) والابن يرسل الروح القدس "موعد الآب" في يوم الخمسين ليخلق البشرية من جديد "ترسل روحك فتخلق،

---

[١٢] "جلعاد" أو "جلعاد باشان" هي أفضل أرض في كنعان كلها، لشدة خصوبتها، وهي تقع في الجزء الشمالي الشرقي من أرض فلسطين (قديمًا)، وكانت تشتهر بالمراعي والأشجار الضخمة والعظيمة، والتي يستخلص من بعضها العقاقير.

[١٣] القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، مرجع سابق، قسمة للميلاد والأعياد السيدية الكبرى، ص ٩.

وتجدد وجه الأرض" (مز١٠٤:٣٠). وبذلك نرى كيف أن الله أراد أن يشفي الإنسانية من هذا السم المميت الذي أفسد كل شيء، لذلك تجسد المسيح ليحمل أمراضنا وأوجاعنا (إش٥٣:٤)، وكسر شوكة الموت التي هي الخطية، وقام صائرًا هو برنا وشفاءنا "لأنك أنت هو حياتنا كلنا، وخلاصنا كلنا... وشفاؤنا كلنا[١٤]." **وأعطانا الإفخارستيا دواء مضادًّا للخطية** والموت، تلك التي يصفها القديس "إغناطيوس الأنطاكي" (القرن الأول) بأنها: "دواء الخلود، الشافي من الموت، للحياة الأبدية (Ζωή) بيسوع المسيح[١٥]"، لذلك الكنيسة تصلي وتطلب هذا الدواء لكي تدخل به الأبدية قائلة: "صنعت لي وليمة، ومن سم الحية شفيتني، وأدوية الخلاص سلمتني[١٦]".

وعن ذلك يكتب القديس غريغوريوس النيصي[١٧]، قائلًا: "عندما تتحد النفس بالرب.. تحصل على وسيلة وفرصة خلاص، واتحاد بالحياة... فكما أن الذين أخذوا سُمًّا مميتًا يهدأون من تأثيره المميت بمصل آخر مضاد؛ هكذا نحن أيضًا الذين تذوقوا ما تسبب في

---

[١٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية الإنجيل، ص ٨١.

[١٥] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أفسس٢٠:٢.

[١٦] القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، مرجع سابق، قسمة للميلاد وسنوي، ص ١٧.

[١٧] القديس "غريغوريوس النّيصي" (٣٤٠-٣٩٤م) هو أحد الآباء الكبادوك الثلاثة العظام (مع القديس باسيليوس الكبير والقديس غريغوريوس النزينزي "الناطق بالإلهيات")، ولد بقيصرية الكبادوك في آسيا الصغرى، وله ثلاثة إخوة قديسون وهم: القديس باسيليوس الكبير، والقديس بطرس (أسقف سبسطية)، والقديسة ماكرينا الكبرى. تعلم البلاغة واللاهوت من أخيه الأكبر القديس باسيليوس الكبير. تزوج ولم يلحق بالقديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزي في حياتهما الرهبانية، لكنه كرس كل حياته للكنيسة. رسمه أخوه القديس باسيليوس أسقفًا على نيصص في إقليم كبادوكية عام ٣٧٢م وكانت السنوات السبع الأولى لأسقفيته مملوءة بالصعاب؛ منها أنه نُفي من كرسيه على يد الأريوسيين لمدة سنتين. وعندما تنيح أخوه القديس باسيليوس الكبير أصبح هو وريثه الشرعي في مقاومة الأريوسيين، وقام بمهام أخيه الرهبانية واللاهوتية والسياسية، فتألق نجمه وذاع صيته. لعب دورًا هامًّا مع القديس غريغوريوس النزينزي في المجمع المسكوني الثاني (مجمع القسطنطينية ٣٨١م)، ففي هذا المجمع ألقى خطابًا شهيرًا عُد بسببه من أعمدة الأرثوذكسية، وهو خطاب عن "ألوهة الابن والروح القدس." وله مؤلفات لاهوتية وتفسيرية عديدة. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ٢٢٤-٢٢٨.

انحلال طبيعتنا بالموت. لذلك نحتاج بالضرورة إلى شيء يوحد ما كان قد انحل، حتى بدخول مثل هذا الترياق في داخلنا يبطل بمفعوله المضاد الضرر الذي أدخله السم (الموت) في الجسد. وماذا **يكون هذا الدواء إلا ذلك الجسد الذي استعلن كسيد على الموت وباكورة حياتنا**. لأنه كما أن "خميرة صغيرة تخمر العجين كله" (١كو٥:٦) كذلك جسد الرب فينا[١٨]."

قوة الله الشافية

تخبرنا الأناجيل في عدة مواضع (مر٥:٣٠؛ لو٨:٤٦) أن السيد المسيح عندما كان يقوم بشفاء المرضى كانت تخرج منه "قوة"، "**ديناميس**" (Δύναμις)[١٩] "لأن قوة كانت تخرج منه وتشفي الجميع" (لو٦:١٩). وفي موضع آخر يقول القديس لوقا الإنجيلي والطبيب: "وكانت قوة الرب لشفائهم" (لو٥:١٧)، معترفًا بأن الأشفية التي صنعها المسيح كانت بفعل "قوة"، أي إن السيد المسيح كان يمنح قوة قادرة على الشفاء، قوته هو، قوته الذاتية (αὐτοδύναμις) التي ينقلها لنا الروح القدس: "قوة روح الله" (رو١٥:١٩).

والإفخارستيا تمنحنا القوة التي بها نقدر أن نقوم من الموت والفساد "قوة حياة لا تزول" (عب٧:١٦)، لذلك تصلي الكنيسة في وقت القداس الإلهي قائلة: "بقوتك أقم موت نفوسنا[٢٠]." لأننا نتناول المسيح ذاته الذي هو قوة أبيه وحكمته (αὐτοσοφὶα) (١كو١:٢٤). وهي ذاتها القوة القادرة على انتصار على الخطية لأن المسيح هو الذي بلا خطية وحده، والذي انتصر على الشرير، وكل قواته لذلك يطلب الكاهن من الله قائلًا: "فليهرب عنا الزنى، وكل فكر نجس...

---

[18] *The Great Catechetical Orations*,37; NPNF 2nd series,V, p.504.

[١٩] جاءت منها كلمة "ديناميكي" أي متحرك أو "فعَّال".

[٢٠] القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، مرجع سابق، قسمة للقديس كيرلس الكبير، ص ٥٩.

الشياطين وإبليس، فليهربوا من أجل الذي شتت رؤساء الشر، وهتك سلاطين الظلمة[٢١]".

ويوضح القديس "كيرلس الكبير" هذه الحقيقة بقوله: "كيف يمكن للإنسان على الأرض، الذي هو ملتحف بالموت أن يعود إلى عدم الفساد؟ أجيب بأنه يلزم لهذا الجسد المائت أن يصير شريكًا للقوة المحيية التي تأتي من الله. وقوة الله الآب المحيية هي الكلمة الوحيد الجنس[٢٢]".

وإحدى الكلمات الأخرى التي استخدمت في العهد الجديد للتعبير عن القوة هي "شيروس" (Χειρός) وهي تعني "قوة"، وفي نفس الوقت تعني "يد"، مثلما قيل عن يوحنا المعمدان: "وكانت يد الرب معه" (لو١:٦٦)، وعن الرسل في كرازتهم: "وكانت يد الرب معهم، فآمن عدد كثير ورجعوا إلى الرب" (أع١١:٢١). إنها اليد التي تشدد وتقوي وتسند من يطلبها!

وهي اليد التي كانت تلمس المرضى فيشفون، والعمي فيبصرون، والموتى فيقومون. إنها هي ذراع الرب الرفيعة؛ ذراع الرب القادرة والقوية: "استيقظي، استيقظي، البسي قوة يا ذراع الرب" (إش٥١:٩). إن داود النبي كان يصرخ إلى الله قائلًا: "أرسل يدك من العلاء، أنقذني ونجني" (مز١٤٤:٧)، لذلك تسبح الكنيسة الله الذي أرسل لنا ذراعه المخلصة والشافية قائلة: "لأنه غلب من تحننه، وأرسل لنا ذراعه العالية[٢٣]"، أي المسيح الكلمة المتجسد[٢٤] "يرسل كلمته إلى الأرض" (مز١٤٧:١٥).

---

[٢١] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، صلاة خضوع قبل التناول، ص٤٨١

[٢٢] القديس كيرلس الكبير، تفسير إنجيل لوقا الإصحاح الثاني والعشرون، مرجع سابق، العظة ١٤٢.

[٢٣] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ثيؤطوكية يوم الإثنين، القطعة الخامسة، الربع الثالث، ص ٢٨٥.

[٢٤] القديس إيريناؤس وغيره من الآباء يلقبون الابن والروح القدس بأنهما "ذراعي الآب"

وتلك اليد هي نفسها اليد المحيية التي غسلت أرجل التلاميذ وأخذ بها المخلص خبزًا وكسر قائلًا: إن هذا هو جسده الطاهر في وقت العشاء السري، وهذا هو ما يحدث في كل قداس إلهي "أخذ خبزًا على يديه الطاهرتين، اللتين بلا عيب ولا دنس، الطوباويتين المحييتين[٢٥]"، وتصدق على ذلك الكنيسة في كل قداس بقولها: "نؤمن أن هذا هو بالحقيقة، آمين[٢٦]" وهي نفس اليد التي تألمت وحملت الصليب، وثقبت وسمرت بالمسامير إن يد المسيح الشافية، هي أيضًا اليد المتألمة والمجروحة، فالسيد المسيح هو بحق "الشافي المجروح" (The Wounded Healer)!

والقديس "كيرلس الكبير" يعلق على القوة الناتجة عن لمس جسد المسيح قائلًا في شرحه لمعجزة شفاء حماة بطرس: "أرجو أن تلاحظوا أيضًا ما هو عظم فاعلية لمسة جسده المقدس. فإنها تطرد الأمراض من كل نوع، وتطرد جمعًا من الشياطين وتطرح قوة إبليس عنا، وتشفي جمعًا كبيرًا من الناس في لحظة من الزمان. ورغم أنه يستطيع أن يعمل المعجزات بكلمة وبمجرد ميل إرادته، إلا أنه لكي يعلمنا شيئًا نافعًا لنا، فهو يضع يديه على المرضى أيضًا. لأنه كان لازمًا، ولازمًا جدًّا لنا أن نتعلم أن الجسد المقدس؛ الذي جعله جسده الخاص كان مزودًا بفاعلية قوة الكلمة بأن زرع فيه قوة إلهية. لذلك فلندعه يمسك بنا، أو بالحري فلنمسك نحن به، بواسطة الإفخارستيا السرية، لكي يحررنا من أمراض النفس، ومن هجمات الشياطين وعنفهم[٢٧]".

وفي موضع آخر يقول أيضًا عن فائدة التناول من جسد المسيح المحيي: "فإن كان بمجرد لمس جسده كان يُحيي ما قد فسد،

---

[٢٥] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، الرشومات، ص ٢٢٦.

[٢٦] المرجع نفسه.

[٢٧] القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل لوقا، مرجع سابق، ٤:٣٥.

فكيف لا ننتفع نحن بغنًى أكثر جدًّا من التناول المُحيي؟ فحينما نتناول نحن هذا الجسد (وليس فقط نلمسه) فإنه يغيرنا بالتمام نحن المتناولين منه إلى امتيازه الخاص الذي هو عدم الموت (الخلود)[٢٨]".

لذلك علينا في كل مرة نتقدم فيها للتناول أن نتقدم بإيمان وثقة، وتوبة حقيقية، لنتحد بالمسيح الطبيب الشافي فتسري فينا قوته الشافية، التي تعمل فينا وبنا باستمرار، فننمو في الشفاء يومًا بعد يوم، ومرة بعد مرة.

الإفخارستيا وقت الخلاص والشفاء

من أكثر الكلمات المستخدمة في الكتاب المقدس للتعبير عن الوقت هي: كلمة "خرونوس" (Χρόνος) وتسخدم للتعبير عن فترة زمنية، وكلمة "كايروس" (Καιρός) تعني "وقت معين"، أو "زمن محدد" وتستخدم أيضًا لتعني "فرصة".

والكنيسة ترتل في بدء القداس قائلة "قد حان الوقت[٢٩]"، كما قال حزقيال النبي في سفره: "قد جاء الوقت" (حز٧:١٢)، مُعلنة أنه قد حان وقت الاجتماع مع الرب، كما قال كاتب المزمور: "إنه وقت (Καιρός) عمل للرب" (مز١١٩:١٢٦)، وقت الأبدية، وقت الشكر وطلب الرب "إنه وقت لطلب الرب" (هو١٠:١٢)، وقت الخلاص: "في وقت (Καιρός) مقبول سمعتك، وفي يوم خلاص أعنتك، هوذا الآن وقت (Καιρός) مقبول، هوذا الآن يوم خلاص" (٢كو٦:٢). لذلك ترتل الكنيسة في بدء القداس أيضًا بالمزمور القائل: "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب" (مز١١٨:٢٤)[٣٠]، معلنة أنها في الإفخارستيا تستحضر يوم

---

[٢٨] القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل متى، مرجع سابق، ١٤:٣٦.

[٢٩] لحن "ابي ناف شوبي ⲁ ⲡⲓⲛⲁⲩ ϣⲱⲡⲓ"، يقال في طقس تقديم الحمل.

[٣٠] لحن"الليلويا فاي بيه بي ⲁⲗ ⲫⲁⲓ ⲡⲉ ⲡⲓⲉ̀ϩⲟⲟⲩ" أي" هذا هو اليوم" يقال في أيام السبوت والآحاد، والأعياد السيدية وفي المواسم التي يصلى فيها بالطقس الفريحي.

الخلاص: "ويقال في ذلك اليوم :هوذا إلهنا، انتظرناه فخلصنا، هذا هو الرب انتظرناه، نبتهج ونفرح بخلاصه" (إش٢٥:٩).

إن الكنيسة إذا جاز التعبير تقوم "**بتأوين**" (تجعله الآن) الأحداث، وذلك من خلال استحضار حدث في الماضي، وتجعله في الحاضر (الآن) مع الحفاظ على نفس مفاعليه، أي تجعله "هنا والآن" (Here & now)، كما كان في الماضي تمامًا بدون تكرار؛ بل هو امتداد للأحداث الخلاصية. وكل هذا يحدث سريًّا، وهذا هو المقصود بكلمة "الذكرى" (Ἀνάμνησις) "أنامنسيس" (لو٢٢:١٩). فمسيح الماضي، هو نفسه مسيح الحاضر والمستقبل معًا، لأنه فوق الزمن: "يسوع المسيح هو هو أمس، واليوم، وإلى الأبد" (عب١٣:٨)[٣١].

إن "الآن" التي تعيشها الكنيسة، تجمع فيها الماضي والحاضر والمستقبل. وهذا هو المقصود أيضًا بكلمة "اليوم" التي ترد كثيرًا في صلوات وتسابيح الكنيسة (خصوصًا في الأعياد السيدية)، فالكنيسة تعيش منذ العنصرة (يوم الخمسين) هذا "اليوم" الذي صار زمن الكنيسة، إنه يوم أبدي، متواصل (everlasting)، باليونانية ("إيون" – Αἰών) بدأ فجره بقيامة المسيح وإشراقه من القبر. إننا نعيش "**آنٍ دائمة**" (everlasting now)، لذلك تردد الكنيسة كثيرًا في كل صلواتها عبارة "الآن وكل أوان..إلخ."

والمسيح الطبيب الحقيقي يكون حاضرًا جسديًّا في الكنيسة في "وقت" الإفخارستيا، لأن القداس الإلهي هو وقت، وفرصة، بل هو "الوقت" (كايروس). إنه أثمن وقت يمكن أن نقضيه على الأرض؛ أي الوقت الذي نمضيه أمام جسد المسيح في القداس، لذلك كان قداسة البابا كيرلس السادس يوصي الشعب قائلًا: "اطلب في وقت القداس بلجاجة، كلما أنت في احتياج إليه. لأنه هذا هو الوقت المقبول، إنه

[٣١] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ثيؤطوكية الأربعاء، القطعة السابعة، الربع السادس، ص ٣٣٣.

الوقت الذي تفتح فيه أبواب السماء. إنه الوقت الذي يكون فيه المسيح حاضرًا، مقدمًا لنا جسده ودمه، لنأكل ونحيا، ونفوز بغفران خطايانا."

لذلك تعلن الكنيسة في كل قداس أنه قد حان وقت الخلاص، أي **وقت الشفاء** كما قال سليمان في سفر الجامعة: "وللشفاء وقت" (جا٣:٣). إنه تحقيق لزمان الشفاء الكامل الذي تنبأ عنه الأنبياء أمثال إرميا القائل "زمان الشفاء": (إر١٥:٨؛ ١٩:١٤)، وإشعياء القائل: "يوم يجبر الرب كسر شعبي، ويشفي رض ضربه" (إش٢٦:٣٠).

عملية الشفاء

إن شفاء نفوسنا عادة ما يكون في صورة "**عملية**" (process) تستغرق وقتًا، وعادة لا تخلو تلك العملية من الألم. فشفاء نفوسنا (وخلاصنا) هو "رحلة علاج"، تستغرق العمر كله. فيها يكشف لنا الله من وقت لآخر عن شيء معين يريد أن يشفيه، أو احتياج معين يريد تسديده. فيقوم بذلك (بشرط أن نكون متجاوبين معه)، ثم ينتقل بنا لمرحلة أخرى، أو لشيء آخر وهكذا.

وهذه العملية تتطلب منا مثابرة وصبرًا "يثمرون بالصبر" (لو١٥:٨)، حتى نقتني نفسًا صحيحة: "بصبركم اقتنوا أنفسكم" (لو١٩:٢١)، ويكتمل شفاؤنا، لذلك يقول الشهيد "كبريانوس": "إنه الصبر الذي يقوي أسس إيماننا، الذي ينمي رجاءنا، وهو الذي ينظم سلوكنا، حتى نستطيع أن نتبع المسيح، ويجعلنا أبناء لله[٣٢]."

ومن الجدير بالانتباه أن شفاء الله الجسدي أو الروحي لنا، ليس بالضرورة أن يكون فجائيًا أو لحظيًا، وإن كان ذلك جائز الحدوث. وبالنسبة للشفاء الجسدي نجد أن بولس الرسول بالرغم من أن الله

---

[٣٢] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، فائدة الصبر: ٢٠.

قد وهبه نعمة صنع الأشفية، صلى للرب ليس مرة واحدة، بل تضرع ثلاث مرات لله لأجل الشوكة التي أصابت جسده. وكانت استجابة الله له، أن أرسل له نعمة وعزاء، لتكفيه في مرضه وضعفه، عوض الشفاء (٢كو١٢:٩)! ويذكر الكتاب أيضًا أن بولس الرسول ترك "تروفيموس" مريضًا في ميليتس (٢تي٤:٢٠)، و"أبفرودتس" رفيقه الذي كان يخدمه، مرض حتى قارب الموت، لولا أن الله رحمه (في٢:٢٧). وحتى "تيموثاوس" الرسول (تلميذ بولس الرسول) لم يُصَلِ له بولس الرسول لينال شفاء معجزيًّا، بل نصحه بوصفة طبية لأجل أسقامه ومعدته (١تي٥:٢٣)!

إذن ليس بالضرورة أن تكون مشيئة الله هي الشفاء الجسدي الفوري أو المعجزي للإنسان. بل إن الله كثيرًا ما يسمح بالمرض لفائدتنا. وإذا أراد شفاءنا كثيرًا ما يستخدم وسائل كثيرة طبيعية (ليست فائقة للطبيعة) في عملية الشفاء. كالأدوية والعلاجات التي يصفها الأطباء للشفاء، ولتخفيف الآلام كما قال الحكيم ابن سيراخ: "الرب خلق الأدوية من الأرض والعاقل يستخدمها، أما بعودٍ تحول الماء عذبًا فأقيم الدليل على قوة الرب؟ الرب عرَّف بني البشر بهذه الأدوية حتى بعجائبها يمجدوه" (يشوع بن سيراخ ٣٨: ٤-٦). كما أن الأطباء أنفسهم هم أيضًا أداة شفاء في يد الله. وخصوصًا الأطباء الذين يعترفون بفضل الله عليهم. ولا يتكلون فقط على علمهم ومهاراتهم: "وادع الطبيب لأن الرب خلقه أيضًا، وخله إلى جانبك ما احتجته، فيومًا ما يكون شفاؤك على يديه، ويكون ذلك أنه دعا الرب فاستجاب منعمًا عليه بالنجاح في تخفيف الأوجاع واسترجاع العافية" (يشوع بن سيراخ ٣٨: ١٢-١٦). لذلك الله قد يستخدمهم أحيانًا لإيصال رسالته الخلاصية، فالأطباء هم رسل للمحبة وللرحمة الإلهية.

أما الأمراض الروحية كالخوف والشك وغيرها الناتجة عن فساد الطبيعة بعد السقوط، فالله دائمًا ما يريد أن يشفينا ويحررنا منها من خلال اتحادنا به. والعهد الجديد يقدم لنا نماذج كثيرة لذلك فنجد الله يشفي بطرس الرسول ويحرره من خوفه (مت١٤:٣٠،٣١؛ يو٢١:١٥،١٧) مظهرًا كيف أن المحبة تطرد الخوف للخارج. ويثبت توما الرسول أيضًا طاردًا منه الشكوك (يو٢٠:٢٧)، وكذلك نجد المسيح يغير ويشفي المرأة السامرية من دنس الخطية (يو:٤) لتصير كارزة لمدينتها في السامرة. ويطرد الأرواح النجسة التي كانت في مريم المجدلية ويجعلها مبشرة للرسل بقيامة المسيح.

وفي تاريخ الكنيسة نجد أيضًا أمثلة عديدة لشفاء الله الروحي لخطاة صاروا بعد ذلك قديسين عظام أمثال: موسى الأسود، ومريم المصرية، والقديس أغسطينوس الذي اعترف بشفاء الله له قائلًا: "يا طبيب روحي، اجعلني أرى بوضوح كم هو مفيد ونافع لي الاعتراف لك، لقد غفرت خطايا ماضيّ، وأسدلت عليها سترًا، وبذلك وهبتني السعادة فيك، **مغيرًا حياتي بالإيمان والأسرار**[٣٣]".

الإفخارستيا غذاء للمحبة والشفاء

توجد علاقة وثيقة بين الطعام والإحساس بالحب سواء لدى البشر[٣٤] أو حتى لدى الحيوانات. فالطفل بعدما يولد مباشرة يبدأ في الصراخ طالبًا الطعام، ومعه تبدأ أول علاقه له مع الآخر. والآخر هنا عادة ما يكون هو الأم (مصدر الطعام) التي تبدأ في إطعام طفلها. فيرتبط لدى الطفل الأكل بالأم، وتنشىء أول علاقة حب في حياة الإنسان. وهي العلاقة بينه وبين الشخص الذي يطعمه "الأم".

[33] Augustine,Conf.,op.,cit., X,3.

[٣٤] في الاضطرابات النفسية الخاصة بالأكل، عادة ما يكون الشعور بالنقص، أوعدم الحب مصاحبًا للمريض. فهو إما لا يأكل، أو يأكل بنهم، ثم يتقيأ ما أكله. لأنه يرى أنه لا يستحق حتى الطعام الذي يأكله. فهو يرى أنه غير جدير بالحب، وأن لا أحد يحبه، ولا هو يحب ذاته!

ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد الكنيسة التي هي أمنا بعد أن تلد الشخص في سر المعمودية، تبدأ في إطعامه فورًا في سر التناول! وعن ذلك يقول القديس كليمندس السكندري: "توجد أم واحدة وهي عذراء، هذا هو وصفي المفضل للكنيسة. هذه الأم هي وحدها التي فيها لبن. حيث إنها أم وعذراء في نفس الوقت؛ طاهرة كعذراء ومحبوبة كأم. وتستدعي هذه الأم أبناءها وتغذيهم بلبن مقدس؛ بالكلمة التي تناسب الأطفال. إنها لا تملك لبنًا من ذاتها. لأن اللبن هو طفلها الإلهي المحبوب: جسد المسيح. إنها تغذي بالكلمة الإلهي الشعب الجديد الذي قمطه الرب نفسه بأقماط دمه الثمين. يا للميلاد المقدس! يا للأقماط المقدسة! فالكلمة هو كل شيء للطفل: أب، وأم، ومُعَلِّم، ومغذٍّ! إنه يقول: "كلوا جسدي، واشربوا دمي." فهو يزودنا بهما كأعظم طعام، مخصص وملائم لنا. إنه يقدم جسده ويسكب دمه، فلا يعوز الأطفال شيء لنموهم. يا للسر! إنه يوصينا أن نخلع العتيق، أيضًا لنشارك في آخر: طريقة حياة جديدة تلك التي للمسيح، لنتقبله ونذخره في نفوسنا. فنضع المخلص في قلوبنا، لكي نبيد شهوات الجسد... مزيج الجسد والدم هو الرب. إنه طعام أطفاله، والطعام الذي هو الرب يسوع، أي كلمة الله الذي صار جسدًا هو الجسد السماوي المقدس[٣٥]."

كما أن السيد المسيح كراع صالح يطعمنا جسده ودمه، ولا يتركنا لآخر كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "إن المسيح هو الراعي الصالح الذي يطعم خرافه، ولما أقول إن المسيح هو الراعي؟ لأنه يوجد العديد من الأمهات اللواتي يعطين أولادهن بعد ولادتهم إلى حاضنات (مرضعات) أطفال! لكن المسيح لا يسعه احتمال ذلك الأمر؛ بل هو يغذينا بذاته من دمه الخاص، ويتحد بنا بشتى الطرق...

---

[35] *Paed.*,1,VI: 38-43.

بالأسرار يتحد مع كل واحد من المؤمنين، فالذين ولدهم لا يعطيهم لأحد آخر، بل يطعمهم بذاته، ويمنحهم نفسه غذاء[٣٦]".

والطعام يلعب دورًا مهمًّا في تشكيل هوية الإنسان، وتحديد علاقته بمن حوله كما قال المفكر والسياسي الفرنسي "جان أنسليم" (١٧٥٥-١٨٢٦): "قل لي ماذا تأكل، وأنا أخبرك من أنت؟" ويتضح ذلك في حياة شعب إسرائيل في العهد القديم، حيث أطعم الله شعبه (إربعين سنة) في البرية المن والسلوى. وحدد لهم في الناموس أطعمة طاهرة وأخرى نجسة، لكي يترسخ داخلهم أنهم ليسوا كباقي الشعوب، فهم مفرزون ليكون لهم دور في خلاص كل البشر.

يقول "س. إس. لويس" (١٨٩٨-١٩٦٣): "الله صنعنا: اخترعنا كما يخترع الإنسان محركًا لسيارة تعمل بالبنزين، ولا تعمل بصورة سليمة إلا بالبنزين. كذلك صمم الله الماكينة البشرية لتعمل به. هو نفسه الوقود الذي صممت أرواحنا لتعمل به، والغذاء الذي صممت أرواحنا لتتغذى به، ولا يوجد سواه." وعندما خلق الله آدم كان هو مصدر طعامه "ليس للإنسان خير من أن ياكل ويشرب ويرى نفسه خيرًا في تعبه، رأيت هذا أيضًا أنه من يد الله" (جا٢:٢٤). وكانت "عطية الطعام" إحدى أهم الوسائل التي كان الله يعبر بها عن حبه لآدم وعنايته به. وكانت أول وصية لآدم هي عن "الطعام" لأهميته في علاقته مع الله. فكان مسموح له أن يأكل من كل شجر الجنة، إلا شجرة معرفة الخير والشر (تك٢:١٦). غير أن آدم اختار أن لا يأكل من يد الله، بل أكل من يد غريبة، يد الشيطان فسقط وفسد هو وبنوه. وانفصل عن محبة الله، وصار مكان الحب، شعور بالخوف والخجل، وإحساس بالذنب "سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان فاختبأت" (تك٣:١٠). وتغيرت علاقة الطعام التي كانت موجودة

---

[36] EPE 12.214.

بين الله والإنسان، فصار الإنسان يأكل من عرق جبينه كما قال الله، وصارت الأرض (موضع لعنة)، بدل ما كان يأكل من الفردوس مسكن البركة.

وهكذا كان **الطعام علاقة "سرية"، ولغة تواصل**، تعبر عن الحب بين الله وخليقته منذ البدء (وإلى الآن): "كنت أجذبهم بحبال البشر، بِرُبُط المحبة، وكنت لهم كمن يرفع النير عن أعناقهم، ومددت إليه مطعمًا إياه" (هو١١:٤). فحتى بعد إعطاء الناموس كانت وفرة الطعام وتنوعه، علامة على "البركة" وعلى "حب الله"، الذي ظل أمينًا في محبته للبشرية حتى بعد السقوط، فهو دائمًا محب للبشر. وصار الأكل علامة على "الفرح"، حيث يقول الله في سفر التثنية: "وتأكلون هناك أمام الرب إلهكم، وتفرحون بكل ما تمتد إليه أيديكم أنتم وبيوتكم كما باركك الرب إلهكم" (تث١٢:٧). كما نجد أن الأعياد في العهد القديم كان "الأكل" جزءًا أساسيًّا في الاحتفال الطقسي بالعيد حسب الناموس (تث١٢:١٨).

لما انفصل آدم عن الله، سقط ومات، ومنع الرب الإله الإنسان من الاقتراب من شجرة الحياة، التي في وسط الفردوس (تك٣:٢٤)، فكانت نتيجة الاختيار الخاطئ الذي قام به الإنسان، أنه مات وفقد الأبدية أيضًا كما نقول في القداس الإلهي "سقطنا من الحياة الأبدية، ونفينا من فردوس النعيم[٣٧]".

لكن الله في العهد الجديد منحنا، ليس فقط الاقتراب من شجرة الحياة، بل أنعم علينا أن نأكل من شجرة الحياة الحقيقية، الكائنة في وسط الكنيسة، التي هي الإفخارستيا: "من يغلب فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة، التي في وسط فردوس الله" (رؤ٢:٧). فصرنا نأكل منها لنحيا للأبد، لتصير الإفخارستيا مركزًا لحياة الكنيسة

---

[٣٧] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، ص ٢٢٣.

(كموقع شجرة الحياة في وسط الفردوس)، ولحياتنا أيضًا، الأمر الذي يستوجب الشكر، لذلك نصلي قائلين: "وأنعمت علينا بشجرة الحياة، التي هي جسدك الإلهي ودمك الحقيقي، من أجل هذا نسبحك ونباركك، ونخدمك ونسجد لك، ونمجدك ونشكرك، كل حين[٣٨]".

ومن الجدير بالذكر أن الله حينما أراد أن يمنحنا وسيلة للاتحاد به، جعل ذلك من خلال "الأكل" **فصنع فصحه، وأسس الإفخارستيا في "وليمة عشاء"!** مُعطيًا "جسده ودمه السريين[٣٩]" (μυστκοῦ τοῦ σώματος αὐτοῦ και τοῦ αἵματος) طعامًا لنا قائلًا "خذوا كلوا" و "اشربوا"، مؤسسًا بذلك عهدًا جديدًا، بطعام جديد، صنعا عهدًا أبديًّا، عهد محبة باذلة في صورة "**مأكل**" (**طعام** - βρῶσις) و"**مشرب**" (πόσις)؛ "مأكل حق" و"مشرب حق" محققًا ما سبق ووعد به أنبياءه قائلًا: "صنع ذكرًا لعجائبه... أعطى خائفيه طعامًا، يذكر إلى الأبد عهده (العهد الجديد)" (مز١١١:٤،٥). ويعلق العلامة "ترتليان" على هذه الآية بقوله: "إنها معجزة المعجزات، تحول الخبز والخمر إلى جسده ودمه الكريمين . وهو غذاء يهبه لمن يتقونه، غذاء سماوي، وفي نفس الوقت، نجده ذكرى ميثاق، وعهدًا

---

[٣٨] المرجع نفسه، صلاة قسمة سبت الفرح، ص ٥١٩. إن الأكل من شجرة الحياة نراه بشكل طقسي في الكنيسة؛ في طقس يوم خميس العهد؛ حيث يفتح ستر الهيكل أثناء صلاة الساعة الأولى من يوم الخميس الكبير، إشارة إلى وجود آدم في الفردوس قبل السقوط، وتتم الصلوات داخل الهيكل الذي يمثل "الفردوس"، ثم يُقْرَأ فصل "الإبراكسيس" (أعمال الرسل١:١٥-٢٠) الخاص بخيانة يهوذا الذي يمثل خيانة آدم، ويغلق ستر الهيكل بعدها، لتتم صلوات الساعات الثالثة، والسادسة، والتاسعة، وقداس اللقان في صحن الكنيسة خارج الهيكل، إشارة إلى خروج آدم من الفردوس، وبعدما تنتهي صلوات اللقان، التي تشير إلى التطهير الذي صنعه المسيح "رئيس الكهنة" للبشرية من خلال عمله الخلاصي، يُفْتَح الستر ثانية وقت القداس الإلهي حيث يعود الإنسان إلى "الفردوس" مرة أخرى، بواسطة المسيح "آدم الثاني" رئيس الكهنة الأعظم، ليأكل من شجرة الحياة الجديدة "الإفخارستيا" ويحيا إلى الأبد مع الله، بعد أن كان ممنوعًا من الاقتراب منها.

[39] Const.APP.6.23.4

أبديًّا، تعهد فيه الرب أن يحينا وينمينا، وينعش نفوسنا. غذاء الروح، يمنح الحياة لمن يتناول منه، خبز سماوي غير مائت، شجرة الحياة التي يقطف منها المؤمن ثمرة محيية، والمن العقلي الحقيقي المخفي."

لقد أتى المسيح ليشفي الإنسان من شعوره بعدم الحب، وما ترتب عليه من نتائج، ويرده إلى حالته الأولى؛ فيطعمه ثانية، ليشعر بمحبة الله له. بل أكثر من ذلك، لقد **صار الله هو طعامنا** "طعام سرى[٤٠]" (μυστικήν τροφήν)، ومصدر حبنا، قائلًا لكل مؤمن: " أفغر فاك فأملأُه" (مز٨١:١٠)؛ وأيضًا يقول: "افتح فمك وكل ما أنا معطيكه" (حز٢:٨)! فصرنا نتحد بالإله الذي أحبنا وأقامنا من الموت في صورة طعام (مأكل ومشرب) "سري" و "فصحي" (يحمل سر الفصح كله). وهذا الطعام هو المسيح بعينه: "لأن جسدي مأكل حق، ودمي مشرب حق" (يو٦:٥٥)، والذي يقول عنه القديس أمبروسيوس: "هل تريد أن تأكل؟ هل تريد ان تشرب؟ تعال إلى مائدة الحكمة المدعو إليها جميع البشر بصوت عالٍ: تعالوا كلوا خبزي واشربوا خمري الممزوج... هناك سوف تقطف المُر أي قبر المسيح، سوف تقوم كما قام ذاك (المسيح). هناك سوف تأكل الخبز الذي يقوي قلب الإنسان، سوف تشرب الخمر لكي تبلغ ملء قياس قامة المسيح."

وعن إطعام الله لنا في العهد الجديد، وعلاقته السرية معنا يتكلم القديس "يوحنا ذهبي الفم" في إحدى عظاته قائلًا: "إن الله يتحد بكل واحدٍ من المؤمنين بواسطة الأسرار، **والذين ولدهم يطعمهم بذاته**، ولا يدفعهم لآخر، وبذلك يقنعك أنه أخذ جسدك، فلا نكن إذن جاحدين لإحسانه، بعد ما استؤهلنا لمثل هذا الحب، ولمثل هذه الكرامة[٤١]."

---

[40] Chrys. *hom.* 54.4 in Mt.

[٤١] القديس يوحنا ذهبي الفم، عظات على إنجيل متى، عظة ٨٢:٥.

وقد أكد السيد المسيح في بداية خدمته (في التجربة على الجبل) على أهمية الطعام الروحي وضروريته للحياة (مستشهدًا بما جاء في الناموس): "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (تث٨:٣؛ مت٤:٤؛ لو٤:٤). وكان في العهد القديم طعامان مختلفان أحدهما "جسدي" وهو الخبز العادي، وآخر "روحي" وهو الشريعة (كلمة الله)؛ أما في العهد الجديد (في الإفخارستيا) فقد صار الاثنان واحدًا؛ "الخبز والكلمة"! فالله الكلمة قد صار جسدًا، نتناوله في خبز الإفخارستيا[٤٢] كما تصلي الكنيسة في القداس الإلهي قائلة: "الذي من قِبَل تجسدك غير المدرك، أعددت لنا خبزًا سمائيًّا، جسدك المقدس، هذا السري والمقدس في كل شيء[٤٣]".

وهذا الخبز ليس خبزًا عاديًّا بائدًا، بل هو طعام روحي كما وضح السيد المسيح في خطابه مع اليهود، والمدون في إنجيل يوحنا (الإصحاح السادس). وقد علق القديس أثناسيوس الرسولي في إحدى رسائله على معجزة إشباع الجموع وكلام الرب عن حقيقة جسده ودمه كغذاء روحي، بقوله: "قال الرب: أ هذا يُعثركم؟ فإن رأيتم أن ابن الإنسان صاعد إلى حيث كان أولاً! "الروح هو الذي يُحْيي، أما الجسد فلا يفيد شيئًا. الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة" (يو٦:٦١،٦٢). فهو يستخدم هنا تعبيرين عن نفسه: "جسد"، و"روح"، ويميز بين الروح والجسد حتى لا يعود إيمانهم به يعتمد على رؤية العين وحدها، بل أيضًا على ما هو غير مرئي فيه، وحتى يتعلموا أن ما كانوا يرونه ليس جسديًّا، بل روحانيًّا، لأن جسده يشبع هذا الكم الهائل من الناس، حتى إنه يصير غذاءً للعالم كله!... أما سبب ذكره لصعود ابن الإنسان إلى السماء، فكان لكي ينتزع منهم فكرهم المادي،

---

[٤٢] هذا بالإضافة إلى كلمة الله (القراءات) التي تقرأ في النصف الأول من القداس الإلهي فيما يُعرف بقداس الموعوظين.

[٤٣] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، قسمة القداس الغريغوري، ص ٣٦٧.

حتى يتعلموا من الآن فصاعدًا أن الجسد الذي تكلم عنه هو طعام سماوي من الأعالي وغذاء روحاني يعطيه هو، لأنه يقول: "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة" وكأنه يقول: الذي يُعطى الخلاص العالم هو الجسد الذي أرتديه، ولكن هذا الجسد والدم أعطيهما لكم روحيًّا كغذاء، حتى يوهب روحيًا لكل واحد، ويصير صونًا للأفراد، ليؤَمن لهم القيامة والحياة الأبدية[٤٤]".

فالمسيح جاء ليقربنا من شجرة الحياة التي سبق ومنعنا من الأكل أو حتى الإقتراب منها. جاء ليردنا ثانية لتلك المحبة السرية المتجسدة في الأكل (سر الإفخارستيا). جاء ليطعمنا من تلك الشجرة الشافية التي هي جسده ودمه المقدسين: "وورق الشجرة لشفاء الأمم" (رؤ٢٢:٢). مقتلعًا من نفوسنا الجذور المُرة والفاسدة للشجرة الأولى (شجرة معرفة الخير والشر) من أنانية وكبرياء وخوف، وإساءات مررنا بها في حياتنا. ويتضح ذلك بوضوح في صلوات قداس يوم خميس العهد الذي نحتفل فيه بتأسيس سر الإفخارستيا، حيث تصلي الكنيسة قائلة: "جسدك ودمك هما لغفران الخطايا، وللعهد الجديد الذي أعطيته لتلاميذك، فاستحققنا شجرة الحياة لنأكل منها، التي هي جسد الله ودمه بالحقيقة[٤٥]". كما تصلي الكنيسة على لسان الكاهن قائلة: "هكذا أيها السيد؛ عندما عدمت (مُنعت) نفسي من شجرة الحياة... أعطيتني جسدك ودمك الذي بذلته عن حياة العالم... تلك المائدة التي فيها شفاء الأمم يا شمس البر[٤٦]".

لقد جرب شعب بني إسرائيل الله في برية سيناء حين تساءلوا هل يقدر الله في القفر أن يعد مائدة تطعم كل الشعب؟ "هل يقدر الله أن يرتب مائدة في البرية؟" (مز٧٨:١٩)، فاستجاب الله وأرسل لهم المن

---

[٤٤] رسائل القديس أثناسيوس الرسولي إلى سيرابيون ٤:١٩.

[٤٥] مرد إنجيل قداس خميس العهد.

[٤٦] القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، مرجع سابق، قسمة للميلاد وسنوي، ص ١٩.

والسلوى. وقد رسمت تلك الحادثة صورة رمزية لكنيسة العهد الجديد التي فيها يهيء الله ويعد في برية هذا العالم مائدة لكل الشعوب والأمم، تطعمهم طعامًا غير بائد (غير فانٍ): "تُهَيِّئ طعامهم لأنك هكذا تعدها" (مز٦٥:٩). لقد حقق الله ما وعد به يؤيل النبي "هأنذا مرسل لكم قمحًا ومسطارًا وزيتًا، لتشبعوا منها" (يؤ٢:١٩) فأنعم الله على كنيسته في العهد الجديد بالإفخارستيا، ونعمة الروح القدس (يرمز له بالزيت) الكائنة في كل الأسرار.

ولهذا فإن مائدة الإفخارستيا هي مائدة إلهية، إنها "مائدة الرب" كما قال حزقيال النبي "هذه المائدة أمام الرب" (حز٤١:٢٢)، فالمذبح الذي نبنيه في الكنيسه هو صورة للمذبح السماوي العلوي: "المذبح الذي أمام الله" (رؤ٩:١٣). وقد أعد الله هذه الوليمة بنفسه لأجل خلاص كل الشعوب. إنها وليمة تحتوي على أصناف دسمة، ومتنوعة من كلمة الله (المزامير، رسائل البولس، رسائل الكاثوليكون، الإبراكسيس "أعمال الرسل"، الأناجيل): "كما من شحم ودسم تشبع نفسي" (مز٦٣:٥)، تقدم حول الذبيحة الإلهية، كما تنبأ إشعياء: "ويصنع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل (الكنيسة)، وليمة سمائن، وليمة خمر على دردي، سمائن مُمِخَّة، دردي مُصفًّى" (إش٢٥:٦). وقد أسس السيد المسيح الإفخارستيا وقت "العشاء[٤٧]" حيث كان العشاء هو الوجبة الرئيسة في اليوم (في المجتمع اليهودي) التي تلتف حولها العائلة، ليأكوا ويتجاذبوا في أثنائها أطراف الحديث. لذلك يستحيل أن نكون مع المسيح في عشائه، وعلى مائدته ولا يتكلم معنا شخصيًّا، أو يوجه لنا كلمة خاصة، إذا كنا نحن لا نفعل ذلك بالآخرين إذا دعوناهم للعشاء، فكيف يكون المسيح؟!

[٤٧] كلمة "عشاء" باليونانية "ذيبنون" (Δεῖπνον)، ومن الجدير بالذكر أنه في اللاهوت الشرقي لا يسمى عشاء المسيح مع تلاميذه كما في الغرب "العشاء الأخير" (Ultima Cena) لأنه عشاء واحد وممتد سريًا.

والإفخارستيا بحق هي "وليمة مقدسة"، و"مأدبة (banquet) سماوية"، تشبع الودعاء: "يأكل الودعاء فيشبعون" (مز٢٢:٢٦)، وتشبع كل جوع واحتياج لدينا "تشبعون على مائدتي" (حز٣٩:٢٠). والتي قال عنها القديس يوحنا كاسيان: "إن عريسنا السماوي ينتظرنا هناك (في الكنيسة) بوليمة أعدها، فيها شفاء النفس المتعبة، وراحة الجسد المريض، لذلك اطلبوا قوة، وامتلئوا شجاعة." ولقد تنبأ داود النبي والملك حسنًا في المزمور الثالث والعشرين[٤٨] حين قال: "تُرتِّبُ قدامي مائدة تجاه مضايقي... كأسي رَيًّا." فتلك المائدة وهذه الكأس، هما إشارة لمائدة وكأس الإفخارستيا كما يشرح القديس "أمبروسيوس" قائلًا: "إن داود النبي يعلن لنا قوتها (قوة جسد ودم المسيح) عنها يقول "ترتب قدامي مائدة تجاه مضايقي" (مز٢٣:٥)، ماذا يعني بذلك؟ يعني أنه قبل مجيئه (مجيء المسيح) قد هيأ الشيطان مائدة للجنس البشري، مائدة دنسة وملوثة، مملؤة بالأعمال الشيطانية (مائدة مضايقي). ولكن عندما أتى السيد (المسيح)، هيأ قدامنا مائدة. وحين يقول إنسان الله "ترتب قدامي مائدة" . ماذا يمكن أن يعني ذلك؛ غير المائدة الروحية والسرية، التي هيأها الله لنا، مقابل وضد الشياطين؟! وهي كافية بجدارة، لأن الأولى تعطي شركة مع الشياطين، أما الثانية فتعطي شركة مع الله[٤٩]."

أبوة الله الشافية

لقد وضع "إريك برن" عالم النفس الشهير في أحد مؤلفاته[٥٠]، نظرية في التحليل النفسي سماها "التحليل التفاعلي"

---

[٤٨] تصلي الكنيسة بهذا المزمور "السرائري" في طقسها لتدشين المذابح، لإحتوائه إشارات عن أسرار الكنيسة.

[٤٩] القديس أمبروسيوس، *الأسرار*، الكتاب الرابع.

[50] Eric Berne, *Games People Play*, Vintage,1969.

(Transactional analysis) وهي تتحدث عن أنه بداخل كل فرد يوجد ما يسمى "الوالد[٥١]" و"البالغ" و"الطفل" وهؤلاء الثلاثة هم في تفاعل مستمر. ويحدث أحيانًا أن تتشوه صورة "الوالد" لدى الشخص (أثناء مرحلة الطفولة)؛ بسبب غياب أحد الآباء[٥٢]، أو لتعرض الشخص لأي نوع من الإساءات أو الظروف التي قد تؤثر على نشأة الشخص.

ومثل "المولود أعمى" في إنجيل يوحنا (يو:٩)، هو نموذج لذلك؛ فهو لم يكن له يد فيما كان يمر به، ولم يكن أبواه يهتمان به. الأمر الذي جعل القديس "أثناسيوس الرسولي" يشير في إحدى عظاته إلى شفاء الله لمن تعرضوا لظروف خارجة عن إرادتهم، في مرحلة ما من عمرهم فيقول: "تفوه الرب قائلًا: "لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه" (يو٩:٣)، بمعنى أن عماه الآن ليس هو بسبب خطايا، لكن خطأ الطبيعة، مثل نبات قبل أن ينبت من الأرض، تعرضت جذوره مرات كثيرة لضرر وظرف ما خارجي، هكذا الأعمى منذ ولادته، تعرض لإعاقة في بطن أمه... هذا (المسيح) الذي سيستطيع أن يصلح الطبيعة المعيبة، سيبرهن على أنه ليس شيء آخر إلا خالق الطبائع[٥٣]."

والحقيقة إن الإساءات قد تُشَّكل في الإنسان صورة "مشوهة" عن "الأب" مؤثرة بعد ذلك بالسلب على نفسية الشخص. وقد تنعكس أيضًا هذه الصورة السلبية على نظرة الشخص لله. ولكي نصلح صورة "الأب" المشوهة علينا الرجوع للأصل الذي لا يتغير، وهو أبوة الله "الله الآب." فمن خلال التعرف على أبوة الله والتمتع بها، تعالج

---

[٥١] "الوالد" عادة ما يختص بالحكم على الأشياء، يعمل كأنه سلطة عليا. ويتشكل منذ الطفولة المبكرة، ويختزن فيه ما تعلمه الشخص من أبويه. ويتأثر أيضًا بأشكال السلطة التي مرت على الشخص في مراحله الأولى.

[٥٢] أحيانًا يكون الآباء موجودين جسديًا لكن للأسف غائبين شعوريًا عن أبنائهم.

[٥٣] القديس أثناسيوس الرسولي، حديث *عن المولود أعمى*، مكتبة الآباء اليونان والكتاب الكنسيين ٣٦،٢٤٩.

التشوهات التي في الصورة. وتشفى النفس من أثر الإساءات وذلك كله يحدث من خلال الدخول في علاقة حقيقية مع الآب السماوي.

لقد أجمع كثير من علماء النفس أن الدين[٥٤]، وما يهدف إليه من تكوين علاقة سليمة مع الله، يمكن أن يساهم إيجابيًا في العلاج النفسي. فنجد مثلًا "سيجموند فرويد" (مؤسس مدرسة التحليل النفسي، وعلم النفس الحديث) يقول في أحد كتبه[٥٥] "إن الله هو الأب العالي وحنيننا (إشتياقنا) إليه، هو أصل (جذر) حاجتنا للدين." أي أن احتياج البشر "لأب سماوي" هو الذي يدفعهم نحو الدين. ويقول "كارل يونج" (المحلل النفسي الشهير) "الديانات هي أنظمة للعلاج النفسي."

ومن الجدير بالإنتباه أن **أبوة الله لنا هي الهدف والمدخل لكل تدبير الله الخلاصي** "إذا كنت ترغب في أن تقتني هذا الإيمان (الإيمان المسيحي) فيجب عليك أن تحصل أولًا على معرفة الآب[٥٦]." فلقد أتى المسيح (ابن الله) وشاركنا في الجسد صائرًا ابن للإنسان مثلنا تمامًا (ما عدا الخطية) ليشفي الإنسان من الموت والفساد والخطية وذلك بحسب إجماع آباء الكنيسة مؤكدين على مبدأ هام في لاهوت الخلاص وهو: "ما لا يؤخذ لا يمكن أن يشفى[٥٧]"، وبتجسده صار أخًا بكرًا لنا ليجعلنا أبناء الله (بالتبني) "لأن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم، ليكونوا مشابهين لصورة ابنه، ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين" (رو٨:٢٩)، لذلك تصلي الكنيسة قائلة: "قدمتنا لأبيك أبناء[٥٨]." وهذا هو ما نجده في كثير من كتابات الآباء ومنهم

---

[٥٤] إن بعض الأديان إذا تمت ممارستها بإعتدال، وبدون تطرف أو إستغلال قد يكون لها بُعد علاجي مفيد. لكن إذا تم إستغلال الدين (أي دين) فإن ذلك قد يؤدي بدوره إلى التأثير سلبيًا على نفسية الإنسان.

[55] Sigmund Frued, *The Future Of Illusion.*

[٥٦] الرسالة إلى ديوجنيتوس، مرجع سابق، الفصل العاشر.

[٥٧] أول من صاغ هذا المبدأ هو القديس غريغوريوس النزينزي (الرسالة ١٠١ إلى "كليدونيوس")، ومن بعده كرره القديس كيرلس الكبير في تفسيره إنجيل يوحنا ١٢:٢٧.

[٥٨] القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، قسمة للآب وسنوي، ص ١٩.

القديس "يوحنا ذهبي الفم" الذي قال مع غيره من الآباء "صار ابن الله ابن للإنسان، لكي يصير أبناء الإنسان أبناء لله[٥٩]." ومن خلال هذه البنوة لله (ننال البنوة للآب "التبني" في سر المعمودية) نحصل على كل العطايا الخلاصية من الله: "كل عطية صالحة، وكل موهبة تامة هي من فوق نازلة، من عند أبي الأنوار" (يع١:١٧).

ولكي ننعم بأبوة الآب الحقيقية ومحبته الأبوية يجب أن نتحد بالابن. لأن من خلاله (الابن) تكون لنا شركة وعلاقة حقيقية مع الآب كقول ذهبي الفم: "لقد أصبح الله أبانا من خلال شخص المسيح[٦٠]." وهذا الاتحاد يحدث في الإفخارستيا التي فيها نتحد بالابن (الذي هو صورة أبيه). ولقد أوضح القديس "كيرلس الكبير" هذه الحقيقة في تفسيره لإنجيل يوحنا، حيث يقول: "بالحقيقة إن الإفخارستيا تجعلنا أقرباء للكلمة الحي والمُحيي[٦١]." فمن خلال اتحادنا بالابن يقربنا (الابن) ويقدمنا للآب السماوي كأبناء، ويستكمل القديس "كيرلس الكبير" شرحه قائلًا: "هكذا أيضا يجب أن نعتبر أنه اقتبل حب الآب ليس لنفسه؛ إذ إنه محبوب بصفة أزلية، وفي كل حين، ولكن لكي يحول إلينا نحن محبة الآب، ولذلك يقتبلها منه من جديد، بعد أن صار إنسانًا[٦٢]."

وبذلك نرى أن الابن هو "الطريق"، و"الباب" إلى الدخول في علاقة حقيقية مع الآب، كما يقول آباء الكنيسة وعلى رأسهم القديس "كيرلس الكبير" القائل: "بالإجماع قد صرنا أقرباء لله الآب، بالجسد (أي بواسطة جسد المسيح الذي نتناوله) الذي في سر المسيح[٦٣]."

---

59 John Chrysostom, *In Joan*, PG.59:7.

٦٠ القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، مرجع سابق، العظة الثالثة.

٦١ القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل يوحنا، مرجع سابق، يو١٧:٣.

٦٢ المرجع نفسه، يو١٧:٢٣.

٦٣ المرجع نفسه، يو٨:٣٧.

كما أننا ننمو ونتأصل في بنوتنا لله من خلال الإفخارستيا، كما تكلم إشعياء النبي عن شعب الله قائلًا: "في المستقبل يتأصل يعقوب" (إش٢٧:٦).

الشفاء الكامل

إن أحد ألقاب الله التي أعلنها لشعبه في العهد القديم هو "يهوه رافاه"، ومعناه "الرب شافيك" (خر١٥:٢٦). ولقد تجسد المسيح في ملء الزمان، كطبيب حقيقي ليشفي أمراضنا: "كمثل طبيب حقيقي ومشفٍ، داويت أمراضنا[٦٤]." فهو قد أتى ليشفي الإنسان شفاءً كاملًا، وهذا الشفاء يقدم في الكنيسة من خلال الأسرار التي هي في حقيقتها أسرار لشفاء المؤمنين بطرقٍ مختلفة.

والمسيح في سر الإفخارستيا يقدم لنا جسده ودمه لشفاء أجسادنا وأنفسنا وأرواحنا: "بهذه يحيون، وبها كل حياة روحي، فتشفيني وتحييني" (إش٣٨:١٦)، وهذا يتضح من صلاة الكاهن في القداس الإلهي قائلًا "ليكونا (جسد ودم المسيح) لنا جميعًا ارتقاءً، وشفاءً، وخلاصًا لأنفسنا، وأجسادنا، وأرواحنا[٦٥]." والكنيسة تصلي في مناسباتٍ عديدة واصفة حضور المسيح بأنه "يطهر قلوبنا، ويشفي أمراض نفوسنا وأجسادنا[٦٦]." فالسيد المسيح ليس فقط يشفي، بل ويحقق التوازن بينهما (بين الجسد والروح). وهذا التوازن هو جزء من الشفاء الحقيقي الذي يريده الله لنا.

لقد أتى المسيح ليشفي ليس فقط الجسد، بل أيضًا النفس البشرية التي أحيانًا تكون أمراضها مؤلمة أكثر من الأمراض

---

[٦٤] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، إبصالية الإثنين، القطعة الثامنة والعشرون، ص٢٧٨.

[٦٥] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، "أوشية التقدمة" (يصليها الكاهن سرًّا أثناء تغطيته للأسرار بالإبروسفارين)، ص ١٥٨.

[٦٦] لحن "إبؤرو ⲡⲟⲩⲣⲟ" أي "ملك السلام".

الجسدية، وعن ذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم: "النفس التي توجد في إضطراب، هي أشد مرضًا من أي مرض جسدي. أما النفس الهادئة، فهي متحررة من كل ألم[٦٧]".

أي إن المسيح جاء ليشفي كل ما هو مستعصٍ ومستحيل، جاء ليخلص ما قد هلك. جاء ليشفي أولئك الذين سبق وتكلم عن جرحهم إرميا النبي قائلًا وهو متألم مع شعبه: "لماذا كان وجعي دائمًا، وجرحي عديم الشفاء يأبى أن يشفى؟" (إر١٥:١٨). والله أحيانًا ما يسمح بالمرض والألم في حياتنا مع أنه ليس هو المتسبب فيهما. لكن وبالرغم من ذلك يستخدمهما لمنفعتنا ويحولهما لبركة: "فحول لأجلك الرب إلهك اللعنة إلى بركة، لأن الرب إلهك قد أحبك" (تث٢٣:٥؛ نح١٣:٢). فالمرض لم يعد علامة على الخطية تستوجب العزل كما كان في العهد القديم. بل صار فرصة للشكر والبركة. فيها تلتف الكنيسة حول المريض لتشكر الله، فتنال منه التعزية والشفاء. وأحيانًا يكون المرض والألم علامة على الحب: "هوذا الذي تحبه مريض" (يو١١:٣) وعلى اهتمام الله الأبوي بنا: "الذي يحبه الرب يؤدبه، ويجلد كل ابن يقبله" (عب١٢:٦). فمريم المجدلية قد أخرج منها الرب سبعة شياطين، وصارت تتبعه، وحولها إلى كارزة، حتى إنها كرزت للرسل بقيامة المسيح. وحماة سمعان التي كانت مريضة بالحمى شفاها، حتى إنها قامت وصارت تخدمه. وعن قدرة المسيح في شفاء وتحويل البشر يكتب القديس "كيرلس الإسكندري" في تفسيره لمعجزة شفاء حماة سمعان قائلًا: "إذًا فلنقبل نحن أيضًا يسوع، لأنه حينما يدخل فينا، ونقتنيه في قلوبنا وأفكارنا، فهو يطفئ حُمَّى الشهوات الرديئة، ويقيمنا ويجعلنا أصحاء روحيًّا، حتى إننا (نخدمه)،

---

[٦٧] القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، مرجع سابق، العظة الثامنة.

أي نعمل الأعمال المرضية عنده[٦٨]." **إذن الشفاء الذي يقدمه لنا الله هو شفاء من الموت والفساد والخطية، وهو قيامة حقيقية للجسد والروح.**

الكنيسة مجتمع علاجي

لقد كانت كنيسة العهد القديم مكانًا للأبرار فقط، حيث يعزل خارجها كل مريض أو خاطئ أو نجس. وكان الناس في العهد القديم كثيرًا ما يصابون بالأمراض بسبب خطاياهم، وكان نادرًا ما يتم شفاؤهم. ولعل أبرز ما يوضح ذلك؛ هو قصة مريض بركة "بيت حسدا (رحمة)[٦٩]" (يو:٥)، التي كان المرضى يحتشدون حولها لأن واحدًا فقط، وهو الذي ينزل أولًا، ينال الشفاء عندما ينزل الملاك ليحرك الماء.

ولكن في العهد الجديد أصبحت الدعوة هي بالأولى للمرضى والدنسين والخطاة: "لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب، بل المرضى، لم أت لأدعو أبرارًا إلى التوبة، بل خطاة" (مر٢:١٧؛ مت٩:٣؛ لو٩:١٣). لقد نزل المسيح (الابن) من السماء وتجسد لكي يشفي أمراضنا، لتصير الكنيسة نبع شفاء لكل من يعانون من سقم وضعف، لذلك يقول القديس "يوحنا ذهبي الفم": "إن الكنيسة ليست متحفًا للقديسين، بل مستشفى للمرضى."

والكنيسة هي "بيت حسدا الحقيقة"، والتي تعني بالعبرية "بيت الرحمة." ولقد نزل (بتجسده) المسيح الذي هو "ملاك المشورة العظمى" (مشورة الثالوث لخلاص الإنسان): "يدعى اسمه ملاك المشورة العظمى" (إش٩:٦ سبعينية)[٧٠]؛ وكما يرد في تسبحة الكنيسة: "الإله

---

[٦٨] القديس كيرلس الإسكندري، مرجع سابق، تفسير إنجيل لوقا ٤:٣٥.

[٦٩] كلمة "حسدا" في اللغة العبرية تعني "تقوى"، لكنها تترجم في اللغة اليونانية إلى "رحمة"، حيث أن أحد مفاهيم التقوى عند اليهود هي الرحمة تجاه الآخر كجزء من مخافة الإنسان لله.

[٧٠] كلمة "ملاك" التي جاءت في الترجمة السبعينية يراد بها توضيح أن عمل المسيح يشبه عمل الملاك من جهة أنه رسول "messenger" يحمل بشارة الخلاص للبشرية في شخصه، لكنه بالطبع ليس ملاكًا بل هو الخالق وحده، ورب الملائكة.

القوي المتسلط، وملاك المشورة العظمى[٧١]"، ليشفي المنطرحين في الخطايا والآلام. نزل رب الملائكة وخالقها ليعلن مجيء زمن الشفاء، ومع ذلك رفض الكثيرون معرفة هذا الإله الشافي، ولا يزال إلى الآن يرفض الكثيرون معرفته: "فلم يعرفوا أني أنا شفيتهم" (هو ١١:٣)!

والحقيقة أن الله قد يستخدم الآلام التي نمر بها لمنفعة وشفاء أشخاص آخرين، فيصبح بذلك للألم وللوقت الذي نمضيه فيه معنى، ولكن هذا يتطلب من الشخص توبة وصبر مع شكر، لكي يعمل الله من خلال الشخص المتألم، سواء كان الألم جسدي أو روحي (نتيجة الصراع مع الخطية) كما يتضح في ما قاله يوحنا الدرجي: "فَلْتطبْ نفوس الذين أذلتهم الأوجاع، فإنهم حتى إن كانوا يسقطون في كل حفرة، ممسوكين من سائر الفخاخ، ومنسقيمين بجميع الأسقام، إلا أنهم بعد شفائهم سيصيرون للكل أطباء، وكواكب، ومصابيح، ومدبرين، عارفين بأعراض كل الأمراض (الروحية)، ومن خبرتهم الخاصة يستطيعون أن يمنعوا الآخرين من السقوط[٧٢]".

ومن هنا نرى كيف يقدر الضعيف والمريض والمتألم والتائب أن يعزي الآخرين بنفس التعزية التي تعزى هو بها كما تنبأ إشعياء النبي في العهد القديم بأن الله سيعزي المتألمين ومن حولهم: "رأيت طرقه وسأشفيه وأقوده، وأرد تعزيات له ولنائحيه، خالقًا ثمر الشفتين. سلام، سلام للبعيد وللقريب، قال الرب وسأشفيه" (إش٥٧:١٨-١٩). وكما قال معلمنا بولس الرسول في العهد الجديد: "الذي يعزينا في كل ضيقتنا، حتى نستطيع أن نعزي الذين هم في كل ضيقة بالتعزية التي نتعزى نحن بها من الله" (٢كو ١:٤).

---

[٧١] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ثيؤطوكية يوم الإثنين، القطعة الرابعة، الربع الرابع، ص ٢٨٤.

[٧٢] القديس يوحنا الدرجي، *المرض والعلاج والطبيب (الكنيسة والراعي والرعاية)*، دار مجلة مرقص، طبعة ثانية، ٢٠٠٨، ٢٦:١٣.

لقد شفى الله البشرية بواسطة آلالام المسيح "بحبره (آثار جلده) شفينا" (إش٥٣:٥)، لذلك نصلي قائلين: "اقتل أوجاعنا بآلامك الشافية المحيية[٧٣،٧٤]". وأيضًا نجد بولس الرسول الذي شاء الرب أن يعاني من شوكة في الجسد، لكنه استخدمها لفائدة وتعزية آخرين فكانت العصائب والمناديل التي تؤخذ من على جسده تشفي الآخرين، وكلماته إلى الآن مصدر تعزية لكل من يطلبها.

ولقد تحدث "ثيؤفان الحبيس" في إحدى عظاته عن "بِركة بيت حسدا"، وعن كيف يمكن للشخص المتألم أن يكون في نفس الوقت **مريضًا وأيضًا طبيبًا**، فيقول: "هل أنتم بِركة شفاء أم رواق يرقد فيه المرضى؟ في تقديري ينبغي أن تكونوا الشيئين معًا، فأنتم في مشاعركم وآرائكم عن أنفسكم يجب أن تنظروا لأنفسكم كمرضى في احتياج إلى الشفاء؛ لكن بالنسبة للآخرين ينبغي أن تكونوا أداة شفاء لأمراض نفوسهم. ينبغي أن تعتبروا أنفسكم مرضى بكل أنواع الأمراض الروحية، لكن لمن يأتي إليكم بأمراضه الروحية يجب أن تكونوا بمثابة الشفاء والدواء لكل مرض... لا تظنوا أنه توجد هنا معارضة أو تناقض... في الحياة المادية لا يستطيع الفقير أن يغني، ولا يستطيع الضعيف أن يسند، إلا أن الأمر في الحياة الروحية معكوس: فكلما رأى الإنسان أنه ضعيف جدًّا، كان أكثر قوة، لأن قوة الله تكمل في الضعف، وإرادة الله تتم

---

[٧٣] الأجبية، قطع الساعة السادسة، القطعة الثانية. وترد أيضًا هذه العبارة بنفس المعنى لكن بصيغة أخرى في صلاة "تحليل الابن" حيث يصلي الكاهن قائلًا: "الذي قطَّع كل رباطات خطايانا من قِبَل آلامه المُخلِّصة المحيية".

[٧٤] هذه العبارة تبرز حقيقة الخلاص كشفاء، حيث تترجم كلمتا "مخلِّصة" و""شافية" في اللغة القبطية إلى كلمة واحدة "ⲟⲩϫⲁⲓ" (أوجاي) التي تعني "الخلاص" و"الشفاء" في نفس الوقت. كما نجد أيضًا أن فعل "σῴζω" في اللغة اليونانية يعني "أخلِّص"، "أشفي"، وقد استخدم القديس لوقا البشير هذا الفعل بمعنييه، مسجلًا لنا ما قاله السيد المسيح: "إيمانك قد خلصك" (لو٧:٥٠)؛ "إيمانك قد شفاك" (لو٨:٤٨) مما يؤكد أن خلاص البشرية هو في حقيقته شفاء للإنسان من الموت والفساد.

من خلال المتضعين... لذلك، يا إخوتي، ترون كيف أن الذين يعتبرون أنفسهم ضعفاء ومملوئين بالشهوات هم أقدر الناس على شفاء النفس وأمراضها. وبتأمل هذا المثال ترون أنتم أيضًا، في حين أنكم تعتبرون أنفسكم مرضى، يمكنكم أن تكونوا بِركة شفاء للآخرين[٧٥]".

ويسجل لنا التاريخ مثالًا لذلك، فيحكي المؤرخ يوسابيوس القيصري نقلًا عن "فيلو" المؤرخ اليهودي (المعاصر للرسل) كيف أن المسيحيين الأوائل (وبالأخص في مصر) سواء من أصل يهودي أو وثني كانوا بمثابة أطباء للروح والنفس، فيقول: "وفي كل مكان في العالم يوجد هذا الجنس الذي هم المسيحيون المدعوون أطباء (θεραπευτής)[٧٦] للروح والنفس. لأنه كان لائقًا أن يشترك اليونانيون والبرابرة في خير محض على أن هذا الجنس (المسيحيون المدعوون أطباء للروح والنفس) يكثر في مصر بنوع في كل مناطقها، ولا سيّما نواحي الإسكندرية[٧٧]"! وأيضًا يسجل المؤرخ "فيلو" كيف أن بعض الجماعات المسيحية في (القرنين الأول والثاني) قد سكنوا في جماعات وأسسوا أديرة عديدة حول بحيرة مريوط[٧٨]، فاشتهرت تلك المنطقة كمنطقة استشفاء وصارت منطقة جذب سكاني بسبب قاطنيها! حيث يقول أيضًا "وأصبح أفاضل الناس يهاجرون إليها من كل ناحية، كما إلى مستعمرة أطباء، في الموقع المشرف على بحيرة مريوط[٧٩]"!

وهذا الأمر هو ما يجعلنا ونحن نتقدم لننال الدواء (في سر التناول)

---

[٧٥] الأسقف ثيؤفان الحبيس، *الحرارة الروحية*، ترجمة نيافة الحبر الجليل الأنبا سيرافيم أسقف الإسماعيلية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، العظة الثامنة عشر على شفاء مريض بِركة بيت حسدا.

[٧٦] من الفعل "ثيرابيفو" (Θεραπεύω) أي "أشفي"، "أعالج"، وجاءت منه الكلمة الإنجليزية (Therapy).

[٧٧] *تاريخ يوسابيوس*:٧.

[٧٨] ما زال أثارها تظهر في الحفائر الحديثة بمنطقة برج العرب.

[٧٩] *تاريخ يوسابيوس*:٨.

من يد المسيح الطبيب الحقيقي نصلي باتضاع في نفس الوقت كأطباء لأجل شفاء الآخرين "صلوا بعضكم لأجل بعض، لكي تشفوا" (يع٥:١٦). هذا الأمر الذي قد يبدو فيه للشخص للوهلة الأولى أن به تناقضًا، لكنه إذا أمعن النظر جيدًا سيجد أنه تناقض ظاهري فقط (paradox)، في حين أنهما في الحقيقة أمران مكملان لبعضهما البعض. ويعلق على ذلك القديس "يوحنا الدرجي" قائلا: "رأيت مريضًا يشفي بإيمانه مريضًا آخر، مستعملًا لأجله لدى الله جرأة ممدوحة! واضعًا نفسه بدل نفس قريبه، بكل تواضع وهكذا بشفائه أخيه شفي هو أيضًا. وكما رأيت آخر يسعى نفس المسعى، لكن بدافع من إعجابه بنفسه، فسمع هذا التوبيخ: "أيها الطبيب إشف نفسك (لو٤:٢٣)"[٨٠]!

وبذلك نرى من هم مرضى وأطباء في آن واحد، يتقدمون لينالوا الشفاء من الذي هو الطبيب الحقيقي والدواء في آنٍ واحد. هذا الطبيب الذي شهد عنه القديس "إغناطيوس الأنطاكي" (القرن الأول) قائلًا: "طبيب واحد لا يوجد سواه، روحي وجسدي... إله متجسد، حياة حقيقية، مولود من مريم، ومولود من الله، خاضع للموت قبلًا، وأما الآن لا يقدر الموت عليه، هو يسوع المسيح ربنا[٨١]".

---

[٨٠] القديس يوحنا الدرجي، المرض والعلاج والطبيب (الكنيسة والراعي والرعاية)، مرجع سابق.

[٨١] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أفسس٧:٢.

ألحان كنسية قديمة

أناشيد سليمان "النشيد الخامس والعشرون[٨٢]، [٨٣]"

لقد تحررت من قيودي، والتجأت إليك يا ربي،
لقد صرت يميني وخلصتني، وصرت لي ملجأ،
وأعقت أولئك الذين قاموا عليَّ، ولم يعودوا يُرَونَ بعد،
لأن وجهك كان معي، وقد خلصتني.
لكنني صرت مرفوضًا ومهانًا في أعين الكثيرين،
وكنت في أعينهم كمثل الرصاص.
لكنني نلتُ قوة منك وهي منحتني معونة.
لقد وضعت لي نورًا عن يميني وعن يساري،
حتى لا يكون فيّ، أي في داخلي أي شيء غير منير.
ولأن يدك اليمنى رفعتني، وجعلت الأمراض تزول من داخلي.
لذلك صرت قويًّا في حقك، وأصبحت قديسًا في برك،
وصار مقاوميَّ في رعبة مني، وقد تبررت بإحسانك،
وراحتك دائمة إلى الأبد، هلليلويا.

---

[82] Daniel Liderboch (fr.) op.cit., p.52-55.

[٨٣] هذه الترنيمة هي مقطع من "قصائد سليمان"، التي تم اكتشافها في سنة ١٩٠٩م، حين عُثر على درج يحتوي على ترانيم تم تأليفها سنة ٦٥م بواسطة يهودي متنصر، وكانت تستخدم كترانيم في كنائس منطقة فلسطين، وربما يكون المؤلف قد استعار اسم "سليمان" لكون قصائده على نفس نمط القصائد الشعرية في الأسفار التي كتبها سليمان في العهد القديم. كما وردت هذه القصائد في كتابات آباء نيقية، انظر: الراهب إبيفانيوس المقاري، *أناشيد سليمان*، مجلة مدرسة الإسكندرية، السنة الثانية، ٢٠١٠، العدد الأول، ص١٤٣-١٥٨، وللمزيد عن "أناشيد سليمان" انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ٤٥.

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس يوحنا ابن الرعد[٨٤]

يسوع المسيح الذي هو قوة أبيه وحكمته. هو يفكر في الكل ويطعم الكل، يعطي الأعمى نور ليرى، فاتحًا المنافذ التي كانت مغلقة، يجعل الصم يسمعون، والأذن الصماء تسمع. ينزع ثوب البرص من الجسم، ويكسوه ثوب لحم. يشدد اليد اليابسة، ويجعل الرجل العرجاء تمشي. يعيد النفس إلى جسدها، ويضع الروح في مسكنها. يغرق قطيع الخنازير بواسطة جمهور الشياطين، وينزع المرض من الجسم المعتل. يا شمس البر في أجنحتك يشرق ينبوع الخير، يا شمس البر المجد والكرامة والشكر لك إلى الأبد.

---

[٨٤] انظر حاشية ص ١١٢.

الفصل التاسع

الإفخارستيا
حياة متجددة

الإفخارستيا حياة متجددة

الإفخارستيا هي ينبوع متجدد بالروح القدس. الإفخارستيا هي الطعام الروحي الرئيس للمؤمنين في العهد الجديد. الروح القدس هو الذي يجدد الإنسان والكنيسة. الروح القدس يقدس القرابين والشعب في القداس الإلهي. قراءات القداس الإلهي تجدد ذهن الإنسان.

قصة

يحتفل اليهود منذ القرن الثاني قبل الميلاد، بعيد يسمى "عيد التجديد[1]" الذي يقام فيه تذكار تجديد الهيكل الذي بُنيَ في أيام "زربابل" بعد العودة من السبي (حج:١،٢). وظل قائمًا إلى أن قام بتخريبه وتدنيسه القائد السلوقي "أنطيوخس الرابع إبيفانس" (القرن الثالث قبل الميلاد)[2]. حيث وضع تمثال الإله "زيوس" الذي هو رجسة الخراب، التي تنبأ عنه دانيال النبي (دا٩:٢٧)، فوق مذبح هيكل الرب (مكابيين الأول ١:٥٤). وقدم ذبائح من الخنازير (كانت تعد من الحيوانات غير الطاهرة في الناموس) في الهيكل ورش دمها في كل أنحائه إهانة واستفزازًا لليهود! فما كان من اليهود الشرفاء والغيورين لشريعة إلههم، إلا أن قاموا بثورة عنيفة أنهت حكم السلوقيين ليحل محلهم الرومان فيما بعد، الذين منحوا اليهود سلطة شبه ذاتية تحت حكمهم، وحرية دينية، شرط جباية الضرائب والولاء لقيصر.

وقاد تلك الثورة "متثيا" الكاهن وأولاده الخمسة (أسرة

---

[1] لقد سجل لنا إنجيل يوحنا (يو ١٠: ٢٢-٢٣) أن السيد المسيح احتفل بهذا العيد في أيامه، وأنه صعد إلى الهيكل (في هذا العيد) كغيره من الأعياد.

[2] بعد موت الإسكندر الأكبر قسمت إمبراطوريته على قواده الأربعة، أحدهم هو "سلوقس" الذي سيطر على بلاد سوريا وفلسطين..إلخ وأسس هناك الدولة السلوقية (يوازيها في مصر الدولة البطلمية). ومن بعده جاء عدة ملوك سلوقيين أحدهم هو الملك "أنطيوخس الرابع إبيفانس" الذي حكم في الفترة ما بين عامي ١٧٥و١٦٤ ق.م، أي في نهاية عصر البطالمة. وقد اشتهر بالقسوة والوحشية، حتى إن اليهود كانوا يسخرون منه فيما بينهم ملقبين إياه "أنطيوخس إيبوماني" أي "أنطيوخس المجنون"!

الحشمونيين)، وبالأخص "يهوذا المكابي." وإستشهد الكثيرون فى تلك الفترة ممن رفضوا تدنيس السبت، أو عبادة الأوثان والأكل من موائدها، أو أكل الحيوانات غير الطاهرة مثل الخنازير، كما في حادثة "أليعازر الشيخ" (مكابيين الثاني:٦)، والأم التي استشهدت مع أولادها السبعة (مكابيين الثاني:٧).

وقد حاول بعض اليهود في الزمن المكابي القيام "بثورة مضادة" للتجديد بأسلوب مختلف. يبدو للوهلة الأولى أنه جيد، لكن في حقيقة الأمر كان يكمن في داخله السم والموت! فقام البعض تحت ستار التأقلم مع الوضع باتخاذ أسماء يونانية جديدة، لإخفاء هويتهم اليهودية، وتركوا شريعة إلهم وتنصلوا من تقاليد شعبهم، من باب التحديث ومواكبة العصر، والاندماج مع الثقافات الأخرى ("الهيلينية" أي اليونانية في ذلك الوقت)! لدرجة أنهم قاموا بعمليات مؤلمة جدًّا، لإخفاء ختانهم الذي كان علامة على عهدهم مع الله، معتبرين الختان عارًا يجب إخفاؤه! وبنوا مع اليونانيين ملعبًا ضخمًا في أورشليم، تقام فيه ألعاب وطقوس وثنية، يشترك فيها اليهود "الجدد" مع اليونانين جنب إلى جنب (مكابيين الأول١ : ١١-١٥)!

واستمر ذلك الوضع إلى أن حرر يهوذا المكابي، ورجاله الهيكل وطهروه، وأعادوا تدشينه فيما بعد. وأقاموا عيدًا تذكارًا لإعادة تدشين الهيكل (استمر ثمانية أيام)، وما زال اليهود يحتفلون به إلى يومنا هذا[٣].

الهيكل الجديد

لقد خلق لله الإنسان كهيكل، لكن هذا الهيكل قد فسد بفعل الخطية وتدنس، وفقد مجده الأول، إلى أن أتى المسيح ليخلق

---

[٣] يعرف حاليًا بعيد "الحانوكاه" (كلمة عبرية تعنى تدشين).

ويجدد هذا الهيكل مرة أخرى، ويرده إلى صورته الأولى، بل وأفضل. ويتضح ذلك في بداية صلوات قداس المؤمنين حين يصلي الكاهن قائلًا: "**وأردت أن تجدده**، وترده إلى رتبته الأولى[٤]".

والله يريد أن يدخل هيكل كل إنسان ليجدده: "ها أنا أصنع كل شيء جديدًا" (رؤ٢١:٥)، كما فعل "يهوذا المكابي"، ومثلما فعل السيد المسيح نفسه في هيكل أورشليم الحجري: "ودخل يسوع إلى هيكل الله، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام" (مت٢١:١٢). وهذا الهيكل الحجري كان يرمز إلى البشرية كلها، وإلى كل إنسانٍ في العهد الجديد، بعد أن صار جسده هيكلًا للروح القدس. وهذه الهياكل الجديدة ليست حجرية كالأولى، بل هي هياكل حية، لحمية (flesh)، هيكل جسدنا. وهذه الهياكل لا تفنى كالأولى، بل حتى وإن مات الإنسان ستتجدد هي نفسها بالقيامة وتصبح أجسادًا نورانية ممجدة.

وحجر الزاوية في هذا الهيكل الجديد هو المسيح الذي نتناوله في الإفخارستيا، والذي به يستقيم البناء كله ويترابط "**في المسيح**"، فكما أنه لا يوجد هيكل بدون ذبيحة، هكذا لا يكتمل هيكلنا بدون "الإفخارستيا"، التي هي الذبيحة الحقيقية لخلاص نفوسنا.

وعملية تجديدنا هذه هي عملية مشتركة بين الله والإنسان. فالله يريد منا أن نتعاون معه في تجديد هيكلنا، ولكي يتم ذلك، يجب أن نقبل عمله فينا، ونُملِّكه على قلوبنا وأذهاننا، ونجاهد مع نعمته. فالله يعمل فينا وبنا شرط أن نتجاوب معه ولا نقاومه، مظهرين في ذلك "مثابرة" (Perseverantia) حينئذ يكمل عمله فينا كقول بولس

---

[٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، صلاة صلح للابن، ص ٣١٦. كما أننا نستطيع أن نقول أنه بفضل التجسد الإلهي أصبح الإنسان في حالة أفضل من الأولى!

الرسول: "واثقًا بهذا عينه أن الذي ابتدأ فيكم عملًا صالحًا، يُكَمِّل إلى يوم يسوع المسيح" (في١:٦). فالله لا يُقحم، ولا يفرض نفسه على الإنسان. إنما يحترم حرية إرادته، التي منحه إياها، والتي هي جزء من صورته التي خلقه عليها. إن الله يريدنا ببساطة أن نعمل معه، وليس ضده!

و"**عملية التجديد**" (renewing) التي يصنعها الله تبدأ من يوم المعمودية وتستمر مدى الحياة. إنها في الحقيقة عملية تجديد وإحلال، واستعادة (restoration)، هدم وبناء: "لتقلع وتهدم، وتهلك وتنقض، وتبني وتغرس" (إر١:١٠). إنها **فعل موت وقيامة مستمر**؛ فيه يُبتلع الموت من الحياة "يبتلع المائت من الحياة" (٢كو٥:٤). جاعلًا منا مسكنًا له ولمجده "إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلًا" (يو١٤:٢٣)، وهيكلًا ترفع منه الصلوات والتسابيح.

الروح القدس روح التجديد

يروى بحسب التقليد اليهودي (البابلي) أنه عندما حدث السبي أخذ بعض الكهنة النار المقدسة التي كانت تشتعل دومًا على المذبح، وخبأوها في بئر فارغ طيلة فترة السبي. وعقب العودة من السبي، وإعادة بناء الهيكل، تم البحث عن البئر. لكنهم حينما وجدوا البئر، لم يجدوا النار مشتعلة، بل وجدوا مكانها مياه طينية؛ فأمر "نحميا" الكهنة أن يأخذوا تلك المياه الطينية ويرشوها على الذبائح والحطب الموجود على مذبح المحرقة، وبشكل معجزي اشتعلت النار ثانية عندما أشرقت الشمس عليها[٥]!

---

[٥] حدث أمر شبيه في قصة إيليا مع أنبياء البعل؛ حين تحداهم بأن يقدموا ذبيحة، ويقدم هو ذبيحة أيضًا، والإله الحق هو الذي سُينزل نارًا من السماء لتحرق الذبيحة. فقدم أنبياء البعل ذبيحتهم ولم تجبهم السماء بشيء، بينما إيليا سكب ماء ثلاث مرات على الذبائح وحطب المحرقة، ثم صلى فنزلت نار من السماء، وأكلت الذبيحة والحطب وكل شيء (١مل١٨: ٢٠-٤٠). ويشبه القديس يوحنا ذهبي الفم تلك الواقعة بعمل الكاهن في الإفخارستيا الذي بصلاته تنزل نار الروح القدس على الأسرار فتتحول إلى جسد ودم حقيقي ليسوع المسيح.

ويسجل سفر المكابيين (مكابين الثاني١:١٨-٣٦) أنه بالرغم من خراب الهيكل لفترة زمنية طويلة (الزمن المكابي) عثر "الحشمونيون[٦]" أثناء تطهيرهم للهيكل، على وعاء زيتٍ واحدٍ فقط، متبقٍّ من أوعية الهيكل، ولم يتدنس. استخدموه لإنارة سرج المنارة، واستمرت المنارة تضيء بهذا الزيت بأعجوبة ثمانية أيام كاملة (وهي فترة الاحتفال بإعادة تدشين الهيكل) دون أن يزود أحد السرج بزيت! لذلك يسمى أيضًا هذا العيد عند اليهود "عيد الأنوار[٧]".

إن هاتين القصتين تشيران بصورة واضحة إلى استمرار عمل الروح القدس فينا (الذي يرمز له بالزيت، والنار، والماء). فالروح الذي نلناه ومُسحنا به (في سري المعمودية والميرون)، يقوم بتطهير، وتقديس الجسد، والروح، وتكريس (تدشين) الإنسان بأكمله؛ وتجديده ليصير هيكلًا لله. وهذا الروح لا يترك المؤمن المعمد، حتى ولو جحد وأنكر، أو فتر[٨].

فمع أن الروح يحزن بسبب خطايا الإنسان، إلا أن الروح القدس يبقى كفتيلة مدخنة، تشتعل حتى ولو بضوء خافت جدًّا إلى النهاية، علَّ الإنسان يفيق من غفلته ويرجع إلى الله، حينئذ يضطرم ويشتعل من جديد، لذلك نطلب كل يوم تجديد ذلك الروح فينا في صلاة الساعة الثالثة (الأجبية) حيث نصلي قائلين: "روحك القدوس يا رب الذي أرسلته على تلاميذك القديسين ورسلك المكرمين... هذا لا تنزعه منا أيها الصالح، بل نسألك أن تجدده في أحشائنا."

إن هذا الروح هو الذي سيقيم الإنسان ويجدده مرة ثانية بعد رقاده. ويُعقِّب القديس "مقاريوس الكبير" على واقعة إشتعال النار من الماء

---

[٦] أسرة كهنوتية من نسل يهوذا المكابي، كانت تحكم فلسطين في الزمن المكابي.

[٧] يرمز له اليهود بالمنارة (الشمعدان) ذات السبعة سرج.

[٨] لذلك لا تعيد الكنيسة تعميد من تركوا الإيمان، ثم رجعوا تائبين، كما ولا تقبل إعادة معمودية الهراطقة إذا تابوا.

في سفر المكابيين الثاني ودور الروح القدس في قيامة الإنسان بعد الموت وتجديده، فيقول: "فكما أن النار التي كانت تتقد على المذبح في أورشليم، ظلت مدفونة في حفرة، أثناء فترة السبي، وعندما حل السلام ورجع المسبيون إلى أورشليم تجددت هذه النار نفسها واشتعلت، كما كانت سابقًا قبل السبي. هكذا الآن النار السماوية (الروح القدس)، تعمل في هذا الجسد الذي ألفناه، هذا الجسد الذي في إنحلاله، يتحول إلى نتانة وقذارة، إلا أن الروح يجدد هذا الجسد، ويقيمه بعد أن يكون قد اضمحل وفسد. إن النار الداخلية التي تسكن الآن في القلب، سوف تستعلن حينئذ من الخارج، وتتم قيامة الجسد[٩]."

إن **الإفخارستيا تضرم الروح ومواهبه في الإنسان**، بينما تطفئ الخطايا الروح: "لا تطفئوا الروح" (١تس٥:١٩). لقد حل الروح القدس على الرسل والتلاميذ يوم الخمسين كألسنة نار، مضرمًا فيهم نار المحبة، والكرازة والخدمة التي إنتشرت في العالم كله. إن هذا الروح الناري هو الذي تكلم عنه السيد المسيح من قبل قائلًا: "جئت لألقي نارًا على الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت" (لو١٢:٤٩).

وهذا الروح هو نفسه العامل فينا لينقينا ويطهرنا، إنه الروح القادر أن يقيمنا من الموت، ويصنع في داخلنا نهضة، وهذه هي معجزة المعجزات: "إن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكنًا فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضًا بروحه الساكن فيكم" (رو٨:١١). ويقول معلمنا بولس الرسول بعدها في نفس الرسالة "روح الله ساكنًا فيكم" (رو٨:٩)، ويكمل تعليمه بقوله أيضًا: "**المسيح فيكم**" (رو٨:١٠) مشيرًا إلى أنه أصبح هناك ساكن جديد لهيكل الإنسان. وهذا الساكن الجديد، له سلطان

---

[٩] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، عظة١١:١.

وقوة تمكنه من طرد الساكن القديم (الخطية والشر): "الخطية الساكنة فيَّ" (رو٧:١٧)، ذلك العدو الذي يفشل الإنسان في طرده، إذا حاول بمفرده (بدون الله).

الروح القدس يجدد الكنيسة باستمرار

إن الإفخارستيا هي أحد سواقي النعمة التي تفيض بالروح القدس في الكنيسة: "سواقي الله ملآنة ماء" (مز٦٥:٩). فروح الله يعمل باستمرار في الكنيسة (خصوصًا في الإفخارستيا) بشكل متجدد ولكن غير مدرك، مثل السواقي التي تبدو للوهلة الأولى أنها تدور في حلقة مفرغة، في حين هي في الواقع تجلب وتضخ ماء متجددًا دائمًا. إنه (الروح القدس) النهر الذي يجري في "مدينة الله" (الكنيسة) "نهر سواقيه تفرح مدينة الله" (مز٤٦:٤).

وعن عمل روح الله المستمر في تجديد النفس البشرية يكتب القديس "مقاريوس الكبير" في أحد عظاته قائلًا: "ينبغي على الشخص الذي يؤمن بالمسيح حقيقة، أن يتغير عن حالته الفاسدة الحاضرة إلى طبيعة أخرى، أي طبيعة القداسة الإلهية، ويتجدد بقوة الروح القدس، وهكذا يكون لائقًا للملكوت[١٠]".

إن القداس الإلهي ليس شيئًا راكدًا (stagnant)، أو ساكنًا (static). بل هو "**فعّال**" و "**متحرك**" (dynamic). إنه حركة رجوع إلى الله واتحاد به، إنه اندفاع نحوه، وفي اتجاهه. الأمر الذي تعبر عنه كلمة "**تقدمة**" (بروسفورا)[١١] المستخدمة للتعبير عن القداس الإلهي، وبذلك تكون الإفخارستيا هي حركة مستمرة ومتجددة نحو الله.

---

١٠ المرجع نفسه، عظة٤٤:٥.

١١ "بروسفورا" (Προσφορά) كلمة يونانية من الفعل (Προσφέρω) بمعنى "أقدم" أو "أقرب"، وهي تتكون من مقطعين : "بروس" (Πρός) تعني "نحو" أو "تجاه"، أو "لأجل"، و"فورا" (φορά) تعني "حركة سريعة"، أو "اندفاع الشيء"، أو "يحمل" (φορέω)، والكلمة ككل تعني "تقدمة".

إن الأصوام والأعياد في الكنيسة تدور بشكل سنوي[١٢]، وبعض التذكارات بشكل شهري[١٣]. وهذا التكرار في الأصوام والأعياد والقراءات، ليس تكرارًا ميتًا، بل هو متجدد بالروح القدس العامل في الكنيسة، وحي ومُحيي لمن يختبرونه. وعبادة الكنيسة برغم أصالتها وقدميتها، إلا أنها **عبادة جديدة دائمًا بفعل الروح القدس**: "نعبده بجدة (Καινότητι) الروح" (رو٧:٦)، ننال بواسطتها كل مفاعيل الخلاص؛ إذ تدخلنا في أحداث الرب الخلاصية نفسها.

وذلك يتضح في شرح القديس أغسطينوس عن المغزى وراء أعياد الكنيسة المتكررة واختلافها عن غيرها من الأعياد والمناسبات الموجودة في العالم، حيث يقول: "هناك نوعان من الأعياد؛ النوع الأول (أعياد العالم) هو مجرد تذكار سنوي لحدث ما؛ تاريخ يتكرر كل عام، حيث المهم هو الالتزام بتاريخ اليوم بالتدقيق. أما النوع الآخر؛ فيحتفل به على مستوى السر والمهم فيه ليس هو حفظ تاريخ اليوم بالتحديد، إنما **الدخول في الحدث والاتحاد بالحقيقة الداخلية للحدث الخارجي الذي يحتفل به**[١٤]".

لذلك نحن مدعوون أن يكون كل عيد نحضره، عيدًا جديدًا، ننال فيه بركة جديدة، مقدمين له تقدمة جديدة هي توبة نفوسنا، ومسبحين فيه تسبحة جديدة كقول كاتب المزمور: "رنموا للرب ترنيمة جديدة" (مز٩٦:١). وكقول يهوديت في نشيد انتصارها: "أنشد للرب نشيدًا جديدًا" (يهوديت١٦:١٥). ومفهوم العبادة المتجددة هذا متأصل في ممارسة الكنيسة من أول يوم في السنة الليتورجيا

---

[١٢] السنة الطقسية القبطية تبدأ في شهر "توت" (١١ سبتمبر) بعيد النيروز، وتنتهي في شهر "نسيء".

[١٣] مثل تذكار الأعياد السيدية الثلاث: "البشارة، والميلاد، والقيامة" في٢٩ من كل شهر قبطي، وتذكار والدة الإله في٢١ من الشهر، وتذكار رئيس الملائكة ميخائيل في١٢ من الشهر.

[14] Augustine, *Epistle* 55:1,2.

(السنة الطقسية) حيث تصلي الكنيسة قائلة: "سبحوا الرب تسبيحًا جديدًا[١٥]".

وذلك التسبيح الجديد هو سمة الكنيسة المنتصرة التي تحيا الملكوت، كما قال يوحنا في سفر الرؤيا: "وهم يترنمون كترنيمة جديدة" (رؤ٣:١٤). وعن ذلك يكتب القديس "أغسطينوس" قائلًا: "الإنسان الجديد يعرف ما هو النشيد الجديد، الترنيم هو التعبير عن الفرح... إنه تعبير عن الحب[١٦]".

وبذلك يكون كل قداس نشترك فيه هو بمثابة "عيد تجديد[١٧]" لنا، نجدد فيه عهدنا، وتوبتنا، وقلوبنا، وأذهاننا وكل حواسنا: "جدد حواسنا بقوتك، وصيرنا أهلا لموهبتك[١٨]." والله يريد أن يجددنا في كل مرة نتناول فيها، كما قال على فم حزقيال النبي: "اعملوا لأنفسكم قلبًا جديدًا، وروحًا جديدًا" (حز١٨:٣١). إنه يريد أن يجدد قلبنا، وروحنا، الأمر الذي كان يطلبه كثير من أبرار العهد القديم أمثال داود النبي القائل: "قلبًا نقيًّا اخلق في يا الله، وروحًا مستقيمًا جدد في داخلي" (مز٥١:١٠)، ونطلبه نحن أيضًا من الله في التسبحة قائلين: "اغرس فينا قلبًا مستقيمًا، لكي نباركك يا ربي يسوع[١٩]".

والإفخارستيا تجدد إيماننا وتشعله، وتجعله أكثر حرارة، كما شهد القديس إغناطيوس الأنطاكي عن مؤمني كنيسة "أفسس"

---

[١٥] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ذوكصولوجية عيد النيروز، الربع الأول، ص ٥٩٧.

[١٦] *رسائل القديس أغسطينوس*، ١:٣٤.

[١٧] في الكنيسة القبطية (وبعض الكنائس الشرقية) يعرف يوم الأحد الذي يلي أحد الفصح مباشرة بأنه "الأحد الجديد" (أحد توما). وفي الكنائس التي تتبع الطقس البيزنطي يعرف الأسبوع الذي يلي مباشرة عيد الفصح (عيد القيامة) بأنه "أسبوع التجديدات"، ومن طقس الاحتفال بذلك الأسبوع أن يظل باب الهيكل مفتوحًا لمدة ثمانية أيام (رقم ثماية يرمز للأبدية) والأسبوع كله يشير إلى تجديد الخليقة الذي تم بواسطة موت وقيامة المسيح (الفصح).

[١٨] القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، القسمة للقديس كيرلس، ص ٦١.

[١٩] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، إبصالية يوم الإثنين، الربع الثلاثين، ص ٢٧٩.

الذين قال عنهم: "**أنتم مشتعلون بدم الله**[٢٠]". كما تجدد الإفخارستيا محبتنا نحو الله والآخر وتجعلها على مستوى بذل الذات للآخر كما يفعل المسيح في الإفخارستيا حين يبذل جسده ودمه لنا. ويقول لنا أيضًا القديس "إغناطيوس الأنطاكي": "تجددوا في الإيمان، وفي المحبة بواسطة جسد الرب ودم المسيح[٢١]".

إننا مدعوون من خلال "الإفخارستيا"، أن نختبر عبادة جديدة ومتجددة؛ عبادة العهد الجديد الذي قطعه الرب مع شعبه: "ها أيام تأتي، يقول الرب، وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا (إر٣١:٣١). ذاك العهد الجديد الذي صنعه بدمه، يجدده معنا في كل إفخارستيا، مانحًا إيانا مراحم جديدة باستمرار "لأن مراحمه لا تزول. هي جديدة كل صباح" (مرا٣:٢٢،٢٣)، كل يوم "رحمة الله هي كل يوم" (مز٥٢:١).

ونحن في الإفخارستيا نختبر عبادة متجددة يجتمع فيها الماضي والحاضر والمستقبل معًا في آنٍ واحد. كما يكتب القمص "تادرس يعقوب" قائلًا: "في الليتورجيا (العبادة الجماعية في الكنيسة)، لا يخضع الإنسان لقيود الزمن، إذ يرتبط (الإنسان) بالكنيسة كلها في المسيح يسوع. مجتازًا الأبدية خلال الجلجثة. فلا يحزن على الماضي كأنه أمر مضى وانتهى، أي كخسارة مفقودة، ولا المستقبل كأمر مجهول بالنسبة له، لكن الماضي والحاضر، والمستقبل هم واحد، مكشوف قدام عينيه... أخيرًا يمكننا أن نقول إن الكنيسة بليتورجياتها (صلواتها) لا تشيخ في أي عصر من العصور، بل هي دائمة جديدة دائمًا لأنها لا تخضع للزمن[٢٢]".

---

[٢٠] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أفسس ١:١.

[٢١] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى تراال "تراليان"٨:١.

[٢٢] القمص تادرس يعقوب ملطي، *المسيح في الإفخارستيا*، كنيسة مارجرجس سبورتنج، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ٤٧.

زقاق جديدة وخمر جديدة

لقد أتى المسيح ليجددنا، ويجعل من كل نفس تقبله وعاء جديدًا، وزِقًّا جديدًا[٢٣]، يستطيع أن يسكب فيها خمرًا جديدة؛ والذي يشير من جهة إلى الروح القدس، ومن جهة أخرى إلى خمر العهد الجديد (دم المسيح) الإفخارستيا: "وليس أحد يجعل خمرًا جديدة في زقاق عتيقة، لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق، فالخمر تنصب والزقاق تتلف، بل يجعلون خمرًا جديدة في زقاق جديدة" (مر٢:٢٢؛ مت٩:١٧؛ لو٥:٣٧،٣٨). وعن ذلك يقول القديس "مقاريوس الكبير": "هذا هو الغرض الذي من أجله جاء ربنا يسوع المسيح، أن يغير الطبيعة البشرية، ويحولها ويجددها ويخلق النفس خلقة جديدة. النفس التي كانت قد انتكست بالشهوات وبواسطة التعدي. قد جاء المسيح لكي يوحد الطبيعة البشرية بروحه الخاص، أي روح الله. وهو قد أتى كي يصنع عقلًا جديدًا، ونفسًا جديدة، وعيونًا جديدة، وآذانًا جديدة، ولسانًا جديدًا روحيًّا، وبالاختصار أناسًا جددًا كلية... هذا هو ما جاء لكي يعمله في أولئك الذين يؤمنون به، أن يصيرهم أواني جديدة، إذ يمسحهم بنور معرفته الإلهي، لكي يصب فيهم الخمر الجديدة[٢٤]".

وقد أتى المسيح ليفرغ ما كان في أوعيتنا القديمة من خمر ردية، التي هي اهتمامات العالم وشهواته، ورواسب عتيقة عَكِرة تراكمت عبر حياتنا من ذكريات وتجارب مؤلمة، إستقرت في قاع نفوسنا ببطء دون أن ندري: "ويكون في ذلك الوقت أني أفتش أورشليم بالسرج، وأعاقب الرجال الجامدين على درديهم[٢٥]، القائلين في قلوبهم إن الرب

---

[٢٣] "الزقاق" جمع "زِقّ" وهو قربة تصنع من الجلد كانت تستخدم قديمًا لحفظ السوائل وخصوصًا الخمر.

[٢٤] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، عظة ٤٤:١.

[٢٥] "الدردي" هي رواسب الكروم القديمة التي ترسب في القاع أثناء عملية تخمر عصير العنب، كانت تصفى مرارًا خلال مراحل التصنيع حتى تصبح الخمر نقيَّة وجيدة في النهاية.

لا يحسن ولا يسيء" (صف١:١٢). وقد أتى المسيح ليفرغ كل ذلك قبل أن يسكب خمره الجديدة حتى لا يتعكر، لذلك في كل قداس يحل علينا الروح القدس ليطهر أوعيتنا وينقيها، فنستقبل في داخلنا خمرًا جديدة التي هي دم العهد الجديد.

فنحن في الإفخارستيا نشرب من الخمر الجديدة التي تكلم عنها المسيح أنه يريد أن يشربها جديدة في ملكوته كما كتب الإزائيين الثلاثة (متى، مرقس، لوقا) "إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه جديدًا في ملكوت أبي" (مت٢٦:٢٩؛ مر١٤:٢٥)؛ "إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله" (لو٢٢:١٨). ونحن في الإفخارستيا نتذوق عربون الملكوت، والحياة الأبدية (Ζωή) الجديدة، والزمان الجديد.

الحياة الجديدة في المسيح

إن الله يدعونا في كل قداس إلهي أن نتبعه في "**جدة** (newness) **الحياة**" (رو٦:٤)، أي الحياة الجديدة، والمتجددة لمن يمشون وراء الرب: "وأما منتظرو الرب فيجددون قوة، يرفعون أجنحة كالنسور، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون" (إش٤٠:٣١)، مجددين عهد معموديتنا بجحد الشيطان وكل أعماله (كما في المعمودية)، وتابعين المسيح في كل شيء. فيكون لسان حالنا كما تصلي الكنيسة وتعلن كل يوم في التسبحة قائلة: "نتبعك بكل قلوبنا، ونخافك، ونطلب وجهك[٢٦]".

والإفخارستيا تجدد الإنسان ككل؛ إذ يصلي الكاهن قائلًا: "لكي يكون لنا جميعًا نحن الآخذين منهما (الجسد والدم) تجديدًا

---

[٢٦] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، لحن "تين أويه إنثوك ⲛ̀ⲑⲟⲕ ⲧⲉⲛⲟⲩⲉϩ" أي "نتبعك بكل قلوبنا"، ص ١٣٧.

للنفس، والجسد، والروح[٢٧]." إذ إننا في الإفخارستيا نتحد بالمسيح الذي هو جدة الحياة عينها (أي الحياة الجديدة): "هكذا نسلك نحن أيضًا في جدة الحياة" (رو٦:٤). إننا نتبع الرب في "مسيرة التجديد" التي هي حياتنا بأكملها: "أنتم الذين تبعتموني في التجديد" (مت١٩:٢٨)، تاركين خلفنا الأشياء العتيقة غير النافعة كما قال بولس الرسول "أنسى ما هو وراء، وأمتد إلى ما هو قدام" (في٣:١٣)، وناظرين للأمام إلى مخلصنا "ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع" (عب١٢:٢).

وعن الحياة الجديدة التي نحياها في المسيح يقول القديس "يوحنا ذهبي الفم" مفسرًا تعليم بولس الرسول، فيقول: "إن آمن بي أحد (بالمسيح) يأتي إلى خليقة أخرى؛ إذ يولد ثانية بالروح، يليق بنا أن نعيش بالروح، يليق بنا أن نعيش له، يحثنا بولس الرسول على الفضيلة، مظهرًا كيف إنها خليقة جديدة، الأشياء العتيقة قد مضت، ما هي الأشياء العتيقة؟ الخطايا، عدم التقوى، حفظ الممارسات البالية، نعم بالأحرى يعني هذه وتلك."

ويكتب القديس "غريغوريوس الناطق بالإلهيات" شارحًا ما هي الحياة الجديدة التي نحياها في المسيح، قائلًا: "قدم نفسك الآن كشخص جديد، مختلف في الصفات، متغير تمامًا... يجب أن تكون في تحول دائم ونمو، وتكون خليقة جديدة، تائبًا حين تخطىء، متقدمًا للأمام ولك حياة فاضلة[٢٨]."

لذلك ينبغي أن نطلب ونسأل من الله في كل قداس أن يعطينا أو ينمي فينا شيئًا جديدًا: "هأنذا صانع أمرًا جديدًا الآن ينبت" (إش٤٣:١٩)، وبذلك سنصلي ولن نمل "ينبغي أن يصلى كل حين ولا يمل" (لو١٨:١)، لأنه يستحيل أن نخرج من أي قداس فارغين،

---

[٢٧] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، ما بعد الرشومات الثانية، ص ٤٧٠.

[28] Gregory of Nazianzus, *Oration* 44.8.

فالله لا يمكن أن يصرفنا من أمامه فارغين: "أشبع الجياع خيرات، وصرف الأغنياء فارغين" (لو١:٥٣).

توجه جديد

نحن أحيانًا ما نذهب إلى الكنيسة أو حتى للقداس الإلهي بتوجه الانتقاد وإصدار الأحكام على الآخرين حتى ولو في داخلنا، فنحكم بأن هذا يصح، وهذا لا يصح، بينما بولس الرسول يقول: "لا نحاكم بعضنا بعضًا" (رو١٤:١٣). إننا نذهب كقضاة وليس كخطاة طالبين المغفرة، فنرجع محملين بالخطايا أكثر مما ذهبنا! إن الله يريدنا أن نتبعه قائلًا لكل واحدٍ منا: "ماذا لك؟ اتبعني أنت" (يو٢١:٢٢)!

والقديس "أمبروسيوس" يحث كل مؤمن أن يفحص نفسه أين هو من الشركة المحبة لله: "على كل مسيحي أن يراجع نفسه الآن، هل هو في شركة مع المسيح؟ أم أنه منفصل ومبتعد عنه بقلبه وروحه؟ لأن ابتعادنا عنه وسلوكنا بحسب الجسد وبحسب العالم، يعني أننا نجهل أو نتجاهل عهد معموديتنا. ولكن إن رجعنا إليه بقلب صادق في يقين الإيمان وعزم التوبة، فإنه يعيدنا من جديد إلى حالة الشركة معه والتمتع بمحبته، ليجعلنا نلبسه من جديد، لأنه مشغول بنا ومشتاق إلينا، حتى إن كنا قد بددنا كنوز الروح في كورة الخطية البعيدة[٢٩]".

فالله يريدنا أن نذهب إليه بتوجه (attitude) قلب مختلف، توجه جديد فيه جدية والتزام ومثابرة (παράμον)، توجه يرغب في التغير والتجدد، يرغب في المزيد: "تعالوا إليَّ أيها الراغبون فيَّ، واشبعوا من ثماري" (يشوع بن سيراخ٢٤:٢٦). لأننا إن لم نشعر باحتياج فلن ننال شيئًا، إن لم نجع أولًا. لذلك ينبغي أن نتوجه إلى الله بقلب

---

[٢٩] القديس أمبروسيوس، *الأسرار*.

جائع ومتشوق للمزيد: "من أكلني عاد إلىَّ جائعًا، ومن شربني عاد ظامئًا" (يشوع بن سيراخ٢٤:٢٩). حينئذ سنأكل ونشبع ونطوب أيضًا كقوله الطاهر: "طوبى للجياع والعطاش إلى البر، فإنهم يشبعون" (مت٥:٦)، عالمين أن "الرب لا يجيع نفس الصديق" (أم١٠:٣) بل يشبع نفوس المؤمنين به بخبز الحياة الذي هو جسده الإلهي.

والقديس "مقاريوس الكبير" يكتب في إحدى عظاته عن الجوع والعطش إلى الله فيقول: "المسيحية هي في الحقيقة طعام وشراب. فكلما أكل الإنسان منها، ازداد قلبه ولعًا بحلاوتها، ولا يتوقف أو يكتفي بل يطلب المزيد، ويستمر يأكل بلا شبع أو امتلاء. فإذا أعطى شرابًا حُلوًا لإنسان عطشان، فإنه بعد تذوقه، يزداد ظمأً إليه، يشتاق إليه بحرارة أكثر من الأول. والحقيقة أن مذاقة الروح تشبه ذلك، ولكن بغير حدود، حتى إنه لا يوجد شيء يمكن أن يمثل به، وهذه ليست مجرد كلمات؛ فهذا هو الروح القدس، وعمله الذي يعمله في الخفاء في القلب[٣٠]".

أما لو ذهبنا شاعرين في أنفسنا بالاكتفاء والاستغناء، وأصبح التناول مجرد ممارسة أو عادة، كما لقوم عادة، وليس حياة، فسنشعر بتخمة روحية، ويصيبنا الانتفاخ والكبرياء، من كثرة ما نسمعه ونتعلمه في الكنيسة: "العلم ينفخ، ولكن المحبة تبني" (١كو٨:١) فتتضخم ذواتنا، بدلًا من أن نتواضع أمام الله. لذلك يحث ذهبي الفم شعبه ويحفزهم، مُلهبًا قلوبهم للتقدم للتناول باستعداد وانتباه فيقول: "ليته لا يقترب أحد (إلى سر الإفخارستيا) بغير مبالاة أو بقلب واهنٍ، ولكن جميعنا بقلوبٍ ملتهبة، كلنا متحمسون، كلنا متيقظون. فإن كان اليهود أكلوا (ذبيحة الفصح) وهم مستعدون، وأحذيتهم في أرجلهم وعصيهم في أيديهم، وهم

---

[٣٠] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، عظة ١٣:١٧.

بعجلة، فكم بالحري أنت؟ يجب أن تكون يقظًا. فاليهود إستعدوا وهم ذاهبون للصعود إلى فلسطين، فكانوا في هيئة الذاهبين إلى الأماكن المقدسة. أما أنت فكيف تستعد للسفر إلى السماء؟[٣١]".

الإفخارستيا غذاء الحياة الجديدة

الإفخارستيا هي الغذاء الجديد (الروحي) الذي يطعم به الله شعبه، عوض المن في العهد القديم. حيث إن الإفخارستيا هي الطعام الذي يعده الله لنا بالروح القدس، والذي يقول عنه القديس يوحنا ذهبي الفم: "ما الذي كان يلزم أن يُعطى لنا من أجل خلاصنا، ولم يعطنا الروح القدس إياه؟ لقد حررنا من العبودية، تبنانا ودعانا إلى حرية مجد أولاد الله، من هذا النبع (الروح القدس) تدفقت النبوات، وعطية الشفاء، وجميع المواهب الأخرى، والثمار اللازمة أن تزين بها الكنيسة نفسها."

فالإفخارستيا هي الطعام الذي به ننمو في الحياة الجديدة، وفي كل شيء: "ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس: المسيح" (أف٤:١٥)، والذي يقول عنه القديس كليمندس السكندري: "هذا هو الطعام المناسب (الإفخارستيا) الذي هو عطية الرب، وهو يقدم جسده ويسكب دمه، ولا يعود شيء ناقص لنمو الأطفال... يا للسر المدهش! نحن ندعى أن نخلع عنا الفساد الجسدي العتيق وأيضًا الطعام القديم، وأن ننال بدلًا منه، نظامًا آخر، نظام المسيح؛ إذ نناله هو، ونخبئه في داخلنا. وهكذا إذ نُنصب المخلص ملكًا على نفوسنا، يمكن أن نصلح أهواء الجسد[٣٢]".

والحياة الروحية هي حياة نمو في العلاقة مع الله. فالله عندما خلق الإنسان، خلقه لينمو في البر والقداسة شيئًا فشيئًا، كما وضح

---

[٣١] القديس يوحنا ذهبي الفم، *عظات على إنجيل متى*، العظة الثانية والثمانون.

[32] *Paed.*1.2.42.

آباء الكنيسة، أمثال القديس "إيريناؤس" القائل: "كما أنه بالتأكيد في مقدور الأم أن تعطي رضيعها طعامًا قويًّا، ولكنها لا تفعل ذلك. لأن الطفل ليس في مقدوره بعد، أن يستقبل طعام قوي. هكذا الله كان في مقدوره أن يخلق الإنسان كاملًا من البداية، لكن الإنسان لم يكن يستطيع تقبل ذلك الكمال لأنه ما زال طفلًا[٣٣]." إن الإفخارستيا هي الطعام الذي ينمينا روحيًّا: "ما أجوده، وما أجمله! الحنطة (القمح) تنمي الفتيان، والمسطار (الخمر) العذارى" (زك٩:١٧).

وإنه لمن المستحيل أن ننمو في الحياة الجديدة أو نتجدد، بدون الإفخارستيا. ولن نستطيع أن نتقدس باستمرار بدون الإفخارستيا. لذلك عدم التناول بحجة عدم الإستعداد الكافي (مع أن ذلك مطلوب)، أو التماس الأعذار للنفس بحجة عدم القداسة الكافية، أو الانشغال..إلخ. يجعلنا مثل هؤلاء الذين دعاهم المسيح إلى عشائه العرسي (مثل "الوليمة العظيمة" في إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع عشر) فاعتذر كل واحدٍ ملتمسًا لنفسه عذرًا مختلفًا، وفي النهاية نرى السيد المسيح يقول عنهم: "ليس واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشائي!" (لو١٤:٢٤).

والله يدعونا لعشائه السري الذي إذا إشتركنا فيه بإيمان ومخافة ومحبة، سنسمع الصوت القائل: "طوبى لمن يأكل خبزًا في ملكوت الله" (لو١٤:١٥). لذلك فإن القديس يوحنا ذهبي الفم يتكلم عن فائدة الذهاب إلى الكنيسة، وبالأخص القداس الإلهي فيقول: "كما أن المرفأ الهادئ هو بمنأى عن الهواء، فيقدم للسفن الراسية فيه الأمان والضمان؛ هكذا بيت الله بالنسبة للداخلين إليه. فهو يشدهم من الأمور العالمية، كما لو من داخل عاصفة هوجاء، ويهبهم القدرة بكثير من الصفاء والأمان، كي يقفوا ويسمعوا كلمة الله. هذا

---

[٣٣] القديس إيريناؤس، *ضد الهرطقات*.

المكان هو حجر أساس الفضيلة، ومدرسة الحياة الروحية... إن وطئت بقدميك عتبة الباب فقط، تشعر أنك تحررت من الهموم المعيشية، تقدم قليلًا إلى داخل الكنيسة، فتشعر بلفحة تندي نفسك. رهيب هو هذا الصمت! وهو يعلمك أن تعيش روحيًّا، ولا يترك لك مجالًا أن تتذكر المشاكل اليومية، ينقلك من الأرض إلى السماء. إذا كان هذا هو الربح الذي نجنيه لما نأتي إلى الكنيسة في أوقات لا تقام فيها خدمة (صلاة) ما داخل الكنيسة. فماذا يسعنا القول عن الربح الذي نجنيه لما نأتي ويكون الأنبياء يهتفون من كل جهة، والرسل يبشرون، والمسيح يقف في الوسط، والله يقتبل كل ما تجري إقامته، والروح القدس يهب حبوره الخاص! وكم هي عظيمة الخسارة التي يتكبدها الذين يغيبون عن محفل كهذا[٣٤]"!

أما عن الاستعداد الحقيقي للتناول فيتكلم القديس "كيرلس الكبير" عنه قائلًا: "إن كنا نشتاق إلى الحياة الأبدية، وإن كنا نصلي لننال واهب الخلود في أنفسنا، فعلينا ألا نشابه بعض الطائشين، فنرفض أن نُبَارَكْ؛ أى ننال "البركة" (εὐλογία)[٣٥] وألا ندع الشيطان العميق في الشر، ينصب لنا فخًّا وشركا، من **التقوى الضارة**. أجل إنه مكتوب "لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق، يأكل ويشرب دينونة لنفسه" (١كو١١:٢٩). وهأنذا قد فحصت نفسي فوجدت أني غير مستحق (إن الذي سيتكلم هكذا، سيسمع مني هذا السؤال): فمتى إذًا ستكون مستحقًّا؟ ومتى تقدم نفسك للمسيح؟ لأنك إن كنت ترتاع (تخاف) دائمًا، مبتعدًا بعثراتك فإنك لن تتوقف أبدًا عن (الوقوع) في العثرة، إذ يقول المرنم: "الهفوات من

---

[34] EPE 26. 446-448.

[٣٥] كلمة "ألوجيا" (εὐλογία) هي إحدى الكلمات التي يستخدمها الآباء (وخصوصًا القديس كيرلس الكبير) للتعبير عن سر الإفخارستيا، ولكنها أصبحت الآن تطلق على "لقمة البركة" التي توزع في نهاية القداس الإلهي.

يشعر بها؟" (مز١٩:١٢). **وكيف تكون كاملًا وصحيحًا دون الاشتراك في ذلك التقديس** الذي يحفظ الإنسان تمامًا؟ فقرر أن تحيا حياة أكثر قداسة في توافق مع الوصايا، وهكذا اقبل البركة ("الأولوجيا" أي الإفخارستيا)، مؤمنًا أن لهذا السر القدرة على طرد لا الموت فقط، بل الأمراض التي فينا. لأنه لهذا جاء المسيح ليكون فينا، ليهدىء ناموس الأسفار (ناموس الخطية، بقايا الإنسان العتيق) الذي يثور في جسدنا، ويشعل التقوى من نحو الله، ويميت شهواتنا فلا ينسب لنا بعد التعديات التي سقطنا فيها، بل بالحري يشفينا من مرضنا لأنه يضمد من سُحقَ، ويقيم من سقط، كراعٍ صالح، وكمن بذل حياته لأجل خرافه[٣٦]".

ويوضح أيضًا القديس "كيرلس الكبير" في موضع آخر، أن الابتعاد عن التناول يؤدي إلى الفتور الروحي والسقوط تدريجيًّا، فيقول: "فعلى الذين اعتمدوا الآن وذاقوا النعمة الإلهية، أن يعرفوا أنهم إن هم تراخوا في الذهاب إلى الكنائس، أو استصعبوا الأمر، وظلوا زمانًا طويلًا بعيدين عن عطية الإفخارستيا، وتظاهروا بورعٍ زائفٍ، من جهة أنهم لا يشتركون فيه سرائريًّا، فإنهم يقطعون أنفسهم عن الحياة الأبدية، إذ إنهم حادوا عن الحياة، وإن بدا رفضهم هذا ثمرة من ثمار ورعهم، فإنه يتحول إلى فخٍ، ورذيلة[٣٧]"!

وأخيرًا نقول إن ابتعادنا عن الإفخارستيا هو ابتعاد عن الحياة الحقيقية التي لنا في المسيح، الأمر الذي يحزن الملائكة والسماء، كما يقول القديس مقاريوس الكبير: "ويل للنفس إذا استندت على طبيعتها الخاصة، ولم تضع ثقتها سوى في شيء واحد سوى أعمالها

---

[٣٦] القديس كيرلس الإسكندري، تفسير إنجيل يوحنا، مرجع سابق، الكتاب الرابع، الفصل الثاني، يو٦:٥٦.

[٣٧] القديس كيرلس الإسكندري، شرح *إنجيل يوحنا*، ترجمة د.جرجس كامل يوسف، أغسطس١٩٩٨، ص١٠١،١٠٢.

الخاصة. ولم تنل شركة روح الله. فإنها تموت؛ إذ إنها لم تحصل على حياة اللاهوت الأبدية الممنوحة لها. فكما أنه في حالة المرض بالجسد، حينما يفقد الجسد القدرة على تقبل الغذاء، لا يعود هناك أمل في الشفاء. فيبدأ أصدقاء مثل هؤلاء المرضى وأقارباؤهم ومحبيهم في ذرف الدموع. هكذا بنفس الطريقة، فإن الله والملائكة يبكون على النفوس التي لا تتغذى بطعام الروح السماوي، ولم تأت إلى الحياة في عدم الفساد! ومرة أخرى أقول إن هذه الأشياء ليست مجرد كلمات تقال، بل هي عمل الحياة الروحانية، عمل الحق الذي يتحقق في النفس الأمينة المستحقة[٣٨]".

لقد تكلم القديس كيرلس الكبير عن فائدة التناول المتواتر قائلًا: "هكذا نحن نشترك في السر المجيد (الإفخارستيا) كل يوم إن أمكن، ليس لأنه طعام يفنى وليس لأن النعمة التي أخذناها تزول بمرور الزمن؛ بل إنما لأننا عقليًّا نترك تأمل الأمور السمائية... وبذلك يتضح أن الخدمة الإلهية (الإفخارستيا) هي ينبوع حياة يعيدنا إلى الأصل أي المسيح... إننا نحيا في زمن المائدة السماوية، ونأكل طعام الحياة لكي نحيا... ولا يقوى الموت علينا، بل نتغذى كما أردنا لكي نبقى قريبين من مصدر الحياة، لأن الموت لا يقوى علينا، وإنما الأفكار والعواطف هي التي تغلبنا[٣٩]".

الروح القدس يجدد أذهاننا من خلال قراءات القداس الإلهي

لقد رتبت الكنيسة وضع فصول من الكتاب المقدس كقراءات إلهية تتجدد حسب المناسبات والأعياد، في كل صلواتنا بدون استثناء، بغرض التعليم وأيضًا بغرض الصلاة، وأيضًا لكي تتحول الكلمة إلى صلاة. بل إن بعض الآباء يرون أن قراءة الكلمة الإلهية

---

[٣٨] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، عظة ١:١١.

[٣٩] القديس كيرلس الكبير، *تفسير إشعياء* ٩:٦.

(الكتاب المقدس) في الليتورجيات (بالأخص في الإفخارستيا) يكسب الكلمة **صفة الإعلان**؛ أي تتحول الكلمة المقرؤة إلى إعلانات للمؤمنين، كما في حياة الأنبا أنطونيوس (مؤسس الرهبنة في العالم) وغيره من القديسين.

لذلك نجد أن **معظم صلوات القداس الإلهي مأخوذة من آيات في الكتاب المقدس**، ثم تتحول هذه الصلاة الحية بالروح إلى حياة "أميلوا آذانكم وهلموا إليَّ، اسمعوا فتحيا نفوسكم، وأقطع لكم عهدًا أبديًّا" (إش٥٥:٣)؛ "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة" (يو٦:٦٣)، وإنجيل معاش يقرأه الآخرون في حياتنا. فنصير نحن أنفسنا رسالة الله مكتوبة بروحه، يقرأها جميع الناس في أفعالنا: "ظاهرين أنكم رسالة المسيح مخدومة منا، مكتوبة لا بحبر بل بروح الله الحي، لا في ألواح حجرية بل في ألواح قلب لحمية" (٢كو٣:٣).

إن وصايا الله واحدة من البدء، ولكن الروح الحي الموجود والعامل في الكنيسة هو الذي يقدمها للمؤمنين متجددة بحسب الاحتياج والاستعداد. فالله من خلال الإفخارستيا يجدد أذهاننا وآذاننا بشكل مستمر ومنظم. فالروح القدس يذكر المؤمنين بوصاياه ويجددهم: "تجددوا بروح ذهنكم" (أف٤:٢٣)، في قراءات القداس الإلهي: "والآن نحن جميعًا حاضرون أمام الله، لنسمع جميع ما أمرك به الله" (أع١٠:٣٣).

إن عبارة "الرب مع جميعكم[٤٠]"، التي تقال في القداس الإلهي كان اليهود قديمًا (قبل القرن الأول) يقولونها عندما يرغب إنسان في أن ينبه، أو يذكر صاحبه بوصايا الناموس[٤١]. فكانوا يقولونها قبل قراءة التوراة في المجامع. إن الله يغرس كلمته: "فإقبلوا بوداعة

---

[٤٠] تقال باليونانية والقبطية (Ⲟ Ⲕⲩⲣⲓⲟⲥ ⲡⲁⲛⲧⲱⲛ ⲙ̀ⲙⲟⲛ) " أوكيريوس ميتا باندون إيمون "، انظر القداس الباسيلي، المرجع السابق، ص٢١٧.

[41] *Tracte,Barakoath*,Tos. 23:7.

الكلمة المغروسة القادرة أن تخلص نفوسكم" (يع١:٢١) ووصاياه في قلوبنا بالروح القدس: "هأنذا أفيض لكم روحي وأعلمكم كلماتي" (أم١:٢٣) من خلال القراءات التي في الجزء الأول من القداس الإلهي.[٤٢، ٤٣]

إن لله لا يعطينا وصاياه فقط، بل يمنحنا معها الإرادة والقوة اللازمة لتفعيلها (من خلال التناول): "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا، وأن تعملوا من أجل المسرة" (في٢:١٣)، كقول القديس أغسطينوس: "أعطني يا رب ما أمرت، ثم أأمر بما شئت"! فالروح القدس ليس فقط يذكرنا ويفهمنا وصايا الله، بل أيضًا يمنحنا القوة التي نستطيع بها تطبيق وصاياه بفرح كقول القديس أغسطينوس: "الحب الإلهي المنسكب في قلوبنا بالروح القدس، يهبنا لا القدرة على تحقيق الوصايا الإلهية، بل لذة أيضًا في تحقيق الوصايا الإنجيلية، التي تبدو صعبة ومستحيلة." وبذلك نحيا ما سبق وقاله الروح القدس على فم موسى النبي، حين قال: "إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدة منك. ليست هي في السماء حتى تقول: من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويسمعنا إيّاها لنعمل بها؟ ولا هي في عبر البحر حتى تقول من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا إيّاها لنعمل بها؟ بل الكلمة قريبة منك جدًّا في فمك وفي قلبك لتعمل بها" (تث٣٠: ١١-١٤).

---

[٤٢] من الجدير بالملاحظة أنه عادة للإعلانات والنداءات التي يصليها الكاهن والشماس أصول كتابية في العهدين، ذات مغزى لاهوتي، فهى ليست "جُمل وصل" ولا فواصل زخرفية بين صلوات الإفخارستيا. ومثالًا لذلك أنه في بعض الطقوس الشرقية (كالطقس البيزنطي)، وأيضًا في الطقس الغربي تقال عبارة "السلام مع جميعكم" مباشرة قبل قراءة الإنجيل، مما يدل على حقيقة اكتساب الكلمة الإلهية صفة الإعلان في الليتورجيا، كما ظهر الرب لتلاميذه بعد القيامة وأعلن لهم قيامته، ومنحهم سلامه.

[٤٣] تتميز الليتورجيات القبطية للإفخارستيا بغزارة القراءات، حيث يوجد في كل قداس خمس قراءات: البولس، الكاثوليكون، الإبراكسيس، والمزمور، والإنجيل (بخلاف قراءات رفع بخورعشية وباكر، والنبوءات التي من العهد القديم والتي تقرأ في الصوم الكبير).

إن كلمة الله هي إحدى الطرق التي يشفي بها الله شعبه، وذلك من خلال تكرار كلمته، وتذكيرنا بها باستمرار. فتسكن فينا كلمته: "لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى" (كو٣:١٦)، وتشرق في داخلنا كما يقول القديس أغسطينوس[٤٤]. ويكون لها عمل مغيّر، فكلمة الله لها قوة وسلطان يستطيع إختراق الذهن والنفس كما يقول بولس الرسول: "خارقة لمفصل النفس والروح، والمفاصل والمخاخ، ومميزة أفكار القلب ونياته" (عب٤:١٢). إنها بمثابة سيف: "كلمة الله حية وفعالة، وأمضى من كل سيف ذي حدين" (عب٤:١٢)، نستطيع أن نحارب به الشر والشيطان "تنويهات (وصايا) الله في أفواههم، وسيف ذو حدين في يدهم" (مز١٤٩:٦)[٤٥].

إن كلمة الله تكشف لنا ما في داخلنا من أفكار مشوهة ومغلوطة وأكاذيب قد تكون سيطرت علينا "عاملين مشيئة الجسد والأفكار" (أف٢:٣)، وتستبدلها بأفكار الله عنا: "ما أكرم أفكارك يا الله عندي" (مز١٣٩:١٧). فكلمة الله هي الحق[٤٦]: "وتعرفون الحق والحق يحرركم" (يو٨:٣٢). وبذلك تكون كلمة الله سلاحًا نقدر أن نقاوم به الأفكار السلبية، ونتحرر به من المعتقدات الهادمة: "هادمين ظنونًا، وكل علو يرتفع ضد معرفة الله" (٢كو١٠:٥)، المترسخة في أنفسنا عن ذواتنا، أو عن الله، أو عن الآخرين: "إلى متى تبيت في وسطك أفكارك الباطلة؟" (إر٤:١٤).

لذلك كان القديس "يوحنا ذهبي الفم" يوصي المؤمنين دائمًا

---

[44] Augustine, *De Trinitate*, XV, 11,20: PL. 42,1071.

[٤٥] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، الهوس الرابع، ص ١٦٩.

[٤٦] يوجد في العلاج النفسي (في العصر الحديث) ما يشبه عملية تجديد الذهن التي تكلم عنها الرسل كثيرًا في العهد الجديد. ويسمى هذا الأسلوب في العلاج النفسي في عصرنا الحالي "العلاج المعرفي" (cognitive therapy) وينسب للعالمين "ألفريد أدلر" و"أرون بيك"، وفيه يكتشف الشخص الأفكار والمعتقدات السلبية التي لديه، ويحدد ما بها من أخطاء، ثم يقوم باستبدالها بأفكار إيجابية بديلة، وبالتالي يتغير سلوك الفرد وشعوره بنفسه عن طريق تغيير طريقة تفكيره.

بالمواظبة على قراءة الكلمة والتعمق فيها، فنراه يقول في إحدى عظاته: "أنصتوا باهتمام أتوسل إليكم... وتدبروا الكتب التي فيها شفاء للنفس. إن لم تستطيعوا الحصول عليها كلها[٤٧]، على الأقل اقتنوا العهد الجديد: الأناجيل، أعمال الرسل، الرسائل. لتكن هذه الكتب مُعلمة لكم، إن وقع بكم حزن، اغطسوا في تعاليم الكتاب، كما لو إلى خزانة أدوية (Panarium)، وخذوا منها عزاء لنفوسكم في آلامكم... بل وأقول لكم لا أن تغطسوا فيها فقط، بل خذوها جميعها إلى نفوسكم، واحتفظوا بها في عقولكم[٤٨]".

ويحتاج الإنسان أن يجدد ذهنه باستمرار، فلا يمكن أن يظل الشخص مع الله بنفس العقلية والفهم الذي كان به حين بدأ مع الله، مثلما لا يمكن لشخص بالغ أن يظل يرتدي نفس حذائه وهو طفل لأنه مريح أو لأنه ما زال بحالة جيدة! "مستريح موآب منذ صباه، وهو مستقر على درديه، ولم يفرغ من إناء إلى إناء، ولم يذهب للسبي، لذلك بقى طعمه فيه، ورائحته لم تتغير" (إر٤٨:١١).

ولقد أوصى الله على فم بولس الرسول منذ ألفي عام مضى قائلًا: "تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم" (رو١٢:٢). إننا نستبدل أفكارنا العتيقة المشوهة بحقائق سليمة، كما أعلنها لنا الله في كلمته: "إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله، ولبستم الجديد الذي يتجدد للمعرفة، حسب صورة خالقه" (كو٣:٩،١٠). إننا نثبت في واقع هويتنا الجديدة: "الأشياء العتيقة قد مضت، هوذا الكل قد صار جديدًا" (٢كو٥:١٧) كأبناء لله، وورثة للمواعيد.

---

[٤٧] قبل اختراع الطباعة في القرن السادس عشر، كان من الصعب ومن المكلف جدًا إقتناء نسخة كاملة من العهد الجديد، أو الكتاب المقدس بعهديه، وكان الناس يقتنون بعض الأسفار حسب مقدرتهم المادية، وقدرتهم على القراءة، والشائع أن الناس كانوا يذهبون للكنيسة لممارسة الأسرار، ولسماع الكتاب المقدس.

[٤٨] القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل كولوسي*، العظة التاسعة.

فمن خلال "**تجديد الذهن**" (في المسيح) نجعل المسيح يملك على تفكيرنا بإرادتنا وحريتنا، فنقتني في داخلنا فكر المسيح ذاته: "أما نحن فلنا **فكر المسيح**" (١كو٢:١٦)، الذي هو كما قال معلمنا بولس الرسول: "كل ما هو حق، كل ما هو جليل، كل ما هو عادل، كل ما هو طاهر، كل ما هو مسر، كل ما صيته حسن، إن كانت فضيلة، وإن كان مدح، ففي هذه افتكروا" (في٤:٨).

فنحن نستطيع أن نجتاز الكثير من صراعاتنا النفسية بسلام، لو استطعنا إخضاع فكرنا لله "مستأسرين كل فكر إلى طاعة المسيح" (٢كو١٠:٥)، لأن إخضاع الفكر، فيه إخضاع "الأنا" (الذات) التي إن لم تتضع، قد تسبب مشاكل كثيرة لصاحبها: "ألستم تعلمون أن الذي تقدمون ذواتكم له عبيدًا للطاعة، أنتم عبيد للذي تطيعونه، إما للخطية للموت أو للطاعة للبر" (رو٦:١٦).

فالله يدعونا لأن نتدرب على "**تواضع الفكر**" (Ταπεινοφροσύνης) الأمر الذي قد يكون مؤلمًا للذات والكبرياء، فالكنيسة في بدء كل يوم (في صلاة باكر من "الأجبية") رتبت أن يصلى فصل من رسالة بولس الرسول (وهو الفصل الوحيد الذي يقرأ في صلوات السواعي "الأجبية" كلها) يتكلم عن سلوك المؤمن ودعوته لكي يسلك فيها بقية اليوم حيث يوصينا معلمنا بولس الرسول قائلا: "فأطلب إليكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا كما يحق للدعوة التي دعيتم بها، بكل تواضع (تواضع الفكر)، ووداعة، وبطول أناة..." (أف٤:١،٢).

ولقد قال عالم النفس الشهير "سيجموند فرويد" في أحد مؤلفاته[49] "ليست الأنا (ego) دومًا هي السيد حتى في منزلها"، فنحن نخضعها لله في المسيح، من خلال اتحادنا بفكر المسيح: "فليكن فيكم

[49] Sigmund Frued, *A Difficulty In The Path Of Psychoanalysis.*

هذا الفكر الذي في المسيح يسوع" (في٢:٥)، عارفين مشيئته بدون تخبط أو تشويش، "من أجل ذلك لا تكونوا أغبياء، بل فاهمين ما هي مشيئة الرب" (أف٥:١٧). ومتممين قصده بتلقائية وسلاسة، بدون نزاع أو تغصب أو تذمر: "من أجل ذلك نحن أيضًا منذ يوم سمعنا لم نزل مصلين وطالبين لأجلكم أن تمتلئوا من معرفة مشيئته، في كل حكمة وفهم روحي" (كو١:٩).

وعملية تجديد الذهن بشكل عام تجعل الإنسان ينمو في معرفة الله، إنها عملية تعليم مستمر مدى الحياة: "أعطاني السيد الرب لسان المتعلمين، لأعرف أن أغيث المُعييَ بكلمة، يوقظ كل صباح لي أذنًا، لأسمع كالمتعلمين" (إش٥٠:٤) بل هي الحياة نفسها، كما قال عالم النفس والفيلسوف الأمريكي "جون ديوي" (١٨٥٩-١٩٥٢): "التعليم هو عملية (process)، التعليم هو نمو، التعليم ليس هو إعداد للحياة، بل هو الحياة عينها"!

والحقيقة أن المواظبة على التناول تساعدنا على فهم كلمة الله الأمر الذي يحفظنا من تأخر نمو عقلنا الروحي، إذا جاز التعبير (بعض الأشخاص قد يكونون نوابغ وعمالقة في دراستهم وتخصصهم، ولكن للأسف أقزام روحيًا). فالله لا يريد أن نكون متأخرين أو معاقين روحيًا (spiritually retarded). لذلك ينبغي أن نسأل من الله في صلاتنا أن ينعم علينا بذهن وفهم متجدد "فَهِّمني فأحيا" (مز١١٩:١٤٤) لكي نستطيع أن نستوعب الحقائق الإلهية.

ولقد كان القديس "مار يعقوب السروجي" مثالًا على ذلك؛ ففي أحد ميامره (قصائده)، شبه عمل الله في ذهن الإنسان وفكره، بحلول الرب على جبل سيناء في العهد القديم، فيقول: "الجبل الصخري الهائل الذي ارتعد أمام عظمتك وقوتك، وحملك مجازًا، حللت عليه وهو من صنعك. حل في عقلي، لأفهم أسرارك، فهو

يتلهف إليك، لا تشعر بك الأرض، فتحتضنك كما يحتضنك الفكر، ولا تستطيع الجبال أن تستقبلك، كما تستقبلك الأفكار! فالفكر أوسع من الجبل، الفكر أكثر رحابة من جبل سيناء، فلتحل عليه ليتصاعد منه صوت الشكر... ليحتويك فكري قدر المستطاع بدون تحديد (الله لا يحد)... انزل بالحقيقة على قمة العقل الذي ينتظرك[٥٠]".

عمل الروح القدس في الإفخارستيا

إن الله يدعو شعبه في كل إفخارستيا، ويعده للاشتراك في ذبيحته؛ ذبيحة العرس الذي في السماء: "قولوا للمدعوين هوذا غذائي أعددته، ثيراني ومسمناتي قد ذبحت، وكل شيء معد، تعالوا إلى العرس!" (مت٢٢:٤). وهذا هو ما يحدث في القداس بأكمله حيث يعد الله لنا ذبيحته الحقيقية، ويجدد تقديس "المدعوين" بالاشتراك فيها: "الرب قد أعد ذبيحة، قدس مدعويه" (صف١:٧).

والروح القدس له دور أساسي في القداس الإلهي، حيث يعد كُلًّا من الأسرار (الخبز والخمر قبل التحول) والشعب. ودور الروح القدس في الإفخارستيا نراه من البداية حين تصلي الكنيسة المزامير قبل بدء القداس مباشرة، وتطلب من الروح القدس، قائلة: "أيها الملك السماوي، المعزي، روح الحق، الحاضر في كل مكان، والمالئ الكل، كنز الصالحات، ومعطي الحياة، هلم تفضل وحل فينا، وطهرنا من كل دنس أيها الصالح وخلص نفوسنا[٥١،٥٢]". وهذا الإعداد

---

٥٠ المتروبوليت مار ملاطيوس برنابا، *مختارات من ميامر القديس مار يعقوب السروجي*، ص٣٣-٣٤.

٥١ صلوات الأجبية، قطع الساعة الثالثة، وقطع الخدمات الثلاث لصلاة نصف الليل.

٥٢ يلاحظ دائمًا أن الكاهن "الخديم" (الذي يقدم الذبيحة) هو الذي يصلي القطع الثلاثة الأولى من صلاة الساعة الثالثة، والتي فيها يطلب تجديد الروح القدس. فالكاهن يطلب أن يتجدد بالروح القدس قبل أن يقدم الذبيحة الإلهية، فتقديس الكاهن ضروري مثل تقديس الشعب والأسرار، ويتضح ذلك أيضًا من صلوات الإستعداد (يقولها الكاهن سرًّا) التي يصليها

والتقديس يتم من خلال كل صلوات القداس الإلهي، وقراءاته، التي هي ضرورية لتقديس القرابين والشعب.

ثم يستدعي الكاهن الروح القدس في صلاة "**الاستدعاء**" (Ἐπίκλησις) ليحل على الذبيحة وعلى الشعب، فيقول: "ليحل روحك القدوس علينا، وعلى هذه القرابين[٥٣]"، "أنت أرسل علينا نعمة روحك القدوس، لكي تطهر وتنقل هذه القرابين الموضوعة، إلى جسد و دم خلاصنا[٥٤]".

وهذا الإعداد الذي يتم للأسرار والشعب، يعلنه الكاهن في نهاية القداس حين يكتمل كل شيء فيقول: "القدسات للقديسين[٥٥،٥٦]"، أي أن **الخبز والخمر قد تقدسا بحلول الروح القدس عليها، والشعب قد تقدس هو أيضًا (صاروا قديسين) بفعل الروح القدس والصلوات** كما يقول القديس كيرلس الأورشليمي[٥٧]: "كل ما يلمسه الروح يتقدس ويتحول بالتأكيد[٥٨]". وبعد أن يتقدس الشعب يصبح مستعدًا لينال القدسات (جسد ودم المسيح)، فتصلي الكنيسة قائلة: "واحد هو الآب القدوس، واحد هو الابن القدوس، واحد هو الروح القدس[٥٩]".

الكاهن قبل البدء في القداس طالبًا فيه نعمة من الله لكي يستطيع أن يبدأ ويكمل هذه الخدمة المقدسة والمخوفة.

٥٣ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، صلاة استدعاء الروح القدس، ص ٢٣٢.

٥٤ المرجع نفسه، القداس الغريغوري، صلاة استدعاء الروح القدس، ص ٣٤٣.

٥٥ المرجع نفسه، القداس الباسيلي، صلوات ما قبل الاعتراف، ص ٢٧٥.

٥٦ يصف القديس إغناطيوس الأنطاكي المؤمن بأنه "حامل القدسات" (Ἁγιοφόρος).

٥٧ القديس "كيرلس الأورشليمي" ولد في بداية القرن الرابع، في أورشليم من أبوين تقيين مستقيمي الإيمان، رسم قسًّا عام٣٤٣م، ثم أوكل إليه تعليم الموعوظين. رسم أسقفًا على أورشليم عام ٣٥٠م، نفي عن كرسيه ثلاث مرات لسنين عديدة بسبب دفاعه عن الإيمان ضد الأريوسيين، حضر مجع القسطنطينية٣٨١م، وتنيح بسلام في عام٣٨٨م، من أشهر كتاباته: "مقالات لطالبي العماد"، "مقالات عن الأسرار للمعمدين حديثًا"، ومقالات وعظات أخرى. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، القديس كيرلس الأورشليمي، مرجع سابق، ص ٨-١٨.

٥٨ القديس كيرلس الأورشليمي، *في الأسرار*، المقال الرابع:٧.

٥٩ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، صلوات ما قبل الاعتراف، ص ٢٧٦.

وعلى ذلك يعلق أيضًا القديس "كيرلس الأورشليمي"، قائلًا: "القدسات للقديسين" إن القرابين المقدمة على الهيكل هي مقدسة بعد قبولها حلول الروح القدس عليها. كذلك أنتم قديسون، لأنكم استحققتم الروح القدس (أي حل عليكم الروح القدس). فالأشياء المقدسة تتصل بالأشخاص المقدسين، حينئذ نقول "واحد هو الآب القدوس، واحد هو الابن القدوس، واحد هو الروح القدس." واحد هو القدوس، واحد هو الرب يسوع المسيح، لأنه حقًا بالطبيعة قدوس. ونحن أيضًا قديسون، ليس بالطبيعة، لكن بالشركة والتكريس والصلاة[٦٠]."

إن الروح القدس ليس فقط يحول القرابين لتصير جسدًا ودمًا حقيقيًّا ليسوع المسيح، الأمر الذي لا يمكن فحصه أو إدراكه، بل هو أيضًا الذي يُظهِر للمؤمنين حقيقة هذه الأسرار السمائية بالإيمان في قلوبهم كما يقول معلمنا بولس الرسول "ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله، لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله" (١كو٢:١٢)، لذلك يصلي الكاهن قائلًا: "ليحل روحك القدوس علينا، وعلى هذه القرابين، الموضوعة ويطهرها وينقلها (يحولها)، **ويظهرها قدسًا لقديسيك**[٦١]." أي ليظهرها أمام المؤمنين على حقيقتها، أنها "أقداس". ويقول القديس كيرلس الأورشليمي: "تأمل الخبز والخمر لا في ماديتهما، لأنهما كما أوضح الرب، هما جسد المسيح ودمه، لأنه حتى ولو أوحت إليك الحواس بهذا، فدع الإيمان يؤسسك، لا تحكم على الأمر من التذوق، بل من الإيمان، وكن واثقًا دون شك أن الجسد والدم قد تنازلا لك[٦٢]."

---

[٦٠] القديس كيرلس الأورشليمي ، للقمص تادرس يعقوب ملطي، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

[٦١] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، صلاة استدعاء الروح القدس، ص ٢٣٢.

[٦٢] القديس كيرلس الأورشليمي، *في الأسرار*، المقال الرابع، ٦:١.

ألحان كنسية قديمة

"بشير اليوم المُجَنَّح[٦٣،٦٤]"

كمثل الطائر الذي يصدح، قبل أن يأخذ الفجر لونه الرمادي،
يسوع الذي يحضر نهار الروح، ينادينا هنا قريبًا (منا).
يقول: قم، انفض عن عينيك النعاس المظلم،
أيها العاقل الصديق، أسرع واستيقظ،
فهأنذا واقف على الباب،
إليك يا رب نرفع للعلا، صلاة متقدة وصرخة مُرة،
إن القلوب التي أنهضت للصلاة والتنهد،
لن تنام بعد بل اسحق نوم الموت والزمن،
الذي صنعته جريمة آدم القديمة (الخطية)،
ونور عدن الأولى، أعده للعالم ثانية.
أيها الآب، والابن، والروح القدس،
الثالوث في واحد، والواحد في ثالوث،
لأنه يليق بك المجد، الآن وإلى الدهور.

---

63 Daniel Liderboch (fr.),op. cit., p.63.

٦٤ هذه القصيدة "بشير اليوم المُجَنَّحْ" (Ales diei nuntius) هي إحدى قصائد الشاعر "برودنتيوس" (٣٤٨-٤١٣م)، وهو شاعر أسباني وأديب ومؤلف ألحان، بالإضافة إلى مهنته الأصلية وهي المحاماه، كتب عدة ترانيم أثناء فترة تقاعده للرد على بعض الهرطقات كالأريوسية والسابيلية، ويتسم شعره بالغزارة والتنوع، انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ٢٠٠٩، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس يوحنا ذهبي الفم[٦٥]

صلاة النشيد الشيروبيمي (الدخول الكبير)

الكاهن (افشين الشيروبيكون): ليس أحد من المقيدين بالشهوات والملاذ الجسدية أهلاً لأن يتقدم إليك، أو يدنو منك، أو يخدمك يا ملك المجد. فإن خدمتك عظيمة ورهيبة، حتى لدى القوات السماوية. لكنك لمحبتك للبشر التي لا توصف ولا تقدر، قد صرت إنسانًا ولم يلحق بك تغيير ولا تحول، ومُسحت رئيس كهنتنا. وبما أنك سيد الجميع، قد سلمت إلينا خدمة هذه الذبيحة الكهنوتية غير الدموية. فإنك أنت وحدك أيها الرب إلهنا تسود ما في السماء وما على الأرض، أيها المستوي على العرش الشيروبيمي، يا رب السيرافيم وملك إسرائيل. أيها القدوس المستريح في المقادس وحدك. إليك أتضرع أيها الصالح السميع وحدك، فإنظر إلىّ أنا عبدك الخاطىء البطال، وطهر نفسي وقلبي من كل نية شريرة. وبقدرة روحك القدوس إجعلني أنا اللابس نعمة الكهنوت، جديرًا بأن أقف لدى مائدتك هذه المقدسة، وأقرب جسدك المقدس الطاهر، ودمك الكريم... فإنك أنت المُقَرَبُ، والمُقرِبْ، والقابل، والموزع أيها المسيح إلهنا. وإليك نرفع المجد، وإلى أبيك الأزلي، وروحك القدوس الصالح والمحيي، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين.

الشعب (لحن الشيروبيكون): أيها الممثلون الشيروبيم سريًا، والمرنمون للثالوث المحيي بالنشيد المثلث التقديس، فلنطرح عنا كل اهتمام دنيوي لنستقبل المسيح ملك الكل.

---

[٦٥] انظر الحاشية ص ٣٢.

الفصل العاشر

الإفخارستيا
حياة أبدية

الإفخارستيا حياة أبدية

الله خلق الإنسان لكي تكون له حياة أبدية مع الله. تدبير الله الخلاصي يهدف إلى بلوغ الإنسان إلى الحياة الأبدية التي خُلِق لأجلها. الحياة الأبدية تبدأ من الآن. الإفخارستيا هي دواء عدم الموت، وعدم الفساد (ترياق الأبدية). الإفخارستيا تذوق لعربون الملكوت. آلامنا على الأرض تحضرنا للأبدية في السماء. طقس الكنيسة يشير دائمًا للأبدية.

قصة

أثناء الحرب العالمية الثانية، اعتُقل الطبيب النفسي اليهودي "فيكتور فرانكل" مع أفراد أسرته (أبويه وزوجته وأولاده)، وتم فصله عن أسرته في أحد معسكرات الاعتقال النازية. وكانت هذه هي آخر مرة يراهم فيها، ليعلم فيما بعد أن جميع أفراد أسرته قد لقوا حتفهم في المحارق. أمضى فيكتور فرانكل شهورًا طويلة في المعتقل يعمل في مناجم للفحم، في ظل ظروفٍ قاسية، ويلقى معاملة غير آدمية، هو وغيره من المعتقلين.

وكان فيكتور فرانكل قوي الملاحظة، حيث لاحظ أن الأسرى الذين معه في المعتقل، ينقسمون لفريقين: الفريق الأول كانوا يائيسين من الحياة وفي اكتئابٍ شديد، وصحتهم الجسدية سيئة جدًّا. لدرجة أن كثيرين منهم كانوا يموتون من الإعياء والإرهاق الشديد! والبعض كانت تنهار قواهم ومناعتهم بسهولة أمام الأمراض والأوبئة المنتشرة. مما كان يدفع بالبعض أحيانًا للإقدام على الانتحار أملًا في التخلص من الجحيم، الذي كانوا يعيشون فيه كل يوم!

لكن حتى الانتحار لم يكن سهلًا في تلك المعتقلات، بل كان على العكس، أمرًا في غاية الصعوبة، لأن فشل محاولة الإنتحار، كان يعني تعرض الشخص ومن كان يساعده للتعذيب عقابًا

لهم! ولم تكن هناك سوى وسيلة وحيدة، لتحقيق ذلك الأمر؛ وهي من خلال الإمساك بالسور المكهرب الذي كان يحيط بالسجن، حتى الموت! حتى إنه إنتشر بين الأسرى مصطلح "السير نحو السور" كمرادف للرغبة في الإنتحار!

أما الفريق الثاني فقد لاحظ فيكتور فرانكل أنه مع كل تلك الظروف القاسية، التي يعاني منها الجميع، كان هناك آخرون تمكنوا من البقاء على الحياة، والتماسك والتعامل مع الظروف رغم صعوبتها. الأمر الذي مكنهم من تقديم يد العون والمساعدة للآخرين، لدرجة أن بعضهم كان يضحي بحياته إذا لزم الأمر، لأجل الآخرين!

توصل فيكتور فرانكل بعد شهور عديدة من الملاحظة، إلى أن الفرق الوحيد بين الفريقين، كان يكمن في أن البعض قد اختار معنى وهدفًا لحياتهم، يحيون ويناضلون من أجله، بالرغم من كل الظروف! بينما البعض الآخر كان يرى أن كل ما يدور حولهم، ويحدث لهم هو بلا معنى، وأن وجودهم في الأساس لا قيمة له.

فقرر فيكتور فرانكل أن يختار لنفسه معنى وهدفًا يعيش من أجله في المعتقل. وكان هذا الهدف هو تسجيل ملاحظاته ونشرها في كتاب عندما تنتهي الحرب؛ فأخذ يدون ملاحظاته بقطعة من الفحم، وكتبها على قصاصات ورقية، وقام بإخفائها من خلال دفنها تحت شجرة! ومرت أشهر كثيرة، وبالفعل انتهت الحرب، وخرج من المعتقل، وتعمد ليصير مسيحيًّا، وقام بنشر كتابه الشهير "بحث الإنسان عن معنى" (Man's Search For Meaning)، الذي سجل فيه خبرته في معتقلات النازية. ولاقى نجاحًا باهرًا في ذلك الوقت. ليصير بعد ذلك رائدًا ومؤسسًا لأحد أساليب العلاج النفسي، وهو "العلاج بالمعنى" (Logo Therapy)، الذي يتم من خلال اختيار الشخص لهدف، أو معنى يعيش من أجله.

المسيح الحياة

توجد كلمات في اللغة اليونانية تستخدم للتعبير عن الحياة، وإحدى هذه الكلمات هي "بايوس" (βίος - Bios)[1] وتعني الحياة الجسدية أو الحيوية. وتوجد كلمة أخرى هي "زوئي"، (Ζωή - Zoe) وهي تعني الحياة الأبدية، أو الروحية. وهي الكلمة الأكثر استخدامًا في العهد الجديد[2]، للتعبير عن الحياة، وبالأخص في إنجيل يوحنا.

وقد وصف إشعياء النبي الله في سفره بأنه "أب الأبدية" (إش٩:٦ سبعينية) أي مُبدئها. كما نجد أيضًا أن السيد المسيح كثيرًا ما علم بأنه هو "الحياة الأبدية"، مدخلًا البعد الأبدي (الأخروي) في كل ما نفعله في حياتنا. فصار لنا جسده "خبز حياة" (يو٦:٣٥)، وروحه "ماءً حيًّا" (يو٤:١٠)، أي خبز وماء يعطي الحياة الأبدية. لقد أتى المسيح ليمنحنا الحياة الأبدية "في ذاته"، لذلك يكتب القديس يوحنا في رسالته الأولى قائلًا: "الله أعطانا الحياة الأبدية، وهذه الحياة هي في ابنه" (١يو٥:١١).

والحياة الأبدية بالنسبة لنا هي الغاية العليا، بدونها نفقد الاتجاه، ونضل الطريق. فبدونها تصبح الحياة مجرد فترة زمنية بلا معنى ولا هدف. وتنحصر أهمية الأشياء في قيمتها المادية والوقتية. لذلك يقول سليمان في سفر "الجامعة" الذي جمع فيه حقًّا خلاصة الحكمة: "جعل الأبدية في قلبهم، التي بلاها لا يدرك الإنسان العمل الذي يعمله الله من البداية إلى النهاية" (جا٣:١١).

إن حقيقة وجود الأبدية تجيب عن السؤال الذي شغل بال البشرية والفلاسفة أمثال الفيلسوف الشهير "أرسطو"[3]، وهو ما الهدف النهائي

---

[1] كلمة "بايوس" اشتقت منها كلمة "بايولوجي"، أي علم الأحياء.

[2] كما ترد كثيرًا في ألحان الكنيسة ذات الأصل اليوناني.

[3] افترض "أرسطو" (٣٨٤ق.م-٣٢٢ق.م) في مؤلفه الشهير "النفس" (On The Soul) أن الأشياء لها أربع خصائص أو أسباب (عِلَل):

من كل شيء؟ إن الأبدية هي إجابة هذا السؤال، كما يقول الفيلسوف الألماني "سبينوزا" (القرن السابع عشر) "من خلال الأبدية فقط أستطيع فهم الهدف من الوجود."

إن هدف الله من خلقه للبشرية، هو أن يشترك الإنسان في الأبدية: "لأنه إنما خلق الجميع للبقاء" (الحكمة١:١٤)، لذلك الغاية من خلاصنا هو اقتناء الحياة الأبدية: "يخلصني لملكوته السماوي" (٢تي٤:١٨)، وما نسعى إليه في كرازتنا للآخرين، هو أن يكون لهم (للآخرين) أيضًا حياة أبدية معنا، في المسيح "الذي رأيناه وسمعناه، نخبركم به، لكي يكون لكم أيضًا شركة معنا" (١يو١:٣).

والمسيح هو مصدر الحياة، بل هو **الحياة عينها** (αὐτοζωὴ). فهو لم يأت ليعطينا مجرد حياة عادية، بل أتى ليعطي حياة جديدة؛ حياة أبدية، لكل من يسأله: "حياة سألك فأعطيته" (مز٢١:٤)، ويبحث عنه: "من يجدني يجد الحياة" (أم٨:٣٥). ليصير بذلك سر حياة المؤمنين والكنيسة: "لأننا به نحيا، ونتحرك، ونوجد" (أع١٧:٢٨).

إن الله في الكتاب المقدس كله يعلن أنه هو حياتنا: "**لأنه هو حياتك**" (تث٣٠:٢٠)، لذلك نقول في القداس الإلهي أيضًا: "لأنك أنت هو حياتنا كلنا"[٤]. ويوضح لنا القديس بولس الرسول أيضًا أننا "نخلص بحياته" (رو٥:١٠). ويقول القديس والشهيد كبريانوس: "افتح نفسك أمامه الآن، هذا الذي هو أبوك وخالقك، وكن مستعدًّا لتنال

١- "الجوهر" (Material cause) ويختص بجوهر الشيء

٢- "العرض" أو الهيئة الخارجية (Formal cause) ويختص بهيئة الشيء أو شكله الخارجي الظاهر

٣- "الأصل" (Efficient cause) ويختص بمن أوجد الشيء أو من المتسبب فيه

٤- "الهدف النهائي" (Final "Telos" cause) ويختص بالهدف الذي لأجله وجد هذا الشيء

[٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية الإنجيل، ص ٨١.

الحياة الجديدة، وتمتلئ بها، لأن هذه (الحياة الجديدة) هي الله نفسه."

لقد جاء المسيح ليرفع الإنسان من الحياة العادية الفانية إلى **حياة أفضل وأوفر**، بل وليس أفضل فقط، بل أتى ليمنحنا ما هو أوفر، وأغزر؛ ملء الحياة فيه "أتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل (أوفر، غزارة"Περισσόν") (يو١٠:١٠)، وذلك حينما يشترك الإنسان في حياة الله. ويعلق على ذلك القديس كيرلس الكبير[٥]، قائلًا: "عندما نأكل الجسد المقدس الذي للمسيح مخلصنا جميعًا، ونشرب دمه الثمين، تكون لنا حياة فينا، بكوننا جُعلنا واحدًا معه، كائنين فيه ومقتنين له أيضًا فينا... إن جاز القول يمتزج بأجسادنا بواسطة جسده المقدس ودمه الثمين، اللذين نقتنيهما أيضًا كإفخارستيا مُعطية للحياة، في هيئة الخبز والخمر... فإن الله إذ وضع (أنزل) ذاته إلى مستوى ضعفاتنا، فإنه يسكب في الأشياء

---

[٥] القديس كيرلس الكبير "عمود الإيمان" (عمود الدين) (٣٧٥-٤٤٤م) ولد القديس كيرلس في الأسكندرية وتتلمذ على كتابات أسلافه من البطاركة أمثال خاله البابا ثيؤفيلس البطريرك الثالث والعشرون من بطاركة الإسكندرية، وكتابات البابا أثناسيوس الرسولي، حتى لقبه البعض بأنه "الناسخ الجيد لكتابات القديس أثناسيوس." أقيم بطريركًا خلفًا لخاله البطريرك ثيؤفيلس عام ٤١٢م، دعا لإنعقاد المجمع المسكوني الثالث "مجمع أفسس" (٤٣١م) الذي ترأسه، وقاوم فيه بدعة نسطور، وأمر بعزله عن كرسيه وقطعه من شركة الكنيسة، وتحريم تعاليمه، وأقر المجمع قانون إيمان نيقية، مع التأكيد على لقب "والدة الإله" للسيدة العذراء، وتعد الصياغة اللاهوتية للقديس كيرلس حول طبيعة المسيح من الصياغات الهامة في الحوارات المسكونية: "طبيعة واحدة متجسدة لله الكلمة"، وقد قام القديس كيرلس الكبير بإعادة القديس يوحنا ذهبي الفم إلى شركة الكنيسة مضيفًا اسمه إلى "الذبتيخا" (ألواح كانت تحفظ في هيكل الكنيسة قديمًا عليها أسماء البطاركة التي تعترف بهم الكنيسة) ومن هذا الوقت واسم القديس يوحنا ذهبي الفم يذكر في صلوات الإفخارستيا في الطقس الإسكندري، قام القديس كيرلس بكتابة مؤلفات عديدة عقيدية وتفسيرية للكتاب المقدس منها: "جلافيرا" وتعني (اللامع) وتشمل تعليقات على أسفار موسى الخمسة، تفسير إنجيل متى، لوقا، ويوحنا، "العبادة والسجود لله بالروح والحق"، "الكنوز في الثالوث"، "الحرومات الإثني عشر"، هذا بجانب رسائله الفصحية، ورسائله إلى نسطور ويوحنا الأنطاكي، وغيرها من المؤلفات، كما قام القديس كيرلس بترجمة قداس القديس مرقص من اللغة اليونانية إلى القبطية وتنظيم بعض الصلوات فيه، فيما يعرف حاليًا في الكنيسة القبطية بالقداس "الكيرلسي" انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي، نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ٩٤- ١٠٩.

الموضوعة أمامنا قوة الحياة، ويحولها إلى فاعلية جسده، لكيما نأخذها لشركة معطية للحياة، وكي يوجد فينا جسد ذاك الذي هو الحياة، كبذرة تنتج حياة. لا تشك في أن هذا حقيقي، حيث إنه هو قال بوضوح: "هذا هو جسدي، هذا هو دمي"، بل بالحري اقبل كلمة المخلص بإيمان، لأنه هو لكونه الحق، فلا يمكنه أن يكذب، وهكذا سوف تكرمه[٦]".

خلق الإنسان

إن الله لم يخلق الموت، ولا الفساد، ولا المرض، بل خلق كل شيء حسنًا: "صنع الكل حسنًا في وقته" (جا٣:١١)، بل في الحقيقة كم قال الله في سفر التكوين: "حسن جدًّا" (تك١:٣١)! لقد خلق الله الإنسان من العدم: "creatio ex-nihilo" (الإنسان من جهة الطبيعة مائت، لأنه مخلوق من العدم) "انظر يا ولدي إلى السماء والأرض وكل ما فيهما، واعلم أن الله خلق كل شيء من العدم، وكذلك الجنس البشري" (مكابيين الثاني٧:٢٨)، كما يتضح أيضًا في صلواتنا حيث نقول: "الذي من أجل الصلاح وحده، مما لم يكن كونت الإنسان[٧]".

ولقد ميز الله الإنسان بأن جعله هو الوحيد الذي على صورته في بعض الأمور (القياس مع الفارق)؛ كالعقل (الإنسان مخلوق عاقل)، وحرية الإرادة (الإنسان حر الإرادة)..إلخ. ووهب الإنسان نعمة الحياة التي تتمثل في إمكانية (قابلية) الإنسان للحياة أو الموت، وهذه النعمة منحها الله للإنسان بحرية إرادته وبسبب صلاحه، أما الإنسان فله الحرية أيضًا في الحفاظ على هذه النعمة (هبة الحياة) أو رفضها.

والإنسان مدعو لكي يحيا مع الله حياة أبدية في قداسة وطاعة

---

[٦] القديس كيرلس الكبير، تفسير إنجيل لوقا الإصحاح الثاني والعشرون، مرجع سابق، العظة المائة والثانية والأربعون.

[٧] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، صلاة الصلح للابن، ص ٣١٦.

اختيارية وشركة محبة تقربه من الله "الخلود يقرب الإنسان من الله" (الحكمة٦:١٩). وهذه الطاعة الاختيارية تتمثل في قبول الإنسان وطاعته لوصايا الله، التي منحه إياها لنصحه وإرشاده، حتى يستطيع الحفاظ على هذه النعمة الخاصة (نعمة الحياة) التي وهبه إياها، ويستثمرها وينميها على الوجه الأمثل "غاية (هدف) التأديب محبة الحكمة، والعمل بشرائعها، ومراعاتها مراعاة تؤمن الخلود" (الحكمة٦:١٨).

ووصايا الله تبقى مقدسة وصالحة، لحياة لمؤمنين في كل الأجيال بشهادة معلمنا بولس الرسول القائل: "الناموس (العهد القديم) مقدس، والوصية مقدسة وعادلة، وصالحة" (رو٧:١٢). وبذلك نرى أن وصايا الله هي في الأساس للحفاظ على حياة الإنسان: "وصيته هي حياة أبدية" (يو١٢:٥٠)، ولتحذيره من المخاطر التي قد تؤدي لهلاكه. وليست لتقيده، أو للتسلط عليه كما يسيء البعض الفهم!

ويشرح القديس أثناسيوس الرسولي خلق الإنسان، ودور الوصية في الحفاظ عليه بقوله: "ولكن لعلمه أيضًا، أن إرادة البشر، يمكن أن تميل إلى أحد الاتجاهين، الخير أو الشر (حالة الإنسان قبل السقوط). سبق فأمن النعمة المعطاة لهم بوصية، ومكان؛ فأدخلهم فردوسه، وأعطاهم وصية، حتى إذا حافظوا على النعمة واستمروا صالحين، فإنهم سيعيشون في الفردوس بغير حزنٍ، ولا ألمٍ، ولا همٍّ، بالإضافة إلى وعدٍ بالخلود في السماء. أما إذا تعدوا الوصية، وارتدوا (عن الخير) وصاروا أشرارًا، فليعلموا أنهم سيجلبون الموت على أنفسهم، حسب طبيعتهم (كنتيجة طبيعية)، ولن يحيوا بعد في الفردوس، بل يموتون خارجه، ويبقون إلى الأبد في الفساد والموت. وهذا ما سبق وحذرنا منه الكتاب المقدس بفم الله قائلًا: "من جميع شجر الجنة تأكل أكلًا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل

منها، موتًا تموت" (تك٢:١٦،١٧). فموتًا تموت، لا تعني بالقطع مجرد الموت فقط، بل البقاء في فساد الموت، إلى الأبد[٨]."

ويشدد القديس مقاريوس الكبير في إحدى عظاته على أهمية عامل "**الإرادة الحرة**" للإنسان التي تجعل له دورًا أساسيًا في صنع مصيره. فالإنسان حر؛ إما أن يتجاوب ويتفاعل مع عمل الله، أو يرفضه، فيقول: "إن إرادة الإنسان هي مثل أداة في طبيعة الإنسان. فحينما لا تكون الإرادة حاضرة، فإن الله نفسه لا يفعل شيئًا، رغم أنه يستطيع أن يفعل! وذلك بسبب حرية إرادة الإنسان، ومن الجهة الأخرى؛ إذا كنا نعطي ونقدم له كل إرادتنا، فإنه ينسب كل العمل إلينا. عجيب هو الله في كل الأشياء، وهو فائق جدًا فوق كل إدراكنا[٩،١٠]."

لقد خلق الله الإنسان وأعطاه وعد الحياة الأبدية والخلود إذا أبقى الإنسان الله في معرفته محافظًا على التأمل في الإلهيات. لكن الإنسان خالف الله وسقط، فصار مُعرضًا للعودة إلى حالته الأولى التي خلق منها وهي "العدم"؛ "الله خلق الإنسان لعدم الفساد، وجعله على صورة أزليته، لكن بحسد إبليس، دخل الموت إلى العالم" (الحكمة٢: ٢٣،٢٤)، وهذا هو ما تصليه الكنيسة في القداس قائلة: "يا الله العظيم الأبدي، الذي جبل الإنسان على غير فساد، والموت الذي دخل إلى العالم، بحسد إبليس هدمته[١١]."

---

[٨] القديس أثناسيوس الرسولي، تجسد الكلمة، مرجع سابق، ٣: ٤،٥.

[٩] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، عظة ٣٧: ١٠.

[١٠] المقصود بالإرادة هنا؛ هي الإرادة في اختيار تبعية الرب من الأساس، حيث يدعو الله الجميع للخلاص والحياة، ولكنه لا يقتحم أحدًا، بل يحترم حرية الإرادة التي أوجدها في الإنسان. فيصبح الإنسان حرًا في اختيار الله أو رفضه. وهذه الإرادة التي لا يتدخل الله فيها، تختلف عن إرادة الإنسان الذي سبق واختار تبعية الله، لكن إرادته في الأعمال الصالحة تقوى وتضعف في خلال مسيرته مع الله. هنا يساعد الله الإنسان بأن يقوي إرادته، أو حتى يخلق فيه إرادة جديدة، لإكمال تلك الأعمال التي سبق وأعدها الله ليسلك فيها الإنسان: "لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا، وتعملوا من أجل المسرة" (في٢: ١٣).

[١١] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، صلاة الصلح، ص ٢٠٩.

لقد دخل الفساد إلى الإنسان بحرية إرادة منه (من الإنسان)، ويشرح القديس "ثيؤفيلس الأنطاكي" (القرن الثاني) هذه الحقيقة قائلًا: "من الممكن أن يقول أحد لنا، أ لم يكن الموت بسبب الطبيعة الإنسانية، لا أبدًا ! هل كان الإنسان خالد؟ لا نستطيع أن نقول ذلك أيضًا... إن الإنسان بالطبيعة لم يكن بائدًا (فانيًا)، أكثر من أنه خالدًا، لأنه لو خُلق الإنسان منذ البدء أبديًّا، لكان خُلق إلهًا. ومن جهة أخرى لو أنه خُلق فانيًا، لتبين أن الله هو سبب الموت. لذلك لم يخُلق الإنسان فانيًا أو خالدًا؛ بل هو قابل للموت وعدم الموت. لو أنه اختار طريق عدم الموت، باتباعه الوصية الإلهية، لكان ربح عدم الموت. ومن ثم لكان استأهل أن يكون مثل الرب. ولكن بما أن الإنسان تحول إلى أعمال الموت، بعدم طاعته للرب، فقد أصبح (الإنسان) هو سبب موته. وبذلك خلق الله الإنسان حرًّا، وسيدًا على مصيره[١٢]".

وفي موضع آخر يقول أيضًا القديس ثيؤفيلس الأنطاكي: "أقيم (خلق) الإنسان في وضع متوسط، فهو ليس كليًّا مائتًا، وليس كليًّا غير مائت، ولكنه قابل للاثنين[١٣]." وهكذا خُلق الإنسان ليختار: "الرب خلق الإنسان في البدء، وتركه حرًا في إختياره" (يشوع بن سيراخ١٤:١٥)، أي حرًا ليختار بين الحياة والموت "أمام الإنسان الحياة والموت، وأيهما يختار يعطى له" (يشوع بن سيراخ١٤:١٧). لقد أساء آدم استخدام حريته، فاختار الانفصال عن الله، الذي هو مصدر الحياة والصلاح، فمات وفسد (دخل الفساد طبيعته)، **فالسقوط هو أكثر من مجرد كسر وصية، إنه موت!** وهذا هو ما تعبر عنه الكنيسة في القداس الإلهي قائلة: "أنا اختطفت لي قضية الموت[١٤]".

لقد أصبح الإنسان بعد السقوط يجهل الله، وصار متغربًا عن

---

[١٢] *القديس ثيؤفيلس الأنطاكي إلى أوتوليكوس*، II، ٢٤-٢٧.

[١٣] المرجع نفسه، I، ٢٤.

[١٤] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٢.

الحياة التي في الله: "إذ هم مظلمو الفكر، ومتجنبون عن حياة الله لسبب الجهل الذي فيهم بسبب غلاظة قلوبهم" (أف٤:١٨). لقد خلق الله الإنسان حرًا (قبل السقوط) لكن بعد السقوط صار الإنسان مقيدًا بشتى أنواع القيود، كقول الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" (القرن الثامن عشر)[١٥]: "خُلق الإنسان حرًا، لكنه في كل مكان مقيد"!

الإفخارستيا والانتصار على الموت

حدث في أيام داود النبي والملك أنه أخطأ وجلب الموت على الكثيرين وكاد يتسبب في هلاك الباقين من الشعب. وذلك حين قام بتعداد سكاني ليفتخر بكثرة عدد الشعب، فضرب الله الشعب بوباء قضى في يوم واحدٍ، من الصباح حتى المساء (وقت العشاء) على آلاف من الشعب، إلى أن قام داود ببناء مذبح في حقل "أرنان اليبوسي[١٦]" الذي اشتراه منه، وقدم هناك لله ذبيحة. ليكف بعدها الوباء والموت عن الشعب (٢صم:٢٤).

إن هذه الحادثة تذكرنا بالموت الذي ساد البشرية بسبب خطيئة إنسان واحد "آدم" وغفران الله الذي تم في المسيح، لأن الابن جاء واتحد بطبيعتنا، فزال عنها الفساد، ومات لأجلنا كذبيحة، ولم يستطع الموت أن يغلبه، بل داس الموت بموته، ووهبنا الحياة والقيامة في ذاته. وهذه الذبيحة هي نفسها تلك التي نشترك فيها في كل إفخارستيا. ويربط القديس كيرلس الكبير بين حادثة داود وبين الإفخارستيا، فيقول: "وأطلق الرب الموت على إسرائيل، من باكر إلى ساعة العشاء" (٢صم٢٤:١٥سبعينية)، من باكر تشير إلى زمنٍ مبكر، أي منذ أول

---

[١٥] جان جاك روسو، *العقد الاجتماعي*.

[١٦] من الجدير بالذكر أن سليمان بن داود بعد ذلك بنى الهيكل في مكان حقل أرنان اليبوسي على جبل المُريا.

أزمنة الدهر الحاضر، والموت يسطو على العائشين على الأرض، حتى "ساعة العشاء" أي حتى موعد المائدة (الإفخارستيا)، فلما حضر إلينا موعد المائدة المقدسة، تلك المائدة السرية التي هي المسيح، التي منها نأكل الخبز المُحيي الذي من السماء، حينئذ أُبطل الموت، بتحنن من الله، الموت الذي كان في القديم رهيبًا ومرعبًا، وانكسر أخيرًا ذلك المهلك، لأن المسيح صار يسكن فينا، وهو نفسه الحياة ومعطي الحياة[١٧]".

فنحن بالاتحاد بالمخلص في الإفخارستيا نتحد بالجسد المحيي، ونائلين فيه الغلبة على الموت؛ إذ إنه في كل مرة نتناول من جسد الرب ودمه نموت عن خطايانا ونتخلص من الفساد، كما نصلي في القداس قائلين: "ولا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطية، ولا على كل شعبك[١٨]". إننا نقوم مع المسيح عابرين من الموت إلى الحياة الأبدية: "من يأكل جسدي ويشرب دمي، فله حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير" (يو٦:٥٤). ويؤكد على ذلك القديس كيرلس الكبير بقوله: "إن كانوا يريدون أن يصيروا فوق الفساد، وأن يخلعوا الموت الذي أصابنا بسبب المعصية، فعليهم أن يتقدموا إلى شركة القادر على الإحياء، وإبادة الفساد وهدم الموت، وذلك في الحقيقة هو عمل يليق به (بالمسيح) ويناسبه بالأكثر؛ إذ هو بالطبيعة الحياة[١٩]".

وأيضًا يشرح القديس أثر اتحادنا بجسد الرب المحيي في القضاء على الموت الفساد الذي ساد البشرية بالسقوط، فيقول: "لقد خلق الله كل شيء للخلود. ولكن الموت دخل إلى العالم بحسد إبليس. فقد دفع المُجرِّب الإنسان الأول للخطية والعصيان، وأوقعه تحت لعنة الله.

---

[١٧] القديس كيرلس الإسكندري، *السجود والعبادة بالروح والحق*، المقالة الثالثة.

[١٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية السلام الكبرى، ص ١٧٩.

[١٩] القديس كيرلس الإسكندري، شرح إنجيل يوحنا، مرجع سابق، الإصحاح السادس، الكتاب الرابع، الفصل الثاني.

فكيف يمكن للإنسان الذي صار تحت سلطان الموت أن يستعيد الخلود؟ كان لابد أن يدخل جسده الميت في شركة قوة الله المحيية. أما قوة الله المحيية فهي اللوغس. لذلك فقد صار اللوغس إنسانًا، واتحد بجسد قابل للموت، وأعطاه مناعة ضد الفساد، وجعله جسدًا مُحييًا. لكن كان ينبغي أن يحل فينا، روحيًا، بواسطة الروح القدس. كما يمتزج أيضًا بطريقة ما بأجسادنا، بواسطة جسده المقدس ودمه الكريم[٢٠]".

وقد أجمع كل آباء الكنيسة على حقيقة أن المسيح قد جاء ليهب الإنسان حياة أبدية فنجد مثلًا القديس "كليمندس السكندري" (القرن الثاني) يقول: "أصغوا إلى المخلص القائل: أنا جددتكم أنتم الذين كنتم قد ولدتم في العالم للموت. أنا أطلقتكم أحرارًا، أنا شفيتكم، أنا فديتكم، وسوف أعطيكم حياة لا تنتهي، حياة أبدية، حياة فائقة للطبيعة، سوف أريكم وجه الله الآب الصالح[٢١]". وفي موضع آخر يوضح أكثر قائلًا: "إنني أحضكم على الخلاص الذي يريده المسيح، وبكلمة واحدة فإنه يمنحكم الحياة، ومن هو؟ تعلموا باختصار: هو كلمة الحق، الخالي من الفساد، الذي يلد الإنسان بإرجاعه إلى الحق، إنه المُنبه الذي يقود إلى الخلاص، ويطرد الخراب، ويطارد الموت، ويشيد هيكلًا لله في الناس ليسكن فيهم[٢٢]".

كما أشار كثير من آباء الكنيسة إلى أن الإفخارستيا هي الوسيلة التي يمنحنا بها الله الحياة، ولعل من أبرز هولاء الآباء هو القديس كيرلس الكبير الذي دائمًا ما كان يربط تعاليمه بالإفخارستيا فيقول في إحدى عظاته: "هلم نذهب معه باشتياقٍ إلى

---

٢٠ تفسير لوقا 72 PG، 905 C، 912 A، 9:22، انظر العبادة بالروح القدس: PG68، 9، 612C، تفسير يوحنا PG73, 517D، 35:6، تجسد الابن الوحيد PG 75,1242D، ضد نسطور PG 76,201 A، الدفاع عن الحرم الحادي عشر PG 75, 375 A.

21 *Ouis Div. Salv.*23,1.

22 *Protrept.*11:117.

العشاء السري، اليوم المسيح يحتفي بنا، اليوم المسيح يخدمنا! المسيح محب البشر يريحنا! يا للسر الرهيب! يا للتدبير الذي لا يُنطق به! يا للتنازل الذي لا يُدرك! يا لرحمة أحشاء إلهنا التي لا تستقصى! الخالق يقدم نفسه لخليقته لتسعد به! الذي هو الحياة ذاتها يقدم نفسه للمائتين ليأكلوه ويشربوه! إنه يأمرهم: "هلموا كلوا خبزي، واشربوا خمري التي مزجتها لكم" (أم٩:٥)، كلوني أنا الحياة لتحيوا، لأني أريد ذلك. كلوا الحياة التي لا تزول، لأني لهذا أتيت لتكون لكم حياة، ويكون لكم أوفر (يو١٠:١٠)، كلوا الخبز الذي يجدد طبيعتكم، وإشربوا الخمر التي تعطي تهليل الخلود[٢٣]".

لذلك ينبغي علينا أن نطلب جسد الرب باجتهاد كالمريمات والتلاميذ الذين أتوا إلى القبر بأكفان وحنوط، ولكن لا لنحفظ جسد الرب من الفساد كما ظنوا هم؛ بل إن جسده الإلهي هو الذي يحفظنا من الموت والفساد. إن الإفخارستيا هي بمثابة "سترة النجاة" (life jacket) التي تنقذنا من الموت والفساد.

لذلك يقول بولس الرسول "البسوا الرب يسوع المسيح، ولا تصنعوا تدبيرًا للجسد لأجل الشهوات" (رو١٣:١٤). إن الإفخارستيا أيضًا تشبه "قُبلة الحياة" التي تصنع أحيانًا للشخص عند إسعافه لإنقاذه من الموت عند الاختناق، إننا كذلك في العالم نختنق بالخطايا والهموم المحيطة بنا، إلى أن نأتي للقداس الإلهي، لنتنفس الأبدية والحياة.

التبني للآب هو الطريق إلى الأبدية

يرسم لنا الكتاب المقدس في سفر التكوين صورة مبكرة لخلاص البشرية، وذلك حين افتقد الله إبراهيم وسارة العاقرين لعقود طويلة بحسب قول الكتاب؛ في وقت "زمان الحياة" (تك ١٨:١٤) بمولد إسحق ابن الموعد.

---

[٢٣] القديس كيرلس الإسكندري، *العظة العاشرة عن العشاء السري*.

إن زمان الحياة الحقيقي هو حينما افتقد الله خليقته التي أصبحت عاقرًا (بعد السقوط) عن الحياة والصلاح، حيث كل ما كانت البشرية تثمره بعد السقوط هو موت، لكن الله برحمته ومحبته للبشر، افتقدنا في ملء الزمان (زمان الحياة) بميلاد ابنه "يسوع المسيح" (ابن المواعيد والنبوات) من أم حرة (مثل سارة)، هي القديسة مريم العذراء. وهذا المولود من العذراء هو الذي نتناوله في الإفخارستيا، مما يجعل من الإفخارستيا بحق "زمان الحياة" (الأبدية).

لقد تجسد الابن الأزلي في ملء الزمان، ودخل بذلك حيز الزمن (صار زمنيًّا)، الأمر الذي يكتب عنه القديس "إغناطيوس الأنطاكي" (القرن الأول) في إحدى رسائله قائلًا: "كل سحر قوض، وقُطع رباط كل مكر، وتبدد الجهل، والمملكة القديمة دُكت، حين ظهر الله بصورة إنسان، لحياة جديدة أبدية، وما رسمه الله بدأ يتحقق (تدبير الله الخلاصي)... والقضاء على الموت بات وشيكًا[٢٤]".

لقد تجسد المسيح لكي يقضي على الموت، ويرفع الإنسان (الطبيعة البشرية) المائت والفاني، فوق الزمن، ويدخله الأبدية والسماء، مانحًا له إمكانية الحياة الأبدية، التي سبق وفقدها؛ إذ إنه محب للبشر، ومحب للحياة: "أيها السيد الرب المحب للحياة" (الحكمة ١١:٢٦). فوعد الحياة الأبدية الذي سُلب من الإنسان بمكرٍ وخديعة، رده إليه الإله المتجسد، بتدبير مُحكم (Οἰκονομία) "إيكونوميا"، فائق للوصف، يستحق منا الشكر والتمجيد على الدوام: "المجد لتدبيرك (إيكونوميا) يا محب البشر وحدك[٢٥]". لذلك لا تخلو أي إفخارستيا (سر الشكر) من ذكر لتدبير الله الخلاصي لأجلنا؛ بدء من خلق الإنسان ومرور بالسقوط، ووعد الله

---

[٢٤] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أفسس ١٩:٣.

[٢٥] لحن "توليثو ⲧⲟⲩ ⲁⲓⲑⲟⲩⲥ" من ألحان دورة القيامة.

للإنسان بالخلاص[٢٦]، وإعطاء الناموس، وإرسال الأنبياء، ثم تجسد المسيح في ملء الزمان، وصلبه، وقيامته، وصعوده، ومجيئه الثاني الذي ننتظره، إذ أنه بواسطة الإفخارستيا ننال كل مفاعيل تدبير الخلاص الذي تممه المسيح لأجلنا، وننال ميراث ملكوت السموات.

لقد أتى المسيح لكي يصحح المسار الذي كان منحدرًا نحو الموت والهلاك (بعد السقوط)، ويردنا إلى مسارنا الأول؛ إلى فوق، صوب الله والأبدية. لقد أتى المسيح ليردنا إلى "الحالة الفردوسية الأولى"، بحكمة ومشورة، وتدبير أزلي. فعوضًا عن الطبيعة الأولى التي فسدت، خلق الله للإنسان "**طبيعة جديدة ثانية**"، أفضل من الأولى، طبيعة تليق بالخلود والأبدية، وذلك حين بارك طبيعتنا البشرية فيه بتجسده، كما نقول في القداس الإلهي: "باركت طبيعتي فيك[٢٧]".

وعن ذلك يقول القديس كيرلس الكبير "لما تجسد الكلمة ابن الله الوحيد، الذي هو الحياة بطبعه، أنبتت طبيعة الإنسان بواسطته إنباتًا جديدًا، نحو الحياة! لأنه هو صار لنا"متقدمًا في كل شيء"(كو١:١٨)، فهذه هي الغاية، التي لأجلها اقتنى كلمة الله المُحيي الجسد، المستهدف للموت، وجعله خاصًّا له، حتى إنه إذ يجعله غالبًا للموت والفساد، يبث فينا نحن أيضًا هذه النعمة بعينها. فكما أننا في آدم انطرحنا في الموت، هكذا في المسيح نطرح عنا طغيان الموت، ونتشكل بشكل الخلود[٢٨]".

وحيث إن كل نعمة ننالها "بالمسيح"، أي من خلال اتحادنا بالمسيح

---

[٢٦] من الجدير بالملاحظة أن أول آية في الكتاب المقدس تحمل في داخلها وعد ضمني من الله بخلاص الإنسان إذ أن الفعل المستخدم في الآية للتعبير عن "الخلق" في اللغة العبرية هو (Bara)، وهذا الفعل يستخدم في العبرية بمعنيين "خَلَق"، "خَلَص"، "في البدء خلق (خلص) الله السماوات والأرض" (تك١:١)، وهذا يدل أيضًا على أن خلق الإنسان هو جزء من تدبير الله الخلاصي الذي يكتمل في شخص المسيح، والخلاص هو عملية تجديد للخليقة (خليقة جديدة) في المسيح يسوع "لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع" (أف٢:١٠).

[٢٧] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٤.

[٢٨] القديس كيرلس الكبير، *الكتاب الثاني ضد ثيؤدور*:٣.

وليس بمعزل عنه بحسب قول القديس كيرلس الكبير: "كل ما في المسيح قد صار لنا أيضًا[٢٩]". فقد نلنا تلك الحياة الأبدية في هذا الاتحاد، الذي به صرنا متحدين بالابن (المسيح) الذي هو الحياة الأبدية عينها.

فنحن من خلال تجسد "الابن" نلنا نعمة التبني للآب، التي حتى آدم نفسه لم ينلها، ولكن نلناها نحن في العهد الجديد، والتي بواسطتها ننال كل المواعيد (كأبناء بالتبني)، فالمسيح صار أخًا بكرًا لنا، وصرنا نحن من خلاله أبناء وورثة لله: "ولكن لما جاء ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولودًا من إمرأة، مولودًا تحت الناموس، ليفتدي الذين تحت الناموس، لننال التبني (للآب)" (غل٤:٤،٥). **فكل ما صنعه المسيح لأجلنا بتجسده يصير لنا بالتبني** كما قال القديس كيرلس الكبير: "إن ما حدث للرب خاصة، صار ملكًا مشتركًا للطبيعة البشرية[٣٠]".

ويشرح القديس كيرلس الكبير أيضًا أن كل ما نناله في الإفخارستيا هو بسبب علاقتنا وشركتنا مع الثالوث: "كونه هو أيضًا يحل داخلنا بطريقة أخرى، بواسطة مشاركتنا في قربان التقدمات غير الدموية (الإفخارستيا). التي نحتفل بها في الكنائس... فكل نعمة، وكل موهبة تامة، تأتي إلينا من الآب، بالابن، في الروح القدس. وإذن فهذا العمل كان نموذجًا لنا، لكي نستخدمه في الصلاة التي ينبغي أن تُقدِّم، كلما بدأنا أن نضع أمامه نعمة "التقدمة السرية المحيية"، وتبعًا لذلك فإننا اعتدنا أن نفعل هذا، لأننا إذ نقدم أولًا تشكراتنا، مقدمين تسابيحنا لله الآب ومعه الابن والروح القدس، فإننا نقترب هكذا من الموائد المقدسة مؤمنين أن ننال حياة وبركة، روحيًّا وجسديًّا، لأننا نستقبل في داخلنا كلمة الآب، الذي صار

---

[٢٩] القديس كيرلس الكبير، *الكنوز في الثالوث*، PG 75.333.29.

[٣٠] القديس كيرلس الكبير، تفسير إنجيل يوحنا، مرجع سابق، PG 74، 2:14، 3.

إنسانًا لأجلنا، والذي هو الحياة ومعطي الحياة... لذلك فإن الله الآب يعطي الحياة لكل الأشياء بالابن، في الروح القدس[٣١]".

لقد جعلنا المسيح بفضل تجسده أبناء معه لنفس الأب "الآب" وأبناء أيضًا لنفس الأم معه وهي القديسة مريم العذراء، حين أعلن على الصليب ليوحنا (الذي يمثلنا جميعًا) أن العذراء صارت أمًّا له أيضًا بقوله: "هوذا أمك" (يو١٩:٢٧).

ويبين القديس يوحنا ذهبي الفم مكانة الإنسان، بعد إكمال الله لتدبيره الخلاصي، واستعادتنا للحياة، بنعمة التبني للآب (ينالها المؤمن في سر المعمودية) بقوله: "بالأمس كنتم أسرى، والآن أنتم أحرار، ومواطنون كنسيون. فيما سبق كنتم تعيشون في خزي خطاياكم، والآن تحيون في ملء الحرية والبر. وأنتم لستم فقط أحرارًا، بل أيضًا قديسون، ولستم فقط أبناء، بل أيضًا ورثة، ولستم فقط ورثة، بل أيضًا إخوة المسيح، ولستم فقط إخوة للمسيح بل شركاء للميراث، ولستم فقط شركاء للميراث فقط، بل أيضًا أعضاء، ولستم فقط أعضاء، بل أيضًا هيكلًا، ولستم فقط هيكل، بل أدوات وشهود للروح القدس[٣٢]". ويقول في موضع آخر: "إن الإنسان المُعمد (الحامل المسيح في قلبه) وإن كان يسير على الأرض، لكنه يكون كمن يحيا في السماء. لأنه يحفظ فكره وتصورات قلبه في الأشياء التي فوق، ولا يخاف بعد مؤامرة الشياطين الأردياء، لأن الشيطان لا يحتمل ضياء بهاء مثل هؤلاء الناس[٣٣]".

---

[٣١] القديس كيرلس الكبير، تفسير إنجيل لوقا الإصحاح الثاني والعشرون، مرجع سابق، العظة المائة ١٤٢.

[٣٢] القديس يوحنا ذهبي الفم، عظات عن المعمودية، مرجع سابق، العظة :١٢، ص ٦٧.

[٣٣] المرجع نفسه.

الإفخارستيا تذوق سابق للملكوت

لقد كان شعب الله في العهد القديم يؤمن بحسب التلمود (التقليد اليهودي المكتوب) أن المسيا (المسيح)، سيأتي وتكون له مملكة ويسمى ذلك الزمان "**الزمان المسياني**" وبعد ذلك يبدأ زمان جديد لا يوجد فيه أكل ولا شرب، ولا ظلم، يطلق عليه اليهود اسم "عولام ها باه" (أي العالم أو الدهر الآتي)، فيه سيملك الله على الجميع، فيقولون: "في العالم الآتي، لا يوجد أكل ولا شرب، ولا توالد، ولا غيرة ولا بغضة، ولا منافسة، لكن سيسكن البر فقط، ويضع الله أكاليلهم على رؤوسهم، متمتعين بنور الشاكيناه (مجد حضور الرب)[٣٤]".

والكنيسة تؤمن أن الزمن المسياني، والعالم الآتي، قد بدآ فعلًا منذ تجسد الابن، فالمسيح بتجسده جلب لنا الحياة الأبدية والملكوت[٣٥] على الأرض، كما قال: "قد أقبل عليكم ملكوت الله" (مت١٢:٢٨؛ لو١١:٢٠). وهذه الأبدية نتذوقها، ونأخذ عربونها في الإفخارستيا، التي هي "**الوليمة المسيانية**". فملكوت الله يبدأ من الأرض، ويكتمل في الدهر الآتي، وبهذا تكون الإفخارستيا هي فجر الأبدية والدهر الآتي.

إن كل إنسان في حياته يختار بمحض إرادته؛ إما أن يحيا الملكوت ويتمسك به: "أمسك بالحياة الأبدية التي إليها دعيت أيضًا" (١تي٦:١٢)، أو يختار الجحيم الذي هو الحياة بعيدًا عن الله. فأبديتنا تبدأ على الأرض، "**هنا والآن**" (hic et nunc)، وتكتمل في السماء (هناك)، بعد القيامة العامة حين يجيء الرب على السحاب.

---

[34] *Beratchot*,17a.

[٣٥] عبارة "ملكوت الله" أو "ملكوت السماوات" وردت ١٢٢ مرة في العهد الجديد؛ ٩٩ منها في الأناجيل الإزائية الثلاثة (متى، مرقس، لوقا)، و٩٠ من ٩٩ التي في الأناجيل الإزائية هي من أقوال السيد المسيح نفسه.

وحياتنا مع المسيح تبدأ من السماء، في سر المعمودية؛ حيث يولد الإنسان من فوق، ويصير إنسانًا فوقانيًّا، سماويًّا، كما قال العلامة أوريجانوس (القرن الثالث): "لم يعد يليق بالبار، أن يقال له أنت ترابي وإلى التراب تعود، بل أنت سماوي وإلى السماء تعود." فيوم معموديتنا هو أول يوم لنا في حياة الملكوت، حيث تُزرَع الأبدية في داخلنا من أول يوم بالتناول، هذا التناول الذي يصفه البابا كيرلس عمود الدين (الكبير) بإنه "**بذرة معطية للحياة**" و "**بذرة الخلود**"!

إن الروح القدس هو الذي ينمي بذرة الأبدية التي غُرست فينا، ويمنحنا قوة، بحسب وعد الرب: "تنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم" (أع١:٨). إنها قوة القيامة والحياة: "قوة حياة لا تزول" (عب٧:١٦)، التي بها نغلب العالم والشرير، فنبدء نحيا ملكوت الله هنا على الأرض: "إن من القيام ههنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة" (مر٩:١؛ مت ١٦:٢٨؛ لو٩:٢٧).

هذه القوة التي نأخذها في الإفخارستيا يوضحها القديس كيرلس الكبير بأمثلة كثيرة، قائلًا: "عندما تطرحون قطعة خبزٍ في خمر، أو زيت، أو أي سائلٍ آخر، فستجدون أنها صارت تحمل خاصية ذلك السائل الخاص، وعندما يوضع الحديد في النار، فإنه يصير ممتلئًا بكل فاعليتها؛ وبينما هو بالطبيعة حديد، لكنه يعمل بقوة النار. هكذا الكلمة الله المحيي؛ إذ قد وحد نفسه بجسده الخاص، بطريقة معروفة لديه فقط (سرية)، فقد منحه قوة إعطاء الحياة[٣٦]".

إننا نُغرس في جسد المسيح من اليوم الأول لحياتنا مع الله، لنصير كقول معلمنا بولس الرسول: "متأصلين ومبنيين فيه" (كو٢:٧)، فالإفخارستيا تثبتنا في المسيح، وتغرس فينا الحياة الأبدية كما

---

٣٦ القديس كيرلس الكبير، تفسير إنجيل لوقا الإصحاح الثاني والعشرون، مرجع سابق، العظة ١٤٢.

يشرح القديس كيرلس الكبير: "لكي يغرس (الله) نفسه فينا باتحادٍ غير مفترق... إذن فاللغوس (أقنوم الكلمة)، وحد بنفسه بذلك الجسد الذي كان فيما سبق خاضعًا للموت، فلكونه هو نفسه الإله والحياة، قد أعتق هذا الجسد من الفساد، بل وجعله أيضًا جسدًا محييًّا... إذن فحينما نأكل جسد المسيح مخلصنا ونشرب دمه الكريم، فإننا نقتني الحياة داخلنا... ونسكن فيه، ونقتنيه هو أيضًا داخلنا[٣٧]".

الفصح ومائدة الملكوت

لقد كان اليهود يؤمنون أيضًا أنه في "زمن الفصح" (أعياد الفصح والفطير) سيظهر المسيا ملك إسرائيل، ويبدأ الدهر الآتي (الزمان المسياني)، ويسبق ذلك كله مائدة يقيمها المسيا بنفسه "المائدة المسيانية"، وذلك كله بحسب التقليد اليهودي الخاص بعلامات مجيء المسيا والقائل: "في عيد الفصح يأتي المسيا والملكوت ومائدته تحلان."

لذلك قبل زمن الفصح بقليل سأل الفريسيون السيد المسيح ليختبروا معتقداته عن الملكوت ومجيء المسيا: "ولما سأله الفريسيون: متى يأتي ملكوت الله؟ أجابهم وقال: لا يأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا يقولون: هوذا ههنا! أو: هوذا هناك! لأن ها ملكوت الله داخلكم" (لو١٧:٢٠،٢١) ثم بدأ يحدثهم عن آلامه ونهايات الأزمنة. وأيضًا سأله التلاميذ في أسبوع الفصح قائلين: "قل لنا متى يكون هذا؟ وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟" (مت٢٤:٣).

لقد أجاب السيد المسيح عمليًّا على سؤال التلاميذ في خميس العهد على مائدته، حيث أعلن من خلال الإفخارستيا التي أقامها، أنه

---

[٣٧] المرجع نفسه، العظة ١٤٢، ٢٢:١٩.

هو المسيا، وأن الملكوت قد أقبل عليهم وهم جالسون حوله: "شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم، لأني أقول لكم إني لا آكل منه بعد، حتى يُكمل في ملكوت الله" (لو٢٢:١٥،١٦)، لقد أظهر المسيح حقًّا أن الإفخارستيا هي "المائدة المسيانية."

لقد ربط المسيح كما رأينا بين الإفخارستيا التي أسسها وبين الأبدية، وأيضًا بعدها مباشرة يعود ويحدث التلاميذ عن الأبدية قائلًا: "في بيت أبي منازل كثيرة" (يو١٤:٢)، ليؤكد على حقيقة ارتباط الإفخارستيا بالأبدية والدهر الآتي. الأمر الذي يظهر بوضوح في النصوص الإفخارستيا المستخدمة في القرون الثلاثة الأولى، حيث كان الكاهن يصلي قائلًا: "لتشرق النعمة، وليغرب هذا العالم[٣٨]."

إن "ملكوت الله" له وجهان يشيران إلى المجيئين[٣٩] الخاصين بالسيد المسيح؛ فمن جهة: "يبدأ" ملكوت الله منذ تجسد المسيح في ملء الزمان (المجيء الأول) واستعلانه فيما بعد (بالأخص في القيامة)، في خدمته العلنية كمسيا ومخلص للبشرية حيث التوبة والملكوت هما محور كل تعليم السيد المسيح بدون استثناء. وما تبعه بعد ذلك من كرازة التلاميذ بالملكوت. ومن جهة أخرى "يكتمل" ملكوت الله بمجيء السيد المسيح ثانية: "المجيء الثاني" (Παρουσία) كديَّان للجميع ومع مجيئه تنتهى الأزمنة.

---

[٣٨] الديداخي، مرجع سابق، ١٠:٦.

[٣٩] تعكس الأيقونات في الكنيسة المجيئين الخاصين بالسيد المسيح، فالأيقونات بوجه عام تكتب وتوضع بترتيب خاص في الكنيسة بمنظور "إسخاتولوجي" (أخروي) يعبر عن الأبدية. ويرى بعض اللاهوتيين أن الكنيسة تعبر عن المجيئين في تقليدها الأيقونوغرافي الأرثوذكسي (فن كتابة الأيقونات) من خلال وضع أيقونة والدة الإله وهي تحمل على يديها السيد المسيح عن يمين الباب الملوكي في حامل الأيقونات (الأيقونوستاس) للتعبير عن "المجيء الأول" الذي فيه تجسد المسيح كمخلص. وتوضع أيقونة السيد المسيح على يسار الباب الملوكي وفيها يصور كاتبي الأيقونات السيد المسيح جالسًا على عرشه، مرتديًا تاجًا وممسكًا بيديه سفر الحياة، وذلك لإبراز السيد المسيح كملك وسيد وديّان في "المجيء الثاني". وبذلك تضع الكنيسة أمام عيون المؤمنين المجيئين اللذين تحيا (الكنيسة) بينهما.

إن غاية خلاصنا هو الوصول إلى الملكوت، ولقد أكمل السيد المسيح عنا تدبير الخلاص كما صلى للآب في بستان جثيماني قائلًا: "العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته" (يو١٧:٤). وأيضًا وهو معلق على الصليب قيل عنه: "بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد أكمل" (يو١٩:٢٨). لقد أعلن السيد المسيح صراحة أمام الجميع أنه قد أكمل كل شيء قائلًا: "قد أُكمل" (يو١٩:٣٠). هذه العبارة كانت معلومة للشعب اليهودي، حيث كان رئيس الكهنة يقولها للشعب بعد تقديم ذبائح "يوم الكفارة." فكان ينطق بها (رئيس الكهنة) معلنًا للشعب في نهاية اليوم أنه قد أكمل طقس الكفارة وأن الذبيحة قبلت، والغفران قد تم!

إن خلاصنا يبدأ هنا ويكتمل في الأبدية. فخلاصنا (من جهتنا) لا يتوقف عند لحظة أو حدث، بل هو **عملية** (process) **تبدأ من الآن على الأرض من يوم العماد، وتستمر حتى الممات.** ويكتمل خلاصنا (هناك) في السماء بعد القيامة العامة لذلك يحثنا بولس الرسول قائلًا: "تمموا خلاصكم بخوف ورعدة" (في٢:١٢).

لقد كانت عبارة "ماران آثا (الرب قريب)" (١كو١٦:٢٢؛ فل٤:٥) نداء إفخارستيًّا، حيث كانت جزء من صلوات الإفخارستيا في القرون الثلاثة الأولى[٤٠]. بمعنى أن الرب قد أتى، وهو الذي سيأتي ثانية، وهو الكائن على المذبح أمام المؤمنين في الإفخارستيا.

وبذلك نرى البُعد الأخروي "الإسخاتولوجي[٤١]" الواضح للإفخارستيا. فالإفخارستيا كما تصفها الكنيسة؛ تقدمة سمائية، تقدم على مذبح سماوي، يشترك في خدمتها القوات السمائية، ويعلق القديس

---

[40] K.G Kuhn,*Th. WNT*, IV,470-475.

[٤١] "إسخاتولوجيا" كلمة يونانية وتعني "الأخرويات" وهي تتكون من كلمتين "إسخاتوس" (Ἔσχατος) وتعني "أخير" أو "الآخرة"، و"لوغوس" (λόγος) وتعنى "كلام" أو "مقال".

إيريناؤس (القرن الثاني) على ذلك بقوله: "هكذا هي إرادته (إرادة الله) أن نقدم القرابين على المذبح (مذبح العهد الجديد) باستمرار وبدون انقطاع، أما المذبح فهو السماء (هذا المكان الذي نوجه إليه صلواتنا وقرابيننا). والهيكل أيضًا على نفس النمط (هناك في السماء)، كما يقول يوحنا في رؤياه" وانفتح هيكل الله في السماء" (رؤ ١١:١٩)[٤٢]." لذلك تصلي الكنيسة قائلة أثناء القداس الإلهي "اقبلها إليك على مذبحك الناطق السمائي، رائحة بخور تدخل إلى عظمتك في السموات، بواسطة خدمة ملائكتك ورؤساء ملائكتك المقدسين[٤٣]."

الأبدية زمن الكنيسة

إن الطقوس في الكنيسة هي وعاء للإيمان؛ أي إنها تحوي في داخلها الإيمان وتعبر عنه، وهي مرآة تعكس الإيمان؛ ولكنها بالطبع ليست هي الإيمان نفسه، فدور الطقوس هو أن تشرح، الإيمان، وتساعد المؤمنين على تذوقه وممارسته.

و"الأبدية" هي من أهم الحقائق الإيمانية التي نجدها في طقوس الكنيسة؛ إذ إنها تصبغ الكنيسة كلها. فكل صلوات الكنيسة وممارستها لها بعد أبدي أو أُخروي "إسخاطولوجي." لتصبح بذلك الأبدية كالعطر الذي يميز كل ما في الكنيسة، كقول القديس إغناطيوس الأنطاكي: "ينشر في الكنيسة، عطر الخلود[٤٤]." لذلك نجد أن الكثير من الصلوات تختم بعبارات تعبر عن الأبدية مثل: "دهر الدهور"، "إلى الأبد"، "أبد الآبدين" (رؤ ١٠:٦)..إلخ.

إن الأبدية "الملكوت" (βασιλεία) هو نهاية حياتنا وهدفنا. وقد وضعت الكنيسة (بإرشاد الروح القدس) صلوات كثيرة تحمل هذا

---

42 Ireneaus, op. cit., IV, 18.

٤٣ الخولاجي المقدس، مرجع سابق، أوشية القرابين الكبرى، صلوات رفع بخور باكر، ص٥٧.

٤٤ القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى أفسس ١:١.

الطابع الأبدي، لكي تترسخ الأبدية في أذهان وقلوب المؤمنين. فعلى سبيل المثال نجد في الإفخارستيا (خصوصًا) إشارات ورموزًا كثيرة للأبدية، سواء من خلال المعاني الكامنة في بعض الحركات الطقسية (rubrics)، أو في قراءات القداس، أو في نصوص الإفخارستيا نفسها.

فمن الحركات الطقسية مثلًا؛ دورات البخور التي ترمز في أحد معانيها إلى الأبدية (لأن الدائرة ليست لها بداية ولا نهاية)، كما نجد أيضًا أن أغلب دورات الكنيسة تتم عكس حركة الشمس (عكس عقارب الساعة)، إشارة إلى أن الكنيسة دائمًا فوق الزمان، وتتجه إلى الأبدية (وخصوصًا في الإفخارستيا). وأيضًا **اتجاهنا للشرق**[٤٥] عند الصلاة، يذكرنا بالمسيح "شمس البر" الذي يظهر من الشرق، ويشير إلى "جنة عدن" التي كانت في الشرق (تك٢:٨) والتي أعادنا المسيح إليها بعد أن سقطنا وطردنا منها. كما يذكرنا "الشرق" بالمجيء الأول "التجسد" إذ أن "المشرق من العلاء" (لو١:٧٨) قد أشرق جسديًا على الأرض من مريم العذراء، ويذكرنا أيضًا "الشرق" بالمجيء الثاني المملوء مجدًا، هذا الذي سيأتي فيه ليأخذنا إلى أورشليم السماوية.

فنداء الشماس في القداس الإلهي "**إلى الشرق انظروا**" (Ⲓⲥ ⲁ̀ⲛⲧⲟⲗⲁⲥ Ⲃ̀ⲗⲉⲯⲁⲧⲉ) هو نداء يوجه أفكارنا وقلوبنا إلى فوق، نحو الشرق، إلى الأبدية والملكوت: "تطلعي يا أورشليم إلى الشرق، وانظري الفرح الآتي إليك من عند الله" (باروخ٥:٣٦). إن "الشرق" هو اتجاه[٤٦] الرحلة، فنحن لسنا واقفين ساكنين، بل

---

[٤٥] كان اليهود منذ القديم (قبل المسيح بعدة قرون) وإلى الآن يبنون المجامع داخل أرض فلسطين وخارجها (الشتات)، متجهة نحو "الهيكل" في أورشليم. أما في العهد الجديد فصار بناء الكنائس وإتجاه العبادة منذ القرن الأول ناحية "الشرق" اتجاه شروق الشمس التي ترمز للمسيح "شمس البر العقلية"، كما أن المسيح هو "الهيكل الحقيقي" الذي كان الهيكل القديم في أورشليم يرمز له، والذي ما زال يتجه اليهود نحوه في العبادة إلى الآن!

[٤٦] من الجدير بالملاحظة أن الكلمة الإنجليزية الدالة على "الإتجاه" (orientation) هي مشتقة من الأصل اللاتيني (oriens) وتعني "الشرق"، وجاء منها أيضًا كلمة (oriental) أي "شرقي"، فالأصل في معرفة الاتجاهات الجغرافية هو تحديد "الشرق" الجهة التي

مرتحلون نحو الشرق[٤٧]!

وفي قراءات الكنيسة، نجد أن الكنيسة القبطية المرشدة بالروح القدس، قد رتبت قراءة "سفر الرؤيا" بأكمله (من أكثر الأسفار التي تتكلم عن الأبدية في العهد الجديد) في داخل القداس الإلهي (في رفع بخور باكر قداس سبت الفرح) لتعلن بذلك البعد الأبدي (الأخروي) للكنيسة والإفخارستيا، التي هي "عشاء عرس الخروف" (رؤ١٩:٩)، و"مائدة الملكوت" كما صرح السيد المسيح لتلاميذه "لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي" (لو٢٢:٣٠)، **فالكنيسة تدخل في كل إفخارستيا، على مائدة المسيا في ملكوته.**

كما رتبت الكنيسة أيضًا في طقسها؛ أن يكون محور قراءات القداس الإلهي في الشهر الأخير من السنة الليتورجيا شهر "نسيء[٤٨]"، هو نهاية العالم والمجيء الثاني. ورتبت الكنيسة أيضًا في صلوات السواعي اليومية (الأجبية)، أن تكون "صلاة نصف الليل" بخدماتها الثلاث تتحدث عن المجيء الثاني، والملكوت، والاستعداد له. وبذلك تحمل الكنيسة الأبدية في كل صلواتها، كل يوم، وفي كل قداس.

أما نصوص صلوات القداس الإلهي، فهي من أول جملة إلى آخر جملة، مليئة بالمعاني التي تشير إلى الأبدية. فعلى سبيل المثال نجد أنه في صلاة الصلح (في القداسات الثلاثة، وبدون استثناء)، تخاطب الكنيسة الله، وتصفه من أول جملة بأنه أبدي، فيصلي الكاهن

تشرق منها الشمس، ومن ثم تحدد بقية الاتجاهات الجغرافية.

[٤٧] "الاتجاه إلى الشرق" يبدأ في حياة المؤمن من يوم معموديته؛ فبحسب الطقس (تقريبًا في جميع الكنائس التقليدية) يتجه المعمد في البداية نحو "الغرب" ويجحد الشيطان، ثم يستدير ويغير اتجاهه (رمز للتوبة التي هي تغير الإتجاه) إلى "الشرق" حيث الله، معلنًا إيمانه وتبعيته لله في باقي حياته. كما أن الاتجاه إلى الشرق في الصلاة وبالأخص في ليتورجيتي "المعمودية والإفخارستيا" يوجه الشخص إلى "الفردوس" موطنه الأصلي (يذكر الكتاب أن فردوس "عدن" كان في الشرق، تك:٢) الذي طرد منه بالخطية، ويعود إليه ثانية بواسطة المعمودية والإفخارستيا وباقي الأسرار.

[٤٨] شهر "نسيء" يعرف أيضًا بالشهر الصغير، لأنه يستمر لمدة خمسة أو ستة أيام فقط، وهو آخر أشهر التقويم القبطي والسنة الليتورجيا.

في القداس الباسيلي قائلًا: "يا الله العظيم الأبدي"، وفي القداس الغريغوري يقول: "أيها الكائن، الذي كان، الدائم إلى الأبد" التي تذكرنا بتسبيح الأربعة حيوانات المذكورين في سفر الرؤيا الذي هو نافذة على الأبدية "والأربعة حيوانات لكل واحد منها ستة أجنحة حولها، ومن داخل مملؤة عيونا، ولا تزال نهارًا وليلًا قائلة: قدوس، قدوس، قدوس، الرب الإله القادر على كل شيء، الذي كان والكائن والذي يأتي" (رؤ٤:٨)، وفي القداس الكيرلسي نلقب الله بأنه هو رئيس الحياة (الأبدية) "رئيس الحياة" (أع٣:١٥)، وملك الدهور (الأزمنة) فيصلي الكاهن قائلًا: "يا رئيس الحياة، وملك الدهور[٤٩]".

وأيضًا حينما نصلي قائلين: "مستحق وعادل" أو "مستحق ومستوجب"، إننا نصلي بتسبحة الأبدية مع السمائيين كما رآهم يوحنا الرسول وسجل لنا تسبحتهم الخالدة "مستحق هو الخروف المذبوح" (رؤ٥:١٢)، فنحن في الإفخارستيا نعلن ونعترف باستحقاق هذا الخروف الذي ذُبح لأجل خلاصنا، وأنعم علينا بالتناول من جسده المقدس ودمه الكريم.

وكذلك حينما تصلي الكنيسة قائلة "قدوس، قدوس، قدوس بالحقيقة أيها الرب إلهنا،الذي جبلنا وخلقنا ووضعنا في فردوس النعيم..إلخ[٥٠]" وما يماثلها في القداس الغريغوري والكيرلسي، تذكرنا أيضًا بالأبدية، وتسبحة الأربعة حيوانات غير المتجسدين في رؤيا يوحنا (رؤ٤:٨). وفي بقية صلوات القداس الإلهي، يتضح عنصر الأبدية بوضوح في الصلاة، لعل من أبرز المواضع هو حينما تصلي الكنيسة قائلة: "اهدنا (أدخلنا) إلى ملكوتك[٥١]" أي قُدنا وأرشدنا إلى طريق ملكوتك.

---

[٤٩] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، صلاة الصلح للبطريرك ساويرس، ص ٤٠٠.

[٥٠] المرجع نفسه، صلاة "إكؤاب" أو "قدوس"، ص ٢٢٢.

[٥١] المرجع نفسه، القداس الباسيلي، ص ٢٦٢.

ومن العبارات الأخرى المعبرة عن الأبدية نداء "مبارك الآتي باسم الرب[٥٢]" فهو نداء يشير إلى الملكوت الآتي (ερχομενος)، حيث كان اليهود يعتبرون هذا النداء "نداء مسيانيًّا"، أي خاص بالمسيا وملكه الآتي (الدهر الآتي). لذلك هتف به الشعب للسيد المسيح حينما دخل أورشليم في الأسبوع الأخير كمسيا، مما آثار غيرة وحفيظة رؤساء الكهنة، الذين رفضوا الإيمان بأن السيد المسيح هو المسيا المنتظر "مشتهى كل الأمم" (حج٢:٧)، الآتي ليرد الملك لإسرائيل، متمسكين بالمُلك الحرفي والأرضي. فنداء "مبارك الآتي باسم الرب" هو نداء مباركة المسيح الملك. وهو أيضًا نداء "المملكة" (ملكوت السموات) مملكة الآب والابن والروح القدس، إنه نداء أخروي (إسخاطولوجي)، نداء الدهر الآتي.

كما ولا يغيب عنا، أن آخر جملة يصليها الكاهن في القداس الإلهي (كما فعل في البدء) تبرز الأبدية، فكما صلى السيد المسيح في آخر حياته، في البستان قبل الصلب وطلب الأبدية للمؤمنين به قائلًا: "ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته" (يو١٧:٢). هكذا يصلي الكاهن أيضًا، محققًا ما قاله السيد المسيح، فيقول: "يعطي عنا خلاصًا، وغفرانًا للخطايا، وحياة أبدية، لكل من يتناول منه[٥٣]".

وبذلك نجد أن القداس الإلهي بأكمله من بدايته إلى نهايته، يتمحور حول الحياة الأبدية. فالإفخارستيا هي العهد الجديد (الأبدي)، هذا العهد الذي سبق ووعد به الله على فم أنبيائه القديسين قائلًا:

---

[٥٢] يقال قبل قراءة الإنجيل، وفي نهاية القداس مباشرة قبل التوزيع وخروج الأسرار من الهيكل، وفي مواضع أخرى كلحن الشعانين "إفلوجيمنوس ⲉⲩⲗⲟⲅⲓⲙⲉⲛⲟⲥ" الذي يقال في أحد الشعانيين (أحد السعف)، وعيدي الصليب، واستقبال الأب البطريرك. إن انتظار المسيا، والذي يعرف بالرجاء المسياني (رجاء إسرائيل)، كان هو التحية الطقسية المتبادلة بين الكهنة في العهد القديم؛ إذ كان الكاهن يلقي التحية قائلًا: "مبارك الاسم (يهوه)" (باروخ ها شِم) ليجاوبه الكهنة الآخرون قائلين: "مبارك الآتي باسم الرب" (باروخ ها باه بشِم أدوناي).

[٥٣] صلاة الاعتراف، في القداس الباسيلي، والغريغوري، والكيرلسي.

"وأقطع لهم عهدًا أبديًّا" (إر٣٢:٤٠). إننا في الإفخارستيا نتناول "دم العهد الأبدي" (عب١٣:٢٠)، ننال بدء تحقيق الوعد بالحياة الأبدية (على المستوى الشخصي): "وهذا هو الوعد الذي وعدنا هو به: الحياة الأبدية" (١يو٢:٢٥)، وهذا الوعد سيكتمل تحقيقه في السماء. إننا نقدم من خلال الإفخارستيا الشكر اللائق بعطية الملكوت التي منحنا الله إياها: "لذلك ونحن قابلون ملكوتًا لا يتزعزع، ليكن عندنا شكر به نخدم الله، خدمة مرضية، بخشوع وتقوى" (عب١٢:٢٨).

الإفخارستيا صعيدة (صاعدة) البركة

يستخدم الكتاب المقدس كلمة "صعود" دائمًا عند الإشارة إلى التوجه إلى مدينة "أورشليم" أو "الهيكل[٥٤]." إشارة إلى أن حركة شعب الله، نحو الرب، هي حركة صاعدة إلى فوق. وأحد مسميات القداس الإلهي في صلوات الكنيسة هي "صعيدة"، كما نصلي قائلين "نقدم لك صعيدة البركة[٥٥]."

وهناك اسم آخر للقداس الإلهي وهو "**أنافورا**[٥٦]"، فالقداس الإلهي بأكمله هو حركة صعود "أنافورا"، أي أنه تقدمة مرتفعة "رفيعة" نحو الله. لذلك لا تخلو أي ليتورجيا للإفخارستيا من جزء يسمى بصلاة الارتفاع أو "الأنافورا" (بعد انتهاء صلاة الصلح).

---

[٥٤] كان اليهود قديمًا أثناء صعودهم جبل الرب متوجهين إلى الهيكل، يرتلون مجموعة من المزامير تسمى مزامير المصاعد وهي المزامير من ١٢٠ إلى ١٣٤.

[٥٥] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، صلاة الإستعداد، ص١٣٩.

[٥٦] "أنافورا" (ἀναφορά) كلمة يونانية من الفعل (Ἀναφέρω) أي "أُصعد"، "أُقدّم"، "أقود إلى أعلى"، "أحمل بعيدًا" المكون من كلمتين: الفعل (ἀναβαίνω) وتعني "صاعد"، و"فورا" (φορά) تعني "حركة سريعة"، أو "اندفاع الشيء"، أو "يحمل" (φορέω). والكلمة تعني ليتورجيًّا "تقديم القربان أو رفعه"، وتطلق كلمة "أنافورا" على الجزء الرئيس من صلاة الإفخارستيا؛ وهو الجزء الذي يحوي التقديس، والتذكار، والتناول، وبذلك تغطي الكلمة معظم صلوات القداس الإلهي، مما جعلها تطلق عمومًا على الإفخارستيا كلها.

هذا الجزء شاهد يؤكد حقيقة أن صلوات القداس ليست ساكنة (static) أو راكدة، بل في حركة (dynamic)، حركة صعود وارتفاع مستمر نحو السماء، ونحو لله. فيها يصلي الكاهن مع إرميا النبي القائل: "لنرفع قلوبنا وأيدينا إلى الله في السماوات" (مرا٣:٤١)، وإشعياء القائل أيضًا "ارفعوا إلى العلاء عيونكم وإنظروا" (إش٤٠:٢٦)، لذلك يقود الكاهن الشعب في حركة الارتفاع قائلًا "ارفعوا قلوبكم"، وتدخل الكنيسة في حوار سماوي بديع قائلة: "هي عند الرب" (Ⲉϫⲟⲙⲉⲛ ⲡ̀ⲣⲟⲥ ⲧⲟⲛ Ⲕⲩⲣⲓⲟⲛ) أي إن الكنيسة كلها قد رفعت عينها، ووضعت قلبها وعقلها، واستودعتهما عند الرب؛ عند أبيها الذي في السموات، وعند رأسها الذي هو المسيح الجالس عن يمين أبيه والكائن في الأعالي، وإلى الروح القدس غير المفترق عنهما. وعن ذلك يقول القديس أغسطينوس: "ها أنتم تشهدون بهذا فتقولون في القداس "مستحق وعادل"، أي إننا نشكر ذاك الذي رفع قلوبنا إلى حيث يوجد رأسنا[٥٧]".

إن الأناجيل تخبرنا في مواضع عديدة أن السيد المسيح كثيرًا ما كان ينظر إلى "فوق" إلى "السماء" كما في معجزة شفاء الأصم الأعقد (مر٧:٣٤)، ومعجزة إشباع الجموع بالخمس خبزات والسمكتين (أحد رموز الإفخارستيا في العهد الجديد، مت١٤:١٩؛ مر٦:٤١؛ لو٩:١٦)، ومعجزة إقامة لعازر (يو١١:٤١). وأيضًا في القداس الإلهي (في الثلاثة قداسات) يصلي الكاهن قائلًا: "أخذ خبزًا على يديه الطاهرتين، اللتين بلا عيب ولا دنس، الطوباويتين المحييتين... ونظر إلى فوق، نحو السماء، إليك يا الله أباه وسيد كل أحد."

ويعلق القديس كبريانوس (أسقف قرطاج، القرن الثالث) عن الارتفاع الذي نختبره في القداس الإلهي ينبغي أن يمتد في حياتنا العادية

---

[57] Augustine, *Seremon 227,Fathers Of The Church Series* 195:38.

فيصبح مركز حياتنا "فوق" حيث يقول: "فإن كنا أبناء لله، وإن كنا قد بدأنا فعلًا أن نكون هياكل له، وإن كنا نعيش بقداسة وروحانية بعد أن قبلنا الروح القدس، ورفعنا أعيننا من الأرض نحو السماء، وإن كنا قد رفعنا قلوبنا المملؤة بالله والمسيح إلى الإلهيات والسماويات، فيجب علينا ألّا نفعل شيئًا غير جدير بالمسيح[٥٨].

بل إن تغير توجه التفكير إلى ما هو "فوق" صار سمة للمؤمنين ونعمة يحدرها الله لنا من العلاء؛ إذ يقول القديس "أموناس" تلميذ الأنبا أنطونيوس (القرن الرابع): "هؤلاء هم الذين صاروا بني الملكوت وارتقوا إلى رتبة البنين، الذين أعطاهم الله النظر الفوقاني في كل أعمالهم لكي لا يضللهم أحد، لا إنسان ولا شيطان. لأن المؤمن قد ينغوي بحجة الخير وكثيرون ينخدعون بذلك، لأنهم لم ينالوا بعد من الله النظر الفوقاني[٥٩]."

إن ارتفاع عقولنا ونفوسنا في الإفخارستيا يستلزم منا التخلص من الأحمال والأعباء: "تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (مت١١:٢٨) التي تثبتنا في الأرض، وتجذبنا لأسفل. لذلك في القداس الإلهي نحن مدعوون لنطرح عنا كل اهتمام دنيوي لنستقبل المسيح ملك الكل، فالكاهن يصلي قبل التناول مباشرة ويقول: "كل فكر رديء، أرضي فليبعد عنا، من أجل الذي صعد إلى السموات[٦٠]."

لذلك يحث القديس أغسطينوس شعبه أثناء الإفخارستيا على طرح كل ما هو أرضي، كي ترتفع قلوبهم وأذهانهم للسماء ليستقبلوا ملك الكل قائلًا لهم: "أريدكم أن تتقدموا إلى الأمام، لماذا تسحبون قلوبكم في الأرض إلى الأبد؟! اسمعوا النداء "ارفعوا قلوبكم"!

---

[٥٨] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، الغيرة والحسد:١٤.

[٥٩] القديس أموناس، *الرسالة الرابعة* (بحسب النسخة السريانية).

[٦٠] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، صلاة خضوع قبل التناول، ص ٤٨١.

وبذلك ترفع الكنيسة صلواتها في الإفخارستيا إلى السماء التي هي قدس الأقداس (الأقداس العليا)، حيث محضر الثالوث السماوي: "فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة، لكي ننال رحمة، ونجد نعمة عونًا في حينه" (عب٤:١٦)، بواسطة المسيح رئيس الكهنة الأعظم: "لأن به (بالمسيح)، لنا كلينا (اليهود والأمم)، قدومًا في روح واحد (الروح القدس)، إلى الآب" (أف٢:١٨)، وبدم نفسه.

لذلك لا عجب حينما يصف القديس يوحنا ذهبي الفم الإفخارستيا قائلًا: "الإفخارستيا هي باب الملكوت، وباب هيكل حضرة الله"! فهناك نتبادل نحن الأرضيون مع السمائيين تسبيح الثالوث، مرنمين معًا بنشيد الظفر صارخين وقائلين: "قدوس، قدوس، قدوس، رب الصباؤت، السماء والأرض مملؤتان من مجدك الأقدس[٦١]"، تلك التسبحة السماوية الخالدة للسيرافيم (تسبحة الثلاث تقديسات) التي سمعها وشاهدها إشعياء، ودونها لنا في سفره (إش:٦).

إن هذا المشهد السماوي الرهيب هو ما يعبر عنه الكاهن أثناء القداس قائلًا: "عند نزول مجدك على أسرارك، ترتفع عقولنا لمشاهدة جلالك[٦٢]"، فالكنيسة تصعد للسماء لتسبح الله، بل وتصير هي نفسها قطعة من السماء إذا جاز التعبير، لذلك نصلي قائلين: "إذا ما وقفنا في هيكلك المقدس، نحسب كالقيام في السماء[٦٣]" ويصير كل إنسان سماء، كما يصف العلَّامة أوريجانوس (القرن الثاني) المؤمنين قائلًا: "لا يليق بعد الآن (بعد تجسد المسيح) أن يدعى البار: أنت تراب وإلى التراب تعود، بل أنت سماوي وإلى السماء تعود"!

إن القداس الإلهي هو بمثابة سلم نصعد به نحو السماء، ومركبة

---

[٦١] المرجع نفسه، القداس الباسيلي، ص ٢٢.

[٦٢] القمص تادرس يعقوب ملطي، صلوات القسم، مرجع سابق، قسمة للقديس كيرلس الكبير، ص ٦١.

[٦٣] الأجبية، القطعة الأخيرة في صلاة الساعة الثالثة.

سماوية تصعد بنا إلى السماء كمركبة إيليا التي صعد بها إلى السماء. إن الإفخارستيا هي إحدى مركبات الخلاص التي في الكنيسة: "مركباتك مركبات الخلاص" (حب٣:٨).

إن الإفخارستيا هي حركة خروج وإنطلاق من الزمن، ودخول في الأبدية، وهي أيضًا حركة جمع (انجماع) كل شيء، وإرجاعه إلى الله: "ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السماوات وما على الأرض، في ذاك" (أف١:١٠)، إن أحد أهداف ذبيحة المسيح الخلاصية جمع كل شيء على نحو ما يقول معلمنا يوحنا الإنجيلي: "ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد" (يو١١:٥٢)، وإعلان مُلك المسيح على الكل: "خلاصة القول إن الله هو الكل في الكل" (يشوع بن سيراخ ٤٣:٢٧). صائرًا "رأسًا" لكل شيء (Ανακεφαλαίωσις)[٦٤] من خلال كل الأسرار وبالأخص في سر الإفخارستيا.

مفهوم الأبدية يعمق علاقتنا مع العالم

إن علاقتنا بالعالم تنبع من هذه الحقيقة، أننا نحيا في العالم ونثمر فيه، ونؤثر فيه بإيجابية، لكنه يظل ليس هو أصلنا، ولا نهاية رحلتنا! لأننا ولدنا ثانية بالماء والروح، وخلقنا من جديد على صورة الله ومثاله، وأخذنا الخبز السماوي الذي يثبت مواطنتنا السماوية.

لقد كان الرومان قديمًا يفتخرون بجنسيتهم ووطنهم (الإمبراطورية الرومانية)، فيقول الشخص: "Civis Romanus sum" أي (أنا مواطن روماني)! الآن غير المسيح ذلك فصار للإنسان أن يفتخر بجنسيته الجديدة السماوية إذا جاز التعبير قائلًا: "Civis Caelitum sum" أي (أنا مواطن سماوي)! لقد أصبح الإنسان الآن (بعمل المسيح) ينتمي إلى السماء، إلى الله!

---

[٦٤] (Ανακεφαλαίωσις) كلمة يونانية تعني إنجماع واستقطاب كل شيء في المسيح، وأول من استخدم هذا المصطلح من آباء الكنيسة كان القديس إغناطيوس الأنطاكي.

إن الموطن الأصلي الذي يترجاه المسيحي هو السماء: "ولكن الآن يبتغون وطنًا أفضل، أي سماويًّا" (عب١١:٦)، فهو يحيا على الأرض كعضو شريف (سفير) ممثلًا للكنيسة، التي هي بالحقيقة سفارة السماء في الأرض: "نسعى كسفراء عن المسيح، كأن الله يعظ بنا، نطلب عن المسيح: تصالحوا مع الله" (٢كو٥:٢٠). فالمسيحي يعيش حياته على الأرض كمغترب، لكنه مواطن سماوي "نستوطن عند الرب" (٢كو٥:٨)، سيرته (حياته) هي في السماء: "فإن **سيرتنا** (أي **مواطنتنا**، citizenship) نحن هي في السماوات، التي منها أيضا ننتظر مخلصًا هو الرب يسوع المسيح" (في٣:٢٠). لقد أصبحت هذه الحقيقة تسبحة شكر ترنمها الكنيسة لله فتقول: "لكي يحل زلة آدم، ويخلص من هلك، ويصيره مدنيًّا (citizen) في السموات، ويرده إلى رئاسته كعظيم رحمته[٦٥]".

إن مصيرنا النهائي هو كما يقول الكتاب إلى السماء والأبدية "لأن الإنسان ذاهب إلى بيته الأبدي" (جا١٢:٥). لقد وصف السيد المسيح الأبدية بأنها بيت الآب قائلًا: "في بيت أبي منازل كثيرة" (يو١٤:٢). إن الأبدية حقًّا هي بيتنا الباقي، الذي لا ينقض. هناك حيث المدينة السماوية، أورشليم العليا، مسكن الله مع الناس، ومسكن الفرح.

لقد كان مسيحيو القرون الأولى، يوصَفونَ بأنهم يعيشون كغرباء، ولكن ليس بشكل سلبي أو منعزل، بل بإيجابية، بغير تشبث بالعالم، كما يقول القديس أغسطينوس: "يملك المؤمن العالم، من دون أن يحوز (يمتلك) شيئًا منه، فهو يملك كل شيء، إن تمسك بك يا من يخضع لك كل ما في العالم." لذلك لا عجب أن نقرأ في بعض الكتابات المسيحية الأولى، والتي تصف سلوك

---

[٦٥] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ثيؤطوكية الثلاثاء، القطعة الرابعة، الربع الثالث عشر، ص ٣٠٩.

المسيحيين: "إنهم (المسيحيون) يشعرون في أنفسهم، وكأنهم زائرون (غرباء)، كل بلد (أجنبي) هو وطنهم، ووطنهم كأنه بلد أجنبي بالنسبة لهم[٦٦]"!

إن غالبية الناس الآن على الأرض، يهتمون وينشغلون معظم الوقت، بتسديد احتياجاتهم المادية والزمنية، في حين ينسون احتياجهم للأبدية، الذي هو في داخلهم. وللأسف يحاولون ملء هذا الاحتياج بمزيد من الماديات! إننا نحيا في العالم، ولكن ينبغي أن لا يعيش العالم فينا، لأننا لسنا منه، فهو في حد ذاته ليس مقصدًا ولا هدفًا، بل هو مجرد أمانة أخذناها من الله ونردها إليه. إن الهدف الحقيقي لنا هو تمجيد الله في كل ما نصنع. فنحن قد مُتنا عن العالم في المعمودية، لنحيا لله، وليس لأنفسنا، أو للعالم!

إننا مدعوون لنعيش دعوتنا كأبناء لله (الآب)؛ ذاك الآب، الذي ليس هو من العالم، بل من السماء. وبينما نحن على الأرض، دعانا في ابنه يسوع المسيح بالروح القدس، وأعطانا أن نمجد تلك البنوة والمواطنة (الجنسية) السماوية التي لا تنزع إذا لم نرفضها نحن: "ثم بما أنكم أبناء، أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخًا يا أبا الآب" (غل٤:٦). ويتحدث عن ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم قائلًا: "بالمعمودية لم يجعلنا ملائكة، ولا رؤساء ملائكة، بل أبناء الله، محبوبين لديه... إذ تذكُر هذا، أظهر حياتك مستحقة لحب الذي دعاك. أظهر مواطنتك لذلك العالم السماوي، وللكرامة التي أُعطيت لك. أعلن بوضوح أنك مواطن في المدينة السماوية. لا تهتم بالأرضيات، فإن كان جسدك لم ينتقل بعد إلى السماء، إلا أن رأسك (المسيح) ماكث هناك[٦٧]".

---

[٦٦] الرسالة إلى ديوجنيتوس، مرجع سابق، الفصل الخامس.

[٦٧] تفسير إنجيل متى، العظة ١٢:٤.

الألم والأبدية

إن المسيحية هي الديانة الوحيدة في العالم التي فيها الله قَبِلَ أن يتألم **آلامًا حقيقية**[٦٨]! وذلك من خلال تجسد الأقنوم الثاني في الثالوث، فالكلمة تجسد وتأنس أي صار إنسانًا حقيقيًّا وكاملًا؛ فهو إنسان كامل، وأيضًا إله كامل، باتحاد أقنومي عجيب يفوق كل فهم بشري. هذا هو إيمان الكنيسة من البدء، والذي أقرته المجامع المسكونية عبر التاريخ، فنحن نؤمن أن أقنوم الابن (الكلمة) "من الروح القدس ومن مريم العذراء تجسد وتأنس[٦٩]"، وتأكيدًا لإيماننا هذا نصلي في القداس قائلين: "تجسد وتأنس، وعلمنا طرق الخلاص[٧٠]." وهو في تجسده قد تألم لأجلنا بالجسد، وبسبب الاتحاد الأقنومي نستطيع أن ننسب الآلام لله المتجسد (وليس للاهوت لأن اللاهوت لا يتألم - impassibilis) ونقول إن الله تألم بالجسد، ونؤكد على ذلك في قانون الإيمان قائلين "**تألم**"

إن الأبدية والآلام يرتبطان في كثير من تعاليم المسيح، وكأنهما وجهان لعملة واحدة! فالألم يفضي إلى المجد؛ إذ إنه يؤهل الإنسان ويحضره للأبدية: "**إنكم تؤهلون لملكوت الله، الذي لأجله تتألمون أيضًا**" (١تس١:٥).

لقد عاش السيد المسيح كل حياته مع المتألمين والمهمشين والمنبوذين متألمًا معهم (compassibilis): "كان كثيرون من العشارين والخطاة يتكئون مع يسوع وتلاميذه، لأنهم كانوا كثيرين وتبعوه" (مر٢:١٥؛ لو١٥:١؛ مت٩:١١) ليرد لهم كرامتهم الإنسانية التي

---

[٦٨] تحوي أسفار العهد القديم نبوات عديدة عن آلام السيد المسيح، لعل من أبرزها ما جاء في سفر المزامير، سفر إرميا، مراثي إرميا، وسفر إشعياء فيما يعرف بأناشيد "العبد المتألم"، وهي مقاطع من الإصحاحات (إش:٤٢،٤٩،٥٠،٥٢).

[٦٩] قانون الإيمان.

[٧٠] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الباسيلي، ص ٢٢٤.

فقدوها بالخطية. عاش بين الذين يعانون ويتألمون من مختلف الأمراض الروحية والجسدية كطبيب يشفي جراحاتهم ويمسح دموعهم. لم يترك الإنسان يعاني نوعًا من الألم إلا وكان معه، حتى في آخر لحظات حياته نراه "يتألم مع المصلوبين" المنبوذين والملعونين بحكم الناموس: "المُعلَّق ملعون من الله" (تث٢١:٢٣)، نراه يفتقد المصلوبين ليرفعهم إلى مجده: "اليوم تكون معي في الفردوس" (لو٢٣:٤٣)، فيسوع وحده يحول الألم إلى مجد!

فعندما طلب ابنا زبدي (يعقوب ويوحنا) المجد من المسيح، وذلك بأن يجلسا عن يمينه ويساره، في ملكوته (عندما يصير ملكًا)، خاطبهم هو عن كأس الآلام، والصليب (مت٢٠:٢٠-٢٣؛ مر١٠:٣٥-٤٠)! وعندما شاهد بطرس ويعقوب ويوحنا المسيح متجليًا على جبل تابور، خاطبهم بعدها مباشرة عن الصليب والألم (مر٩:١٢)، ليترسخ في أذهانهم ارتباط الألم بالمجد: إن جبل تابور (يرمز للمجد) وجبل الجلجثة (يرمز للألم) جبالان توءمان روحيًّا[٧١]! وبعد قيامة المسيح المجيدة، نجده يحتفظ في جسده النوراني الممجد، بجروحات المسامير والطعنة.

وعند صعوده اختار أن تكون نقطة انطلاقه إلى السموات هي "جبل الزيتون"، هذا الجبل الذي "بكى" منه على أورشليم لأنها لم تعرف زمان افتقادها. لقد كان جبل الزيتون هو نقطة انطلاقه إلى الصليب في أورشليم! هناك (في جبل الزيتون) أيضًا عند سفحه "بكى" في بيت عنيا على قبر لعازر. وهناك أيضًا بستان جثيماني حيث صلى للآب ليلة آلامه، وكان عرقه يتصبب كقطرات دم! وهناك سلمه يهوذا بقبلة غاشة! وهناك حكم عليه في بيت قيافا، ولطمه عبد رئيس الكهنة.

---

[٧١] يلاحظ أن عيد الصليب يأتي بعد عيد التجلي بفترة قصيرة حوالى٤٠ يومًا (١٧ توت)، ويحتفل به ثانية (١٠ برمهات) أثناء الصوم الكبير قبل أسبوع الآلام والقيامة.

لقد اختار السيد المسيح أن تكون البقعة التي شهدت صعوده المجيد، هي نفسها البقعة التي شهدت كثيرًا من آلامه! إن اختياره لهذا الموضع بالذات، يدل على أن الألم في الحقيقة يرفعنا، يصعد بنا إلى فوق، إلى أمجاد السماء، إلى حضن الآب: "لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد أن يُكَمِّلَ رئيس خلاصهم بالآلام" (عب٢:١٠).

لذلك لا عجب أن نجد أن الألم والمجد معًا، يشكلان عنصرين أساسيين في تسابيح الكنيسة؛ لعل من أبرز الأمثلة على ذلك تسبحة الثلاثة فتية القديسين (سيدراك، وميصاك، وعبدناغو) الذين ألقوا في آتون النار أثناء السبي، لأنهم رفضوا أن يسجدوا للتمثال الذي صنعه "نبوخذ نصر" ملك بابل، فكان إيمانهم أقوى، وأكثر حرارة من النار التي ألقوا فيها[٧٢]! إننا نجد الكنيسة حين تروي قصتهم المجيدة[٧٣]، لا تصفهم بأنهم "أُلقوا" في الأتون، بل وصفتهم بأنهم "رفعوا"، وبدلًا من قولها "لتحترق أجسامهم بالنار" قالت "ليأخذوا المجد في أجسادهم"، فنقول "حنانيا وعزريا وميصائيل، لما رفعوا ليأخذوا المجد (ذوكصا – ⲇⲟⲝⲁ) في أجسادهم، انحدر ملاك وأطفأ اللهيب، وصيره باردًا عن حنانيا وعزريا وميصائيل[٧٤]"!

إن الألم إذا تم قبوله في طاعة، **يتحول إلى طريق للخلاص** للشخص نفسه وربما لمن حوله أيضًا، كما حدث مع السيد المسيح الذي قيل عنه: "مع كونه ابنًا، تعلم الطاعة مما تألم به، وإذ كُمِّل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي" (عب٥: ٨،٩). والصلاة بوجه خاص لها قدرة على تحويل الألم إلى "**فعل محبة**" مثلما فعل السيد المسيح في بستان جثيماني ليلة آلامه.

---

[٧٢] تسبحة الثلاث فتية تصلى يوميًا، في تسبحة نصف الليل، في الهوس الثالث وحواشيه، والذي يستغرق زمنًا كبيرًا من وقت التسبحة، خصوصًا إذا قيلت كل التسابيح باللحن.

[٧٣] القصة بكاملها مدونة في سفر دانيال الإصحاح الثالث، وتتمة دانيال.

[٧٤] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، لحن الثلاثة فتية "تينين ⲧⲉⲛⲉⲛ"، ص ١٣٤.

فكل إنسان قد يجتاز أيضًا أتونًا مؤلمًا، أو ليلة سوداء؛ كالتجارب، أو الآلام الجسدية، أو الآلام النفسية، أو أحيانًا آلامًا عقلية؛ كذكريات مؤلمة، أو أفكار شك، أو مخاوف. كل هذه الآلام إذا احتملها الإنسان لأجل الرب، تحسب له كشركة في آلام المسيح "شركة آلامه" (في٣:١٠).

إذ يُحسب للشخص الذي يحتمل الآلام بصبر، أنه يكمِّل آلام المسيح، في نفسه، مثل مُعلمنا بولس الرسول الذي قال: "الآن أفرح في آلامي لأجلكم، وأكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي، لأجل جسده الذي هو الكنيسة" (كو١:٢٤). وهذه الشركة تتحقق من خلال احتمال الألم بصبر وشكر. فيكلل ويكافأ صاحبها بالأبدية: "إن كنا نصبر فسنملك أيضًا معه" (٢تي٢:١٢)، لذلك يقول القديس كبريانوس والشهيد: "إن الخلود (الأبدية) يوهب لمن يثابر[٧٥]"، وذلك لأن الشخص صار متشبهًا (μίμησις) بالمسيح المتألم "متشبهًا بموته" (في٣:١٠)، والممجد في آنٍ واحد: "إن كنا نتألم أيضًا معه لكي نتمجد أيضًا معه، فإني أحسب أن آلام هذا الزمان الحاضر، لا تقاس بالمجد العتيد أن يستعلن فينا" (رو٨:١٧،١٨). ويتضح هذا في حياة الكنيسة من البدء حيث نجد في الشهيد بوليكاربوس السميرني (تلميذ يوحنا الحبيب) أثناء حرق أعضاءه، خير دليل على ذلك، إذ يقول: "أباركك أيها الآب لأنك حسبتني أهلاً لهذا اليوم وهذه الساعة، لأنال نصيبًا مع جميع قديسيك في كأس مسيحك[٧٦]".

وفي عصرنا الحالي نجد تلك الجرأة والنظرة للألم كذبيحة حب تُدخل الإنسان في **سر الصليب والقيامة**، تتجدد في خطاب أرسله أحد الكهنة السجناء الذين ألقوا في المعتقلات لتمسكهم بإيمانهم

---

[٧٥] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، ثياب العذارى: ٢١.

[٧٦] رسالة كنيسة "فيلوميليوم" إلى كنيسة "سميرنا"، مرجع سابق، ٢:١٤.

في "تشيكوسلوفاكيا" أثناء الحكم الشيوعي، حيث يقول: "يا من تعملون بين المرضى، إعرفوا جيدًا أن الألم جزء لا يتجزء من الحياة. إنني أذكر بكل حب كل المؤمنين الذين تألموا. إن ألمهم ذبيحة حية. لقد تألموا في هدوء ورضى، وفي الخفاء، إلا أن آلامهم هي ذبيحة صلاة عن العالم، معروفة ومقبولة لدى الله غير المرئي. لأنه بدون جلجثة لا قيامة للعالم[٧٧]".

إن علامات الألم نراها في سفر الرؤيا تتحول إلى علامات إنتصار ومجد، فالخروف الغالب الذي رآه يوحنا الرسول وصفه بأنه: "خروف قائم كأنه مذبوح" (رؤ٥:٦). إن هذا الخروف هو الذي تأكل الكنيسة من جسده، وتشرب من دمه في الإفخارستيا. والكنيسة هي إمرأة هذا الخروف، التي قد استعدت لمجيء عريسها بالألم والمجد معًا، فتشترك وهي على الأرض في الإفخارستيا التي هي عشاء عرس الخروف: "عشاء عرس الخروف قد جاء، وإمرأته هيأت نفسها" (رؤ١٩:٧).

والألم في المسيحية ليس هو هدف في ذاته، بل الفرح الدائم (الداخلي) هو الهدف. ولكنه (الألم) في الحياة الروحية **وسيلة إماتة للإنسان العتيق**، حتى ينمو الجديد في المسيح يسوع. وبذلك يستخدم الله الألم لإماتة الذات وللخضوع الكامل لعمل الروح في نمو إنساننا الجديد.

ونحن في الإفخارستيا نشترك ونتحد بالمسيح المتألم والممجد، لذلك فإن الإفخارستيا هي ذبيحة قيامة ومجد وأبدية، مثلما هي ذبيحة صليب وآلام. إن المجد الذي سنكلل به لأجل إحتمالنا الآلام، هو الحياة الأبدية عينها: "أما هبة الله فهي حياة أبدية" (رو٦:٢٣)، "الخلود" كقول القديس أغسطينوس "ما هو هذا المجد إلا الخلود،

---

[77] Philip Walters and Jane Balengrath, *Light through the curtains*, Keston college,1985.

الذي تتقبله الطبيعة البشرية فيه (في المسيح)"، الذي لأجله تجسد ابن الله من القديسة مريم، وصلب وتألم وقبر وقام، لكي ننال نحن هذه الحياة الأبدية من خلاله. إن عربون هذا المجد هو "الإفخارستيا"، وبقية المجد نحصل عليه في الأبدية بعد القيامة العامة.

والمسيح نفسه تألم كإنسان كامل، وحزن وأكتأب حتى الموت، وصلى للآب ثلاث مرات في بستان جثيماني قائلًا: "يا أباتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك" (لو٢٢:٤٢). لم يطلب السيد المسيح (الذي هو ابن الله) معجزة من الآب للخروج من الألم، ولم يصنع هو نفسه معجزة لتخلصه من الألم (بالرغم من قدرته على ذلك لو أراد) لكنه احتمل، احتمل الألم كإنسان حتى الموت! إننا نراه في عمق الألم والأسى، يطلب مشيئة وإرادة الآب، فكانت إرادته ومشيئته، واحدة مع الآب (كما هي منذ الأزل).

لذلك ينبغي ألا نلغي، أو نُهمش حقيقة عنصر الألم في الحياة، أو المعاناة في الأمراض مثلًا، لكن ينبغي أيضًا أن نعلم أن الألم يعطي للإنسان عمقًا، إذا أحسن التعامل معه، واستفاد منه. فالسبيل الوحيد لاجتياز الألم بسلام هو أن نتقبله بشكر، بل ونحتضنه (embrace it)، حينئذ سيملأ الرب الألم بحضوره، **ويُبتَلع الألم من المحبة**، بل ويصبح حينئذ الألم "**شركة في المحبة**" (communioun of love)، فالحب وحده يعطي معنى للألم، فينمو الإنسان الجديد على صورة المسيح، ويصير فرح الإنسان بهذا النمو، وبتفجر الحب الإلهي داخله سببًا قويًّا في قبول الآلام بل وطلبها!

إن الألم قد يكون أحيانًا موصل جيد لصوت الله، أو كما يقول "س. إس. لويس" (١٨٩٨-١٩٦٣) إنه مكبر لصوت الله: "الله يهمس في آذاننا وقت الفرح، ويتكلم في ضمائرنا، لكنه يصيح في آلامنا، الألم هو مكبر لصوت الله"!

وأحيانًا يستخدم الله الألم أو المرض كمعول (أداة) لكسر أو هدم شيء داخلنا، لكي يعيد بنائنا وتشكيلنا حسب قصده (كجزء من عملية الشفاء). الأمر الذي قد يسبب لنا الكثير من الألم، كما يتحدث القديس كبريانوس في إحدى مقالته: "الطبيب الذي يعالج أطراف الجرح بأيد حانية، هو طبيب غير حاذق (غير ماهر)؛ إذ يترك بهذا السم في عمق الجرح، وبذلك يزيد من آلامه، بل يجب أن يفتح الجرح ويستأصل الجزء الفاسد، حتى ولو كان في ذلك صراخ للمريض وشكوى من شدة الألم، لكنه فيما بعد عندما يسترد عافيته، سوف يقدم الشكر للطبيب على ما صنعه[٧٨]".

ونحن حينما **نقدم ألمنا ومعاناتنا لله كتقدمة**، ونضعها في يديه تتحول إلى شيء آخر، إلى فائدة في النهاية: "ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معًا للخير، للذين يحبون الله" (رو٨:٢٨)[٧٩]، لذلك ينبغي في كل الأحوال أن نسأل ونطلب مشيئة الله أكثر من أي شيء آخر، مخضعين إرادتنا طواعية لله وليس عن اضطرار، حينئذ نكون في وحدة مع الآب والابن، كما هما في وحدة معًا لا تنفصم (ومع الروح القدس).

والألم ليس "فضيلة" في حد ذاته، بينما الأسلوب الذي نتعامل به مع الألم هو ما قد يكون "فضيلة". فإحتمال الآلام هو موهبة أعظم من موهبة إقامة الموتى، بحسب رأي القديس يوحنا ذهبي الفم: "إذا تألم أحد لأجل المسيح، فهذا معناه أنه ينال نعمة، وهبة، وعطية، فلا تخجلوا إذًا، لأن هبة التألم لأجل المسيح، هي حقًّا هبة، أكثر إعجازًا من إقامة الموتى... لذلك يجب علينا ليس فقط أن لا نخجل، وإنما أن نبتهج أيضًا لنوال هذه العطية[٨٠]".

---

[٧٨] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، الجاحدين:١٤.

[٧٩] الترجمة الدقيقة عن اليونانية هي: "إننا نعلم (مختبرين) أن الله يعمل معًا في كل شيء للخير للذين يحبون الله".

[٨٠] القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، مرجع سابق، العظة الخامسة.

واحتمالنا نحن للآلام لا ينبع من ذواتنا الضعيفة، بل ينبع في الحقيقة من تحمل المسيح الآلام لأجلنا، فيصير احتمال الآلام وعبورها إلى المجد **موهبة من الله** تمنح بالروح القدس في المسيح من خلال أسرار الكنيسة الشافية كسر مسحة المرضى، وسر الإفخارستيا حيث نتحد بالمسيح الذي تألم وصبر على الموت لأجلنا، وقام ليمنحنا فيه الغلبة على الموت والألم.

فتحمل الآلام "لأجل المسيح"، هو موهبة وعطية من الله: "لأنه قد وهب لكم، لأجل المسيح، لا أن تؤمنوا به فقط، بل أن تتألموا لأجله" (في١:٢٩)، تميز المؤمن الحقيقي عن غيره، فالألم في حياة المؤمن يربط الشخص أكثر بالله وليس العكس، كما يقول القديس كبريانوس: "فمتى كنا في ضعف وعجز عندئذ تكّمل قوتنا وإن جاهدنا يثبت إيماننا ونتكلل... إن الفرق بيننا وبين الآخرين الذين لا يعرفون الله؛ هو أنهم في الضيق يشتكون ويتذمرون، أما نحن فإن الضيق لا يحيدنا عن حياة الفضيلة والإيمان، بل إن إحتمالنا يزيدنا قوة[٨١]".

وموهبة إحتمال الألم وتقبله بسلام وفرح داخلي هي تكافئ الاستشهاد، بحسب تعليم القديس "الأنبا باخوميوس" ("أب الشركة"، القرن الرابع) القائل: "هل تظن أن تقطيع الأعضاء والحرق وحدها استشهاد؟! بل تعب النسك واحتمال الآلام... والأمراض، من يحتمل ذلك بشكر، فهو شهيد! وإلا فما حاجة الرسول أن يكتب "من أجلك نمات كل النهار"، فإن لم يكن الإنسان يموت في الظاهر، فإنه يحتمل ما يأتي عليه بصبر".

وهذا الاستشهاد الداخلي، هو غير مرئي، لأن لا أحد يراه (على خلاف الاستشهاد بسفك الدم أو بالنسك الذي قد يظهر للآخرين)،

---

[٨١] مقالات القديس كبريانوس، مرجع سابق، الخلود:١٣.

لذلك لا عجب في أن تطلب الكنيسة لأجل مؤمنيها قائلة "مؤمنيك عدهم مع شهدائك[٨٢]".

إننا كثيرًا ما ننشغل أثناء وقت الألم[٨٣] بأن نسأل: "**لماذا؟**". بينما السؤال الأهم في ذلك الوقت هو "**ماذا؟**". ما الذي سأفعله بالألم؟ ما الذي أستطيع أن أقوم به أثناء الألم؟ هل هو التذمر، الغضب..إلخ، أم محاولة جعل وقت الألم وقتًا مثمرًا. **ووضع الآلام التي نمر بها في يد الله**، بغض النظر إذا كانت في الأصل من الله، أو من أنفسنا، أو بتجربة من الشيطان، أو حتى بحكم ظروف الحياة. حتمًا في النهاية ما يحدث لنا هو بسماح من الله، والمهم ثانية هو ألا ننشغل بالتفكير المستمر في "**لماذا يحدث هذا لي؟**" فالبحث عن إجابة لمثل هذا السؤال عادة لا يفيد، بل للأسف يزيد من الألم، ويولد الغضب، ويجذب الإنسان إلى دوامة الشفقة على النفس!

لكن إذا تعلمنا أن نضع آلامنا أيًّا كان سببها في يد الله، نسلمها له، نقدمها له كتقدمة حب، بشكر، ستكتسب آلامنا قيمة؛ فأي شيء نضعه في يد الله يكتسب قيمة، حتى ولو كان في الأصل شيئًا بسيط. لكن تطبيق ذلك ليس سهلًا على الدوام، بل أحيانًا يحتاج منا إلى بذل مجهود، ومؤازرة من نعمة الله. إننا فقط نحتاج إلى تحويل طاقتنا أثناء الألم إلى الإتجاه الصحيح.

إذا فعلنا ذلك سيتغير الوضع حتمًا، حينئذ سيكتسب ألمنا معنى، ويصبح له هدف، وستصبح **معاناتنا مبدعة وخلّاقة** (creative suffering)! ليتنا ندرك ونقبل تلك الحقيقة، أن "كل تأديب في الحاضر، لا يرى أنه للفرح بل للحزن، وأما أخيرًا فيعطي

---

[٨٢] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، الطلبة الثانية، ص ٣٥٧.

[٨٣] قد يمر الشخص حينما يجتاز ألمًا أو فقدًا لشيء مهم في حياته بخمسة مراحل طبيعية (grief process) وهي: ١- الإنكار، ٢- الغضب، ٣- الحزن (الاكتئاب)، ٤- المساومة، ٥- التقبل. وتعلق الشخص بأحد هذه المراحل لفترة طويلة قد يسبب مشكلة نفسية للشخص.

الذين يتدربون به، ثمر بر للسلام" (عب١٢:١١)، عالمين أن إحتمال الألم والصبر عليه بشكر، أحيانًا يكون معجزة أعظم من الشفاء ذاته، أو زوال الألم!

إذن بالآلام واتحادنا بالمسيح المتألم والقائم، يميت الروح القدس ذواتنا ويقيمنا على شبه قيامة المسيح في المجد، وينمينا كأبناء للآب، لنحيا مع الآب والابن والروح القدس في شركة المجد الأبدي. وأخيرًا الإبدية التي نختبر عربونها في القداس الإلهي لن تمنع الألم الذي قد نتعرض له في حياتنا، لكنها ستجعلنا نجتاز الألم برجاء!

ألحان كنسية قديمة

"خبز الحياة [٨٤]"

خبز الحياة الذي نزل من السماء، ووهب الحياة للعالم،
وأنت أيضًا يا مريم حملت في بطنك،
المن العقلي الذي أتى من الآب، ولدته بغير دنس،
وأعطانا جسده ودمه الكريم فحيينا إلى الأبد.
يقوم حولك الشيروبيم والسيرافيم،
ولا يستطيعون أن ينظروك!
ونحن كل يوم ننظرك على المذبح،
ونتناول من جسدك ودمك الكريم!
من أجل هذا نعظمك باستحقاق بتماجيد نبوية،
لأنهم تكلموا من أجلك بأعمال كريمة،
أيتها المدينة المقدسة التي للملك العظيم.
نسأل ونطلب أن نفوز برحمة، بشفاعتك عند محب البشر.
بشفاعات والدة الإله القديسة مريم،
يا رب أنعم لنا بمغفرة خطايانا.

---

٨٤ لحن "بي أويك אוϣϣπ" أو "الخبز" هو أحد ألحان الكنيسة القبطية التي تقال في وقت توزيع الأسرار (أثناء التناول)، وتوجد قطع هذا اللحن في ثيؤطوكية يوم الأحد (الربع الثاني من القطعة الرابعة، والأرباع من ثمانية إلى إثني عشر من نفس القطعة)، ويرجح البعض أن يكون القديس البابا أثناسيوس الرسولي قد كتب أجزاء كثيرة من هذه الثيؤطوكية، وإن كان لا يوجد دليل قاطع يثبت ذلك، انظر كتاب: الإبصلمودية السنوية المقدسة، مرجع سابق، ص ١٨٦، وكتاب: الإبيدياكون الدكتور يوحنا نسيم يوسف، *مقدمة عن الإبصلمودية المقدسة*، ص ١٢٣.

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس باسيليوس[٨٥]

رئيس أساقفة قيصرية الكبادوك

قدوس أنت حقًا وكلي القداسة وجلال قداستك لا قياس له، وبار أنت في جميع أعمالك. لأنك بعدل وحكم حق جلبت علينا كل ما جلبت. فإنك لما جبلت الإنسان بأخذك ترابًا من الأرض، وبإكرامه اللهم بصورتك، وضعته في فردوس النعيم، ووعدته بحياة خالدة، وبالتمتع بخيرات أبدية، إن حفظ وصاياك. لكنه لما عصاك أنت الإله الحقيقي خالقه، وإنقاد لغواية الحية، فأُميت بزلاته، ونفيته يا لله بحكمك العادل من الفردوس إلى هذا العالم، وأعدته إلى الأرض التي منها أُخِذ، مدبرًا له الخلاص بالولادة الجديدة، التي بمسيحك نفسه. فإنك لم تعرض إلى الأبد عن جبلتك التي صنعتها، أيها الصالح، ولم تنس عمل يديك، بل إفتقدته على أنواع كثيرة بأحشاء رحمتك. فأرسلت الأنبياء وصنعت المعجزات على أيدي قديسيك، الذين أرضوك جيلاً بعد جيل. وكلمتنا بأفواه عبيدك الأنبياء، وسبقت فبشرتنا بالخلاص الآتي، وأعطيتنا ناموسًا يعيننا، وأقمت ملائكة يحرسوننا. ولما حان كمال الأزمنة كلمتنا بابنك نفسه، الذي به صنعت الدهور. الذي وهو ضياء مجدك، وصورة أقنومك، وحامل الجميع بكامل قدرته، لم يعتد مساواته لك، أيها الإله الآب إختلاسًا، بل على كونه إلهًا أزليًا، شوهد على الأرض وخالط الناس. وبتجسده من البتول القديسة، أخلى ذاته صائرًا مشاركًا لنا في جسدنا...، ليجعلنا شركاء في صورة مجده.

---

[٨٥] انظر الحاشية ص ٧٠.

الفصل الحادي عشر

الإفخارستيا
حياة عرسية

الإفخارستيا حياة عرسية

الخليقة هي تعبير عن محبة الله الثالوث. الله يحبنا محبة عرسية. الإنسان مدعو ليشترك ويبادل الله تلك المحبة. الإفخارستيا هي سر العريس والعروس. الإفخارستيا نموذج لعرس الملكوت، وسكيب للحب.

قصة

في رواية للكاتب الأمريكي "أرثر جولدن"، "مذكرات فتاة جيشا" (Memoirs Of A Geisha)[1] كانت هناك عائلة فقيرة تحيا في إحدى قرى الصيادين في اليابان في مطلع القرن العشرين، ومن شدة فقر تلك الأسرة اضطرت إلى بيع ابنتهم إلى أحد بيوت "الجيشا[٢]"، لكي يحصلوا على مال لشراء الطعام!

وهناك أمضت الفتاة الصغيرة "شيو" طفولتها البائسة تعمل كخادمة للجميع، تكنس وتمسح، وتطبخ في مقابل الطعام والمأوى. محتملة قسوة ربة المنزل، وإهانات فتيات الجيشا الكبار اللواتي كن ينفقن على المنزل من خلال تقديم فنونهن. وفي نفس الوقت كانت "شيو" تذهب إلى مدرسة الجيشا لتتعلم فنون الإتيكيت، والغناء والعزف، وتقديم الشاي، وتنسيق الزهور، وغيرها من المهارات التقليدية اللازمة لفتيات الجيشا.

وفي إحدى المرات وهي تجري في الطريق إلى المدرسة اصطدمت بشابٍّ يدعى "نبو سان"، فاعتذرت له، فسألها عن أين تسكن فأخبرته، فعاملها بلطفٍ وابتاع لها مثلجات، ففرحت جدًّا، ومسح وجهها بمنديله الذي نسيه معها، ثم مضى ولم تره بعد ذلك، إلا أنه

---

[1] Arthur Golden, *Memoirs of a geisha*, Vintage,1999.

٢ "الجيشا"هي مهنة فنية (فولكلورية) تؤديها الفتيات في اليابان، حيث يتلقين من صغرهن الفنون الشعبية اليابانية المختلفة، ليقدمنها بعد ذلك في بيوت الشاي والمسارح.

لم يفارق قلبها أو عقلها منذ ذلك الحين!

وبعد فترة قصيرة اشترت إحدى أشهر مدربات الجيشا "ماميها"، الصبية "شيو" ودفعت فيها ثمنًا غالٍ جدًّا، ومنحتها اسمًا جديدًا "سايوري." وكانت هذه السيدة تعامل "شيو" بلطف شديد كأم وأخت كبرى لها، وعلمتها على مدار سنين، كيف تكون فتاة جيشا حقيقية وجذابة، وفي نفس الوقت تحافظ على كرامتها.

مرت بضعة أعوام وظلت "سايوري" محتفظة بذلك المنديل الذي نسيه معها السيد "نبو سان"، وكان هو التذكار الوحيد الباقي لها من ذلك اليوم السعيد. كان ذلك المنديل يذكرها بأن كل ما تقوم به له معنى وله أهمية. مؤمنة في قلبها أنه سيأتي يومًا ما، وتقابله ثانية صدفة بعد أن تكبر، وحينها ستكون جميلة وستكون قد تعلمت كل الفنون اللازمة، وحينئذ سيشتريها ويصبح هو سيدها وراعيها.

كانت "سايوري" تجتهد في كل شيء، وتتعلم كل شيء، محتملة متاعب كثيرة لتحفظ عفتها، كل ذلك لأجل هدفٍ واحدٍ في قلبها، وهو أن تكون مستعدة لذلك اليوم الذي ستلتقي فيه ثانية بحبيبها "نبو سان." وكانت كل سنين مشقتها كلا شيء في عينها، أمام تلك اللحظة التي سترى فيها حبيبها الذي لا تعرف عنه شيئًا!

ومرت سنين عديدة كبرت فيها "سايوري" ونضجت وأصبحت أجمل وأشهر فتاة جيشا على الإطلاق، حتى أن مهرها أصبح أغلى مهر لفتاة جيشا منذ عقود! حينئذ إلتقت ثانية بالشاب "نبو سان" الذي كانت قد التقته وهي طفلة، ولكنه الآن قد كبر وأصبح رجل أعمالٍ مهم، وبالفعل دفع مهرها واقتناها لنفسه. لتكتشف أنه هو الذي كان وراء شراء السيدة الطيبة "ماميها" لها وأنه هو الذي دفع ثمنها، وأوصى بها أن تتعلم وتتقن كل الفنون متابعًا أخبارها منذ

طفولتها. لتكتشف أن كل ما مرت به لم يكن صدفة، ولا من ترتيب الأقدار، بل إنه هو الذي كان يعدها لنفسه طوال هذه السنين لتكون عروسًا له في النهاية!

الخلق كتعبير عن الحب الإلهي وشركة المحبة

لقد خلق الله الخليقة كلها كفعل محبة اختياري منه "فإنك تحب جميع الكائنات، ولا تمقت شيئًا مما صنعت، فإنك لو أبغضت شيئًا لما كونته، وكيف يبقى شيء لم ترده؟ أو كيف يحفظ ما لم تدعه؟" (الحكمة ١١:٢٤،٢٥). وخلق الله الإنسان أيضًا كفعل محبة اختياري منه (بحرية إرادة): "خلقتني إنسانًا كمحبٍ للبشر[٣]"، فخلقه على صورته كما جاء في سفر التكوين: "فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه" (تك١:٢٧؛ ١:٥)، وأحد سمات هذه الصورة الإلهية هي العقل، وحرية الإرادة، والمحبة. وخلق الله لآدم حواء "من جسده"، ليحييا هما أيضًا كجسد واحد في شركة محبة (communion of love)، ووحدة مع الله كما عبر القديس أغسطينوس في قوله: "لقد **خُلِق الإنسان ليحيا في شركة واتحاد مع الله** حيث يجد فيه (في الله) سعادته[٤]." وأيضًا ليحيوا في شركة مع بعضهم البعض، في مناخ من الحرية يسمح لهم بالنمو في المحبة، والوحدة، التي في قصد الله للبشرية منذ الأزل "لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بإمرأته ويكونان جسدًا واحدًا" (تك٢:٢٤).

وبعد أن خلق الله الإنسان سَلّطَه (جعله وكيلًا) على كل شيء كما نصلي في القداس الإلهي قائلين: "أخضعت كل شيء تحت قدمي، لم تدعني معوزًا شيئًا من أعمال كرامتك[٥]." ويعلق القديس

---

[٣] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٠.

[4] Augustine, Conf., op. cit., 10,28,39: PL 32,795.

[٥] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣١.

"مقاريوس الكبير" على خلق الإنسان ودعوته العليا التي هي أن يحيا كصورة لله على الأرض، قائلًا: "حينما تسمع عن كرامة النفس وكيف أن جوهرها العاقل ثمين جدًّا، فإنك لا تفهم أن الله لم يقل عن الملائكة، بل عن الطبيعة البشرية "لنصنع الإنسان على صورتنا كشبهنا" (تك١:٢٦). وأن السماء والأرض تزولان، ولكنك أنت قد دعيت إلى الخلود، والتبني، الأخوة للملك، ولتكون عروسًا له. في هذا العالم الذي حولنا كل ما هو للعريس يصير للعروس. وهكذا كل ما هو للرب، مهما كان فإنه يودعه إياك. لقد أتى هو بشخصه إلى معونتك، ليدعوك إلى فوق[٦]."

وحقيقة الخلق كتعبير عن الحب الإلهي الحر، ورغبة الله في أن يدخل الإنسان إلى شركة محبته هو ما تؤكد عليه صلوات الكنيسة: "يا خالق البرية كلها التي ترى والتي لا ترى، المعتني بكل الأشياء، لأنها لك يا سيدنا محب الأنفس[٧]"، وأكد عليه عمداء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، مثل الفيلسوف "أثينا غوراس" (القرن الثاني)، القائل: "إن كل المنطق في وجود (reason for ontology) الكون، هو في حقيقة أن الله لا يريد أن يكون وحده، ولا يريد أن يكون بدوننا، ولكنه بقصد وحرية قد خلق الكون، وربطه بذاته... ساكبًا فيه محبته بلا تحفظ، وكمجال نتمتع نحن فيه بالشركة معه[٨]."

إلا أن الإنسان بعد السقوط فقد حياة الشركة وانحدر في محبته، **وسقط من دعوته للاتحاد بالله**، فخرج آدم وحواء من شركتهما مع الله، وأسقطوا نفسيهما من المحبة! وفقدا نتيجة لذلك؛ شركة

---

[٦] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، العظة١٦:١٣.

[٧] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، "صلاة الحجاب للقديس يوحنا المثلث الطوبى"، ص ٣٩٦.

[8] Athenagoras, *Leg.*, 4.2 ; 6.2 ; 10.2-5 ; 12.3 ; 18.2.

المحبة والوحدة التي كانت بينهما، فصار آدم يقول عن إمرأته: "المرأة التي جعلتها معي، هي أعطتني من الشجرة فأكلت" (تك٣:١٢)! لقد تغير الحال فبعد أن كان آدم وحواء متساويين "معينًا نظيرًا" (تك٢: ١٨،٢٠)، صار آدم يتسلط على إمرأته: "إلى رجلك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك" (تك٣:١٦). إلى أن جاء المسيح (آدم الثاني) في ملء الزمان ليصحح الوضع ويرجع المساواة بين الرجل والمرأة، مع الحفاظ على تمايزهما، وذلك من خلال إعادتهما إلى حياة الاتحاد والشركة مع الله، حيث يقول معلمنا بولس الرسول: "ليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعًا واحد في المسيح يسوع" (غل٣:٢٨)، وفي موضع آخر يقول: "الرجل ليس من دون المرأة، ولا المرأة من دون الرجل في الرب" (١كو١١:١١). فأصبحت رئاسة الرجل للمرأة هي رئاسة بين متساويين: "ليس للمرأة تسلط على جسدها بل للرجل، وليس للرجل تسلط على جسده بل للمرأة" (١كو٧:٤). فإن كان **الرجل رأسًا للمرأة**: "وأما رأس المرأة فهو الرجل" (١كو١١:٣)، **فالمرأة تاج على هذا الرأس**: "المرأة الفاضلة تاج لبعلها" (أم ١٢:٤).

الحب وحرية الإرادة

لقد خلق الله الإنسان ومنحه حرية الإرادة لكي يحب الإنسان خالقه بحرية، ويحب الآخر بحرية أيضًا، وبذلك تكمل محبته، لأن المحبة الكاملة هي التي تنبع من إرادة حرة، وليس عن قهر أو اضطرار، كما يقول المثل الفرنسي: "المحبة هي ابنة الحرية." ومن المحبة الحرة تنبع العبادة الحقيقية والكاملة؛ عبادة البنين وليس عبادة العبيد. لذلك أخرج الرب شعب إسرائيل من أرض مصر بعد أن مكثوا وتكاثروا فيها أربعمائة سنة؛ عاشوا أغلبها عبيدًا أذلاء للمصريين. فأرسل الرب موسى (يرمز للمسيح) ليخرجهم ويدخلهم

أرضًا جديدة؛ أرض الموعد، التي سبق ووعد بها الله إبراهيم ونسله للأبد. فنرى الرب يأمر موسى بأن يخبر فرعون بأن الرب إله إسرائيل يأمر بأن يُطلَقَ شعبه "حرًّا" ليعبده في البرية، فيرفض فرعون مرارًا، فما كان من الرب في النهاية إلا أن أخرجهم بيد عزيزة وذراعٍ رفيعة، ليعبدوه ويحبوه: "تحب الرب إلهك" (تث٦:٥؛ ٩:١٩؛ ٦:٣٠؛ ٢٠:٣٠) كما أراد هو "أحرارًا" في البرية، كأول وأهم وصية، والتي هي ملخص الناموس كله!

لذلك جاء المسيح في ملء الزمان ليرد إلى البشرية كلها الحرية ثانية، وهذا ما أكده بولس الرسول كثيرًا للغلاطيين (أهل غلاطية)، ومن ثم يستطيع الإنسان أن يحب الله محبة حقيقية كاملة بإرادة حرة. فالله يريد أن يخلصنا شرط موافقتنا وتجاوبنا. إن حرية الإرادة التي وضعها فينا الله كجزء من صورته الإلهية فينا، ضرورية لخلاصنا كما يشدد القديس أغسطينوس في تعليمه عن الخلاص: **"الله الذي خلقك بدونك، لا يستطيع أن يخلصك بدونك"**[٩]!

والقداس الإلهي هو دعوة حرة من الله ليتقابل مع شعبه الحر ليعبده. كما أنه أيضًا **حركة "خروج" و"دخول"**؛ فالمسيح الذي كان موسى رمزًا له، جاء ليخرج شعبه أيضًا من العالم، ويدخلهم أرض الموعد الحقيقة التي في السماء، مخلصًا إياهم من الموت والفساد، ومحررًا إياهم أيضًا من كل أصناف العبودية، مانحًا لهم عربون ثمار الأبدية ليتذوقها الشعب في الإفخارستيا، كما فعل يشوع بن نون، وكالب بن يفنة في العهد القديم حين تجسسوا أرض الموعد (عد:١٣) وعادوا بثمار أرض كنعان.

---

[٩] *عظات القديس أغسطينوس*، العظة ١٦٩.

الإفخارستيا تدخلنا في دائرة الحب الإلهي

لقد استطاع السيد المسيح بمشورة أزلية أن يبطل العداوة، ويغلب الشر الذي تملك على العالم، بالمحبة التي هي السلاح الأقوى الذي لا يقهر. جاء المسيح ليوقف نزيفًا بنزيف قاهرًا الموت بالحياة؛ موقفًا نزيف الخطية والفساد الذي استمر لأجيال، وأودى بحياة الجميع في العهد القديم، بنزف دمه هو على الصليب، بعد أن فقدت البشرية كرامتها وإنسانيتها، وقوتها التي خلقها الله عليها في البدء، وصارت منحنية من الضعف والمرض، كما في معجزة شفاء المرأة المنحنية (لو:١٣)، ونازفة الدم (مت:٩) اللتين تمثلان حال البشرية بعد السقوط. جاء المسيح ليعلن كمال "**زمن الحب**" في العهد الجديد: "فمررت بك ورأيتك وإذا زمنك زمن الحب" (حز١٦:٨)!

لقد أعلن لنا السيد المسيح سر محبة الثالوث، عندما خاطب الآب في بستان جثيماني كاشفًا لنا مقدار محبة الله (الثالوث) لنا، وصار بإمكاننا من خلاله (المسيح) أن نفهم معنى أن "الله محبة" (١يو٤:٨،١٦). ولقد تجسد الابن ليعرفنا الآب، ويعلن محبته لنا: "ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به" (يو١٦:٢٦). فالآب يحبنا، مثلما يحب ابنه الوحيد يسوع المسيح، لأنه بعد التجسد يرى فينا صورة ابنه! ويتضح ذلك من خطاب السيد المسيح للآب قائلا: "وأحببتهم كما أحببتني" (يو١٧:٢٣)، فالآب يحبنا في **الابن**. ويكمل السيد المسيح حديثه عن هذا الحب الذي بينه وبين الآب، والذي إنتقل إلينا، بقوله: "لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم" (يو١٧:٢٤). فالله الآب يحبنا في ابنه يسوع المسيح؛ إذ قد أصبحنا أبناء للآب بالتبني ولبسنا ابنه في المعمودية: "كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح" (غل٣:٢٧). والروح القدس هو روح المحبة، الروح الذي **يسكب فينا محبة الثالوث**: "لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح

القدس المعطى لنا" (رو٥:٥)، وينقل لنا كل ما هو للابن، حيث يشكل ويطبع فينا صورة الابن حسب قول القديس "كيرلس الكبير": "إن شركة الروح القدس تجعلنا مشابهين للمسيح (رو٨:٢٩)... حتى إذا ما رأى الله الآب فينا ملامح ابنه الخاص اللائقة به، يحبنا نحن أيضا كأولاد له، ويشرق علينا بالكرامات الفائقة لهذا العالم[١٠]." فكل تدبير الله الخلاصي لإجلنا هو تدبير ثالوثي؛ أي إن الأقانيم الثلاثة مشتركة فيه. لذلك نرى آباء الكنيسة كثيرًا ما ترد في كتاباتهم عبارة "**كل شيء هو من الآب، بالابن، في الروح القدس**[١١]".

وكما أن محبة الله لنا هي محبة ثالوثية، نحن مدعوون بالمثل لنبادله محبة ثالوثية في كل شيء، وبالأكثر في الصلاة؛ التي يجب أن تكون **استجابة** (response) **حب لحب**؛ استجابة حب الإنسان لحب الله. وفي سر الإفخارستيا الذي هو في الواقع **تقدمة "حب لحب"** (love for love) بيننا وبين الثالوث، فنحن في الإفخارستيا نتناول المسيح، الذي قدم نفسه ذبيحة لأجلنا، كفعل محبة وتقدمة من الثالوث؛ فيها قدم الآب وبذل ابنه الوحيد، وقدم المسيح ذاته بإرادته، والروح القدس يقدم كل ما هو للمسيح لنا. وبذلك يعود الإنسان إلى محبته الأولى (رؤ٢:٤)، أي إلى الله، وإلى محبة الآخر (القريب) من خلال الله. ومن ثم يقدم الإنسان ذاته، وكل شيء ثانية لله "**في المسيح**" كتقدمة محبة من الإنسان للثالوث: "هذا (المسيح) الذي من قبله نشكر، ونقرب لك (الآب) معه (مع الابن)، ومع الروح القدس الثالوث المقدس المساوي، غير المفترق، هذه الذبيحة الناطقة وهذه الخدمة غير الدموية[١٢]."

والمحبة الثالوثية التي هي دعوتنا هي محبة تجاه: "**الله، والنفس،**

---

[١٠] القديس كيرلس الكبير، *العظة الفصحية* ١٠:٢.

[11] P.G 74,333D-336A

[١٢] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الكيرلسي، ص ٤١٠.

والآخر" إننا من خلال اتحادنا بالمسيح في سر الإفخارستيا، نمتلئ بمحبة الثالوث، وبالتالي نستطيع إعلانه للآخرين. فتصبح حياتنا وشركتنا مع الآخرين استعلانًا للثالوث، وشهادة عنه. إذا استطعنا أن نقدم المحبة بمفهوم **الخروج عن الذات** "الأنا" والتوجه للآخر، من خلال التوجه أولًا إلى الله، سيصبح بذلك لكل فرد منا شركة ونصيب في محبة الثالوث. فنستطيع بذلك أن ندعو الله الثالوث "ثالوثي" (مصحوبة بياء المِلْكية) كما كان يحلو للقديس "غريغوريوس الناطق بالإلهيات" أن يدعوه! ففي كل مرة نفضل الآخرين على أنفسنا نعكس محبة الثالوث. وفي كل مرة نقبل مشورة الآخرين، بدون تسلط أو كبرياء، أو تنازع على الرياسة، نظهر الثالوث في حياتنا. وفي كل مرة نشعر بألم الآخرين ونقدم لهم العون، نعلن شركة الثالوث. وفي كل مرة نقدم طاعة وخضوعًا، بدون تذمر نعلن الثالوث، **فالمسيحية تبدأ من الميل الثاني**. لذلك توصي الكنيسة منذ البدء على المحبة، فنرى القديس "كليمندس الروماني" (القرن الأول)[١٣] يوصي الكنيسة ويحث المؤمنين على المحبة قائلًا: "المحبة توحدنا بالله... المحبة تحتمل كل شيء، المحبة رحبة الصدر، لا تذلل في المحبة ولا كبرياء، المحبة لا تصنع الشقاق ولا تحرض على التمرد، بل تتم كل شيء في وئام، المحبة تصنع كمال مختاري الله، ومن دون المحبة لا شيء يرضي الله[١٤]".

في العهد القديم وفي زمن المسيح كانت "**علامة الحب**" هي أن يشرب الجميع من كأس خمر واحدة هو في وليمة عشية السبت

---

[١٣] القديس"كليمندس الروماني" هو أحد الآباء الرسوليين، ويؤكد القديس "إيريناؤس" أنه عاصر الرسل، وكان أسقفًا لروما من سنة ٦٨ إلى ٨٠ م وتعد رسالته إلى كنسية كورنثوس ذات أهمية كبيرة لقدمها ولاكتمالها وهي تتألف ٦٥ فصلًا، وتعالج مشاكل الانشقاق والتحزب الذي كان في كنيسة كورنثوس آنذاك. انظر كتاب: القمص تادرس يعقوب ملطي نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى، مرجع سابق، ص ١٣.

[١٤] رسالة القديس كليمندس الروماني إلى كنيسة كورنثوس، مرجع سابق، ٤٩:٤.

(والأعياد)، حيث تتلى صلاة بركة خاصة (Kiddush) على المائدة[15] ويتكرر ذلك أيضًا في أحد الولائم التي تسبق الفصح، في وليمة "الحابورها" (Haborah)، ولعل ذلك يشرح لنا المعنى وراء ما قالته عروس النشيد عن عريسها: "أدخلني إلى بيت الخمر وعلمه فوقي محبة" (نش٢:٤)، فهذا هو ما يقوم به السيد المسيح في كنيسته (بيت الخمر الجديد) ومن خلال سر الإفخارستيا، التي هي أسمى تعبير عن الحب الإلهي، حيث يعطي المسيح دمه لأحبائه! لذلك لا عجب في أن كثيرًا من القديسين يمدحون الإفخارستيا كونها سر المحبة الإلهية (Sacramentum caritatis)، كما يتضح في رسائل القديس إغناطيوس الأنطاكي: "الشراب الذي أشتهيه هو دم المسيح، الذي هو الحب الذي لا يفنى[16]".

قال الفيلسوف والمفكر الفرنسي "جان بول سارتر" (١٩٠٥-١٩٨٠م) "الحب وهم"، ولكن في الإفخارستيا تصبح المحبة حقيقة تامة ومطلقة (Ἀλήθεια) نقيم ونعيش فيها، فالله في الإفخارستيا يدعونا للدخول إلى **عمق سر محبته**، بل والإقامة فيها، وأن نقيم في الله يعني أن نحمل الله في كياننا[17]، تحقيقًا لوصيته التي أكد عليها كثيرًا لتلاميذه عشية صلبه "اثبتوا (أقيموا، Μείνατε) في محبتي" (يو١٥:٩)[18].

ففي الليلة التي أسس فيها السيد المسيح سر الإفخارستيا، تحدث

---

15 *Mishnah*. Ber. VIII. 1.

١٦ القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى رومية ٧: ٢.

١٧ لا يتردد بعض آباء الكنيسة، مثل القديس إغناطيوس الأنطاكي، في أن يصف المؤمن بأنه "حامل المسيح" (خريستوفورس - Χριστοφόρος)، و "حامل القدسات" (آجيوفورس - Ἁγιοφόρος) و "حامل الهيكل" (ناؤفورس - Ναοοφόρος)، ومن هذا المنطلق أطلقت الكنيسة على بعض القديسين لقب "حامل الإله" (ثيؤفورس - Θεοφόρος) مثل القديس إغناطيوس الأنطاكي، و "حامل المسيح" كما في القديس "كريستوفر"، و "حامل الروح" (بنفماتوفورس - Πνευματόφόρος) والذي يُلَقَّب به القديس مقاريوس الكبير، وأيضًا نجد في تاريخ الكنيسة لقب "اللابسي الله" (المتوشحون بالله) الذي يطلق على بعض الآباء النساك في الطقس السرياني والبيزنطي.

١٨ الفعل (Μένω) في اللغة اليونانية له عدة معان منها: أثبت، أقيم، أدوم، أستمر.

عن علاقة الكرمة بالأغصان (إنجيل يوحنا، الإصحاح الخامس عشر)، تلك العلاقة التي سر ثباتها وحياتها "داخلي"! فالأغصان تثبت في الكرمة، وتنمو وتثمر من خلال العصارة التي تسري في داخلها وتحمل كل الغذاء اللازم للحياة. وعصارة الكرمة[١٩] في الكنيسة هي الإفخارستيا، التي تربط كل الأغصان (الأعضاء) ببعض، وبالكرمة (المسيح). وفي إطار ذلك أوصى السيد المسيح تلاميذه بأن يثبتوا (يقيموا) فيه وفي محبته، ومنحهم الوسيلة التي بها يحققون ذلك أكمل تحقيق، وذلك من خلال الإفخارستيا: "من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت (يقيم) فيّ وأنا فيه" (يو٦:٥٦)، وهذا هو ما أشار إليه المسيح في قوله: "إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً (يو١٤:٢٣)، حيث "المنزل" (home) هو مكان الإقامة، وهذا هو ما نحن عليه الآن: "هياكل حية لله"، ونرى صدى ذلك في سفر الرؤيا أيضًا حيث يقول السيد المسيح: "هأنذا واقف على الباب وأقرع، إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي" (رؤ٣:٢٠).

ومن هنا ندرك أن الإفخارستيا تغرسنا وتثبتنا في المحبة الإلهية، كما قال أيضًا القديس إغناطيوس الأنطاكي "أمجد يسوع المسيح إلهنا... لأنكم راسخون في المحبة بدم المسيح[٢٠]"، وأيضًا يكتب القديس "مار إسحق السرياني" عن سر الإفخارستيا واصفًا إياها بأنها "**طعام المحبة**"، قائلًا: "الذي وجد المحبة يقتات بالمسيح في كل يوم وفي كل ساعة، ويصير غير مائت، فالرب يقول: "من يأكل من الخبز الذي أنا أعطيه لن يرى الموت إلى الأبد" (يو٦:٥٨)، فطوبى لمن يأكل خبز المحبة (الإفخارستيا) الذي هو الرب يسوع! فإن الذي يأكل

---

[١٩] يلاحظ ان كلمات السيد المسيح عن أنه "الكرمة الحقيقية" (يو: ١٥) جاء في سياق الفصح وتأسيس الإفخاريستيا مما يظهر أن الإفخارستيا هي عصارة الكرمة الحقيقية.

[٢٠] القديس إغناطيوس الأنطاكي، مرجع سابق، الرسالة إلى سميرنا ١:١.

المحبة، يأكل المسيح الإله الكائن فوق الكل! ويشهد عن ذلك يوحنا قائلًا:" الله محبة"(١يو٤:٨). الذي يعيش في المحبة ينال الحياة التي من الله، ويتنسم في هذا العالم نسيم القيامة، هذا الذي يتلذذ به الأبرار في القيامة العتيدة. فالمحبة هي طعام الملكوت، الذي وعد الرب رسله سريًّا أن يأكلوه في الملكوت، فماذا كان يعني بقوله: "تأكلون وتشربون على مائدتي في ملكوتي" (لو٢٢:٣٠) سوى المحبة! المحبة كفيلة بأن تقيت الإنسان عوضًا عن كل طعام وشراب، إنها هي الخمر التي "تفرح قلب الإنسان" (مز١٠٤:١٥)، فطوبى لمن يشرب من هذا الخمر[٢١]"!

محبة الله العرسية

إن محبة الله لنا هي محبة متكاملة (integrative)؛ فهي محبة "أبوية" (بالتبني لله الآب)، ومحبة "أخوية" من خلال تجسد الابن الذي صار أخًا بكرًا لنا: "فلذلك لا يستحي أن يدعوهم إخوة، قائلًا أخبر باسمك إخوتي" (عب٢:١١،١٢)، وأيضًا محبة "عرسية" في آنٍ واحد كما نجد في سفر نشيد الأنشاد حين يخاطب العريس العروس قائلًا: "أختي العروس" (نش٣:١٠،١٢؛ ٤:٩) فهي أخته وعروسه معًا!

إن الزواج (العرس) يحمل في داخله سر الخليقة، والخلاص، والدهر الآتي! فنحن نرى الزواج من أول الكتاب المقدس إلى آخره. ففي الصفحات الأولى للكتاب المقدس (تك:٢) نرى زواج آدم وحواء في الفردوس الأول. وفي نهاية الكتاب (الصفحات الأخيرة) في سفر الرؤيا، يكتب يوحنا الرائي عن العرس الذي في السماء؛ بين الخروف (المسيح) والكنيسة إمرأة الخروف (سفر الرؤيا: الإصحاح التاسع عشر والحادي والعشرون). كما أنه من الجدير بالملاحظة أن السيد المسيح بدأ خدمته بعرس! وأول ما استعلن؛ إستعلن في عرس قانا الجليل!

---

[٢١] القديس مار إسحق السرياني، ميمر ٢٧:٣.

فكثيرا ما شبه الله علاقته بشعبه منذ العهد القديم بعلاقة الزوج بزوجته في أسفار عديدة، لعل أبرزها سفر "نشيد الأنشاد[٢٢،٢٣]" الذي يصور مدى حب الله لكل نفس بشرية، والتي رُمز لها في السفر بعروس النشيد. لذلك لا عجب في أن يدعو بولس الرسول سر الزيجة قائلًا: "**هذا السر عظيم**" (أف٥:٣٢)، ويعلق القديس باسيليوس الكبير على الزواج، بقوله: "لقد رفع الله الزواج إلى سر، لكي تتقدس به"!

إن النفس التي تحيا مع المسيح يصبح المسيح عريسها، وتصبح هي عروسًا له: "لأن بعلك (زوجك) هو صانعك، رب الجنود اسمه، ووليك (زوجك) قدوس إسرائيل، إله كل الأرض يدعى. لأنه كإمرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب، وكزوجة الصبا إذا رذلت، قال إلهك" (إش٥٤:٥،٦). وأيضًا يحب الله الإنسان، ويفرح به كما يفرح العريس بعروسه: "كفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك" (إش٦٢:٥)[٢٤].

---

[٢٢] يعتبر اليهود أن سفر نشيد الأنشاد (شير ها شيريم) هو "قدس أقداس العهد القديم"، ومن قداسته لديهم كان لا يسمح بقراءته إلا بعد أن يصل الشخص لسن الثلاثين، الذي هو السن القانوني لبدء خدمة الكاهن في العهد القديم، وترتل أجزاء كثيرة من هذا السفر منذ القديم وإلى الآن في طقس الزواج اليهودي.

[٢٣] يفهم البعض هذا السفر بسطحية شديدة ويسيئون فهم الكلمات التي تعبر عن العلاقة الحميمية بين الرجل والمرأة بدون الالتفات إلى المعنى الروحي والرمزي والخلفية الحضارية والسياق الأدبي "الشعري" للنص، وغير عابئين أيضًا لتفسيرآباء الكنيسة لهذا السفر وللكتاب المقدس عمومًا. فمثلًا نجد أن القديس يوحنا ذهبي الفم يُعلِّم أن الذين يعتبرون أن الاتحاد الجنسي خطيئة، إنما يتهمون الله بالخطيئة، لأن الله هو من رتب هذه الطريقة للتناسل. ويقول أيضًا إن الفعل الجنسي يكون فعلًا خاطئًا عندما يتم بطريقة خاطئة خارج إطار المحبة والأمانة الزوجية. انظر: القديس يوحنا ذهبي الفم، *في تيطس*، العظة ٢.

[٢٤] هذه الأية هي جزء من طقس صلوات اليهود لمساء (عشية) السبت والمعروفة باسم (Kiddush)، حيث يعيش اليهود بحسب تقليدهم يوم السبت بمقتضى روحانية "عرسية" كما يتضح في أحد كتب الشروح الملحقة بالتوراة. حيث يرد نص الصلاة الذي يعلن بدء يوم السبت كالتالي: " كفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك... وسط المؤمنين من بين شعبك الحبيب، تعالي أيتها العروس ملكة سبأ..إلخ" (*صلاة مساء السبت*، طبعة أتواف، روما ١٩٦٨-١٩٦٩، ص ٣)، ومن هذا المنطلق ينبغي أن نعيش في العهد الجديد يوم "الأحد" (الذي كان يرمز له في العهد القديم بالسبت) بمقتضى روحانية عرسية مع المسيح العريس القائم من بين الأموات، وللمزيد حول هذا الموضوع انظر:

-Revise "Neusner"; *Genesis Rabbah*. Vol.1, Atlanta, 1985,p.107-117.

-*Genesis Rabbah*. 8.11.9.10.

كما استخدم الله أيضًا الخيانة التي قد تحدث في الحياة الزوجية، للتعبير عن مدى فداحة الخطأ الذي يقع فيه الإنسان بخيانته لخالقه! ففي سفر "هوشع" يصور لنا الله زيغان الشعب عن إلهه الذي أحبه، مشبهًا إياه بالزوجة الخائنة؛ حيث يأمر الرب هوشع النبي أن يأخذ لنفسه زوجة خائنة[٢٥]، ليكون صورة لحال الله مع شعبه، الذي تركه وذهب وراء آلهة الشعوب الآخرى: "اذهب خذ لنفسك إمرأة زنى وأولاد زنى، لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب" (هو٢:٢).

ومع ذلك نرى الرب لا يترك شعبه يهلك إلى الأبد ولا يعامله بالمثل "إن كنا غير أمناء فهو يبقى أمينا، لن يقدر أن ينكر نفسه" (٢تي٢:١٣)، فنراه يفتقد شعبه بالمراحم، بل ويذكر الإيجابيات ويذكر لشعبه محبته الأولى ويدخل معه في زيجة روحية (ارتباط روحي) "وأخطبك لنفسي إلى الأبد، وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم، وأخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب" (هو٢ : ١٩،٢٠).

والحقيقة إن قصة هوشع النبي هي حال الرب مع كثير من الناس؛ حيث تفتر محبتهم مع مشاغل العالم اليومية، فيكون حالهم كعروس النشيد التي قالت: "قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه، قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما؟" (نش٥:٣). فمع مرور الوقت والتعود ينسى البعض الرب تدريجيًّا، ويبهت ذكره في قلوبهم، مع أنهم في يوم من الأيام كانوا ينعمون بمحبة عرسية معه: "هل تنسى عذراء زينتها، أو عروس مناطقها؟ أما شعبي فقد نسيني أيامًا بلا عدد!" (إر٢:٢٣). ولكن لأن الله محبته ثابتة، ولا يتغير، نجده لا ينسى أحدًا، بل يسعى وراء كل نفس كي ترجع وتتوب، ولكن ينبغي ألا نستهين بطول أناة الله ولطفه، لأنهما في الحقيقة إنما يجتذباننا إلى الله، فالقديس أغسطينوس يحذر

---

[٢٥] لقد كان للتنبؤ في العهد القديم أساليب كثيرة، إحداها أن يطبق النبي النبوة على نفسه (حتى ولو كانت قاسية) ليكون مثالًا حيًّا وعبرة لشعبه.

شعبه قائلًا: "ليت الذين يحبون حنوه، يهابون حقه وعدله. فإن الرب صالح ومستقيم، حلو وحق. إن كنت تحب فيه أنه صالح، فلتخشه لكونه الحق. الرب لطيف، طويل الأناة، حنان، وهو أيضًا البار والحق"! وفي موضع آخر يقول: "إن الذي وعدك بالمغفرة إذا تبت، لم يعدك بغدٍ إذا أجلت"! وبذلك نرى الكتاب المقدس بأكمله، يحكي قصة الخلاص، التي هي في أحد أوجهها قصة ارتباط؛ ارتباط الله بالبشر! وهذا الارتباط كائن في شخص المسيح "الابن المتجسد"، ويصل إلينا من خلال الاتحاد به في سر الإفخارستيا، **فالاتحاد بالله هو الوسيلة والهدف من الخلاص**، وفي الحقيقة لا خلاص بدونه كما يؤكد القديس "أغسطينوس" حيث يقول: "**لا خلاص إلا بالاتحاد مع الله**[٢٦]".

والإنسان حينما يعود إلى الله ويتقدم من جديد ليشرب من كأس العريس "الإفخارستيا" تتجدد حينئذ في داخله المحبة الأولى. فالإفخارستيا هي سر المسيح الختن (العريس) بامتياز "**سر المسيح**" (أف٣:٤؛ كو٤:٣)، وأيضًا سر "العروس" أي "الكنيسة" ففيها يجتمع، ويتحد العريس السماوي بكنيسته، ويعلق على تلك الحقيقة القمص "تادرس يعقوب ملطي" بقوله: "الحق أقول أنني في خدمة القداس الإلهي أدهش؛ ترى هل ارتفعت الكنيسة إلى السماء نحو عريسها الإلهي؟ أم تحولت الأرض إلى سماء! فجاء العريس السماوي مع مصاف ملائكته، يحتضن عروسه التي أحبها[٢٧]"؟!

إن إحدى الكلمات الإنجليزية التي تستخدم للتعبير عن التناول والإفخارستيا هي: (communion)، وهي كلمة لها عدة معاني إحداها هو: "الصلة الحميمية بين شخصين أو أكثر، حيث يتم تبادل الأفكار والمشاعر." وهذا هو ما يحدث بدقة في القداس الإلهي (ذبيحة

---

[٢٦] القديس أغسطينوس، شرح رسالة يوحنا الرسول الأولى، مرجع سابق، المقالة الأولى:٤.
[٢٧] القمص تادرس يعقوب ملطي، المسيح في الإفخارستيا، مرجع سابق، ص ٧

الشكر)؛ حيث تسمع الكنيسة صوت عريسها من خلال القراءات والعظة (صوت العريس)، وتدخل معه في حوار حميم (intimate) من خلال الصلوات العامة في القداس (صوت العروس)، ومن خلال الصلوات الشخصية التي يصليها المؤمنون أثناء القداس كجزء من إشتراكهم في الصلاة: "صوت الطرب، صوت الفرح، صوت العريس وصوت العروس، صوت القائلين احمدوا رب الجنود لأن الرب صالح، لأن إلى الأبد رحمته، صوت الذين يأتون بذبيحة الشكر" (إر٣٣:١١).

ومن الجدير بالذكر أن محبة الله العرسية لنا هي "محبة أبدية": "محبة أبدية أحببتك، من أجل ذلك أدمت لك الرحمة" (إر٣١:٣). وهي أيضًا محبة "غير مشروطة"، فالله لا يحبنا لأنه يحتاج منا لشيء، بل على العكس لقد خلقنا لننعم بمحبته: "لم تكن أنت محتاجًا إلى عبوديتي، بل أنا المحتاج إلى ربوبيتك[٢٨]." كما أن الله يرانا كاملين فيه، فالعريس الذي هو ابن الله يدعو عروس النشيد (ترمز للنفس البشرية) أكثر من مرة "كاملتي" (نش٥:٢؛٦:٩)، وفي موضع آخر يقول: "كلك جميل يا حبيبتي ليس فيك عيبة" (نش٤:٧) وذلك حين نتحد بالعريس في سر الإفخارستيا، فيكمل نقصنا. لذلك يحثنا معلمنا بولس الرسول قائلًا: "اجتهدوا لتجدوا عنده بلا دنس (ἄσπιλοι - immaculati) ولا عيب (ἀμώμητοι)" (٢بط٣:١٤).

والذي يحيا في محبة العريس لا يعوزه شيء لأنه يشعر أن معه كل شيء: "من لي في السماء، ومعك لا أريد شيئًا في الأرض" (مز٧٣:٢٥). فالله قد وهبنا كل شيء في المسيح: "كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى... اللذين بهما وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة" (٢بط١:١،٣). وأعظم ما وهبه لنا الله، هو الحياة الأبدية، التي نختبر جزءًا صغيرًا منها في سر

---

[٢٨] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص ٣٣٠.

الإفخارستيا. لذلك يقول القديس أغسطينوس "عندما أتحد بك، لن يكون هناك أحزان ولا تجارب؛ لأني سأمتلئ منك كليًّة، وبذلك تكتمل حياتي[٢٩]".

والإنسان مدعو لينعم بالمحبة العرسية مع الله، من خلال علاقة شخصية معه: "لذاتي مع بني آدم" (أم٨:٣١). بل ومدعو أيضًا للاستمتاع والتلذذ (الروحي والعقلي وليس بالضرورة الحسي) بطاعة الرب "ولذته تكون في تقوى الرب" (إش١١:٣ سبعينية). فيتلذذ الإنسان بشخص الرب: "لأنك حينئذ تتلذذ بالقدير، وترفع إلى الله وجهك" (أي٢٢:٢٦)، وبكلامه: "أما أنا فبشريعتك أتلذذ" (مز١١٩:٧٠)، وبنعمه: "فإنك حينئذ تتلذذ بالرب، وأركبك على مرتفعات الأرض، وأطعمك ميراث يعقوب أبيك، لأن فم الرب تكلم" (إش٥٨:١٤). وحين يتلذذ الإنسان بخالقه يمنحه الخيرات الموافقة لنفسه: "تلذذ بالرب فيعطيك سؤل قلبك" (مز٣٧:٤)، لذلك نطلب في صلاة الشكر قائلين: "أما الصالحات والنافعات فارزقنا إياها"، وأول تلك النعم التي منحها الله للإنسان ليتلذذ به هي الإفخارستيا (جسد ودم الرب) التي هي شراب الكنيسة: "يسكرون من شراب بيتك، ومن نهر لذتك تسقيهم" (مز٣٦:٨ سبعينية)، وخير قدس هيكله: "لنشبعن من خير بيتك، قدس هيكلك" (مز٦٥:٤).

الإنسان والكنيسة عروس المسيح

إن ما يميز المسيحية عن أي تصوف في الديانات الأخرى من جهة البحث عن الحب الإلهي، هو أن في المسيحية الله هو الذي يبدأ ويبادر: "نحن نحبه لأنه أحبنا أولاً" (١يو٤:١٩)؛ حيث الله يسعى مبادرًا إلى حب الإنسان بالحال الذي هو عليه؛ والإنسان يستجيب لحبه! على خلاف منظور التصوف في الديانات الأخرى؛ والتي فيها الإنسان هو

[29] Augustine, Conf. op. cit.,10.28.39: PL 32,795.

الذي يسعى ويتوق إلى الوصول إلى الله وحبه، مما يشترط أولًا التطهر والنقاوة والنسك الشاق، للوصول لحب الله.

والنفس التي تحب الرب وتدخل في علاقة شخصية معه، لها أن تدخل حجال (خيمة العريس) الملك في يوم مجيئه، وتنال نعمة في عينيه. لأن الله سبق أن أعدها على الأرض ليوم عرسها في السماء. فعاشت كل حياتها تتزين وتتعطر بالفضائل: "لأنه هكذا كانت تكمل أيام تعطرهن" (أس٢:١٢)، وعلى رأس تلك الفضائل "المحبة"، التي هي بمثابة السلم الخلفي للإرتقاء للكمال، والحكمة الإلهية التي يصبغها الله على محبيه، حيث يقول عن النفس الحكيمة: "أحببتها وطلبتها منذ صباي، وتمنيت أن تكون لي عروسًا لكثرة ما فتنت بجمالها، فهي تمجد أصلها بحياتها مع الله، وهو ما زادها مجدًا، حتى إن الله ذاته وهو رب الجميع، وقع في حبها، فمنحها معرفته الخفية، وتركها تنفذ أعماله" (الحكمة ٨: ٢-٤).

فبعد أن تتجمل (النفس) ويكتمل حسنها، يأتي العريس في المجيء الثاني المملوء فرحًا، مع ربوات قديسيه وملائكته ليأخذ تلك العروس المستعدة: "مهيأة كعروس، مزينة لرجلها" (رؤ٢١:٢)، فيدخلها ملكوته الذي هو العرس الأبدي، حيث تتسربل (الكنيسة وكل نفس بشرية) وتتشح بالمسيح شمس البر: "وظهرت آية عظيمة في السماء، إمرأة متسربلة بالشمس" (رؤ١٢:١). فتستنير ويصبح عريسها هو مصدر ضيائها للأبد "لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها" (رؤ٢١:٢٣). لقد جُمِّلت حتى صارت ملكة كما قال حزقيال النبي: "وجملت جدًا جدًا، وصلحت لمملكة" (حز ١٦:١٣).

والعروس الحقيقية تعرف أن جمالها ليس منها: "فرحًا أفرح بالرب، تبتهج نفسي بإلهي، لأنه ألبسني ثياب الخلاص، وكساني رداء البر، مثل العريس يتزين بعمامة، ومثل عروس تتزين بحُليها" (إش٦١:١٠).

فهي (العروس) سبقت وقالت عن نفسها أنها "سوداء" (نش١:٥،٦)، ولكنها تصبح جميلة فقط حين تتحد بعريسها (في الإفخارستيا) فهو كمال بهائها وزينتها كما يقول حزقيال النبي: "لأنه كان كاملًا ببهائي الذي جعلته عليك يقول السيد الرب" (حز١٦:١٤)، وإشعياء النبي القائل "إلهكِ زينتك" (إش٦٠:١٩)، فهي جميلة لارتباطها بالخروف الذي يعكس جماله عليها "هلم فأريك العروس امرأة الخروف" (رؤ٢١:٩). فالله هو مصدر كل جمال: "أنت أبرع جمالا من بني البشر" (مز٤٥:٢)، بل هو الجمال المطلق الذي ينشده فلاسفة علم الجمال "الإستطيقا" (Aesthetics). لذلك لا عجب في أن يكتب الأديب الروسي الشهير "ديستوفسكي" (١٨٢١-١٨٨١م) عن خلاص العالم من منظور الجمال، قائلًا: "إن العالم سَيخْلُصُ بالجمال الإلهي"! لذلك تطلب الكنيسة هذا الجمال الإلهي الكائن في شخص المسيح، قائلة: "صور في أنفسنا جمال صورتك[٣٠]"، ونحن حين نتحد بالمسيح في التناول ننال في داخلنا الجمال، فيعكس الإنسان وجه الله في العالم.

يعلق القديس "أغسطينوس" على أن الله هو مصدر الجمال الحقيقي للنفس، فيقول: "إن نفسنا أيها الإخوة كانت قبيحة المنظر من جراء الخطية، ولما أحبت الله صارت جميلة. فما هو هذا الحب الذي يجمل النفس المُحبة؟ جمال الله دائم، لا يتغير، ولا يعتريه ذبول. إنه أحبنا بهذا الجمال الدائم. وكيف كنا آنذاك؟ كان وجهنا قبيحًا مشوهًا، ومع ذلك فما أحبنا لنبقى على قبحنا، بل ليغيرنا؛ فجعل من وجهنا المشوه القبيح، وجه إنسان جميل. وكيف نصير كذلك؟ نصير كذلك إذا أحببنا هذا الدائم الجمال، ويزداد جمالك بقدر ما ينمو فيك حبه، ويزداد، لأن المحبة جمال النفس[٣١]".

---

[٣٠] إبصالية "عيد النيروز"، الربع السادس، تقال من عيد النيروز إلى عيد الصليب.
[٣١] القديس أغسطينوس، شرح رسالة القديس يوحنا الأولى، مرجع سابق، المقالة التاسعة:٩.

لذلك فإن زينة العروس ليست من الخارج، في المظاهر الخادعة بل من الداخل، كما في خيمة الاجتماع التي كانت مكسوة من الخارج بجلود سوداء "تخس" (جلود الماعز)، أما من الداخل فكلها بوص (حرير) وأرجوان، وذهب خالص! وكما قال داود في مزموره: "كل مجد ابنة الملك من داخل" (مز٤٥:١٣).

محبة العروس

يرى القديس أغسطينوس أن الصلاة هي "لقاء عطش الله، مع عطش الإنسان" وقوله هذا ينطبق تمامًا على الإفخارستيا؛ التي هي في الحقيقة قمة الصلاة، حيث يلتقي فيها؛ عطش الله لخلاص البشر، والذي ظهر في حديث السيد المسيح مع المرأة السامرية؛ إذ يقول: "أعطني لأشرب" (يو٤:٧)، ويظهر بقوة على الصليب حين قال: "أنا عطشان" (١٩:٢٨)، ومن جهة أخرى نرى عطش الإنسان إلى خالقه، وسبب وجوده. كما نرى في سفر المزامير الذي يصور نداء الإنسان واشتياقه إلى الله، فيقول داود النبي "عطشت نفسي إلى الله، إلى الإله الحي" (مز٤٢:٢)، وفي موضع آخر يقول: "عطشت إليك نفسي، يشتاق إليك جسدي، في أرض ناشفة ويابسة بلا ماء" (مز٦٣:١).

والإفخارستيا هي الوحيدة القادرة أن تسد هذا الجوع، وتروي هذا الظمأ إلى الله، لأن فيها يدعونا الإله المحب للبشر قائلًا: "كلوا أيها الأصحاب، اشربوا واسكروا أيها الأحباء" (نش٥:١)[٣٢]. والسُّكر الذي يتكلم عنه سليمان الحكيم في نشيده، ليس سُكر خليع عالمي، بل هو كما يوضح في مواضع أخرى قائلًا: "أنا مريضة حبًّا" (نش٢:٥؛ ٥:٨)، أي أن حب الله تملك على النفس، وسيطر عليها كما يسيطر المرض على الجسم، وكما تسيطر الخمر على العقل. فالسُّكر

[٣٢] من الجدير بالملاحظة أن هذه الآية تحوي نفس الفعلين "كلوا" و"اشربوا" الذين إستخدمهما السيد المسيح عند تأسيسه للإفخارستيا.

بخمر المحبة: "حبك أطيب من الخمر" (نش١:٢) الذي هو الإفخارستيا إنما هو سُكرٌ مُفيق، يجعل الإنسان يقظًا، وساهرًا على خلاص نفسه! وعن خمر محبة الله والفرح السماوي يقول الشيخ الروحاني (يوحنا سابا): "لقد أعطى الله محبته طيبًا يسكرهم به ويلذذهم. هو في ذاته يفرح، وبهم أيضًا يبتهج لأنه هو عريسهم، وحجلة فرحهم. ينظرونه في داخلهم، فيبتهجون. يشرق فيهم من هو في داخلهم، ويدهشهم بجماله."

لذلك فالعروس تتبادل مع عريسها (المسيح) في الإفخارستيا محبة عرسية، واشتياقًا متبادلًا "قد ذكرت لك غيرة صباك، محبة خطبتك، ذهابك ورائي في البرية في أرض غير مزروعة" (إر٢:٢)، إن النفس التي تهيم بحب العريس السماوي تغني مع عروس النشيد قائلة: "أنا لحبيبي وإلىّ اشتياقه" (نش٧:١) لذلك يقول يوحنا الدرجي: "مبارك هو الشخص الذي شوقه نحو الله، صار مثل ولع الحبيب بمحبوبته." ويقول الشيخ الروحاني: "طوبى لمنْ سكروا بمحبتك يا إلهي، لأن بسكرهم بك، استمتعوا بجمالك"!

إنها محبة تنمو أكثر فأكثر كقول بولس الرسول، ويعلق القديس "يوحنا ذهبي الفم" على ذلك بقوله: "وهذا أصليه أن تزداد محبتكم أكثر فأكثر" (في١:٩)، وذلك لأن هذه المحبة لا يشبع منها. إنتبه فهذا يعني أن المحبوب (المسيح) يريد أن يُحب أكثر فأكثر، لأن المُحب لا يريد أن يتوقف عند حد معين للمحبة، لأنه لا يوجد معيار لهذا الأمر الحسن... فمقياس المحبة هو ألا تتوقف أبًدا، لكن تزداد كما يقول محبتكم أكثر فأكثر[٣٣]."

في المحبة العرسية تلتصق العروس بعريسها وتدخل معه في

---

[٣٣] القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، مرجع سابق، العظة الثالثة.

رباط أبدي: "هلم فلنلصق بالرب بعهد أبدي لا ينسى" (إر٥٠:٥) رباط حياة "تحب الرب إلهك، وتسمع لصوته، وتلتصق به لأنه هو حياتك" (تث٣٠:٢٠)، حيث يبسط العريس ذيله عليها (علامة على تبعيتها له) ويكسوها بثوب بره. وتعطي العروس نفسها بالكامل لعريسها، فهي تحبه أكثر من الكل، ومن أجله تركت كل شيء وراءها، لأجل محبتها في العريس السماوي كما يقول المزمور "انسي شعبك وبيت أبيك، فيشتهي الملك حسنك، لأنه هو سيدك فاسجدي له" (مز٤٥:١٠،١١)، ويحذر القديس أغسطينوس من أن ينشغل الإنسان عن إلهه لأي سبب حتى ولو لأجل نفسه، فيقول: "لا تدير ظهرك للذي خلقك، حتى ولو لأجل أن تلتفت لذاتك[٣٤]".

والعروس حين تنظر بالإيمان وجه عريسها في الإفخارستيا فإنها تنسى ما كانت عليه في الماضي، لتعرف هويتها الجديدة في المسيح كابنة وعروس لله، ومن خلاله تنظر لبقية الأشياء، فقد صار هو حياة تلك النفس ومحورها، فالإنسان مدعو في الإفخارستيا لاختبار ما قاله القمص "تادرس يعقوب ملطي" عن سر الإفخارستيا: "في الماضي اقتني المصلوب القائم من الأموات، الذي لا يزال حيًّا حاضرًا، وفي الحاضر يتحد بذات الرب، وفي المستقبل يلتقي به وجهًا لوجه، وكأن الرب المصلوب الممجد هو ماضينا، وحاضرنا، ومستقبلنا[٣٥]".

هذه المحبة التي تسبي النفس يتكلم عنها القديس "مقاريوس الكبير" في إحدى عظاته قائلًا: "أولئك الذين تساقط عليهم ندى روح الحياة، أي ندى اللاهوت، وجرح قلوبهم بحب إلهي للمسيح الملك السماوي، وارتبطوا بذلك الجمال وبذلك المجد الفائق الوصف، والحسن غير المائت، والغنى الذي يفوق التصور، غنى المسيح الملك

---

[34] *De continentia*, 4.11: PL. 40,365.

[٣٥] القمص تادرس يعقوب ملطي، المسيح في سر الإفخارستيا، مرجع سابق، ص ٤٧.

الحقيقي الأبـدي... لأنهم مجروحون بالجمال الإلهـي، وقد تساقطت عليهم قطرات من حياة الخلود السماوية على نفوسهم. لذلك فإن شهوتهم موجهة نحو محبة الملك السماوي، ويضعونه أمـام عيونهم بحب عظيم، ومن أجله يتخلون عن كل محبة عالمية، ويبتعدون عن كل ربـاط أرضـي حتى تكون لهم الحرية دائمًـا في أن يحفظوا في قلوبهم تلك الشهوة وحدها، ولا يخلطون بها شيئًا آخر[٣٦]".

إنها محبة تخطف النفس كقول يوحنا الـدرجـي: "يـا حـب، لقد اختطفت نفسـي، فلا أستطيع أن أطيق جذوتك (الجمرة أو قطعة الخشب المشتعلة)، لذلك أجري إلى الأمام مسبحًا إياك"! وهذه النفس الـتي تحـب العريس لا تجـري بمفـردهـا، بـل تجـري مـع بقية الجسد (الكنيسة)، لأنها محبة تخلو من الأنانية كقول أحد القديسين: "من يختبر محبة المسيح لا يتركه لذاته" (أي لا يستأثر به لنفسه فقط). إنها محبة تجذب الآخرين وتربحهم لحساب العريس: "اجذبني وراءك فنجري. أدخلني الملك إلى حجاله (خيمة العرْيس). نبتهج ونفرح بك. نذكر حبك أكثر من الخمر. بالحق يحبونك" (نش١:٤).

وهذه المحبة العرسية تقود العروس لمعرفة العريس معرفة شخصية كما كتب القديس "أمبروسيوس" في إحدى رسائله قائلًا: "لأنه من الملائم أيتها العذراء أن تعرفي من تحبينه معرفة تامة، وتتعرفي فيه على سر طبيعته الإلهية وعلى الجسد الذي اتخذه[٣٧]". وهذه المعرفة هي من خلال علاقة حية معه، علاقة محبة تنمو في الاتحـاد به كما يقول القديس أغسطينوس: "**أعرفه، لأحبه، لأتحد به**" حيث الحب هنا هو نوع من المعرفة: "وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة" (أف٣:١٩) معرفة بالاتحاد كما قال أحد القديسين: "الحب هو نوع من المعرفة التي لها منطقها الخاص."

---

[٣٦] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، العظة ٥:٦.

[٣٧] القديس "أمبروسيوس"، *"عن العذارى" إلى مارسلينا*، الكتاب الأول، الفصل الثامن.

ولقد كتب الفيلسوف الإسكتلندي "توماس كارليل" (١٧٩٥-١٨٨١) عن الحب الإلهي الذي نجد فيه كل الإجابات على تساؤلاتنا قائلًا: "إنه الحب وليس المتعة (الشهوانية)، الحب الإلهي هو الدهشة والذهول الذي يبقى إلى الأبد. في الحب الإلهي تحل كل المتناقضات." حقًّا إن المحبة هي الطريق للمعرفة كما قال المحلل النفسي "إريك فروم" (١٩٠٠-١٩٨٠) "المحبة هي السبيل الوحيد للمعرفة الكاملة[٣٨]".

صفة أخرى للمحبة العرسية أنها محبة "بتولية"، فكثير من أنبياء العهد القديم مع معلمنا بولس الرسول ويوحنا الحبيب، يصفون الكنيسة التي هي كل المؤمنين؛ بأنها عروس عذراء (بتول). فالبتولية الروحية هي دعوة للجميع؛ للمتزوجين وللبتولين. إن البتولية الروحية هي دعوة أيضًا للقديسين وللخطاة. فالتوبة ترد الإنسان إلى مكانته ومحبته الأولى: "عندي عليك أنك تركت محبتك الأولى، فاذكر من أين سقطت وتب واعمل الأعمال الأولى" (رو٢:٣،٤)، فالله يريد أن يكون دائمًا هو حبنا الأول. فنحب الله أولًا، ثم نحب أي شخص أو شيء من خلاله (الله)؛ أي من خلال محبتنا الأولى، لأن محبتنا الأولى (لله)، سترشدنا إلى المحبة المُثلى الثانية (للآخر).

ولقد كانت خدمة العريس (المسيح) ودعوته على الأرض هي التوبة كما قال السيد المسيح في افتتاح خدمته: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (مت٤:١٧). هذه التوبة هي التي مدحها القديسون أمثال "الشيخ الروحاني" (يوحنا سابا) القائل: "طوباك أيتها التوبة، فإنك تجعلين الزناة بتوليين." إن العروس التي يشتهي حسنها العريس هي أيضًا عروس حكيمة، تكمل توبتها بالتناول، فهي عروس[٣٩]

---

[38] Erich Fromm,*The Art Of Loving*, Harper Perennial Modern Classics, 2006.

[٣٩] كان يتوجب في العهد القديم على العروس قبل الخروج لملاقاة العريس، أن تغتسل (غسلات تطهيرية)، ثم تلبس ثياب العرس، الأمر الذي يشير إلى المعمودية التي تسبق الاتحاد بالعريس

تطهر نفسها دائما بدم الخروف (في الإفخارستيا): "وقد غسلوا ثيابهم، وبيضوا ثيابهم في دم الخروف" (رؤ٧:١٤).

ولقد أعطانا الشاعر اللبناني "جبران خليل جبران" (١٨٨٣-١٩٣١) وصفًا رائعًا لعمل المحبة حين قال: "المحبة تضمكم إلى قلبها كأغمار الحنطة، وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم، وتغربلكم لكي تحرركم من قشوركم، وتطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج، وتعجنكم بدموعها، فتصيروا خبزًا مقدسًا يقرب على مائدة الرب المقدسة. كل هذا تصنعه المحبة بكم[٤٠]" فالمحبة الإلهية هي التي تعد الإنسان وتنقيه، وتقدسه ثم تقدمه لله في النهاية.

نعم إن العروس التي تطلب العريس الأبدي تعيش في هذا العالم، لكن قلبها وفكرها مرتفع إلى فوق إلى المدينة السماوية، حيث يوجد العريس، لذلك يوصينا القديس أغسطينوس، قائلًا: "تأكد من لهيب حبك لمدينة الله السماوية، ليزداد بهاء. هكذا ثبت رجاءك على مصيرك السماوي، وإن كان البعض سيظنوك بالتأكيد سخيفًا، فستعرف في قلبك أنهم غير حكماء، إذ لا يدخلون في السلام الذي لا يهتز، الصادر من الله ويقودنا إليه[٤١]".

فالمحبة الله تولد في النفس ذكرًا دائمًا له (والعكس صحيح): "إلى اسمك وإلى ذكرك شهوة النفس، بنفسي اشتهيتك في الليل، أيضًا بروحي في داخلي إليك أبتكر" (إش٢٦:٨،٩)، ينعكس أثره على كل شيء في حياة الشخص فيكون مثل عروس النشيد القائلة: "في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي" (نش٣:١)، حيث تنضح تلك المحبة التي في الداخل على كل شيء في الخارج، كما يقول القديس

في الإفخارستيا. ودور الأشابين في المعمودية يحاكي دور صديقات العروس في العرس.

[٤٠] جبران خليل جبران، *النبي*.

[٤١] القديس أغسطينوس، مدينة الله، مرجع سابق.

مقاريوس الكبير: "ينبغي على المسيحي أن يذكر الله في قلبه في كل الأوقات، كما هو مكتوب: " تحب الرب إلهك من كل قلبك" (تث٦:٥؛ مت١٢:٣٤)، فينبغي له أن يحب الرب ليس حين يذهب إلى مكان العبادة فقط، بل في السير والكلام والأكل، يحتفظ بذكر الرب ويحبه بكل قلبه، لأنه مكتوب: "حيث يكون قلبك هناك يكون كنزك أيضًا" (مت٦:٢١؛ لو١٢:٣٤)[٤٢]".

ولقد كانت العادة في أيام المسيح أن تبقى العروس مستعدة، لأنها لا تعلم تحديدًا الساعة التي سيأتي فيها العريس! وكان من أهم الأشياء المنوطة بها العروس ورفيقاتها من العذارى "تجهيز المصابيح والزيت" كما في مثل العشر عذارى (مت:٢٥)[٤٣]. فحينما يأتي العريس بغتة، تخرج العروس ومعها العذراى (يشترط الطقس اليهودي أن تكون المرافقات للعروس "عذارى" يتراوح عددهن بين ثلاث إلى عشر كحد أقصى وذلك يرمز إلى الوصايا العشر التي أرسلها الله "العريس" إلى الإنسان "العروس") لملاقاة العريس حاملين المصابيح الموقدة[٤٤].

لذلك من الواجب أن تكون نفس العروس دائمًا متيقظة في انتظار العريس، كما في مثل العبيد المستعدين للقاء سيدهم (لو١٢:٣٥). فهي تحفظ حبيبها في قلبها: "صرة المر حبيبي لي. بين ثديي يبيت" (نش١:١٣)، وتقتنيه في داخلها من خلال كلمته ومن خلال الإفخارستيا بشكل خاص؛ فإقتناء النفس للمسيح هو أمر ضروري لمن يشتهون العريس والملك السماوي، كما قال القديس "مقاريوس الكبير": "لتعلم العذراء الحكيمة (النفس البشرية) أنه ينبغي أن

---

[٤٢] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، عظة ٣:٤٣.

[٤٣] ومن هنا نفهم كيف أن السيد المسيح استخدم في مثل العشر عذارى (مت:٢٥) نماذج من واقع المجتمع اليهودي الذي كان فيه لشرح الأبدية والملكوت.

[٤٤] تقرأ الكنيسة مثل العشر عذارى (مت:٢٥) في صلاة الخدمة الأولى من صلاة نصف الليل (الأجبية)، والتي تدور حول المجيء الثاني والاستعداد له. فنظرة الكنيسة للمجيء الثاني هي نظرة عرسية، لذلك نصلي قائلين: "هوذا العريس (المسيح) يأتي في نصف الليل..."

تقتني المسيح في نفسها كما اقتنته مريم، فكما كان في أحشاء مريم هذا يكون في قلبك، وحينئذ يمكنك أن ترتل بفهم قائلا: "قد حبلنا يا رب وبخوفك تمخضنا وولدنا الخلاص" (إش٢٦:١٨ سبعينية)[٤٥]. والإفخارستيا هي الفرصة التي فيها نقتني المسيح في داخلنا كما تقول عروس النشيد عن عريسها: "وجدت من تحبه نفسي، فأمسكته ولم أرخه" (نش٣:٤)!

محبة خادمة

لقد كان معلمو الشريعة اليهودية في أيام السيد المسيح يعلمون أن العالم يكتمل ويستمر بثلاثة أشياء، وبزوالها ينتهي العالم، وهي: "التوراه" (Torah)، و"العبادة في الهيكل" (Avodah)، و"أعمال المحبة" (Gemelut Hasadim)[٤٦]. وقد قام المسيح الختن (العريس) ليلة آلامه بأحد أعظم أعمال محبته ألا وهي "غسل أرجل تلاميذه" علامة منه علي محبته للبشرية، واتضاعه كالعبد، لأنه بعدها بقليل سيجوز الآلام معلنًا عن نفسه أنه هو "العبد المتألم" لأجل خلاص العالم الذي تنبأ عنه إشعياء (إش:٥٣) متممًا خدمة الخلاص، ومبرهنًا عمليًّا أن المحبة الكاملة هي "المحبة المصلوبة."

إن أحد الأشياء التي تميز المسيحية عن غيرها من الأديان، أنه في كل الأديان الأخرى "الإنسان هو الذي يخدم الله"، من خلال العبادة ورعاية الآخر. لكن الحقيقة الصادمة في المسيحية هي أن "**الله هو الذي يخدم الإنسان، والإنسان صار مخدومًا من الله**"! "لأن ابن الإنسان أيضًا لم يأتِ ليُخدَمَ بل ليخدِمَ" (لو١٠:٤٥). وهذا هو ما نختبره في كل الإفخارستيا حيث نجد المسيح رئيس الكهنة الأعظم، هو الذي يقوم حقيقة بخدمة القداس الإلهي (الخدمة الإلهية)، مقدمًا ذاته كذبيحة

---

[٤٥] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، عظة ٢:٢٨.

[46] *Mishnah*, Aboth. 1.2.

لأجل خلاصنا. وذلك استمرار وامتداد لخدمة يوم خميس العهد "أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك[٤٧]".

لقد أعطت لنا القديسة مريم العذراء التي هي: "الخدر (خيمة العرس) الطاهر الذي للختن الحقيقي[٤٨]" أفضل نموذج لحياة العروس. فنراها بعد البشارة مباشرة تقوم وتذهب مسرعة إلى أليصابات لتخدمها وهي حبلى. ونراها في "عرس قانا" (يو:٢) بالرغم من أنها مدعوة، إلا أنها قامت بعمل الخدم (توفير الخمر للمدعوين)، فهي قد لاحظت احتياج الحاضرين، وطلبت من ابنها تسديد احتياجهم. لتكشف عن نفسها أنها بحق **شفيعة عرس البشرية**، فهي تشفع في البشرية طالبة من ابنها العريس الحقيقي خمرًا جديدةً لكل إنسان: "وأقودك وأدخل بك بيت أمي (الكنيسة) وهي تُعلِّمُني، فأسقيك من الخمر الممزوجة من سُلاف رُمّاني" (نش٨:٢).

والكنيسة تفعل مثلما فعلت مريم العذراء، فهي في كل إفخارستيا تطلب قبل كل شيء الخمر الجديد "الخمر الملكي" (أس١:٧)، خمر العريس الذي هو خمر الإفخارستيا، الدم الحقيقي ليسوع المسيح. ثم تقدم (الكنيسة) احتياجاتها لله في الصلاة، وتطلب شفاعة العذراء وصلواتها في كل ذلك: "ومن قبل مريم العذراء... استحققنا شجرة الحياة لنأكل منها أي جسد الله ودمه الحقيقيين[٤٩]".

إن آباءنا الرسل قدموا لنا أيضًا نموذجًا يحتذى لهذه المحبة العرسية الخادمة برعايتهم للكنيسة التي هي جسد العريس، وعروسه في نفس الوقت، فبذلوا كل شيء، حتي أنفسهم محبة في المسيح العريس الحقيقي. وبذلك صارت محبة الآخرين وخدمتهم في اتضاع

---

[٤٧] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، ص٣٣٣.

[٤٨] الإبصلمودية المقدسة، مرجع سابق، ثيؤطوكية يوم الأربعاء، القطعة الأولى، الربع الثاني.

[٤٩] المرجع نفسه، ثيؤطوكية يوم الخميس، القطعة الثانية، الربعان الثالث والرابع.

وإنكار للذات، علامة على المحبة الصادقة للمسيح العريس، كما يقول القديس مقاريوس الكبير: "والنفس التي تحب الله والمسيح حقيقةً، حتى إذا عملت عشرة آلاف من أعمال البر، فهي تعتبر ذاتها أنها لم تعمل شيئًا، بسبب حبها المشتعل الذي لا يخمد من نحو الله... طول النهار تشتاق وتجوع وتعطش بالإيمان والمحبة وبمداومة الصلاة، وهي تستمر في شوق بلا شبع لأسرار النعمة ولتتميم كل فضيلة[٥٠]".

وهذه المحبة العاملة "**الخادمة**" هي التي طوبها السيد المسيح في مثل "العبيد المستعدين" حيث وجدهم ساهرين على خدمة رفقائهم (لو:١٢). ويتحدث القديس "كيرلس الكبير" عن ذلك المثل فيقول: "يا للعجب العريس يتمنطق، ويتكئ عروسه، ويقوم بنفسه ليخدمها! إنه يخدم الذين سبقوا وتمنطقوا في العالم، وقاموا يخدمون الآخرين لحساب العريس السماوي، فتأهلوا بذلك لأن يخدمهم هو." لذلك يصلي الكاهن في القداس الإلهي عند استدعاء الروح القدس على القرابين قائلًا: "أنت اغرس فينا ذكر خدمتك المقدسة[٥١]".

كما أن يوحنا الرسول يتكلم عن ارتباط محبتنا لله بمحبتنا للآخر، فيقول في رسالته الأولى: "من يحب الله يحب أخاه أيضًا" (١يو٢١:١). فالكنيسة والكتاب المقدس يعلماننا أنه يستحيل أن نحب الرأس ولا نحب بقية الجسد! وعن ذلك يقول القديس أغسطينوس: "إن كنت تحب الرأس (المسيح) فقط، فلست في الحقيقة تحب، وإن كنت تحب الأعضاء (الكنيسة جسد المسيح) فقط، فلست تحب الرأس! ألا ترتعد حين تسمع الرأس يهتف من علياء سمائه حبًّا بأعضائه قائلًا: "شاول، شاول لماذا تضطهدني؟" (أع٩:٤). فإنه يدُعى مضطهدًا له، من يضطهد أعضاءه؛ ويُدعى محبًّا له من يحب

---

[٥٠] عظات القديس مقاريوس الكبير، مرجع سابق، عظة ١٠:١.

[٥١] الخولاجي المقدس، مرجع سابق، القداس الغريغوري، "سر حلول لروح القدس"، ص ٣٤٢.

أعضاءه (الكنيسة)[٥٢]." فمن لا يحب لا يستطيع أن يعرف الله، لأن "الله محبة" (١يو٤:٨،١٦). أما من يحب، فمحبته سترشده للاستقامة كما يقول القديس "أغسطينوس": "أحبب واصنع ما شئت[٥٣]".

والحقيقة أن محبتنا للآخر تنبع من محبة المسيح، ويوضح القديس "يوحنا ذهبي الفم" ذلك بقوله: "لأن المسيح يمنح محبته القلبية لعبيده الحقيقيين... فيستطيع المرء أن يقول إن محبتي (للآخر) ليست نابعة من قلبي البشري، ولكن نابعة من محبة قلب المسيح[٥٤]".

الإفخارستيا عشاء العريس

إن طقس الزواج اليهودي في أيام السيد المسيح كان يحمل إشارات واضحة عن تدبير المسيح الخلاصي والدهر الآتي، حيث كان العرس اليهودي أيام السيد المسيح يتم على مرحلتين؛ المرحلة الأولى هي "**الخطوبة**[٥٥]"، (وهي تمثل فترة مكوثنا على الأرض واستعدادنا قبل الانتقال إلى العرس الأبدي في السماء). والمرحلة الثاني هي "**العرس**" (تمثل الأبدية). والكنيسة في الحقيقة تعيش المرحلة الأولى، وعربون المرحلة الثانية (في الإفخارستيا) منتظرة مجيئه الثاني المملوء مجدًا. وفي المرحلتين يقتضي الطقس اليهودي أن يكون العريس هو المبادر، فهو الذي يأتي في المرحلتين (رمز للمجيء المسيح الأول بالتجسد، والمجيء الثاني عند انقضاء الدهر).

ففي المرحلة الأولى "الخطوبة" (Erusin) يذهب العريس إلى بيت العروس لطلب يدها (وذلك يمثل مجيء المسيح لكي يتحد بنا): "هذا الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء

---

[٥٢] القديس أغسطينوس، شرح رسالة القديس يوحنا الأولى، مرجع سابق، المقالة العاشرة:٣.

[٥٣] المرجع نفسه، المقالة السابعة:٨.

[٥٤] القديس يوحنا ذهبي الفم، تفسير رسالة فيلبي لبولس الرسول، مرجع سابق، العظة الثالثة.

[٥٥] الكلمة العربية"خطوبة" مأخوذة من الكلمة العبرية "كتوبة" (Ketubah) بنفس المعنى.

وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس[٥٦]"، ويتفق العريس على دفع مهر للعروس (يمثل التدبير الخلاصي الذي تممه المسيح لأجلنا ولأجل الاتحاد بنا). وكان العريس يحضر معه خمرًا، حيث إن شُرب العروس من كأس العريس (رمز للإفخارستيا التي من خلالها نتحد بالعريس)، كانت هي علامة الموافقة على الزيجة في تلك الأيام!

ومن الجدير بالملاحظة أن السيد المسيح كما سبق وذكرنا قد بدء خدمته في عرس، حيث حول الماء إلى خمر: "هذه هي بداية الآيات التي فعلها يسوع في قانا الجليل ، وأظهر مجده ، فآمن تلاميذه" (يو٢:١١). ومعجزة تحول الماء إلى خمر في قانا الجليل تشير بقوة إلى الإفخارستيا، التي هي معجزة المعجزات، حيث يتحول الخمر إلى دم حقيقي للمسيح العريس! وتشير أيضًا إلى الأبدية، فبحسب التقليد اليهودي من علامات مجيء المسيا وبدء **الزمان المسياني**، أن يحول المسيا الماء إلى خمر، حيث يقول الرباه: "يبدأ الزمان المسياني حينما يأتي موسى الجديد ويحول الماء إلى خمر (حول موسى النبي الماء إلى دم)، لأن زمن المسيا هو زمن فرح (الخمر في المفهوم اليهودي ترمز للدم أو للفرح حسب السياق) وليس دينونة كما كان مع موسى القديم." فالإفخارستيا هي عربون لعرس الملكوت (الزمان المسياني) والدهر الآتي.

ولقد إستخدم السيد المسيح في بعض أمثاله "العرس" للتعبير عن الأبدية من جهة الفرح والاستعداد، حيث جرت العادة في أيام المسيح أن يعد العريس حجرة أو يبني دورًا آخر في بيت أبيه ليتزوج فيه، ومن واقع هذه الخلفية يمكننا فهم قول السيد المسيح لتلاميذه في الليلة التي أسس فيها سر الإفخارستيا: "في بيت أبي منازل كثيرة" (يو١٤:٢)؛ إذ كان العريس يقول لعروسه في حوار طقسي في

---

[٥٦] قانون الإيمان.

نهاية طقس الخطوبة: "إني أمضي لأعد لك مكانًا، ثم آت وأخذك"؛ وهذا هو ما قاله السيد المسيح: "أنا أمضي لأعد لكم مكانًا، وإن مضيت وأعددت لكم مكانًا أتي وآخذكم إلىّ" (يو١٤: ٢، ٣)، وكانت العروس بحسب الطقس أيضًا تسأل: "متى تأتي وتأخذني؟"، فيجاوبها العريس قائلًا: "ليس أحد يعرف إلا أبي! "؛ لذلك نجد السيد المسيح في كلامه عن الزمن المحدد للمجيء الثاني يقول: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن، إلا الآب" (مر١٣: ٣٢).

أما المرحلة الثانية والتي هي "العرس" (Nisuin) [٥٧] أو حفل الزفاف، فهو يتضمن أيضًا في طقسه الشرب من خمر العريس، فالعروسان بحسب الطقس اليهودي لا يشربا معًا الخمر بعد الخطوبة (التي قد تستمر من عام إلى ثلاثة أعوام) إلى أن يجيء يوم العرس فيشربان منه من جديد، وهذا يشرح القول الذي قاله السيد المسيح لتلاميذه بعد تأسيسه لسر الإفخارستيا مباشرة: "وأقول لكم: إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي" (مت٢٦: ٢٩).

ثم تأتي وليمة العرس (الجزء الرئيس في الطقس الزواج اليهودي) والتي يجب أن يشترك فيها الجميع (ترمز للإفخارستيا التي هي عربون عرس الأبدية)؛ إذ كان يجب على كل المدعوين التناول منها بعد أن يكونوا قد إغتسلوا وتطهروا (رمز للمعمودية والتوبة)، وارتدوا ثياب العرس (الحُلل) التي يرسلها لهم العريس (رمز لبر المسيح)، ولا ينصرف أحد من العرس، بدون أن يأكل من تلك الوليمة، والعريس فقط هو الذي له الحق في السماح بالانصراف لمن

---

[٥٧] يتم بعد الخطوبة بفترة؛ يتم فيها تجهيز منزل الزوجية، ويعد الطرفان متزوجين شرعًا بعد إتمام طقس الخطوبة

اشترك في الوليمة[٥٨].

إننا نجد في طقس العرس اليهودي في العهد القديم إشارات أخرى للأبدية كعرس سماوي، فمثلًا كانت علامة مجيء العريس في يوم الزفاف بحسب طقس الزواج اليهودي؛ هو "صوت البوق"، لذلك كان يُنفَخ في البوق لتعلم العروس وكل المدعوين مجيء العريس. وقد إنعكست هذه الخلفية الحضارية التي كانت سائدة في زمن المسيح على ما كتبه بولس الرسول حين يتكلم عن المجيء الثاني والقيامة العامة مشيرًا إلى صوت البوق: "في لحظة في طرفة عين، عند البوق الأخير، فإنه سيبوق، فيقام الأموات عديمي فسادٍ، ونحن نتغير" (١كو١٥:٥٢). وكان الطقس اليهودي يقتضي أنه بعد سماع صوت البوق، تخرج العروس وصديقاتها لاستقبال العريس (رمز لقيامة الأبرار) "بملابس مطرزة تحضر إلى الملك في إثرها عذارى صاحباتها مقدمات إليك" (مز٤٥:١٤)، والذي يشير أيضًا إلى إستقبال الكنيسة المتزينة بالفضائل لعريسها السماوي.

ثم يذهب الجميع إلى "مظلة" معدة خصيصًا لإتمام طقس الزواج، حيث يسبق العريس عروسه في الدخول إلى "المظلة" وهناك يستقبل عروسه الآتية، وذلك يرمز إلى دخول المسيح إلى الأقداس العليا بصعوده كسابق لأجلنا "دخل يسوع كسابق لأجلنا" (عب٦:٢٠)، ثم يقوم صديق العريس الأقرب بتقديم العريس للعروس كما فعل (يوحنا المعمدان) لشعب إسرائيل حين قال: "من له العروس فهو العريس، وصديق العريس الذي يقف ويسمعه فيفرح فرحًا من أجل صوت العريس؛ إذ فرحي هذا قد كمل" (يو٣:٢٩). وفي النهاية

---

٥٨ لذلك تشدد الكنيسة على المؤمنين أن لا يخرجوا بعد المناولة مباشرة، بل ينتظروا صرف الكاهن لهم بعد منحهم البركة الرسولية في نهاية القداس الإلهي، الأمر الذي شدد عليه الآباء مثل القديس يوحنا ذهبي الفم الذي حذر شعبه من فعل ذلك، حتى لا يكونوا مشابهين ليهوذا الإسخريوطي الذي أخذ اللقمة وخرج.

يغلق الباب[٥٩]، ولا يسمح لأحد بالدخول كما في مثل عشر العذارى (مت٢٥:١٠) في قوله "أغلق الباب"!

وبذلك أصبح العرس (الزواج) رمزًا للملكوت وللمجيء الثاني، الذي نختبر بدايته في القداس الإلهي. فالإفخارستيا هي بحق وليمة العرس والملكوت "عرس الخروف" (رؤ١٩:٧)، حيث نجلس مع المسيح في ملكوته: "لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي" (لو٢٢:٣٠)!

وحقيقة الأمر أن الإفخارستيا هي عشاء عرسي بالفعل "عشاء عرس الخروف": "**طوبى للمدعوين إلى عشاء عرس الخروف**" (رؤ١٩:٩). لذلك وصفها القديس أمبروسيوس بأنها "**وليمة الحمل الملكية**[٦٠]" (Regias agni dapes)، فيها العريس (المسيح) يقدم نفسه للعروس التي هي الكنيسة، ويتحد بها، بحسب قول القديس "أغسطينوس" عن الإفخارستيا: "لقد صرت تعرف منذ الآن الختن (العريس) أنه كان ينبغي أن يتألم ويموت، ثم يقوم في اليوم الثالث... وحيث إنك تعرف العروسين، وتحضر عرسهما. فلتعلم أن كل احتفال (الاحتفال الليتورجي أي "الإفخارستيا") هو احتفال زواجي (عرسي) لأن فيه عرس الكنيسة. فابن الملك عليه أن يتخذ زوجة، وابن الملك هو الملك عينه، والمدعوون للعرس هم العروس! إن هذا العرس (الإفخارستيا) ليس كالأعراس البشرية؛ حيث العروس شيء، والمدعوون شيء آخر... الكنيسة بأسرها هي عروس المسيح، ومن جسده تخرج، ومنه بواكيرها. هناك (في الإفخارستيا) اتحاد العروسين بالجسد. فبالحق يوم أراد أن يكشف لنا (المسيح) عن قيمة جسده، كسر الخبز، وبالحق انفتحت أعين التلاميذ وعرفوه، ساعة أن كسر الخبز لهم[٦١]".

---

[٥٩] إذ أقيم العرس في بيت، ولكن السائد هو أن يتم تحت مظلة كرمز لحضور الله (الشاكيناه) وكرمز للمظال التي سكنها شعب الله أثناء ترحاله في عراء البرية.

[٦٠] انظر ص ٦٩.

[٦١] القديس أغسطينوس، شرح رسالة القديس يوحنا الأولى، مرجع سابق، المقالة الثانية:٢.

الإفخارستيا سكيب الحب

لقد أوصى الرب في العهد القديم (سفر اللاويين) أن تكون تقريبًا لكل الذبائح سكائب من الخمر تصب فوق الذبيحة وتقدم معها[٦٢]. وفي العهد الجديد (الأناجيل) نرى سكائب من نوع آخر؛ فالقديس مرقس الرسول والإنجيلي، قد سجل وجمع في إنجيله، في إصحاح واحد (الإصحاح الرابع عشر) سكيبين هامين: الأول هو حادثة المرأة الساكبة الطيب (مر١٤:٣-٩)؛ وبعدها في نفس الإصحاح تأسيس سر الإفخارستيا (مر١٤:٢٢-٢٦) والتي فيها قدم (سكب) السيد لتلاميذه الدم الذي سيسفك (مت٢٦:٢٨؛ مر١٤:٢٤؛ لو٢٢:٢٠) في اليوم التالي على الصليب!

يحدث في الإفخارستيا سكيب متبادل بين الله وشعبه، كتعبير عن حب حقيقي، عميق ومتبادل بين الله والإنسان على مستوى الحب الإلهي المتبادل بين العريس والعروس في سفر نشيد الإنشاد: "حبيبي لي وأنا له" (نش٢:١٦؛ ٦:٣)، فالله يسكب دمه لإجلنا، ونسكب نحن ذواتنا أمامه، على نحو ما جاء في إنجيل مرقس البشير. فنحن في الإفخارستيا نتناول الدم الكريم الذي سكبه السيد المسيح بإرادته لإجلنا ولأجل خلاصنا، محبة فينا: "اسمك دهن مهراق (مسكوب) لذلك أحبتك العذارى" (نش١:٣). كما يسكب أيضا الله في الإفخارستيا روحه القدوس، لكي يحول القرابين، ويقدس المؤمنين: "أسكب روحي على كل بشر" (يؤ٢:٢٨). هذا الروح الذي يسكب أيضًا في قلوبنا محبة الله ومراحمه "لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا" (رو٥:٥). ونحن في المقابل أيضًا (في القداس الإلهي) نسكب أمام الله أنفسنا كما فعلت حنة

---

[٦٢] لسكب الخمر على الذبائح فائدة عملية أيضًا؛ إذ إنه يساعد على حرق الذبائح والمحرقات.

أم صموئيل النبي التي لم تبرح الهيكل حتى نالت ما أرادت قائلة: "أسكب نفسي أمام الرب" (١صم١:١٥)، وداود النبي القائل أيضًا: "أسكب أمامه شكواي" (مز١٤٢:٢). لذلك يوصي داود النبي عن إختبار شخصي جمهور شعب إسرائيل فيقول لهم: "أسكبوا قدامه قلوبكم" (مز٦٢:٨). كما نجد في معلمنا بولس الرسول خير مثال على ذلك، حيث يشبه نفسه بسكيب الخمر الذي كان يصب فوق ذبائح العهد القديم فيقول: "لكنني وإن كنت أنسكب أيضًا على ذبيحة إيمانكم وخدمته، أسر وأفرح معكم أجمعين" (في٢:١٧)، فالإنسان المولود من الله ينبغي أن تكون سيرته "سكيب حب" تفيض رائحته وخدمته على كل من حوله.

والإفخارستيا هي حقًّا الذبيحة والسكيب الذي يلهب القلب حبًّا، كما شهد تلميذا "عمواس" بعد أن كسر الرب الخبز معهم فقالوا: "ألم يكن قلبنا ملتهبًا فينًا؟" (لو٢٤:٣٢)، لذلك لا عجب في أن يصف القديس يوحنا ذهبي الفم الإفخارستيا بأنها "نار المحبة الإلهية"!

ألحان كنسية قديمة

"نشيد العذارى"[٦٣]

لك أكرس نفسي أيها العريس، وأخرج للقائك بمصباح متقد،
من أعلى السموات أيتها العذارى، قد دوى صوت يوقظ الموتى،
اخرجن للقاء العريس، بثياب بيض ومصابيح موقدة،
نحو المشارق استيقظن، وقمن قبل أن يدخل الملك،
لقد هربت من مسرات الناس، من الملذات الباطلة وعشق الجهالة،
وألقيت نفسي بين ذراعيك المحييتين، لأعاين بهائك أيها الحبيب،
تركت بيوت الناس والعلاقات البشرية، وجئت إليك يا أغنى الملوك،
جئت إليك بثياب العرس، لأدخل في ديارك الأبدية وأبقى معك للأبد،
نسيت موطني واشتهيت نعمتك، نسيت الرفقاء والذين من عمري،
نسيت فخر أمي واعتزازي بجنسي،
لأنك أنت أيها المسيح صرت الكل لي،
المجد لك أيها المسيح معطي الحياة، أيها النور غير المنطفئ،
اقبل إليك هذه التسابيح، من خورس العذارى، يا زهر الكمال،
أيها الحب والفرح والفهم والحكمة، يا كلمة الله.

---

[٦٣] هذه مقاطع من لحن "نشيد العذارى" الذي يرجع لنهاية القرن الثاني أو بداية القرن الثالث على الأكثر. وكاتب هذا اللحن هو القديس "ميثوديوس" أسقف مدينة "أوليمبوس." وقد جاء هذا النشيد في ختام كتابه المدعو "الوليمة" (أي وليمة العرس الإلهي).

نصوص إفخارستية

ليتورجيا القديس يوحنا ابن الرعد[٦٤]

نقدم إليك قربانًا طاهرًا في توبة نفوسنا، لكي يتقدس جسدنا كليًّا. لا نقدم إليك ذهبًا أو فضة أو حجارة في التعديات والخطية، أو ثيابًا تفسد أو من القطيع الذي يبيده الموت، أو خروفًا مذبوحًا. بل نقدم إليك ذاك الذي خلص قطيعه بموته وبذل حياته عنا، أما الذين أنكروه فلا يخلصون، كان ممكنًا أن يخلصوا لو لم ينكروه. نقدم لك جسدك ودمك من أجل ظهورك أمام أعمدتك. نقدم لك في حضرتك من أجل كنيستك المقدسة التي بك أنقذت من الموت، ومن أجلها ضربت في دار المحاكمة، لكي تحررها بذاتك. ولكي يسور حولها بصليبك وتحفظ من التجربة بصلبك، إلى أن تدخل وليمة العرس في السماء.

---

[٦٤] انظر الحاشية ص ١١٢.

المراجع العربية

١. *الكتاب المقدس*، الترجمة البيروتية (نسخة فان دايك)، دار الكتاب المقدس.

٢. *الكتاب المقدس مع الكتب اليونانية من الترجمة السبعينية*، الترجمة العربية الجديدة، دار الكتاب المقدس، ١٩٧٨.

٣. الأب بولس الفغالي وآخرون، *العهد الجديد ترجمة بين السطور*، الجامعة الأنطونية كلية العلوم البيبلية والمسكونية والأديان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

٤. *الأسفار القانونية الثانية*، مكتبة المحبة، ٢٠٠٨.

٥. *الأجبية* (السبع صلوات النهارية والليلية)، مكتبة المحبة، ٢٠٠٩.

٦. *الخولاجي المقدس*، دير البراموس، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٦.

٧. القمص تادرس يعقوب ملطي، *صلوات القسم*، طبعة تحضيرية، ١٩٩٧.

٨. *الإبصلمودية السنوية المقدسة*، دير البراموس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣.

٩. *صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية*، مكتبة المحبة، ٢٠١٠.

١٠. *صلاة الأغربنية وترتيب الأفاشين السَحَرية وخدمة أسرار القداس "الإفخولوجيون"*، حلب، ١٦٩٥.

١١. *الديداخي تعليم الرسل الإثني عشر*، تعريب الأبوين جورج منصور ويوحنا ثابت، المطبعة البوليسية، ١٩٩٥.

١٢. *الدسقولية تعاليم الرسل*، د. وليم سليم قلادة، دار الجيل للطباعة، ١٩٧٩.

١٣. *رسائل إقليمس الروماني وإغناطيوس الأنطاكي وبوليكاربوس السميرني*، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٨.

١٤. *الرسالة إلي ديوجنيتوس*، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٤.

١٥. *القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد الدفاعان والحوار مع تريفون*، مراجعة د. جوزيف موريس فلتس، مركز باناريون للتراث الآبائي، الطبعة أولى، ٢٠١٢.

١٦. *مقالات القديس كبريانوس أسقف قرطاج الشهيد*، ترجمة القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

١٧. *رسائل القديس أنطونيوس*، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الرابعة، ديسمبر ٢٠٠٦.

١٨. البابا أثناسيوس الرسولي، *تجسد الكلمة*، ترجمة د. جوزيف موريس فلتس، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة السادسة، ٢٠٠٩.

١٩. القديس أثناسيوس الرسولي، *الرسائل الفصحية*، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٩.

٢٠. القديس باسيليوس الكبير، *المعمودية المقدسة*، ترجمة الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي ومراجعة د. جوزيف موريس فلتس، مؤسسة القديس باسيليوس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

٢١. القديس باسيليوس الكبير، *عظات على أيام الخليقة الستة (الهيكساميرون)*، ترجمة القمص تادرس يعقوب ملطي.

٢٢. *عظات القديس مكاريوس الكبير*، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الخامسة، ٢٠١٠.

٢٣. القمص تادرس يعقوب ملطي، *القديس كيرلس الأورشليمي*، كنيسة مارجرجس سبورتنج، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦.

٢٤. *مختارات من القديس غريغوريوس اللاهوتي النزيانزي*، تعريب

الأسقف إستفانوس حداد، منشورات النور، ١٩٩٤ .

٢٥. القمص تادرس يعقوب ملطي، *القديس يوحنا ذهبي الفم*، مارجرجس سبورتنج، الطبعة الأولى، ١٩٨٠.

٢٦. القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير رسالة بولس الرسول إلي أهل فيلبي*، ترجمة الباحث جورج ميشيل أندراوس، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٧.

٢٧. القديس يوحنا ذهبي الفم، *تفسير رسالة بولس الرسول إلي العبرانين*، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

٢٨. القديس يوحنا ذهبي الفم، *التوبة*، ترجمة الباحث جورج ميشيل أندراوس، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، الطبعة الأولى، ٢٠١٣.

٢٩. القديس يوحنا ذهبي الفم، *في الكهنوت وأحاديث عن الزواج ورسائل المنفى*، منشورات النور، ١٩٩٥.

٣٠. القديس كيرلس الأسكندري، *تفسير إنجيل لوقا*، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٧.

٣١. القديس كيرلس الأسكندري، *شرح إنجيل يوحنا*، ترجمة د. نصحي عبد الشهيد وآخرون، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ٢٠٠٩.

٣٢. د. نصحي عبد الشهيد، *التبني للآب عند القديس كيرلس الأسكندري*.

٣٣. القديس أمبروسيوس، *الأسرار*، ترجمة بيت التكريس لخدمة الكرازة، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي

للدراسات الآبائية، الطبعة الثانية، ١٩٩٦.

٣٤. القديس أغسطينوس، *خواطر فيلسوف في الحياة الروحية*، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٨.

٣٥. القديس أغسطينوس، *مدينة الله*، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧ .

٣٦. القديس أغسطينوس، *شرح رسالة القديس يوحنا الأولى*، ترجمة الخوري يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠١.

٣٧. القديس يوحنا الدرجي، *السلم إلى الله*، ترجمة مثلث الرحمات الأنبا مكاري، دير السريان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩ .

٣٨. القديس يوحنا الدرجي، *المرض والعلاج والطبيب (الكنيسة والراعي والرعاية)*، دار مجلة مرقص، طبعة ثانية، ٢٠٠٨ .

٣٩. الأسقف ثيؤفان الحبيس، *الحرارة الروحية*، ترجمة نيافة الحبر الجليل الأنبا سيرافيم أسقف الإسماعيلية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.

٤٠. نيافة الأنبا رافائيل، *ثبت أساس الكنيسة*، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤.

٤١. نيافة الأنبا رافائيل، *ليكون الجميع واحداً*، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.

٤٢. نيافة الأنبا مكاريوس، *مدخل إلى الموسيقى القبطية*، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

٤٣. نيافة الأنبا إبيفانيوس، *القداس الباسيلي النص اليوناني مع الترجمة العربية*، دار مجلة مرقس، الطبعة الأولى، ٢٠١٢.

٤٤. القمص تادرس يعقوب ملطي، *المسيح في الإفخارستيا*، كنيسة مارجرجس سبورتنج، الطبعة الأولى، ١٩٧٢.

٤٥. القمص تادرس يعقوب ملطي، *نظرة شاملة لعلم الباترولوجي في الستة قرون الأولى*، كنيسة مارجرجس سبورتنج، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩.

٤٦. القمص تادرس يعقوب ملطي، *الحب الإلهي*، كنيسة مارجرجس سبورتنج، الطبعة الثانية، ٢٠١٠.

٤٧. القمص أنطونيوس الأنطوني، *تاريخ اليهود للمؤرخ اليهودي يوسيفوس*، ٢٠٠٦.

٤٨. القمص روفائيل البراموسي، *المسيح في الأعياد اليهودية*، ٢٠٠٤.

٤٩. القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي، *الأعياد دراسات لاهوتية في العهد القديم*، الطبعة الثانية، ٢٠٠١.

٥٠- القمص روفائيل البراموسي، *الحياة اليهودية بحسب التلمود*، طبعة أولى، ٢٠٠٣.

٥١. د. جوزيف موريس فلتس، *التبني للآب عند الآباء الكبادوك*.

٥٢. د. جوزيف موريس فلتس، *العقيدة في النصوص الليتورجية*، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي لدراسات الآبائية، الطبعة الأولى، نوفمبر٢٠١٠.

٥٣. *قاموس يوناني عربي لكلمات العهد الجديد والكتابات المسيحية الأولى*، دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية، ٢٠٠٩.

٥٤. الراهب أثناسيوس المقاري، *معجم المصطلحات الكنسية*، الطبعة ثانية، ٢٠٠٤.

٥٥. *معجم اللاهوت الكتابي*، دار المشرق، بيروت، الطبعة السادسة، ٢٠٠٨.

٥٦. *تاريخ الكنيسة المفصل*، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

٥٧. المطران كيرلس سليم بسترس والأب حنا الفاخوري والأب جوزيف عبسي البولسي، *تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة*، منشورات المكتبة البولسية، لبنان، طبعة أولى ٢٠٠١.

٥٨. *دراسات في آباء الكنيسة*، دار مجلة مرقس، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.

٥٩- *كلمات للمبتدئين عن نشيد الأنشاد* (تأملات في آيات من نشيد الأنشاد قدمت للرهبان مبتدئين بدير أنبا مقار).

Bibliography

1. *The Orthodox Study Bible*, U.S.A, 2008.
2. G. Lampe, *A Patristic Greek Lexion*, Oxford University Press, U.S.A, 1696.
3. Jacques-Paul Migne, *P.G: Patrologia Greaca*, 161 Vols., Paris, 1857-1866.
4. Jacques-Paul Migne, *P.L: Patrologia Latina*, 217 Vols., Paris, 1841-1855.
5. *Ante-Nicene Fathers*, Hendrickson Publishers, Massachusetts, 1995.
6. Irenaeus , *Againist the Heresies*, Ancient Christian Writers., 5 Books, Paulist Press, 1991-2012.
7. Cross,F.L., *Cyril of Jerusalem's Lectures on the Christian Sacraments*, SPCK, London, 1951.
8. John Chrysostom, *On Priesthood*, St. Vladimir's seminary press, 1996.
9. Gregory Of Naziansus, *On God and Christ, The Five Theological Orations* , St. Vladimir's Seminary Press, Crestwood, New York, 2002.
10. Augustine, *Confessions*, Penguin Books, England, 1961.
11. Augustine of Hippo, *The Augustine catechism*, The enchiridion on faith, hope and love, New city press, 2008.
12. Dom Gregory Dix, *The Shape of The Liturgy*, The university press, Glasgow, 1943.
13. John D. Zizioulas, *Being As Communion*, SVS, U.S.A, 1985.
14. Alexander Schmemann, *The Eucharist: Sacrament of the Kingdom*, St. Vladimir's Seminary press, Crestwood, New York, 1988.

15. Hugh Wybrew, *The Orthodox Liturgy*, SPCK, London, 1990.
16. Daniel Liderboch(fr.), *Christ In The Early Christian Hymns*, Paulist Press, 1998.
17. Edersheim,A., *The Life and Time of Jesus The Messiah*, Hendrickson Publishers, Massachusetts, 1993.
18. Edersheim,A., *The Temple its ministry and services*, Kregel Classics, 1997.
19. Edersheim,A., *Bible History: old Testament*, Hendrickson Publishers, Massachusetts, 1994.
20. Joachim Jeremias, *Jerusalem In The Time Of Jesus*, Trans. F.H Cave, 1969.
21. Joachim Jeremias, *The Eucharistic Words of Jesus*, Trans. Norman Perrin, 1977.
22. Joachim Jeremias, *The Parables of Jesus*, Trans. S. H. Hooke, SCM Press, London, 1963.
23. Brant Pitre, *Jesus and the Jewish roots of the Eucharist*, New York, Doubleday, 2011.
24. Cecil Rothe, A., *Encylopedia Judaica*, Keter Publishing House, Jerusalem, 1978.
25. Isidore Singer, et. al., *Jewish Encyclopedia*, Biblo Bazar, 2010.
26. Edward J. Vasicek, *The Midrash Key, Tracing Jesus teachings to their old testament Jewish roots*.
27. *The Talmud A selection*, Penguin classics, 2009.
28. Dr. Roy Blizzard, *Mishnah And The Words of Jesus*, Create Space Indepedent Publishing Platform, 2013.
29. Victor E. Frankle, *Man's Search For Meaning*, Poket Books, 1995.
30. Eric Berne, *Games people play*, Vintage, 1962.
31. Erich Fromm, *The Art of Loving*, Harper Perennial Modern Classics, 2006.

32. *Oxford Dictionary of Quotations*, Oxford University Press, 2009.
33. Marcos Daoud, *The Liturgy of the Ethiopian Church*, Jamaica,1991.

الفهرس الموضوعي*

الآب

الآب قدم الابن فداء لأجلنا ٣٩.

الآب والابن والروح القدس (الثالوث) هو الذي يفعل كل شيء، أما الكاهن فهو يهب لسانه، ويقدم يديه ١٠٧.

الآب يعطي الحياة لكل الأشياء بالابن في الروح ٣٥٥.

الآب يعلن لنا في ابنه أسرار الملكوت، كاشفًا عمق محبته لنا بالروح القدس ١٧٨.

الآب يمنح نور المعرفة الحقيقية، لأولئك الذين يقبلون بر المسيح ٢٢٠.

الابن تجسد ليعرفنا الآب ١٨٧.

أرسل الابن لشفاء البشرية ٢٧١ وما بعدها.

الإفخارستيا هي جسد المسيح الذي هو صورة الآب غير المنظور ٩١.

الإفخارستيا هي صلاة موجهة للآب بالروح والحق (الابن) ١٨٩.

الصلاة الربانية، تبدأ بالآب لأنه الينبوع والمصدر ١٨٨.

كل الأسرار تعمل معًا من أجل الشفاء المقدم لنا من الآب بالمسيح في الروح القدس ١٠٤.

كل ما يصنعه الله في تدبيره هو من الآب بالابن في الروح القدس ١٨٨.

كل نعمة، وكل موهبة تامة، تأتي إلينا من الآب، بالابن، في الروح القدس ٣٥٤ وما بعدها.

لكي ننعم بأبوة الآب ومحبته يجب علينا أن نتحد بالابن ٢٩٢.

نحن نرى الآب برؤيتنا للابن المتجسد ٩١، ٩٤.

نحن ننال التبني للآب بطريقة سرية في سر المعمودية ٢١٨.

استجابة الإنسان لصلاح الله

الإفخارستيا هي عطية من الله نقدمها له ٢٠، ٤٠.

أفضل طريقة نشكر بها الله على كل صنيعه معنا هو الاشتراك في الإفخارستيا ١٩.

تقديم البركة لله في الإفخارستيا يعني أن نذكر ونعترف بإحساناته علينا وعمله فينا ٢١.

* الفهرس الموضوعي من إعداد الأستاذ كريم كمال شحاته.

في الإفخارستيا يعيد الإنسان كل شيء إلى الله ٢١ ، ٣٩٤.
في القداس الإلهي لسنا فقط نعترف بنعم الله التي صنعها لنا، بل نعترف أمامه بعجزنا ١٣٢.
نحن مدعوون في العهد الجديد أن نقدم لله مع ذبيحة الإفخارستيا كل ما نمر به في حياتنا ١٥١.
نحن نقدم ذواتنا لله كباكورة للخليقة ٢٥.
نقدم من خلال الإفخارستيا الشكر اللائق بعطية الملكوت التي منحنا الله إياها ٣٦٥.
الهدف من تقديم كل شيء لله، هو أن يعلن الإنسان مجد الله وكرامته في كل شيء ٢٢.

الأسرار

الإنسان يخلق من جديد، ويتقدس بواسطة الأسرار ٩٣.
كل أسرار الكنيسة تمنح المؤمنين استنارة ٢١٨.
كل الأسرار تعمل معًا لتجديد الإنسان ٩٣، ١٠١.
كل الأسرار تعمل معًا من أجل الشفاء المقدم لنا من الآب بالمسيح في الروح القدس وهي تتكامل معًا لنمو الجسد الواحد ١٠٤.
الله يغير الحياة بالإيمان والأسرار ٢٨٠.

الإفخارستيا والإيمان

الإفخارستيا تجدد إيماننا وتنميه، وتجعله أكثر حرارة ١٢٣ ، ٣١٣.
الإفخارستيا هي سر الإيمان، لأنها تحوي كل إيمان الكنيسة ١٣٢.
بالإفخارستيا يتحول الإيمان داخلنا إلى منهج حياة ينعكس على كلامنا وأفعالنا ١٤٢.
ذكر الراقدين في الإفخارستيا هو عمل إيماني ١٧٠.
صار عدم الإيمان بحقيقة جسد الرب ودمه، سمة لعدم الإيمان منذ القرن الأول الميلادي ٥٧.
الله يغير الحياة بالإيمان والأسرار ٢٨٠.

الإفخارستيا والتقليد

٨١ وما بعدها.
الإفخارستيا أحد أهم وأقدم ركائز التقليد الكنسي ٨٣.
الإفخارستيا أقدم من كثير من أسفار العهد الجديد ٨٤.
بعض المقاطع من أسفار العهد الجديد كانت تستعمل من البدء كصلوات وتسابيح في سري

الإفخارستيا والمعمودية ٨٥.
كان للإفخارستيا دورًا هامًّا في الحفاظ على رسالة الإنجيل ٨٤ وما بعدها.

الإفخارستيا والحياة الأبدية

الأبدية تبدأ على الأرض وتكتمل في السماء ٣٥٦.
الأبدية هي معرفة الآب، والابن الذي نتحد به في الإفخارستيا، ومعرفة الروح القدس الذي يدخلنا إلى شركة الثالوث ١٨٧.
أتى المسيح ليمنحنا الحياة الأبدية في ذاته ٣٤١، ٣٤٩ وما بعدها.
الإفخارستيا هي ترياق الحياة الذي به نقاوم كل ضعف ومرض ٢٧١.
الإفخارستيا هي حركة خروج وانطلاق من الزمن، ودخول في الأبدية ٣٦٩.
الإفخارستيا هي دواء الحياة الذي يقوينا في الحرب ضد الشيطان والخطية ٢٧١.
الإفخارستيا هي فجر الأبدية والدهر الآتي ٣٥٦.
حقيقة الأبدية هي الإجابة على السؤال الذي حير الفلاسفة، وهو: ما هو الهدف النهائي من كل شيء؟ ٣٤١.
الحياة الأبدية هي الغاية العليا بالنسبة لنا ٣٤١، ٣٥٩، ٣٦١.
خلق الله الإنسان وأعطاه وعد الحياة الأبدية والخلود؛ إذ أبقى الله في معرفته ٣٤٥.
الروح القدس هو الذي ينمي بذرة الأبدية التي غُرست فينا، ويمنحنا قوة ٣٥٧.
في الإفخارستيا نتحد بجسد الرب المحيي، وننال فيه الغلبة على الموت ٣٤٩، ٣٥٤.
في الإفخارستيا نتذوق عربون الملكوت، والحياة الأبدية والزمان الجديد ٣١٦، ٣٩٢.
في الإفخارستيا نجد دلالات كثيرة للأبدية ٣٦١ وما بعدها.
لا ينجو المؤمن من هلاك الخطية، ولا تكون له حياة فيه، ما لم يأكل جسد ابن الإنسان ويشرب دمه ٦٠، ٣٢١.
المسيح هو مصدر الحياة، بل هو الحياة عينها ٣٤٢، ٣٤٩.
الملكوت يبدأ بالتجسد ويكتمل بالمجيء الثاني للمسيح ٣٥٩.
من خلال الإفخارستيا تسري فينا عصارة الحياة وعدم الفساد اللذان نحيا بهما ٢٦.

هدف الله من خلقه البشرية، هو أن يشترك الإنسان في الأبدية ٣٤٢، ٣٥٢.

يوم معموديتنا هو أول يوم لنا في حياة الملكوت، حيث تُزرع الأبدية في داخلنا بالتناول ٣٥٧.

الإفخارستيا والصلاة

استخدام المزامير بكثرة في العبادة عموما، وفي الإفخارستيا خصوصا ١٥٢.

الإفخارستيا هي قمة الصلاة ٤٠٦.

صارت الإفخارستيا هي الوسيلة الرئيسة لذكر الراقدين والاجتماع معهم ١٦٩، ١٧٠.

الصلاة الإفخارستية هي رؤية العالم بعيني الله ١٥٩.

الصلاة الربانية هي نموذج للصلاة الإفخارستية ١٧٧ وما بعدها.

صلوات الكنيسة عمومًا، والإفخارستيا خصوصًا لها بُعد كرازي ١٦٦

عبارة "ماران آثا" كانت جزءًا من صلوات الإفخارستيا في القرون الأولى، فهي نداءً إفخارستيًا ٣٦٠.

نحن في الإفخارستيا مدعوون إلى أن نختبر عبادة جديدة ومتجددة ٣١٤.

الإفخارستيا والهيكل الجديد

حجر الزاوية في هذا الهيكل هو المسيح الذي نتناوله في الإفخارستيا ٣٠٧.

كما لا يوجد هيكل بدون ذبيحة، هكذا لا يكتمل هيكلنا بدون الإفخارستيا ٣٠٧.

الإفخارستيا وحياة الشركة / الاتحاد

الإفخارستيا تجمع الكنيسة حول أسقفها لتقديم المجد لله ٢٥٠.

الإفخارستيا تحقق عطية الاتحاد والالتصاق بالمسيح ٢٣٨.

الإفخارستيا تمنحنا شركة واتحادًا جسديًّا مع المسيح ١٥، ٢٦ وما بعدها، ٤٠١.

الإفخارستيا هي القربان الحقيقي، لأن بواسطته يقترب الإنسان من الله، بل ويتحد به ١٨٣.

الإفخارستيا هي حركة مستمرة ومتجددة نحو الاتحاد بالله ٣١١.

الإفخارستيا هي نموذج العمل المشترك بين الله والإنسان ٢٣٩.

إن اتحادنا الإفخارستي بالمسيح المتجسد، هو اقتناء للملكوت في

داخلنا ١٤١.
الإنسان لا يكتمل ولا يتحقق وجوده، إلا في وجود الآخر ٢٣٢، ٣٨٩.
تثبت شركتنا في الثالوث في سر الميرون ٢٣١.
تنمو شركتنا مع الثالوث، من خلال اشتراكنا في سر الإفخارستيا ١٠٨.
حين نتحد بالمسيح في الإفخارستيا، ننال قوة بها نستطيع أن نتمم وصاياه ٢٠٤.
ذروة معرفة الله تتحقق عندما نتحد بالمسيح ذاته من خلال التناول ١٤٠.
في الإفخارستيا نتحد بالعريس وبالطبيب الشافي ١٠٣، ٤٠٢.
في الإفخارستيا نتحد بالمسيح الذي هو جدة الحياة، بل الحياة عينها ٣١٦ وما بعدها.
في الإفخارستيا نتحد بجسد الرب المحيي، وننال فيه الغلبة على الموت ٣٤٩، ٣٥٣.
في المحبة العرسية تلتصق العروس بعريسها، وتدخل معه في رباط أبدي ٤٠٧.
القبلة المقدسة هي علامة على شركة المحبة الحقيقية التي بين الإخوة والأصدقاء ٢٤٣.
القداس الإلهي هو حركة رجوع إلى الله واتحاد به ٣١١.
كتمان الخطية داخلنا يعيقنا من الدخول إلى عمق الاتحاد بالله والفرح به ٩٩.
لا خلاص إلا بالاتحاد مع الله ٤٠١.
لقد صرنا بعد تجسد المسيح عظمًا من عظامه ٢٣٣.
الله أتى لكي يتحد بنا وليكون هو نفسه نورنا ٢٠٤.
الله حينما أراد أن يمنحنا وسيلة للاتحاد به، جعل ذلك من خلال الأكل ٢٨٤ وما بعدها.
الله في الإفخارستيا يدعونا للدخول إلى عمق سر محبته، بل والإقامة فيها ٣٩٦.
من خلال اتحادنا بالمسيح في سر الإفخارستيا، نمتلئ بمحبة الثالوث، وبالتالي نستطيع إعلانه للآخرين ٣٩٥.
نحن في الإفخارستيا نتحد بالمسيح المتألم والممجد ٣٧٧.
النفس التي تحيا مع المسيح يصبح المسيح عريسها، وتصبح هي عروسًا له ٣٩٩.
يشبه الرب التصاقه واتحاده بنا في الإفخارستيا بسر الزيجة ١٠١.

يشبه المسيح علاقته معنا في العهد الجديد بعلاقة الصداقة، لأن للصداقة معنى عميق في الشركة ٢٣٦.

الإفخارستيا وحياة الشهادة / الكرازة

الإفخارستيا تدعم الخدمة والكرازة في الكنيسة ١٦٥.

الشهادة تكون من خلال حياتنا وسلوكنا ومحبتنا للبشر ٦٦.

صلوات الكنيسة عمومًا، والإفخارستيا خصوصًا لها بعد كرازي ١٦٦.

كان المسيحيون في القرون الأولى كارزين بطبيعتهم لأنهم كانوا إفخارستيين أولًا ١٦٦.

الكنيسة في الإفخارستيا تصلي لأجل تفعيل الكرازة ١٦٧.

الكنيسة مدعوة أن تأخذ الحياة التي في الإفخارستيا وتخرج بها للعالم المائت فتنشر في العالم رائحة الحياة ٦٤.

لكي تكون الكرازة ناجحة لا بد أن يتبعها رعاية من كل نوع حسب الاحتياج ١٦٥.

المؤمنون بعد اتحادهم بالمسيح في الإفخارستيا ترسلهم الكنيسة كمرسلين في العالم ١٦٥.

نحن نخرج من القداس الإلهي لننير العالم ٢٢٠.

ينبغي أن لا نصرخ بالكلام داخل الكنيسة حيث الجميع مؤمنين، بل بالأولى نصرخ جدًّا للذين يجهلون المسيح ٦٦.

الإفخارستيا وذبائح العهد القديم

تقدمة ملكي صادق هي رمز واضح وصريح للإفخارستيا ٤١.

خروف الفصح وعلاقته بالإفخارستيا ٥١، ٥٥، ٦٠ وما بعدها.

الذبيحة التي تنبأ عنها ملاخي النبي هي ذبيحة الإفخارستيا ٤١.

ذبيحة الكفارة وعلاقتها بالإفخارستيا ٤٥.

لقد صارت حادثة ذبح إسحق رمزًا لذبيحة الإفخارستيا، التي هي نفسها ذبيحة الصليب ٣٩.

الله قدم لإبراهيم الخروف، ليقوم إبراهيم بتقديمه لله ثانية وهذا ما تقوم به الكنيسة فعليًا في الإفخارستيا ٤٠.

الألم / المرض

الأبدية والألم يرتبطان في كثير من تعاليم المسيح ٣٧٣، ٣٧٦.

احتمال الآلام يُمنح للإنسان بالروح القدس من خلال الأسرار ٣٨٠.

احتمالنا للآلام ينبع من تحمل المسيح الآلام لأجلنا ٣٨٠.

أحيانا يستخدم الله الألم أو المرض كأداة لكسر أو هدم شيء داخلنا، لكي يعيد بناءنا وتشكيلنا حسب قصده ٣٧٩.

الألم إذا تم قبوله في طاعة، يتحول إلى طريق للخلاص ٣٧٥ وما بعدها.

الألم الذي بحسب إرادة الله يفضي إلى المجد ٣٧٣.

الألم في الحياة الروحية هو وسيلة إماتة للإنسان العتيق، حتى ينمو الجديد في المسيح ٣٧٧.

الألم في المسيحية ليس هدفًا في ذاته، بل الفرح الدائم الداخلي هو الهدف ٣٧٧.

الألم ليس "فضيلة" في حد ذاته، بينما الأسلوب الذي نتعامل به مع الألم هو ما قد يكون "فضيلة" ٣٧٩.

الألم يعطي للإنسان عمقًا، إذا أحسن التعامل معه ٣٧٨.

الحب وحده يعطي معنى للألم ٣٧٨.

السبيل الوحيد لاجتياز الألم بسلام هو أن نقبله بشكر، بل ونحتضنه ٣٧٨.

شفاء نفوسنا عادة ما يكون في صورة عملية تستغرق وقتًا ٢٧٨.

الكنيسة تعلن في كل قداس أنه قد حان وقت الخلاص، أي الشفاء ٢٧٨.

لقد اختار المسيح أن تكون البقعة التي شهدت صعوده المجيد، هي نفسها البقعة التي شهدت كثيرًا من آلامه ٣٧٤.

الله كثيرًا ما يستخدم وسائل طبيعية في عملية الشفاء، كالأدوية والعلاجات التي يصفها الأطباء ٢٧٩.

ليس بالضرورة أن تكون مشيئة الله هي الشفاء الجسدي الفوري أو المعجزي، بل إن الله كثيرًا ما يسمح بالمرض لفائدتنا ٢٧٩.

المجد والألم معًا، يشكلان عنصريين أساسيين في تسابيح الكنيسة ٣٧٥.

المسيحية هي الديانة الوحيدة في العالم التي فيها قبل الله أن يتألم آلامًا حقيقية، وذلك من خلال

التجسد ٣٧٣ وما بعدها.
موهبة احتمال الألم وتقبله بسلام وفرح داخلي، هي تكافئ الاستشهاد ٣٨٠.
نحن في الإفخارستيا نتحد بالمسيح المتألم والممجد ٣٧٧.
يُحسب للشخص الذي يحتمل الآلام بصبر، أنه يكمل آلام المسيح في نفسه ٣٧٧.

الإيمان

حياة الإيمان التي تدعونا الكنيسة لنحيا فيها هي حياة تليق بفصح المسيح ١٢٧.
دور الطقوس هو أن تشرح الإيمان، وتساعد المؤمنين على تذوقه وممارسته ٣٦١.
الشركة في عائلة "الله الثالوث" تتحقق أولًا من خلال شركتنا في الإيمان ٢٣١.
صار عدم الإيمان بحقيقة جسد الرب ودمه، سمة لعدم الإيمان منذ القرن الأول الميلادي ٥٧.
الطقوس في الكنيسة هي وعاء للإيمان ٣٦١.
كل إيمان الكنيسة وتقليدها صاغته الكنيسة في خبرتها الليتورجية ٨٣.
لابد أن يكون المؤمن مستقيم الإيمان، ومستقيم العبادة، ومستقيم الأعمال ١٢٤.
النفوس بالإيمان وبالروح القدس ما هي إلا بيوت (هياكل) مقدسة ٥٦.

تأثير السقوط على حياة الإنسان (والخليقة)

أصبحت البشرية بأكملها تشبه الأبرص الذي شفاه المسيح ٢٦٦.
أصبحت الخليقة عاقرًا عن الحياة والصلاح ٣٥٢.
انتشرت عبادة الملوك والأباطرة ٨.
انعزلت البشرية عن السماء ٢٦٦.
انفصل الإنسان عن الله مصدر النور والحياة ٢٠٠.
انفصل الإنسان عن صداقة الله ٢٣٧.
تشوهت نظرة الإنسان عن خلقة الله للكون ٨.
دخلت الأمراض الروحية كالخوف والشك وغيرها نتيجة لفساد الطبيعة ٢٨٠.
سقط الإنسان عن معرفة الله الحقيقية ١٣٤، ٣٤٨.
السقوط هو أكثر من مجرد كسر وصية، إنه موت ٣٤٧.

صار الإنسان مقيدًا بشتى أنواع القيود ٣٤٨.
صار الإنسان يعبد المخلوقات كالحيوانات والجماد ٨.
ضلت البشرية، وأخذت تتخبط في وسط ظلام الموت والفساد ٢٠٢.
ظن الإنسان أنه هو سبب وجود الخليقة ٨.
عبد الإنسان نفسه بدل الله خالق كل شيء ٨.
فسد الهيكل الإنساني بفعل الخطية وتدنس، وفقد مجده الأول ٣٠٦.
فقد الإنسان الحياة الأبدية ١٣٤.
فقد الإنسان حياة الشركة وانحدر في محبته، وسقط من دعوته للاتحاد بالله ٣٩٠ وما بعدها.
فقد الإنسان صحة الجسد والخلود ٢٧٠.
لُعنت الأرض بسببه ٨.
المرض والموت هما نتاج الخطية والسقوط ٢٧٠.

التبني

الأبناء فقط هم الذين أعطى لهم أن يشتركوا في الإفخارستيا ٢١.
الإفخارستيا هي تقدمة البنين لأبيهم ٢١.
الإفخارستيا هي خبز البنين الحقيقي ٢١.
بالمعمودية ننال نعمة التبني ٨٧، ٣٥٥.
في الإفخارستيا نقدم ذواتنا لله كذبيحة حب من خلال خضوعنا الكامل له كأبناء بالتبني ٢١.
نحن ننمو ونتأصل في بنوتنا لله من خلال الإفخارستيا ٢٩٣.
الهدف الأسمى من الخلاص هو رفعنا لرتبة "البنوة" ٧٥.

التجسد

أتى المسيح لكي يغير المسار الذي كان منحدرًا بنا نحو الموت والهلاك ٣٥٣.
أتى المسيح ليجدد هيكل الإنسان الذي فسد بالسقوط، ويرده إلى صورته الأولى ٣٠٧، ٣١٣.
أتى المسيح ليشفي الإنسان من شعوره بعدم الحب ٢٨٥.
أتى المسيح ليمنحنا الحياة الأبدية في ذاته ٣٤١، ٣٤٩ وما بعدها.
الإفخارستيا هي تقدمة مبنية على أن الكلمة أخذ الذي لنا وأعطانا ما له ٢٢.

الإنسان في المسيح أصبح إنسان الله ٢٤٥.
بالتجسد صار ابن الله أخًا بكرًا لنا ٢٣٤.
بسبب التجسد صار يمكن تقديم أجسادنا ذبيحة حية، مقدسة، مرضية عند الله ٢٥.
بعد التجسد أصبح يستحيل أن نتكلم عن الله بدون الإنسان وبالمثل يستحيل أن نتكلم عن الإنسان دون الله ٢٤٥.
تجسد الابن كان لشفاء البشرية من الموت والفساد، ولمنح الإنسان حياة جديدة بواسطة الاتحاد بالمسيح ٢٦٧ ، ٢٩٥.
تجسد الابن ليحمل أمراضنا وأوجاعنا ويكسر شوكة الموت، وبقيامته صار برنا وشفاءنا ٢٧٢ ، ٢٩٥.
التجسد جعل الكنيسة ترى المادة طاهرة، ولا ترى فيها شرًّا ١٥٨.
جاء المسيح في ملء الزمان ليرد إلى البشرية الحرية ثانية ٣٩٢.
جاء المسيح ليعيد العالم للوضع الإفخارستي الأول الذي خلقه عليه ١٦.
جعلنا المسيح بفضل تجسده أبناء لله الآب ٣٥٥.
الكلمة المتجسد هو الدواء الشافي والمخلص من الموت والفساد ٢٧١ ، ٣٤٨ ، ٢٩٣.
الله الكلمة صار جسدًا، نتناوله في الإفخارستيا ٢٨١.
المسيح بالتجسد أصبح آدم الثاني الذي يقود الكنيسة في تقديم الشكر لله ٢٨.
المسيح بفضل تجسده، فتح لنا طريق المعرفة الحقيقية للآب وللروح القدس ١٣٩.
الملكوت يبدأ بالتجسد ويكتمل بالمجيء الثاني للمسيح ٣٥٩.
نحن نصلي الصلاة الربانية بفضل تجسد الابن ١٧٨.

التقليد / التسليم

كل إيمان الكنيسة وتقليدها قد صاغته الكنيسة في خبرتها الليتورجية ٨٣.
هو تسليم الحياة الجديدة الموهوبة لنا في المسيح يسوع ٨١.
هو نبع دائم للكنيسة منذ البداية ٨٢.
يحفظ وينقل حياة المسيح لكل الكنيسة في كل العصور، من خلال الروح القدس الدائم في الكنيسة وأسرارها ٨٤.

يربط الكنيسة الحاضرة ويجعلها في شركة مع الماضي والمستقبل، لذا هو يعد بمثابة الذاكرة الحية للكنيسة ٨٣.

الجذور اليهودية لطقس الاحتفال بالإفخارستيا

طقس الفصح ٥١، ٥٥، ٦٠ وما بعدها.

طقس يوم الكفارة ٤٤ وما بعدها، ٣٦٠.

في اتجاه الصلاة ٣٦٤ وما بعدها.

في الاتحاد والمحبة والوحدة ٣٩٥ وما بعدها.

في الاحتفال بالنور ٢٠٥ وما بعدها، ٣٠٩.

في الاستعداد لمقابلة الله ١٤.

في الإيمان بحياة الدهر الآتي ٣٥٦، ٣٥٨ وما بعدها.

في النار الإلهية الموجودة على المذبح ٣٠٨.

في صب الخمر والماء في طقس تقديم الحمل ٥٠.

في عدم الظهور أمام الله فارغين ٢٠.

في قراءة الكلمة ٢٢١.

من حيث انتظار المسيح/ المسيا ٤١٥ وما بعدها.

من حيث تقديم الصلاة وهدفه ٥.

من حيث طقس ترديد الذبائح ١١.

الحضور الحقيقي للمسيح في الإفخارستيا

استخدمت الكنيسة مادتي الخبز والخمر في الإفخارستيا، لكي يتحولا سريًّا لجسد ودم حقيقي ليسوع المسيح ١٥٨.

الإفخارستيا هي التحقيق الفعلي والسري لحضور المسيح الدائم في الكنيسة ٨٦، ١٨٣، ٢٧٧.

الإفخارستيا هي معجزة المعجزات، حيث يتحول الخمر إلى دم حقيقي للمسيح العريس ٤١٧.

بعد حلول الروح القدس وتحول الأسرار، يصبح المسيح حاضرًا بجسده ودمه على المذبح ٢٩.

تكتمل الكنيسة حين يكون المسيح حاضرًا في الوسط على المذبح ٨٦، ٢٧٧.

ذبيحة المسيح هي جسده ودمه الأقدسان، بشكل سري وحقيقي ٢٦.

صار عدم الإيمان بحقيقة جسد الرب ودمه سمة لعدم استقامة الإيمان منذ القرن الأول ٥٧.

كان اليهود يؤمنون بأن اشتراكهم في عيد الفصح، هو اشتراك وحضور حقيقي للفصح الأول الذي صنعه موسى والشعب، وليس مجرد إعادة وتذكار لحدث تم وانتهى في الماضي ٥٦.

المسيح نفسه هو الذي يوزع جسده على المؤمنين ٢٩.

المسيح هو بعينه الذي يعلن في الإفخارستيا خلال الكاهن " هذا هو جسدي" ١٠٧.

المسيح يكون هو الكاهن الحاضر ليقرب قرابيننا ٢٩.

نتمتع بالشركة مع الرب جسديًّا لأنه حاضر بالحقيقة وليس فقط بشركة روحية ١٥ ، ٢٦.

الروح القدس

الإفخارستيا تضرم الروح ومواهبه في الإنسان ٩٣ ، ٣١٠.

الإفخارستيا هي عربون ملكوت الله الآب والابن والروح القدس ١٨٧ ، ٣١٦.

إن شركة الروح القدس تجعلنا مشابهين للمسيح ٣٩٤.

بعد حلول الروح القدس وتحول الأسرار، يصبح المسيح حاضرًا بجسده ودمه على المذبح ٢٩ ، ٧٨.

الروح القدس المحيِي هو الذي يجعل أيضًا تقليد الكنيسة حيًّا باستمرار ٨٤.

الروح القدس ليس فقط يحول القرابين لتصير جسدًا ودمًا حقيقيًّا ليسوع المسيح، بل هو أيضًا الذي يُظهِر للمؤمنين حقيقة هذه الأسرار السمائية بالإيمان في قلوبهم ٣٣٣.

في سر الميرون ننال ختم الروح القدس ٩٤.

كل الأسرار تعمل معًا من أجل الشفاء المقدم لنا من الآب بالمسيح في الروح القدس وهي تتكامل معًا لنمو الجسد الواحد ١٠٤.

كل ما يصنعه الله في تدبيره هو "من الآب بالابن في الروح القدس" ١٨٨.

كل نعمة، وكل موهبة تامة، تأتي إلينا من الآب، بالابن، في الروح القدس ٣٥٤ وما بعدها.

لا توجد كنيسة بدون الروح القدس ٨٤.

الله يكشف عمق محبته لنا بالروح القدس، الذي هو روح الإعلان ١٧٨.

المعرفة الحقيقية التي يريدها الله لنا، تتحقق بواسطة الروح القدس

الـذي حـل عـلـى الـكـنـيـسـة، ولا يزال منذ يوم الخمسين ١٣٧.
من خلال الإفخارستيا ننال محبة الله الآب ونـعـمـة الابـن الـوحـيـد وشـركـة وعـطـيـة الـروح الـقـدس ٢٤، ٣٥٤ وما بعدها.
النفوس بالإيمان وبـالـروح القدس مـا هـي إلا بـيـوت (هـيـاكـل) مقدسة ٥٦.
هـو الـذي يحركنا لنعترف بأن يسوع رب لمجد الله الآب ١٨٨.
هو الـذي ينمي بـذرة الأبدية التي غُرست فينا، ويمنحنا قوة ٣٥٧.
هو الذي يرشدنا، مسلطًا الضوء على ما ينبغي تركه، أو تغيره أو التوبة عنه ٩٧.
هو الذي يسكب في قلوبنا محبة الله ومراحمه ٤٢١.
هـو الـذي ينقل إلى التائب غلبة المسيح على الشيطان والخطية ١٠٠.

الزمن / الوقت

"الآن" الـتي تعيشها الـكنيسة، تجـمـع فـيـهـا المـاضـي والحـاضـر والمستقبل معًا ٢٧٧.
عـبـادة الـكنيسة لا تـشـيـخ، بل هـي دائمة وجديدة دائما، لأنها لا تخضع للزمن ٣١٤.
الوقت الآن هـو وقت الأبدية، وقت الشكر، وقت طلب الـرب، وقت الخلاص ٢٧٦.

سر الاعتراف

سـر الاعـتـراف لـه بُـعـد عـلاجـي، لأننا بواسطته ننال الشفاء ٩٨ وما بعدها.
سـر الاعـتـراف يـعـيـد عـلاقـة الشركة بيننا، بعد أن فصلتنا وأبـعـدتـنـا الـخـطـيـة عـن بعضنا البعض ٩٥.
سـر الـتـوبـة والاعـتـراف هـو سر تجديد الخليقة ١٠١.
سـر الـتـوبـة والاعـتـراف هـو سر عودتنا إلى المصالحة ٩٥.
سر التوبة والاعتراف يحافظ على نقاوة وطهارة ثياب المعمودية ٩٦.
سـر مـسـحـة المـرضـى لا يعمل بمعزل عن سري الاعتراف والتناول ١٠٤.
لا أحد يستطيع أن يتقدم للتناول، وهـو غـير تـائـب ومـتـصـالـح مع الآخرين ٩٦، ٩٨، ٢١١.
مـن خـلال سـر الاعـتـراف يصير المؤمنون مؤهلين ثانية للدخول إلى عرس الحمل ١٠١.

سر الزيجة

الإفخارستيا تجدد وتقدس الزيجة باستمرار ١٠٤.

الإفخارستيا تمنح الزيجة بُعدًا أبديًّا ١٠٤.

شبه الرب التصاقه واتحاده بنا في الإفخارستيا بسر الزيجة ١٠١ وما بعدها.

سر الكهنوت

الآب والابن والروح القدس (الثالوث) هو الذي يفعل كل شيء، أما الكاهن فهو يهب لسانه، ويقدم يديه ١٠٧.

الإفخارستيا هي قمة عمل الكهنوت ١٠٩.

سر الكهنوت هو سر إشراك البشر في رعاية الخليقة ١٠٦.

غاية خدمة الكهنوت هو وحدة المؤمنين معًا في الله ١٠٨.

الكنيسة منذ القرن الأول،كانت تعلم أن الكهنوت يمثل الله المحب ١٠٦.

المسيح هو بعينه الذي يعلن من خلال الكاهن " هذا هو جسدي" ١٠٧.

سر المعمودية

الإفخارستيا تجدد دومًا ما أخذناه في سري المعمودية والميرون ٩١.

بالإفخارستيا نثبت في الكرمة (الكنيسة) التي غُرسنا فيها بالمعمودية والميرون، وننمو فيها ٩٣.

بعد أن أقامنا المسيح من موت الخطية بالمعمودية، يطعمنا فورًا خبز الحياة في الإفخارستيا ٨٩.

حياتنا مع المسيح تبدأ من السماء في سر المعمودية ٣٥٦.

سر التوبة والاعتراف يحافظ على نقاوة وطهارة ثياب المعمودية ٩٦.

سر المعمودية وسر الإفخارستيا يحويان سر المسيح، وسر الكنيسة التي خرجت من جنب المسيح ٩٠.

في المعمودية نأخذ طبيعة جديدة عوض عن الأولى التي فسدت ٨٧.

في المعمودية ننال البنوة ٨٧، ٣٣٥.

المعمودية التي يُرمز لها بالنهر في سفر الرؤيا، هي الطريق إلى شجرة الحياة (الإفخارستيا) التي فيها شفاء الأمم ٩١.

المعمودية تجعلنا أعضاء في الكنيسة (جسد المسيح) ٨٨.

المعمودية ليست حدثًا تم في

حياتنا وانتهى، بل هي مسيرة حياتنا كلها ٨٨ وما بعدها.
من خلال سري المعمودية والإفخارستيا ننتصر على الموت، ونخلع الفساد ٢٧١.
المؤمن بتوبته واعترافه وتناوله يُبيض ثوب المعمودية غاسلًا إياها بدم الخروف ٩٠.
نحن قد مُتنا عن العالم في المعمودية، لنحيا لله وليس لأنفسنا أو للعالم ٣٧٢.
نحن نولد من الآب بطريقة سرية في سر المعمودية ٢١٨.
يوم معموديتنا هو أول يوم لنا في حياة الملكوت، حيث تُزرع الأبدية في داخلنا من خلال الإفخارستيا ٣٥٦.

سر الميرون

الإفخارستيا تجدد دوما ما أخذناه في سري المعمودية والميرون ٩٣.
بالإفخارستيا نثبت في الكرمة (الكنيسة) التي غُرسنا فيها بالمعمودية والميرون، وننمو فيها ٩٣.
تثبت شركتنا في الثالوث في سر الميرون ٢٣١.
سِرّا الميرون والإفخارستيا يتشابهان في عدد الرشومات ٩٤.
في سر الميرون نُدشن، ونتقدس ونُكرس لنصير أوعية مقدسة، وهياكل لله ٩٢.
في سر الميرون ننال ختم الروح القدس ٩٣.

سر مسحة المرضى

سر مسحة المرضى هو أيضًا لغفران الخطايا ١٠٤
وضعت الكنيسة سر مسحة المرضى للشفاء، ولنوال التعزية، ولاحتمال المرض ١٠٤.

شهادة الخليقة/ الطبيعة عن الله

اعتبر آباء الكنيسة التأمل في الطبيعة نوعًا من الصلاة ٧.
الإنسان يستطيع أن يمجد الله ويشكره من خلال المخلوقات والمصنوعات ٩.
الأنوار المخلوقة (الشمس والقمر) يشيران إلى الصانع الأعظم والنور الحقيقي الذي لا يدنى منه ١٩٨.
الطبيعة تشهد أن هناك خالقًا كلي القدرة ٧.
الله لم يخلق الموت ولا الفساد، ولا المرض بل خلق كل شيء حسنًا ٣٤٤.
وجود الخليقة في حد ذاته يعلن مجد الله ٧.

الصلاة

رفع القلب أو العقل في القداس الإلهي هو صلاة ١٥٥.

الروح القدس هو الذي يعين الإنسان في الصلاة ويرشده كيف ولمن يصلي ١٦٣.

الصلاة الربانية هي دعوة للحياة بحسب الله ١٨٩.

الصلاة تجمع الماضي والحاضر والمستقبل معًا ١٥٢.

الصلاة قد تبدأ كجزء من حياتنا، لكننا مدعوون لأن تصبح هي حياتنا ١٥٣.

الصلاة لأجل العالم والآخرين في القداس تذكرنا بأنه هناك آخر ١٦٢.

الصلاة لأجل العالم والآخرين، هي خدمة محبة وعطاء ١٦١.

الصلاة لغة تواصل بين المؤمنين على مستوى سري ١٥١.

الصلاة هي لقاء عطش الله، مع عطش الإنسان ٤٠٦.

الصمت بانتباه وتركيز يجعلنا نسمع صدى كلمة الله في قلوبنا ١٧٥.

الصمت في حضرة الله بإرادة واعية هو عبادة ١٧٢.

عبادة الكنيسة برغم أصالتها وأقدميتها، إلا أنها عبادة جديدة دائما بفعل الروح القدس ٣١٢، ٣١٤.

في الصلاة نحن نستجيب لمحبة الله الثالوثية ٣٩٤.

القداس الإلهي هو بمثابة سلم نصعد به نحو السماء، ومركبة سماوية ٣٦٩.

القداس الإلهي هو حركة رجوع إلى الله واتحاد به ٣١١، ٣٦٦ وما بعدها.

كل قداس نشترك فيه هو بمثابة عيد تجديد لنا ٣١٣.

نحن نخرج من القداس الإلهي لننير العالم ٢٢٠؛

نحن نستطيع أن نجعل من الصلاة أسلوب حياة، من خلال تحويل كل ما نمر به إلى تقدمة ١٥٤.

الوقوف في محضر الله بخشوع وتقوى حقيقية، هو فرح للثالوث ١٧٣.

عطايا الله للإنسان/ للخليقة

الإثمار والإكثار هي بركة من الله للخليقة ٩، ١٠٢ وما بعدها.

رعاية الإنسان للخليقة هي بركة منحها الله له ٩.

في الإفخارستيا يهبنا المسيح جسده ودمه ١٠٥، ١٨٧.
كانت وفرة الطعام وتنوعه، علامة على البركة وعلى حب الله للبشر ٢٨٣.
كل عطايا الله هي للإعلان عن محبته وملكوته ١٢.
الله أنعم علينا أن نأكل من شجرة الحياة الحقيقية، الكائنة في وسط الكنيسة، وهي الإفخارستيا ٢٨٤، ٢٨٩.
ما نقدمه لله في القداس الإلهي، هو ما قد سبق وقدمه هو لنا ١١.
المسيح أعطانا جسده ودمه طعامًا لنا، مؤسسًا بذلك عهد جديدًا أبديًا ٢٨٤.
المسيح في سر الإفخارستيا يقدم لنا جسده ودمه لشفاء أجسادنا وأرواحنا ٢٩٥.

علاقة الإفخارستيا بالزمن/ الوقت

الإفخارستيا هي حركة خروج وانطلاق من الزمن، ودخول في الأبدية ٣٧٠.
ترتل الكنيسة في بدء القداس قائلة "قد حان الوقت"، مُعلنة أنه قد حان وقت الاجتماع بالرب ٢٧٦.
في الإفخارستيا نتذوق عربون الملكوت، والحياة الجديدة الأبدية، الزمان الجديد ٣١٦.
الكنيسة في الإفخارستيا تستحضر يوم الخلاص ٢٧٦ وما بعدها.
وقت القداس هو الوقت الذي يكون فيه المسيح حاضرًا مقدمًا لنا جسده ودمه لنأكل ونحيا، ونفوز بغفران خطايانا ٢٧٨.
وقت القداس هو الوقت المقبول، إنه الوقت الذي تُفتح فيه أبواب السماء ٢٧٨.

علاقة الإنسان بالعالم/ الخليقة

إحدى مسئوليات الإنسان هي أن يأخذ من الخليقة ويعيد تقديمها لله بشكر ٩ وما بعدها، ١٢، ١٥، ٢٢.
الإفخارستيا تقدمة متبادلة نعيد فيها تقديم العالم وذواتنا لله ٣.
الإفخارستيا هي خدمة شفاعية مقدمة لأجل حياة العالم أجمع ١٦٠ وما بعدها.
الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تقديم الشكر عن كل شيء في العالم، وبلسان الخليقة كلها ٣، ١٤، ٢٢، ١٠٦، ١٦١.

رعاية الإنسان للخليقة هي بركة منحها الله له ٩ وما بعدها.
في الإفخارستيا نصنع سلامًا مع بعضنا البعض، ونصلي لأجل سلام العالم وكل البشر ٩٨.
الكنيسة تتحرك بإيجابية نحو العالم لتقدسه بالصلاة وأعمال المحبة ١٥٧.
الكنيسة لا ترفض العالم أو المادة بل تقدس كليهما بالإفخارستيا ١٥٧.
الكنيسة مؤتمنة على الخليقة لتستثمرها ١٠.
الهدف من رعاية الإنسان للخليقة هو تمجيد الله ٩.

علاقة الإيمان بالمعرفة

١٣٤ وما بعدها.

معنى الإفخارستيا وفعلها

الابتعاد عن الإفخارستيا يؤدي إلى الفتور الروحي، والسقوط تدريجيًّا ٣٢٣.
أحد معانيها: النعمة الحسنة ٢٠.
بدونها لا يكتمل هيكلنا ٣٠٧.
بها نقتني الملكوت في داخلنا ١٤١.
بواسطتها يزرع فينا المسيح قوة القيامة وعدم الفساد ٢٦.
تجدد إيماننا وتشعله، وتجعله أكثر حرارة ٣١٣.
تجدد دومًا ما أخذناه في سري المعمودية والميرون ٩٢، ٢١٨.
تجدد محبتنا نحو الله والآخرين، وتجعلها على مستوى بذل الذات للآخر ٣١٣.
تجعل الإنسان يعلن مجد الله وكرامته في كل شيء ٢٢.
تجعل المسيح يصبح هو سر حياتنا ٢٦.
تجعلنا نعرف الله ونتحد به ١٤٠.
تجمع وتوحد كل الكنيسة معًا: الأحياء والراقدين ١٧٠.
تحمل في داخلها سر فصح العالم كله، ٥٣.
تدخل الإنسان إلى الله ليستنير ثانية بالنور الإلهي ٢٠٦.
تساعد الإنسان على فهم الهدف من وجوده ١٠.
تصحح وضع الإنسان مع الله ومع العالم ١٣.
تضرم الروح ومواهبه فينا ٣١٠.
تعطي خلاصًا، وغفرانًا، وحياة أبدية لمن يتناول منها ٢٨، ٥١، ٩١، ٩٥، ٣٤٣، ٣٤٨، ٣٦٥.
تعلم البشر خدمة الله ٢٠.
تعمل كخميرة صغيرة، تخمر العالم كله وتقدسه ليصبح

قربانًا يقدم لله ١٥٨.
تغرسنا وتثبتنا في المحبة الإلهية ٣٩٧.
تمنح الإنسان فرصة لكي يمجد الله ٢٠.
تمنحنا شركة واتحادًا جسديًّا مع المسيح ٢٦.
في كل مرة نتناول فيها من جسد الرب ودمه، ننفصل عن الظلمة ونتحد بالنور ٢١٢.
فيها سكيب متبادل بين الله وشعبه، كتعبير عن حب حقيقي بين الله والإنسان ٤٢٠.
فيها نتحد بالمسيح الذي هو جدة الحياة، بل الحياة عينها ٣١٦ وما بعدها.
فيها نتذوق عربون الملكوت، والحياة الجديدة الأبدية، الزمان الجديد ٣١٦، ٣٥٦.
فيها نستطيع أن نرى المادة في حالة تَجَلٍّ أي أنها تعكس مجد الله ١٥٨.
فيها نصنع سلامًا مع بعضنا البعض، ونصلي لأجل سلام العالم ٢٤١.
فيها نمارس اعترافنا بالإيمان ١٣٢.
فيها يختار الإنسان الحياة ويرفض كل ما هو موت ٦٧.
لا ينجو المؤمن من هلاك الخطية، ولا تكون له حياة منه، ما لم يأكل جسد ابن الإنسان ويشرب دمه ٦٠، ٣٢١.
من خلال سري المعمودية والإفخارستيا ننتصر على الموت، ونخلع الفساد ٢٧١ وما بعدها.
من خلالها تسري فينا عصارة الحياة وعدم الفساد اللذان بهما نحيا ٢٦، ٣٩٧.
من خلالها ننال محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد وشركة وعطية الروح القدس ٢٣.
من خلالها يصير المؤمنين أقوى من رباطات الموت ٦٢.
من خلالها يمنحنا الله الإرادة والقوة لتفعيل وطاعة الوصايا ٣٢٦.
المواظبة على التناول تساعدنا على فهم كلمة الله ٣٣٠.
هي اختبار حقيقي في حياتنا لمعنى كلمة "عمانوئيل" ١٥، ٨٦ وما بعدها.
هي استحضار ذبيحة المسيح الأبدية بكل مفاعيلها في الزمان الحاضر ٢٧٧.
هي الذبيحة الحقيقية لخلاص نفوسنا ٣٠٧.

هي الذبيحة والسكيب الذي يلهب القلب حبًّا ٤٢٢.
هي العهد الجديد الأبدي ٣٦٥.
هي الفرصة التي فيها نقتني المسيح في داخلنا ٤١٣.
هي الوحيدة القادرة على أن تسد الجوع، وتروي الظمأ إلى الله ٤٠٦.
هي الوسيلة التي يمنحنا بها الله الحياة الأبدية ٣٥٠.
هي امتداد لحياة ووجود المسيح وعمله في الكنيسة ٢١١.
هي ترياق الحياة الذي به نقاوم كل مرض وضعف ٢٧١.
هي تقدمة البنين لأبيهم ٢١.
هي تقدمة سمائية، تقدم على مذبح سماوي، تشترك في خدمتها القوات السمائية ٣٦٠.
هي تقدمة متبادلة من الثالوث للإنسان، ومن الإنسان للثالوث ٢٤.
هي حركة مستمرة ومتجددة نحو الله ٣١١.
هي خدمة شفاعية مقدمة لأجل حياة العالم أجمع ١٦٠.
هي دواء الحياة الذي يقوينا في الحرب ضد الشيطان والخطية ٢٧١.
هي ذبيحة قيامة ومجد وأبدية، مثلما هي ذبيحة صليب وآلام ٣٧٧.
هي زاد المؤمن في رحلة العبور ٦١.
هي سر المسيح، الذي فيه يتحد العريس السماوي بالكنيسة ٤٠١.
هي شكر لله من أجل عطاياه، وبالأخص نعمتي الخلق والخلاص ١١.
هي عربون ملكوت الله الآب والابن والروح القدس ١٨٧ ، ٣١٦.
هي عطية من الله نقدمها له ٢٠.
هي فجر الأبدية والدهر الآتي ٣٥٦.
هي فصح العهد الجديد الذي نعبر به من الموت للحياة الأبدية ٦٢.
هي مائدة إلهية، ووليمة مقدسة تشبع الودعاء ٢٨٨ وما بعدها.
هي ينبوع حياة يعيدنا إلى الأصل أي المسيح ٣٢٤.

قانون الإيمان

ترديد قانون الإيمان صار شرطًا للاشتراك في الإفخارستيا ١١٩ وما بعدها.
هو دعوة لتحقيق مفهوم الكنيسة ١٢١.
هو دعوة لكي يكون لنا شركة مع الثالوث ١٢٠.
هو راية النصر والغلبة على الموت والخطية ١١٩.

وضعت الكنيسة قانون الإيمان دائما في صلواتها وعلى رأسها في الإفخارستيا ١١٧.
يعلن أن لنا الرجاء في قيامة الأموات ١٢١.

الكنيسة والإفخارستيا

الاجتماع الإفخارستي هو صورة الكنيسة وحالها منذ بدايتها ٧٨.
الإفخارستيا تجعل المسيح مركز حياة الكنيسة ٨٧.
الإفخارستيا تجمع الكنيسة حول أسقفها لتقديم المجد لله ٢٥٠.
الإفخارستيا تجمع وتوحد كل الكنيسة معًا: الأحياء والراقدين ١٧٠، ٢٥٦.
الإفخارستيا هي اجتماع ملء الكنيسة والاجتماع الرئيس لها ٧٧.
الإفخارستيا هي التحقيق الفعلي والسري لحضور المسيح الدائم في الكنيسة ٨٦.
الإفخارستيا هي المنبع والهدف لكل ما تفعله الكنيسة ٧٩.
الإفخارستيا هي الوسيلة التي توحد المؤمنين كيانيًّا بالمسيح الرأس ٨٠.
الإفخارستيا هي عصارة الكرمة التي تربط كل الأغصان ببعض وبالكرمة (المسيح) ٣٩٧.
بالإفخارستيا نثبت في الكرمة التي غرسنا فيها بالمعمودية والميرون وننمو فيها ٩٣.
سِرّا المعمودية والإفخارستيا يحويان سر المسيح، وسر الكنيسة التي خرجت من جنب المسيح ٩٠.
في الإفخارستيا نلتصق ببعضنا البعض كجسد واحد ٢٣٨.
في الإفخارستيا يدعو الله شعبه الحر ليجتمعوا معًا ككنيسة للاحتفال معًا بالذبيحة الإلهية ٧٥.
الكنيسة أمنا التي بعد أن تلد الشخص في سر المعمودية، تبدأ في إطعامه فورًا في سر الإفخارستيا ٢٨١.
الكنيسة تخصب العالم من خلال الإفخارستيا ١٦٠.
الكنيسة تدخل في كل إفخارستيا على مائدة المسيا في ملكوته ٣٦٣.
الكنيسة تقيم الإفخارستيا، والإفخارستيا تقيم الكنيسة ٨٠.
الكنيسة في الإفخارستيا تستحضر يوم الخلاص ٢٧٦.

الكنيسة في سر الإفخارستيا تذكر كل الذين رقدوا على الإيمان منذ آدم وكل القديسين إلى الآن ١٦٨.

الكنيسة في شخص المسيح تشفع في العالم أجمع ١٦٠.

الكنيسة لا ترفض العالم أو المادة بل تقدس كليهما بالإفخارستيا ١٥٧ ومابعدها.

الكنيسة لا يمكن أن تكتمل ولا يتحقق ملؤها بدون الإفخارستيا ٨٠.

الكنيسة هي جلعاد الحقيقية، والموضوعين على مذبحها هما الدواء ٢٧١.

الكنيسة يكتمل اجتماعها، وتكتمل هي نفسها حين يكون المسيح حاضرًا في الوسط على المذبح ٨٦ ومابعدها.

هيكل الإنسان

أتى المسيح ليجدد هيكل الإنسان، ويرده إلى صورته الأولى، بل وأفضل ٣٠٧.

حتى وإن مات الإنسان ستجدد "الهياكل" نفسها بالقيامة، وتصبح أجسادًا نورانية ممجدة ٣٠٧.

خلق الله الإنسان كهيكل، ولكنه فسد بفعل الخطية وتدنس، وفقد مجده الأول ٣٠٦.

الروح القدس هو الذي سيقيم هذا الهيكل ويجدده مرة ثانية ٣٠٩ وما بعدها.

عملية تجديد الهيكل تبدأ من المعمودية، وتستمر مدى الحياة ٣٠٩.

كل قداس نشترك فيه هو بمثابة عيد تجديد لنا ٣١٣.

يوم الأحد

اعتبروه الآباء اليوم الذي يحوي سر الفصح ٥٨.

حياة الإيمان التي تدعونا الكنيسة لنحيا فيها هي حياة تليق بفصح المسيح، بيوم الأحد ١٢٣.

صار بديلًا ليوم السبت، الذي كان في العهد القديم راحة لليهود ٢٠٩.

فيه تكون الصلاة بلا جلوس ولا ركوع، لأن القيامة تعني القيام إلى فوق ٥٨.

كان هو اليوم الرئيس الذي تقام فيه الإفخارستيا في العصر الرسولي ٥٨، ٢٠٩.

نقدم الشكر لله في يوم الأحد لتكون باكورة أعمالنا وصلواتنا في الأسبوع هي الشكر ١٨ ، ٥٨.
هذا اليوم الذي حول الله فيه الظلمة إلى النور ٢٠٩.
هذا اليوم يسمى يوم الرب ٥٨ وما بعدها.
هو الإعلان الدائم عن الحياة التي لا نهاية لها، الذي ينعش رجاء المسيحيين ويشجعهم في مسيرتهم ٥٨.
هو اليوم الأول والثامن، لكي تصبح حياتنا الأولى هي الحياة الأبدية ١٢٧.
هو اليوم الذي لا غروب له ٥٨.

إصدارات مركز باناريون للتراث الآبائي

يسعى مركز باناريون إلى تحقيق هدفه في نشر التراث الآبائي من خلال أربع سلاسل متمايزة تكمِّل كل منها الأخرى:

أولاً: النصوص المسيحية في العصور الأولى

تقدِّم هذه السلسلة النصوص المسيحية في القرون الأولى في شكل أكاديمي غني بالمقدمات والمقارنات والحواشي والفهارس. يصدرمنها:

١. الآباء الرسوليون	قيد المراجعة
٢. القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد	مايو ٢٠١٢
٣. القديس إيرينيوس ـ ضد الهرطقات	قيد المراجعة
٤. العلامة أوريجينوس ـ عظات على سفر التكوين وسفر الخروج	قيد المراجعة
٥. التاريخ الرهباني في أواخر القرن الرابع الميلادي	ديسمبر ٢٠١٣
٦. القديس يوحنا كاسيان ـ الأنظمة	قيد المراجعة
٧. القديس يوحنا كاسيان ـ المحاورات	قيد المراجعة
٨. الأنبا شنوده رئيس المتوحدين الجزء الأول	ديسمبر ٢٠٠٩

ثانيًا: دراسات عن المسيحية في العصور الأولى

وهي سلسلة تتضمن موضوعات تختص بالمسيحية في العصور الأولى في شكل دراسات "عرضية"، تناقش نفس الموضوع من عدة أوجه أو في عدة عصور، وتُقدَّم من خلال تقليد الكنيسة وتراثها الآبائي. صدر منها حتى الآن:

١. الإيمان بالثالوث (ت. ف. تورانس)	نوفمبر ٢٠٠٧
٢. مجمع خلقيدونية إعادة فحص (فِ. سي. صموئيل)	يوليو ٢٠٠٩

ثالثًا: دراسات عن آباء الكنيسة في العصور الأولى

وهي سلسلة تقدِّم دراسات عن آباء الكنيسة، حيث تتناول - بطريقة "طولية" - كل أب على حدة من خلال استعراض سيرته، والأحداث التاريخية والكنسيّة في عصره، كما تتناول أيضًا كتاباته، وتعاليمه اللاهوتية. يصدر منها:

١. علم الباترولوجي (كواستن) الجزء الأول	قيد المراجعة
٢. علم الباترولوجي (كواستن) الجزء الثاني	قيد الترجمة
٣. علم الباترولوجي (كواستن) الجزء الثالث	قيد الترجمة
٤. علم الباترولوجي (كواستن) الجزء الرابع	قيد الترجمة

رابعًا: الحياة الجديدة في المسيح

تهتم هذه السلسلة بالجانب الحياتي الإختباري للمسيحية، حيث ينبغي أن تتحول كل معرفة لاهوتية (نقدمها في السلاسل الثلاثة الأولى) إلى خبرة حياتية معاشة في المسيح (السلسلة الرابعة). لذلك تقدم هذه السلسلة التقليد الآبائي الشرقي الحي المُعاش داخل الكنيسة. يصدر منها:

١. الإفخارستيًّا سر الحياة (دكتور مارك شنوده)	نوفمبر ٢٠١٣